قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

297.44
F47a3h
v.3-5
c.1

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الثالث

الخلفاء الراشدون

رضوان الله عليهم أجمعين

[الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

Cat. 4 Mar. '53

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتى وعليه توكلى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد ، فلما كانت سير الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، شاملةً لما يحتاج إليه الناس فى حياتهم الدنيوية والأخروية ، لأنها حافلةً بالأمثال العالية ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة والمناقب الشريفة ، والأدلة المنيفة ، التى تهدى الخلق ، لاتباع الحق ، والسير على الصراط السوى

وكان من الواجب على كل مسلم اتباعها ، والأخذ بها ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ »

وقول الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مدحهم :

« شهدت بأن الله لاربٌ غيره وأشهد أن البعثَ حقٌ وأخلص »
« وأن عُرى الإيمان قول مبين وفعل زكى قد يزيد وينقص »
« وأن (أبا بكر) خليفة ربه وكان (أبو حفص) على الخير يحرص »
« وأشهد ربى أن (عثمان) فاضل وأن (علياً) فضله متخصص »
« أئمة قوم يهتدى بهداهم لحى الله من إياهم يتنقص »

لما كانت كذلك ، أردت أن أشرح فى الجزء الثالث من كتابى أحسن القصص ، خلاصة سير الخلفاء الراشدين ومناقبهم وأعمالهم ، وما جاء من الأحاديث النبوية وغيرها فى فضائلهم ، ومحاسنهم ، وشذرات من كلامهم ، ومواعظهم ، وخطبهم ، ووصاياهم ، لتكون نبراساً لهداية أبناء الأمة المصرية إلى الطريق المستقيم الذى يوصلهم إلى النجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة

والله تعالى أسأل أن يوفقنى وإياهم لاتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم ، وأن يلحقنا بهم فى الدار الآخرة ، وأن يحشرنا فى زمرتهم ، إنه السميع المجيب ؟

مصر الجديدة فى يوم الجمعة
٢٠ المحرم سنة ١٣٥٣
٤ مايو سنة ١٩٣٤

السيد على فكرى
ابن المرحوم
السيد محمد عبد الله الحكيم

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين (سيدنا محمد) وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين و بعد ـ فقد جاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخلفاء الراشدون) رضوان الله عليهم أجمعين وهم : (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى) الذين أقاموا صرح الدين وشيدوا بنيانه على أساس متين ، وقاموا بتنفيذ أحكامه ، وأعلامه ، وتثبيت قواعده وأركانه ، وأحاطوه بسياج الفضائل ومكارم الأخلاق ، فى جميع الآفاق ليكون للناس دعامة يرتكزون عليها وعلماً يرفعونه للدلالة على الهدى ونور الإسلام ، فكان لهم الفضل كل الفضل فى إظهار هذا الدين الحنيف وتفضيله على سائر الأديان فى كل زمان ومكان ، وعملوا جهدهم فى المحافظة عليه سليماً طاهراً نقياً بعيداً عن الشبهات ، و إرشاد المسلمين للعمل به ، والحصول على قواعده وفوائده ، للوصول إلى السعادة فى الدارين ، جزاهم الله على ذلك أحسن الجزاء فى دار النعيم والخلود .

وهم الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقهم :

« اللهم ارحم خلفائى . قلنا ومن خلفاؤك يارسول الله ؟ قال : خلفائى الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى و يعلمونها الناس »

وقد أضفت إليهم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لأن فى أعماله وخصاله ما يجعله فى زمرة الخلفاء .

هذا وقد نفدت (ولله الحمد) الطبعة الأولى من هذا الجزء الثالث الخاص بهم من كتابنا أحسن القصص وسيعاد طبعه (إن شاء الله تعالى) للمرة الثانية بمطبعة إحياء دار الكتب العربية لأصحابها (عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر) متوسلين إلى الله عز وجل أن يجعله مقبولاً وأن يزيد فى انتشاره لينتفع الناس بما فيه من الحكم والمواعظ والأمثال والآيات البينات والأعمال الصالحات فيقتدون بالسادة الخلفاء و يسيرون على منهاجهم فيفوزون بالرضا وحسن القبول و بلوغ غاية المأمول .

والله تعالى أسأل التوفيق لما فيه هدايتهم و إصلاحهم إنه لما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، و إليه المرجع والمصير ؟

السيد

على فكرى

العباسية فى أول جمادى الثانية سنة ١٣٦٩ — ابن المرحوم السيد محمد عبد الله

٢٠ مارس سنة ١٩٥٠ — الحكيم

١ - أبو بكر الصديق رضى الله عنه

نسبه — هو أبو بكر عبد الله . بن أبى قحافة عثمان بن عامر . بن عمرو ابن كعب . بن سعد . بن تيم . بن مرّة . بن كعب . بن لؤى . بن غالب . بن فهر التيمى القرشى ، ويجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مرّة بن كعب

وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو . بن كعب . بن سعد . ابن تيم . بن مرّة . وهى بنت عم أبى قحافة

فهو قرشى ، من أبوين قرشيّين

اسمه ولقبه فى الجاهلية ـ كان اسمه (عبد الكعبة) فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (عبد الله) ولقّب (عتيقاً) لأن النبى صلى الله عليه وسلم نظر اليه فقال : هذا عتيق من النار ، وفى رواية أخرى :

« من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبى بكر »

وفى حديث عن عائشة رضى الله عنها : أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

(يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار) فمن يومئذ سمى عتيقاً

وهناك أحاديث أخرى فى ذلك

وكان يلقب فى الجاهلية (بالصديق) لما عرف عنه من الصدق ، وقيل : لمبادرته الى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يخبر به

وفى حديث عن على بن أبى طالب أنه لما سُئل عن أبى بكر قال : ذاك امرؤ سمَّاه الله الصديقَ على لسان جبريل ، وعلى لسان محمد ، كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا

وفى حديث آخر : أن عليًا قال على المنبر : ان الله سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقاً

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على تلقيبه (بالصديق) لأنه أول من بادر إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يخبر به ، ولازم الصدق طول حياته ، فلم تقع منه هنات فى الأفعال ، ولا وقفة حال من الأحوال ، وكانت له المواقف الشريفة العالية فى نشر الدعوة ، ورفع علم الإسلام

مولده — ولد رضى الله عنه لسنتين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهر بمكة أى قبل البعثة بنحو ٣٨ سنة فهو أصغر من النبى عليه الصلاة والسلام بسنتين وأشهر ، كما ثبت ذلك فى التاريخ

نشأته ومجمل صفاته

نشأ رضى الله عنه كما ينشأ أبناء كرام العرب ، متشبعًا بالحرية ، وعزة النفس ، عفيفًا ، عالى الهمة ، وشبَّ على الأخلاق الفاضلة ، والسير الكريمة العالية لم يسجد لصنم قط

ومما يدل على ذلك ، وعلى رجاحة عقله ، وعدم استعداده لقبول خرافات الجاهلية ، ما حدث منه وهو صغير ، حينما أخذه والده الى معبد فيه أصنام وقال له : اسجد لآلهتك الشم العوالى

فدنا من الصنم وقال له : إنى جائع فأطعمنى . فلم يجبه

ثم دنا منه وقال له : إنى عطشان فاسقنى . فلم يجبه

ثم قال له : إنى عارٍ فاكسنى . فلم يجبه

فأخذ صخرةً وقال : إنى ملق عليك هذه الصخرة ، فإن كنتَ إلهًا فامنع عن نفسك ، فلم يجبه ، فألقى الصخرة عليه ، فخر لوجهه

وقد نزل القرآن بما يقرر ذلك ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام

وكان عفيف النفس ، فلم يشرب فى الجاهلية خمراً مطلقاً

وفى حديث عن ابن عساكر عن أبى العالية الرياحى قال : قيل لأبى بكر الصديق فى مجمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هل شربت الخمر فى الجاهلية ؟ فقال : أعوذ بالله ؛ فقيل : ولِمَ ؟ قال : كنت أصون عِرضى ، وأحفظ مُروءتى ، فإن مَن شرب الخمر كان مضيعاً فى عِرضه ومُروءته ، قال : فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر

ولما صلب عوده ، واشتد ساعده ، اشتغل بالتجارة كأكثر قريش ، وأخص ما كان يتجر فيه (البزازه) بيع الثياب ، فكسب ثقة العرب بأمانته ، ولين طباعه ودماثة أخلاقه ، فأحبّوه وخضعوا لرأيه ، واطمأنت نفوسهم اليه ، وأحلوه المقام الرفيع بينهم

وكان أعلم الناس بأنساب العرب ، خبيراً بأحوالهم وسياستهم ، فأثرى وأضحى ذا مال وفير ؛ ولكن لم يطغه ذلك المال . إذ كان بالناس رحيماً ، وعلى الفقراء والمساكين شفيقاً ، يصل الرحم ، ويصدق الحديث ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر ، ويقرى الضيف

إسلامه

لما شرف الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة كان أبو بكر أول رجل أجابه للإسلام حتى قال عليه السلام : (ما دعوت أحداً الى

الإسلام إلاَّ كانت له كبوة غير أبي بكر)

وقيل : أسلم أبو بكر وعمره سبع وثلاثون سنة وقيل : ثمان وثلاثون ، وعاش فى الإسلام ستا وعشرين سنة

وفى حديث عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كلمت فى الإسلام أحداً إلا أبى علىّ وراجعنى الكلام إلاَّ (ابن أبى قحافة) فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله ، واستقام عليه

وفى حديث آخر عن البخارى عن أبى الدرداء قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ إنى قلت : أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت

ولما سُئل ابن عباس : أى الناس كان أول إسلاماً ؟ قال : أبو بكر الصديق ، ألم تسمع قول حسان حيث يقول :

« إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك (أبا بكر) بما فعلا »

« خير البرية أتقاها وأعدلها إلاَّ النبىّ وأوفاها بما حملا »

« والثانى التالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا »

وقال ابن عساكر عن على بن أبى طالب رضى الله عنهما أنه قال : لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تفانى فى تأييد الإسلام بجاهه ، وماله ، وحسن أدبه ، وحسن معاملته ، واستمالة الناس إليه

فكان يجتمع إليه كرام قومه ، فيدعو من يثق به منهم إلى الإسلام ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وفى مقدمتهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ، ثم فشا وتما الإسلام بعد ذلك

ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان أبو بكر يشترى من ماله الموالى المعذبين على الإسلام ، لانقاذهم من الآلام فيعتقهم ، ابتغاء وجه الله ، شفقةً منه ، ورحمةً بهم ، ليخلصهم من أيدى سادتهم الذين كانو يقسون عليهم لإسلامهم ؛ ومن هؤلاء الموالى (بلال بن رباح) مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم (وعامر بن فهيرة) وغيرهما

وفيه وفى بلال يقول عمر رضى الله عنه : إن أبا بكر سيدنا وقد أعتق سيدنا

أخرج ابن جرير بن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال أبوه : أى بنىّ أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك و يمنعونك و يدفعون عنك

قال : أى أبت ، أنا أريد ما عند الله

وقال المرحوم عبد الحليم أفندى المصرى الشاعر فى قصيدته البكرية :

« أريتَ بِلالاً والسياطُ كأنها مدالع نارٍ تترك الماء ذاكيا »

« وإيمانه تحتَ المنية راسخ إذا زحمته لم تَزِلْ منه راسيا »
« فلما أفاضَ النفس إلاَّ صُبَابة إذا مارآها الموتُ لم يدر ماهيا »
« أطلت عليه رحمة من يدٍ ترى البرق فى ديباجة الغيث وانيا »
« رأى نورَ عيش فى ظلام منية يلوحُ (أبو بكر) به مُتهاديا »
« تعرضَ ما بينَ الحِمام وبينه وكان له فى الله بالمال فاديا »
« كريمٌ يرى مافى يدالناس فانياً وليسَ يرى مافى يدِ الله فانيا »

صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم

صحب أبو بكر النبى صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلى حين توفى ، لم يفارقه سفراً ولا حضراً ، إلا فيما أذن له فى الخروج فيه من حج وغزو وكفاه فخراً أنه حاز شرف الصحبة فى الغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم لقوله تعالى :

﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ التوبة

وقد دخل الغار قبله ، ليزيل مابه من سوء ، وأقام معه ثلاثة أيام وعينه من أجله لا تنام ؛ وكان مخلصاً لرسول الله صلى عليه وسلم يفديه بنفسه وماله ، وترك أمواله وأولاده وهاجر معه إلى المدينة ، وأعد الزاد والراحلة ، ثم أقام فى المدينة يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويؤيده ، وزوّجه ابنته أم المؤمنين السيدة (عائشة) رضى الله عنها وعمرها تسع سنوات ، وشهد معه المشاهد كلها ، وكان يحمل رايته العظمى فى آخر غزواته وهى (غزوة تبوك) ويدافع عنه ، ويقف فى وجه الأعداء دونه

محبة الرسول له وتعظيمه

كان أبو بكر أحب رفيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال فى تعظيمه النبى عليه الصلاة والسلام : « ما أحد عندى أعظم من أبى بكر واسانى بنفسه وماله ، وزوّجنى ابنته ، وصحبنى فى الغار ، ولو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ؛ ولكن أخوة الإسلام »

وقال صلى الله عليه وسلم : لا طلعت الشمس ، ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر ، إلاّ أن يكون نبى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : هل قلتَ فى أبى بكر شيئاً ؟ قال : نعم . فقال : قل ، وأنا أسمع . فقال :

« والثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبلا »
« وكان حِبّ رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا »

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : صدقت يا حسان ، هو كما قلت

وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه فى آخر صلاة صلاها فى المسجد :

« إن من أمَنِّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ؛ ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولـكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين باب إلاَّ سُد ، إلا باب أبى بكر »

وفى رواية أخرى : لا يبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر

خلافته

لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض الموت استخلفه على الناس فى إمامة الصلاة ، وهى الإمامة الـكبرى ، وقال فليُصل أبو بـكر بالناس وفى هذا أعظم إشـارة لاستحقاقه الخـلافة من بعـده ، وهذا من أهم الأسباب فى توليته الخلافة

والأحاديث الواردة فى خلافته كثيرة فلنذ كرمنها ما يأتى :

أخرج ابن عساكر عن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال : جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم تسأله شيئاً ؟ فقال لهـا : تعودين فقالت : يا رسول الله إن عدتُ فلم أجدك . فقال : إن جئتِ فلم تجدينى فأت أبا بكر ، فإنه الخليفة من بعدى

وأخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها سُئلت : مَن كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلف ؟ قالت : أبو بـكر . قيل

لها : ثم مَن بعد أبي بكر ؟ قالت عمر . قيل لها : مَن بعد عمر ؟ قالت : أبو عبيدة بن الجراح

وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : مرض النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال : (مُروا أبا بكر فليصل بالناس) فقالت عائشة : يارسول الله إنه رجل رقيق القلب ، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ؛ فقال : مُرى أبا بكر فليصل بالناس ؛ فعادت ، فقال : مُرى أبا بكر فليصل بالناس ، فانكن صواحب يوسف ، فصلى بالناس في حياة رسول الله عليه وسلم

وفي ذلك يقول الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري :

« وَمَا بعدُ ما قالَ النبي لزوجه وأعضاؤهُ ينصتنَ للموتِ دابيا[1] »
« مُريه يقُم بالمسلمين مُصلياً فإن كنتُ فيهم أولاً كان ثانيا »
« فقالت أبو بكر رقيقٌ فؤاده إذا قام بينَ الناس هاجَ البواكيا »
« فقال أتأباه صواحب يوسفٍ وغيرَ أبي بكر أرى الله آبيا »
« ولم يدَّكر في قبضة الموت غيرَه طبيباً لأدواء الإمامَة شافيا »

وفي حديث ابن عمر : كبَّر عمر ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيره ، فاطلع رأسه مغضباً ، فقال : أين أبو فحافة ؟

قال العلماء : في هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة

---

(١) ماشياً رويداً

على الإطلاق ، وأحقهم بالخلافة ، وأولاهم بالإمامة

وأخرج البيهقى عن الزعفرانى قال : سمعت الشافعى يقول : أجمع الناس على خلافة أبى بكر الصديق ، وذلك أنه اضطر الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبى بكر ، فولوه رقابهم فهو شيخ المسلمين حقاً ، وأول الخلفاء الراشدين صدقاً ، وخليفة رسول رب العالمين بالإجماع

مبايعته بالخلافة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائباً فى أهله بالسنُح [1] فلما أتاه نعيه أقبل على الناس ، فوجدهم فى اختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم المصدق ، ومنهم المكذب ، وهاجوا واضطربوا ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكشف عن وجهه وقبّله ، وقال :

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، قد ذقت الموتة التى كتبها الله عليك ، ولن يصيبك بعدها موتة أبداً

ثم خرج إلى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان

(١) هى منازل بالعوالى بينها وبين المسجد النبوى ميل

يعبد الله فإن الله حى لايموت ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران

وفى ذلك يقول الشاعر المذكور :

« فلما استبان الموتَ حيًّا بأبلج مُسجًّى من الاشراق يحسَبُ صَاحِيَا »

« أهابَ بهم ياقومُ مات محمد وألقى على شطّ الخلود المراسيا »

« فمن ظنّه ربًّا فقد مات ربُّهُ وإلاَّ فإن الله مازال باقيا »

« وعاد وجُرح الجاهليه سائلٌ على جانب الإسلام أحمرَ قانيا »

فكان أبو بكر فى هـــذا الموقف الحرج أجلد الناس لفراقه صلى الله عليه وسلم ، وأربطهم جأشاً ، وأقواهم عزيمةً ، وأشدهم بأسا ، فصار قدوةً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تخفيف جزعهم وحزنهم

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتجهيزه جاء مخبِّر فأخبرهم باجتماع الأنصار فى (سقيفة بنى ساعدة) بقصد المفاوضة فى شأن الخلافة ، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر ، وجماعة من المهاجرين ليتداركوا الأمر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الأنصار ، وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون (سعد بن عبادة) فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم ، وغلبوهم عليه ، ووقع بينهم وبين الأنصار كلام كثير ، حتى قال بعض الأنصار

(منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش) وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات

فقال عمر لأبى بكر: ابسط يدك؛ فبسط يده فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم الأنصار، ثم كانت البيعة العامة؛ وتخلف عن بيعته على وطلحة، والزبير، وبنو هاشم، لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة إليهم وعدم صرفها عنهم

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس إلى البيعة لأبى بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من (أن الخلافة غير النبوة) وأن أبا بكر أحق الناس بها، بعد أن أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة بالمسلمين فى حال مرضه، أقبلوا على بيعته، وبايعه على رضى الله عنه بعد أيام على الأرجح

وأخرج ابن عساكر عن على أنه قال: لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس، وانى شاهد وما أنا بغائب، ومابى مرض، فرضينا لدنيانا مارضى به النبى صلى الله عليه وسلم لديننا

وأخرج النسائى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال:

لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنصار: (منا أمير ومنكم أمير) فأتاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يامعشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر

أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟

فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر

وأخرج موسى بن عقبة والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف قال : خطب أبو بكر فقال :

« والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ، ولا ليلةً قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألتها الله فى سرٍّ ولا علانية ؛ ولكنى أشفقت من الفتنة ، ومالى فى الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمراً عظيماً ، ومالى به من طاقة ، ولا يد إلاَّ بتقوية الله »

فقال على والزبير : « ما غضبنا إلاَّ لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها . إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حىٌّ »

وقال ابن اسحٰق فى السيرة : حدثنى الزهرى قال : حدثنى أنس بن مالك قال : لما بويع أبو بكر فى السقيفة ، وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله قد جمع أمركم على خيّركم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه

فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى ، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »

هذا كلام يمثل معنى الرياسة العامة فى الإسلام ، تمثيلاً تستكين أمامه القلوب التى أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول إلى نتائجه أعناق زعماء الحرية فى كل أمة وجيل

كلام صدر عن أول خليفة فى الإسلام ، يبشر الأمم بنزع أغلال الذل والاستعباد من أعناقهم ، وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة فى الإسلام ، ويسجل الشقاء على من يسامح بها من المسلمين كما قال المرحوم رفيق بك العظم فى كتابه (أشهر مشاهير الإسلام)

ولقد أظهر أبو بكر الحزم والعزم فى خلافته ، وجمع كلمة المسلمين ، واشتد فى انفاذ ما كان يريده صلى الله عليه وسلم من فتح ممالك كسرى وقيصر

وفى ذلك يقول الشاعر السالف الذكر :

« نَهضتَ بأمرِ الناس والدينُ لم يزل ... رضيعاً بأطراف الجزيرة حانيا »

« فلولاكَ عُلّتَ الأمرَ بعدَ محمد ... لهدُّوا مِنَ الإسلام ما كان بانيا »

« وأوشكَ جيشُ الشام يطوى لواءهُ ... ويصدفُ عمّا كان لله ناويا »

« وقال رجال للخلفية : لُذ بهِ ... إلى السِّلم وارفأ بالرجال الحواشيا »

« فقل : وأيمُ اللهِ لو أنَّ أذؤبا ... تخطَّفنَ لحمى أو حَسَونَ دمائيا »

« لَمَا كنتُ عن رأى النبى بعادلٍ ... ولوأننى وحدِى خرجتُ مغازيا »

« أكفُّ ابن عبد اللهِ تعقدُ رايةً ... وكفُّ أبى بكر تحلُّ الأواخيا »

« فقالوا : وطبعُ الجاهلية لم يزل ... يرى الجاهَ إلا بالحسابة واهيا »

« ذرُوا عمراً يفضى إليه بأمرنا ... فإنا أبينا أن نطيع الموالياً »

« فشُقَّ رِداء عن أسامة راكباً ... يشيِّعهُ فيه الخليفة ماشيا »

« أتمشى أبا بكر ، وإنك إن تشر
لطاولت الأعناق فيك المذاكيا [1] »

« رضيتَ بها فى الله لا فى أسامةٍ ... لتخضع بالإحسان من كان عاصيا »

إلى أن قال :

« وقفت أمام الجيش ترفد [2] أسَّهُ ... وتضرم فى تلك العواطف خابيا »

« تقول لهم لا تحملوا غير زادكم ... ولا تفسدوا عذباً من الماء جاريا »

---

(١) الخيل (٢) رفد الجدار (دعمه)

« ولا تُهلِكوا زرعاً ولا تَهتكوا حِمىً ولا تَستبيحُوا نسوةً أو ذرارياً »
« ولا تُحرقوا باللائذين كنائساً ولا تَهدِموا باللاجئين مغانيا »
« ولا تُرهقوا الأسرى فربَّ محارب إلى الحرب يسعى مُكرَهاً لا مُعادِيا »

إلى أن قال :

« وقالوا نرى الأخطار تُحدِق بعدنَا بمن ظلَّ فى جوف المدينةِ ثاويا [1] »
« فما كنتَ فى رأى النبى معارضاً ولا كنتَ بالأخطار فيه مباليا »
« ثباتٌ إذا ما الحادثات تجردت سيوفاً على جنبيه رُدت نوابيا »
« ورأىٌ إذا لاحت ثواقب شهبه
أضاءت له ما كان فى الغيب داجِيَا [2] »

رأى عمر فى أبى بكر

لما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى ، فكَّر الصحابه فيمن يلى أمور الناس ، وكانوا يزهدون فى الولاية — ويعرضون عنها إعراضاً .

فقال عُمر لأبى بكر رضى الله عنهما : أنت أحق الناس بالخلافه وأولاهم بالولاية لأنك أفضلهم .

فأجاب أبو بكر ، أنت أحق بها يا عُمر لأنك أقواهم

فقال عمر : إن قوتى لك مع فضلك يا أبا بكر

---

(١) ثاويا (قائما) (٢) داجيا (مظلماً)

أول أعماله بعد الخلافة

وما أثره على الإسلام والمسلمين

١ — تسيير جيش أسامة

أول عمل بدأ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعد توليته الخلافة تسيير جيش (أسامة بن زيد) الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم جهزه قبل مرض الموت لغزو أطراف بلاد الروم ، ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات فى بلاد العرب ، عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد طلب بعض كبار الأنصار ، على لسان عمر بن الخطاب ، من أبى بكر أن يولى إمارة الجيش رجلاً أسنَّ من أسامة ؛ لأن عمرَه كان وقتئذ ١٧ سنة فغضب أبو بكر ، حتى قام ، وقعد ، وقال :

« يا عمر استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرنى أن أعزله »

ثم خرج رضى الله عنه ، وشيع الجيش بنفسه ماشياً ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبنَّ أو لأنزلنَّ ، فقال : والله لا نزلتَ ولا ركبتُ ، وما علىَّ أن أغبر قدمى ساعةً فى سبيل الله ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة

سيئة تمحى عنه ، ثم وصّاه هو وأصحابه فقال :

« لاتخونوا ، ولاتغدروا ، ولاتغلوا ، ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا طفلاً ،ولاشيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتذبحوا شاةً ولابقرةً ولابعيراً ، إلااللأكل » إلى آخرماجاء بوصيته المذكورة فى كتاب (اتمام الوفاء للمرحوم الشيخ الخضرى)

فذهب الجيش وغزا أطراف الشام ، ورجع إلى المدينة ظافراً غانماً بعد أن غاب عنها أربعين يوماً

وكان انفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه فعظم شأن أبى بكر عند الله ، وعلموا أن مخالفة البعض له فى أمر هذه الغزوة لم تكن من الحكمة .

٢ ـ حرب أهل الردة

ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنى الإسلام بمصيبة عظمى لو لم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لضعف الدين ، وتشتت شمل المسلمين ، فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ارتدت ، ولم يبق أحد متمسكاً بدينه إلا قريشاً بمكة وثقيفاً بالطائف ، وقليلاً من غيرهم ، وقد ادعى بعض العرب النبوة ، ومنهم

رجل من أهل نجد اسمه (مُسيلَمة الكذاب) الذى تزوج بامرأة ادعت النبوة أيضا اسمها (سجاح) فأرسل إليهما الصديق خالد بن الوليد وحاربهما حرباً شديدة فى بلاد اليمامة فقتل مُسيلمة

ومنع البعض الآخر الزكاة ، وهى من أهم أركان الإسلام وموارده ، فوقف أبو بكر بين المسلمين وقفة الحازم القوى ، ودعاهم لقتال المرتدين ، وإعادتهم إلي حظيرة الإسلام ، وتأدية الزكاة على قلة من بقى مخلصاً لله من المسلمين وهم أهل المدينة ، ومكة ، والطائف ، فأشار عليه بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب وعلىّ رضى الله عنهما ألاَّ يهيج العرب ، ويجمعهم على عداوته لقلة عدد المخلصين ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم على منعه

وقال عمر : فوالله ماهو إلا أن رأيت ، أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق (رواه البخارى)

وكان رأى أبى بكر هو أصوب الآراء فى هذه الكارثة ، وسير الجيش مستعيناً بماله ، وكان أربعين ألف دينار أنفقها فى تجهيزه واثقاً بوعده سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد

فأيده الله بالنصر المبين ، ورجع المرتدون إلى الإسلام خاضعين

نادمين ، ولو لم يفعل ذلك لعظم خطبهم واستفحل ضررهم ، وكانوا مثلاً سيئاً لغيرهم ، وقد اعترف له عمر بأصالة الرأى ، وبعد النظر

وقال الشاعر المصرى فى حرب أهل الردة :

وظنُّوا زكاة المالِ صارت إتاوةً ... فلم يرفدوا (١) فى طاعةِ اللهِ جابيَا
أحالَ أبو بكر على الصبر مَرَّة ... وأنذرَهم أُخرى فزادُوا تمادِيا
فأوسعَ للشُّورَى صدور رجالهِ ... وما أروعَ الإسلامَ فيها مجاليا
سَوَاسِيَةٌ لايعرفون خليفةً ... ولايتَّقى المولى على الحقِّ واليَا
فبينَا يَرون السِّلمَ أشفى لُجرحِهم ... ويجتنبون الحربَ منها تفَاديا
وخَوفاً على الجيش الذى لم يطر له ... هَزار ولم تسمع لهُ الروم شَاديا
عَرَتْ عُمراً من سَطوة الحقِّ رعدةٌ ... فقام بانفاذِ الجيوش منَاديا
وقال : رأى الصديق فى الأمر ردَّةً ... وكنتُ أرى الصدِّيقَ فى الأمر غاليا
فمذ شَرَح الإيمانُ للحرب صدرهُ ... تيَقَّنْتُ أن الحقَّ ما كان رائيَا

٣ — غزواته وفتحه لبعض الممالك

لما رأى أبو بكر رضى الله عنه أن الفرصة قد حانت لتحقيق بشارة النبى صلى الله عليه وسلم بفتح الممالك ، جمع أربعين ألف مقاتل ممن لم يدخل قلبه الرِّدة ، وكان أكثرهم من قريش وثقيف ، وبعث بعضهم لغزو الفرس ، وبعضهم

(١) رفده (أعطاه مالا)

لغزو الروم ، ففتح الله على الأولين أكثر نواحى العراق ، وعلى الآخرين مشارق الشام وفلسطين ، حيث وقع بينهم و بين الفرس والروم من الوقائع ما لم يفلحوا بعدها فى موقعة مع المسلمين

وهزم المسلمون الروم فى واقعة تسمى واقعة (اليرموك [1]) وهى من أعظم الوقائع الإسلامية ؛ ثم فتحوا مدناً كثيرة غنموا منها أموالاً عظيمة

و بذلك ظهر الإسلام ظهوراً بيّناً ، ووقع الرعب فى قلوب أعدائه ، وخافوا خوفاً كبيراً .

فعل أبو بكر كل ذلك فى أقل من ثمانية وعشرين شهراً ، فكان بذلك المجدد لدين الله، والمؤسس العظيم لدولة الإسلام

هذا و إن غزواته ، وفتوحاته، مذكورة بالتفصيل فى (كتاب أشهر مشاهير الإسلام للمرحوم رفيق بك العظم) وفى كتاب (إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء للمرحوم الشيخ محمد الخضرى) وفى غيرهما من كتب التاريخ، فليطلع عليها الراغب فى الزيادة والاستفادة .

٤ — جمعه للقرآن الكريم

لما استشهد فى تلك الوقائع كثير من حفظة القرآن الكريم أشار سيدنا عُمر بن الخطاب على أبى بكر بجمعه ، فجمعه فى صحائف من صدور الرجال والجلود والعظام

(١) اليرموك — واد فى الجنوب الشرقى من الشام

فكان عنده مدة حياته ، ثم عند سيدنا عُمر ، ثم عند حفصة بنت عمر زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبذلك خدم الإسلام والمسلمين خدمة عظيمةً تذكر فتشكر ، وكان له بذلك ذكراً باقياً ، وأثراً خالداً

وعن على رضى الله عنه أنه قال : أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين .

٥ — أولياته

إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أول من أسلم ، وأول من جمع القرآن وأول من سمّاه مصحفاً ، وأول من سُمى خليفة ، وأول من ولى الخلافة وأبوه حىّ ، وأول خليفة فرض له رعيته العطاء ، وأول من اتخذ بيت المال

مناقب أبى بكر الصديق

١ ـ أدبه

مثال من أدب أبى بكر فى حضرة الرسول ﷺ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فى المسجد وحوله أصحابه فجاء سيدنا على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوقف وسلّم عليهم ، ثم نظر مكاناً يجلس فيه ، يكون لائقاً به ، وموافقاً لقدره ، فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فى وجوه الجالسين ، يريد بذلك أن يعرف مَن الذى يوسع له مكاناً ؟ وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه جالساً عن يمين النبى صلى الله عليه وسلم فتزحزح له عن مجلسه وقال له :

هاهُنا يا أبا الحسن ، فجلس سيدنا على بين النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر

قال أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت السرور فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أبى بكر . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل

٢ـ شجاعته

قال على رضى الله عنه : أخبرونى مَن أشجعُ الناس ؟ فقالوا : أنت . قال : أما أنا ما بارزت أحداً إلَّا انتصفت منه ؛ ولـكن أخبرونى بأشجع الناس ؟ . قالوا : لا نعلم ، فمَن ؟ قال ؟ أبو بكر ، إنه كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً فقلنا : مَن يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلَّا أبا بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى إليه أحد إلا هوى إليه ، فهو أشجع الناس

وقال الشاعر المصرى فى شجاعته يوم بدر :

ولمَّـا أراد الله نصرةَ دينـه ... ببدرٍ رأى الصدِّيق للدين واليَا[1]

وَقفتَ على باب العريش وطيئُهُ ... سنًى لم يزل فى موطن السرّ فاشيا

اذا ما اشرأبت هامة من مُفاضة[2] ... رأتك عليها بالمنيَّة هاويا

وطاروا بأسباب القتال كأنهم ... فراخُ حمام صادفت منك بازيا

تردُّ عيونَ السَّاهمينَ حَسيرةً ... وتدفعُ من نَقع المنيـة هَابيا

وإنَّ علياً قالهـا فيك قولةً ... يُحلَّى بها الأمثال من كانَ رَاويا

إذا ذُكِرَ الصدِّيق فى بَدرَ صَدَّنى ... حياءُ منهُ أن أسُلَّ حُسامِيا

---

(١) نصرا (٢) الدروع الواسعة

قال على رضى الله عنه : ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخذته قريش ، فهذا يجبأه [١] وهذا يتلتله [٢] وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحداً ؟ قال : فوالله مادنا منا أحد إلاَّ أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ، ويتلتل هذا (أى هذا يدفعه وهذا يسوقه) وهو يقول : ويلكم ! أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم رفع عَلِىٌّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم . فقال : ألا تجيبونى ؟ فو الله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه

وأخرج البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن أشد ماصنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : رأيت (عقبة بن أبى معيط) جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه به خنقاً شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال :

« أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ »

فهو حقاً أشجع الناس

---

(١) جبأه (دفعه) (٢) تلتله (زعزعه وأقلقه)

٣ — علمه وتقواه

كان رضى الله عنه عالماً ؛ بل وأعلم الصحابة وأذكاهم ، والدليل على عظم علمه قوله :

«والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه»

وقال ابن كثير : كان الصديق رضى الله عنه أقرأ الصحابة ، أى أعلمهم بالقرآن ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه إماما للصلاة بالصحابة مع قوله : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره

وكان رضى الله عنه أعلمهم بالسنة ، وكيف لا يكون كذلك وقد واظب على صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من يوم البعثة الى الوفاة ، وهو مع ذلك من أذكى عباد الله وأعقلهم ، وإنما لم يروعنه من الأحاديث المسندة إلا القليل لقصر مدته ، وسرعة وفاته بعد النبى صلى الله عليه وسلم

٤ — قضاؤه وعدله فى رعيته

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا ورد عليه الخصوم نظر فى

كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وإن لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنة قضى به ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم ، فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به وهذا منتهى النظر ، والبدل فى القضاء

٥ — مثال من حلمه وسلامة قلبه

أخرج البخارى عن أبى الدرداء قال : كنت جالساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر فسلم وقال : انه كان بينى وبين عمر ابن الخطاب شىء فأسرعت اليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لى فأبى علىّ فأقبلت اليك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يغفر الله لك يا أبا بكر (قالها ثلاثاً)

ثم إن عمر ندم ، فأتى منزل أبى بكر فلم يجده ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل وجهه النبى صلى الله عليه وسلم يتمعر (يتغير غيظاً) حتى

أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، فقال : يارسول الله ، والله أنا كنت أظلم منه مرتين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى اليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ (قالها مرتين) فما أوذى بعدها

مثال آخر من حلمه

جاء الحسن بن على الى أبى بكر الصديق وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انزل عن مجلس أبى . فقال : صدقت : إنه مجلس أبيك ، وأجلسه فى حجره وبكى . فقال على : والله ماهذا عن أمرى . فقال : صدقت ، والله ما اتهمك

٦ - مثال من تواضعه

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يحلب للقوم أغنامهم ، وكانت أملاك العرب معظمها من الغنم والإبل ، وكان ذلك فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم

ولما مات عليه الصلاة والسلام ، وصار أبو بكر خليفة المسلمين يتولى أمرهم ، قالت جارية من الحى : الآن من يحلب لنا الغنم ؟ تريد أن تقول : إنه أصبح أبو بكر عظيماً وأكبر من أن يقوم بحلب الغنم لقومه

وقد صادف أنه سمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال لها : لأحلبنها لكم ، وأرجو الله ألاَّ يغيرنى مادخلت فيه من الخلافة عن خلق كنت فيه ؛ فكان رحمه الله يحلب لهم بعد ذلك

فما ذكر تعلمون أن سيدنا أبا بكر الصديق ، مع كونه كان خليفة للمسلمين ، وأعظم رجل فيهم ، كان يحلب الغنم لجيرانه وقومه

وفى هذا أكبر دليل على تواضعه ، وعدم تعاظمه وتكبره ؛ فهكذا تكون الأخلاق الشريفة الكريمة

وقيل : سُئل بعض التابعين : هل رأيت أبا بكر ؟ قال : نعم ، رأيت ملكاً فى زى مسكين

٧ - تأديبه لنفسه

حُسن اعتذاره

أخرج أحمد ، بسند حسن ، عن ربيعة الأسلمى رضى الله عنه قال :

جرى بينى وبين أبى بكر كلام فقال لى كلمةً كرهتها ، وندم ، فقال لى : يا ربيعة رد علىّ مثلها حتى يكون قصاصاً . فقلت : لا أفعل . قال أبو بكر : لتقولَن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وانطلقت أتلوه

وجاء أناس من أسلم فقالوا لى رحم الله أبا بكر ، فى أى شىء يستعدى عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، هذا ثانى اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين ، إياكم لايلتفت فيراكم تنصرونى عليه ، فيغضب ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، فيغضب الله عز وجل لغضبهما ، فيهلك ربيعة . قالوا : ماتأمرنا ؟ قال : ارجعوا

وانطلق أبو بكر رضى الله عنه وتبعته وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الحديث كما كان ، فرفع الىّ رأسه فقال :

يا ربيعة مالكَ والصديق ؟ فقلت : يا رسول الله كان كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل لاترد عليه ؛ ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر . فقلت : غفر الله لك يا أبا بكر ، قال الحسن : فولى أبو بكر رضى الله عنه وهو يبكى

٨ - مثال من حرصه على العمل والسعى على المعاش

لما ولى أبو بكر رضى الله عنه خلافة المسلمين أصبح ذاهباً إلى السوق ، وعلى عنقه أثواب يتجر فيها ، فلقيه سيدنا عمر رضى الله عنه فقال له : إلى أين تريد يا خليفة المؤمنين ؟

فقال له : إنى ذاهب إلى السوق ، قال ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين؟ قال : ومن أين أطعم عيالى ؟ فقال له عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ؛ وكان وقتئذ أمين بيت المال

فانطلقا الى أبى عبيدة ، فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرض له كل يوم نصف شاة ، وما كساه فى الرأس والبطن

فسيدنا أبو بكر رضى الله عنه مع كونه كان خليفة أراد أن يذهب إلى السوق يتجر فى الثياب لعلمه أنه لابد للإنسان من عمل يعمله ليكسب منه قوت يومه

فضرب لنا بذلك مثلاً حسناً فى السعى على طلب الرزق ، وألاَّ يكون الإنسان عالةً على الناس ، وفى هذه القصة قال الشاعر عبد الحليم المصرى رحمه الله :

« وساعٍ الى الأسواق يزجى بضاعةً ويسألُ فيها اللهَ والناسَ شَاريَا »
« وما جهلوا أن الخليفة بَينَهُمْ ولكن حياةُ الدين كانت تَساويا »
« فقيلَ له : ألهتكَ عنا تجارةٌ إذا عُدت بزَّازا فلا تك رَاعيَا »

« فقال : أيُرجَى رعيُكم فى خلافتى إذا كنتُ فيها لستُ أرعى عِيَالِيَا »
« فقالوا له : نُعطيك فرضَ مهاجر ونأخذُ من ثوبيكَ ما كان بالِيَا »
« فقال : لقد أغنيتمونى بفرضكم وحَسبى ما سَدَّ الطَّوَى وكسانيَا »
« كفيتم أبا بكر فردّوا تجارتى إلى بيت مال المسلمين ومالِيَا »

٩ - مثال من رأفته برعيته

كان عمر بن الخطاب يتعهد عجوزاً ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ماأرادت ؛ فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها فرصده عمر ، فاذا هو أبو بكر الصديق الذى يجيئها (وهو يومئذ خليفة) فقال عمر : أنتَ هو لعمرى

هكذ التسابق إلى الفضيلة ، والتسارع إلى الخيرات ، وهذا منتهى الرأفة ، وغاية التواضع ، وفى هذه القصة قال الشاعر عبد الحليم المصرى رحمه الله :

« رأى عمرٌ يوماً عجوزاً بدَارها غدَا الموتُ منها للبقية حاسِيَا »
« فقال : أواسيها وأقضى أمورَها فقد عَدمت فى المسلمين مُوَاسِيَا »
« مضى غاشياً فى نَهرةِ الصبح دارها فألقى لها فى نَهرةِ الفجر غاشِيَا »

« فقال لها : مَن كان فى الحى سابقى ومَن ذا الذى يبدوله ما بَدا لِيا »
« فقالت : كريم يعترى الدارَ سُحرة فيجمع أشتاتى ويرحم ما بيا »
« فقال : سأحيى الليل أرعى طروقه وأرصد سَبّاقا إلى الخير ساعيا »
« فشُقّ رواقُ الليل عن رونق الضّحى
ولكنه الصديق مَن كانَ باديا »
« فألقى الكُلَى[1] عن كاهل عزّ قبلها وما حمّلته النفسُ إلاّ المعاليَا »
« وألقى العَصَا فى جانبٍ من فِنَائها وهيّأ فيه للقدور الأثافيا »
« فصاح به الفاروقُ ما كان سابقى سواك أبا بكرٍ ولا كنتُ راضيا »
« أفى كل دار من أبى بكر امرؤ إذا أهلها نادوا أجاب المنَاديا »

١٠ - مثال من زهده وورعه

يحكى أن أبا بكر رضى الله عنه أتاه غلام ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له الغلام : مالَك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ فقال : حملنى على ذلك الجوع ، مِن أين جئت بهذا ؟ قال الغلام : مَررت بقوم فرقيت لهم ، فوعدونى ، فلما مررت بهم وجدت عرساً لهم فأعطونى . فقال أبو بكر : أُفٍّ لَكَ ، وكدت تهلكنى ؛ ثم أدخل يده

(١) الكلى جمع كلية وهى ما يحمل فيها الماء

فى حلقه وجعل يتقيأ ، ولكن اللقمة لم تخرج . فقيل له : إنها لا تخرج إلا بالماء . فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى (روحى) لأخرجتها .

١١ - مثال من أمانته على مال المسلمين

أخرج ابن أبى الدنيا عن أبكر بن حفص قال : قال أبو بكر لما احتضر لابنته عائشة :

يا بنية ، إنا ولينا أمر المسلمين ، فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وإنه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فاذا مت فابعثى بهن إلى عمر

وأخرج الطبرانى فى مسنده عن الحسن بن على بن أبى طالب قال :

لما احتضر أبو بكر قال : ياعائشة انظرى اللقحة [1] التى كنا نشرب من لبنها ، والجفنة [2] التى كنا نصطنع فيها ، والقطيفة التى كنا نلبسها ، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلى أمر المسلمين ، فاذا مت فردّيه إلى عمر

فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر : رحمك الله يا أبكر لقد أتعبت من جاء بعدك

(١) اللقحة (الناقة الغزيرة اللبن) (٢) الجفنة (القصعة)

١٢ - مثال من كرمه ومساواته بين الناس فى العطاء

كان لأبى بكر بيت مال ليس يحرسه أحد فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قال: عليه قفل : فكان يعطى ما فيه حتى يفرغ

فلما انتقل إلى المدينه حوّله فجعله فى داره فقدم عليه مال فكان يقسمه على فقراء الناس ، فيسوى بين الناس فى القسم

وكان يشترى الإبل والخيل والسلاح فيجعله فى سبيل الله

واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرقها على أرامل المدينة

فلما توفى أبو بكر ودفن ، دعا عمر الأمناء ودخل بهم فى بيت مال أبى بكر ، منهم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان . ففتحوا بيت المال ، فلم يجدوا فيه شيئاً لا ديناراً ولا درهماً

١٣ - إنفاق ماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأنه أجود الصحابة

أخرج أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مانفعنى مال قط مانفعنى مال أبى بكر ، فبكى أبو بكر وقال :هل أنا ومالي إلاّ لك يارسول الله ؟

وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها وعروة بن الزبير : أن أبا بكر

رضى الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار (وفى لفظ أربعون ألف درهم) فأنفقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأخرج أبو سعيد بن الأعرابى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أسلم أبو بكر رضى الله عنه يوم أسلم وفى منزله أربعون ألف درهم فخرج إلى المدينة فى الهجرة وماله غير خمسة آلف كل ذلك ينفقه فى الرقاب والعون على الإسلام .

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالأحد عندنا يد إلّا وقد كافأناه ، إلاّ أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط مانفعنى مال أبى بكر

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله ، وأنكحنى ابنته »

وأخرج أبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندى ، قلت : اليوم أسبق أبابكر إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالى

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟

قلت : مثله ؛ وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال :

يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله

فقلت : لا أسبقه فى شىء أبداً

نبذ من كلامه وحكمه

من كلامه رضى الله تعالى عنه كما جاء فى طبقات الشعرانى : أكيس الكيس التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة

وكان يقول رضى الله تعال عنه : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلاَّ بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرةً وأملككم لنفسه

وكان يقول : إن العبد إذا دخله العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة

وكان يقول : يامعشر المسلمين استحيوا من الله ، فو الذى نفسى بيده إنى لأظل ، حين أذهب الى الغائط فى الفضاء ، متقنعاً استحياء من ربى عزَّ وجل

وكان يقول : ليتنى كنت شجرةً تعضد ثم تؤكل

وكان يأخذ طرف لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد

وكان اذا سقط خُطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له : هلاأمرتنا ؟ فيقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى ألّا أسأل الناس شيئاً

وكان إذا أكل رضى الله تعالى عنه طعاماً فيه شبهة ، ثم علم به استقاءه من بطنه ، ويقول : اللّهم لاتؤاخذنى بما شربته العروق وخالط الامعاء

وكان رضى الله عنه إذا مُدح قال : اللّهم أنت أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللّهم اجعلنى خيراً مما يحسبون ، واغفرلى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون

* * *

ومن كلامه نقلاً عن الجزء الثالث من كتاب نهاية الأرب ،

إن الله قرن وعده بوعيده ، ليست مع العزاء مصيبة ، الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله ، ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى ، والنكث ، والمكر ، ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، احرص على الموت توهب لك الحياة (قاله لخالد بن الوليد حين بعثه الى أهل الردة)

كثير القول ينسى بعضه بعضاً وإنما لك ماوعى عنك

لاتكتم المستشار خيراً فتؤتى من قبل نفسك

خير الخصلتين لك أبغضهما اليك ، صنائع المعروف تقى مصارع السوء

شذرات من خطب ابى بكر

١ — خطبة أبى بكر يوم وفاة النبى عليه الصلاه والسلام

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب ، جاء أبو بكر من السُّنح ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكلم بكلام مؤثر ثم خرج وخطب الناس فقال :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ؛

ثم قال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وأن الله قد تقدم اليكم فى أمره فلا تدعوه جزعاً ، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومَن فرق بينهما أنكر ؛

ثم قال :

يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢ — خطبة أبى بكر بعد أن ولى الخلافة

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد فإنى قد وليت أمركم ، ولست بخيركم ؛ ولكنه نزل القرآن ، وسنّ النبى صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا

فاعلموا أيها الناس ، أن أكيس الكيس التُّقى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق

أيها الناس إنما أنا متبع ، ولست بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينونى ، وإن أنا زغت فقومونى . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

٣ — خطبة أخرى له أيضاً

الحمد لله الذى أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكن لنا فى البلاد ، وجعلنا به إخوانا متحابين ، فاحمدوا الله على هذه النعمة ، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فان الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم ؛ وإياكم والعمل بالمعاصى وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

أيها الناس : ان الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها (فوزها) ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمته ، واشكروه على آلائه جعلنا الله وإياكم من الشاكرين

٤ — وخطب الناس يوما خطبة قال فيها :

ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله ، واعتصام بأمر الله ، الذى شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدَى الإسلام بعد كلمة الاخلاص ، السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فان من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفلح ، وأدّى الذى عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى ، فقد أفلح من حُفظ من الهوى ، والطمع والغضب ، وإياكم والفخر ، وما فخر من خُلق من تراب ثم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حىٌّ ، وغدا يموت

٥ - خطبة له رضى الله عنه فى الوعظ

أوصيكم بتقوى الله وأن تثبتوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين »

ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم . وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى

وهذا كتاب الله فيكم لاتفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره فثقفوا بقوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة فإنه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون .

ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله فسابقوا فى مهل باعمالكم قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم إلى سواعد أعمالكم فإن أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم

فالوحا الوحا، النجاء النجاء فإن وراءكم طالبا حثيثاً أمره ، سريعاً سيره

وصاياه

وصية أبى بكر باستخلافه عمر بن الخطاب

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كتب أبو بكر رضى الله عنه وصية قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، ويتقى الفاجر ، ويصدق الكاذب

إنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل ، فذلك ظنى به ورجائى فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ؛ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عهد ووصية أبى بكر لسيدنا عمر قبل وفاته

إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ؛ فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلاّ الحق أن يكون ثقيلاً ، إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة

باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى أخاف ألاَّ أكون من هؤلاء

وذكر أهل النارفذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولميذكرحسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو ألاَّ أكون من هؤلاء

وذكرآية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة

فإذا حفظت وصيتى ، فلا يكن غائب أحب اليك من الموت ، وهو آتيك ، و إن ضيعت وصيتى ، فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله

ولما خرج عمر من عند أبى بكر رفع يديه وقال :

اللَّهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على إرشادهم ، وقد حضرنى من أمرك ماحضر ، فاخلفنى فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللَّهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته

وصية سيدنا أبى بكر لبعض رؤساء الجند (يزيد بن أبى سفيان)

إنى قد وليتك لأبلوك وأختبرك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك

عليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك ، مثل الذى يرى من ظاهرك ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ، فان الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، واذ استشرت فاصدق الحديث ، تصدق لك المشورة ، وجالس أهل الصدق والوفاء

مرضه

قيل إن أبا بكر رضى الله عنه أصيب بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ومرض خمسة عشر يوماً لايخرج فيها إلى الصلاة ، وكان عمر يصلى بالناس

ولما اشتد عليه المرض جمع الصحابة واستشارهم فى أن يكون سيدنا عمر بن الخطاب خليفة من بعده ، فتمت كلمتهم عليه ، فعهد له بذلك ، وأوصاه بالمسلمين خيراً ، وكتاب عهده لعمر سبق ذكره

وفاته

لما ثقل المرض على أبى بكر رضى الله عنه أوصى عائشة أن يدفن الى

جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى ثوبيه فقال : اغسلوهما وكفنونى فيهما ، فان الحىّ أحوج الى الجديد من الميت

وأوصى أن تغسله امرأته (أسماء بنت عميس) ويعينها ابنه عبد الرحمن وكتب وصيةً بخمس ماله ، وقال : آخذ من مالى ما أخذ الله من فىء المسلمين ، ونزل لبيت المال فى ذلك عن حائط بستان كان له ؛ وكان له من الفىء عبد يخدمه ، و بعير يستقى عليه ، وقطيفة ، فأوصى بردها الى بيت المال ، فقبلها عمر

وقال الشاعر المصرى فى يوم وفاته :

« وقالَ وقد حانَ الفراقُ لأهله إذا متُّ رُدوا عبدهُمْ وردائيا »
« وردوا عليهم حائطى فى دراهم تقاضيتُها منهم وردُّوا صِحَافيا »
« ولا تدفنونى فى الجديد فإنما أحقُّ به من كان فى الناس عاريا »
« خرجتُ من الدنيا بنفسى وليتنى خرجتُ مُعافىً لاعلىَّ ولالِيَا »
« ومات َولم يترك تليداً لوارث يقومُ به فى الوارثين مُبَاهيا »
« وما نالَ أبناء الخليفة ضيعةً ولا قام منهم من يقُول تُراثيا »
« ولو كان من يستثمرُ المال لم يمت ويترك لهم بيت الخلافة خاويا »

وروى الطبرى : أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : انظروا كم

أنفقت منذ وليت بيت المال ؟ فاقضوه عنى . فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم فى ولايته

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال :

أى يوم هذا ؟ قالوا : يوم الاثنين . قال : فإن مُت من ليلتى فلا تنتظروا بى الغد ، فإن أحبّ الأيام والليالى إلىّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتوفى أبو بكر من ليلته تلك، وهى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة

وقيل : إن سبب موته تحرك سم الحية التى لدغته فى الغار (ذكره ابن الأثير) وله من العمر ثلاث وستون سنة

وآخر ماتكلم به أبو بكر : « رب توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »

وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

وقد غسلته امرأته (أسماء) كما أوصى ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، وكبر أربعاً ، ودفن ليلاً إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل فى قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن ، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما توفى أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، ودهش القوم كيوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

ودخل عليه عمر فقال : ياخليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، وليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟

تأبينه

خطبة على فى تأبين أبى بكر

لما قبض أبو بكر رضى الله عنه جاء على بن أبى طالب رضى الله عنه باكياً مسرعاً مسترجعاً ، حتى وقف بالباب ، وهو يقول :

رحمك الله يا أبا بكر ، كنتَ والله أول القوم إسلاماً ، وأخلقهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنىً ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً ، وهَدياً وصَمتاً ؛ فجزاك الله عن الإسلام ، وعن رسول الله ، وعن المسلمين خيراً

صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله فى كتابه (صديقاً) فقال : ﴿ وَالذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يريد محمداً ، ويريدك

كنت والله للإسلام حِصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لاتحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف

كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله، جليلاً فى الأرض، كبيراً عند المؤمنين

لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوى، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذ للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك

خطبة ابنته عائشة فى تأبينه

نضر الله يا أبتِ وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزًّا باقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولازارية على القضاء فيك

أولاده

أولاد أبى بكر هم : عبد الله . الذى خرج بالطائف ، وتوفى أول خلافة أبيه ، وأسماء زوجة الزبير بن العوام . وأمهما قتيلة من بنى عامر بن لؤى . وعبد الرحمن . وعائشة (أمهما أم رومان بنت الحارث من بنى فراس بن غنم بن كنانة) . ومحمد (أمه أسماء بنت عميس) وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الأنصار وهى ولدت بعد وفاته رضى الله عنه

أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

وأقوال الصحابة والسلف الصالح فى محاسن وفضائل

أبى بكر الصديق رضى الله عنه

١ – روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فقال : هكذا نبعث يوم القيامه . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى أيدنى من أهل السماء بجبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض بأبى بكر وعمر . ورآهما مقبلين فقال : (هذان السمع والبصر) أى ان الرسول جعلهما مكان السمع والبصر ، وهذا دليل كاف على حب رسول الله لهما

٢ – وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم

٣ – وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : أمر رسول الله صلى الله وسلم بالصدقة ووافق ذلك مالاً عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فجئته بنصف ماله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : النصف ، وجاء أبو بكر بكل ماله فقال له النبى

صلى الله عليه وسلم . ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله حقاً ورسوله . فقلت والله لا أسبقك إلى شيء ابداً

٤ ـ وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : وددت أنى شعرة فى صدر أبى بكر رضى الله عنه ـ وقال عمر : أبو بكر سيدنا

٥ ـ وعن عطاء عن أبى الدرداء : أنه مشى بين يدى أبى بكر رضى الله عنه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتمشى بين يدى من هو خير منك ؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أحد أفضل من أبى بكر

٦ ـ وعن على بن أبى طالب رضوان الله عليه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : يا على ، هل تحب الشيخين ؟ قلت : نعم يا رسول الله لا يجتمع حبك وحبهما إلا فى قلب مؤمن

٧ ـ وعن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أبا بكر ، زوجنى ابنته ، وحملنى إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله

٨ ـ وعن أنس ، عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ، ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر فى قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ماظنك باثنين الله عز وجل ثالثهما ؟

٩ — وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه ، وهو عاصب رأسه ، حتى صعد المنبر فقال : إنى قائم الساعة على الحوض ، وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة ، فلم يفطن لها أحد إلا أبو بكر رضى الله عنه فقال : بأبى أنت وأمى ؛ بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا وبكى . فقال : لاتبك يا أبا بكر ، إن من أمّن الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخى فى الإسلام ، لايبقى فى المسجد باب إلّا سُدّ إلا باب أبى بكر فبكى أبو بكر وقال: أنا ومالى لك يا رسول الله

١٠ — أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أصبح منكم صائما ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن عاد اليوم منكم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة

١١ — وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجىء يوم القيامة رجل إلى باب الجنة ليس منها باب إلّا وعليه ملك يهتف به : هلمّ هلمّ ادخل . فقال أبو بكر رضى الله عنه : ان هذا لسعيد . قال : هو ابن أبى

هو ابن أبى قحافة (أى أبو بكر)

١٢ — وعن سليمان بن يسار ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فى المؤمن ثلاثمائة وستون خصلة من الخير ، إذا جاء بواحدة دخل الجنة . قال أبو بكر رضى الله عنه : بأبى أنت وأمى أفىّ منها شىء ؟ قال : هى كلها فيك يا أبا بكر

١٣ — وعن ابن عمر رضى الله عنه ، قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم جالس ، وعنده أبو بكر رضى الله عنه وعليه عباءة قد خلّلها فى صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل ، عليه السلام فقال : يارسول الله مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّلها فى صدره بخلال ؟ قال : أنفق ماله علىّ قبل الفتح . قال : فأقرئه من الله عز وجل السلام ، وقل له : يقول لك ربك تبارك وتعالى : أراض أنت عنى فى فقرك أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أعلى ربى أغضب ؟ . أنا على ربى راض . أنا على ربى راض

١٤ — وعن على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : كنت جالساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ طلع أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فقال عليه الصلاة والسلام : هذان سيدا كهول أهل الجنه من الأولين والآخرين ممن مضى وممن بقى إلا النبيين والمرسلين لاتخبرهما ياعلى . قال : فما أخبرتهما حتى ماتا

١٥ — وعن جابر قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

فسمعته يقول : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة فطلع أبو بكر رضى الله عنه ؛ ثم قال : يطلع علينا من هـذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع عمر رضى الله عنه . ثم قال : يطلع علينا من هـذا الفج رجل من أهل الجنة ، اللهم اجعله علياً ، فطلع على رضى الله عنه

١٦ - وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ما أحسن هذه الآية ! قال : أيتها ؟ قال : قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ الفجر

فقال : يا أبكر ان الملك سيقولها لك

١٧ - قيل : إنه لما أسلم أبو أبى بكر (أبو قحافة) لم يعلم أبو بكر رضى الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أبشرك يا أبا بكر بما يسرك ؟ قال : مثلك يا رسول الله مَن يبشر بالخير ، فما هي ؟ قال : أسلم أبو قحافة . قال : يارسول الله لو بشرتنى بإسلام أبى طالب كان أقر لعينى فإنه أقر لعينك

فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علا بكاؤه أسفاً على ما فاته من إسلام أبى طالب وقال : رحمك الله يا أبا بكر (قالها ثلاثاً)

١٨ - أخرج ابن عسكر عن الشعبى قال : خصّ الله تبـارك وتعالى

أبا بكر بأربع خصال لم يخص بها أحد من الناس : سمّاه الصديق ولم يسم أحد الصديق غيره ، وهو صاحب الغار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفيقه فى الهجرة ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة والمسلمون شهود

١٠ ـ وأخرج الحاكم عن ابن المسيب قال : كان أبو بكر من النبى صلى الله عليه وسلم مكان الوزير ، فكان يشاوره فى جميع أموره ، وكان ثانيه فى الإسلام ، وثانيه فى الغار ، وثانيه فى العريش يوم بدر ، وثانيه فى القبر ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم عليه أحداً

٢٠ ـ وأخرج الطبرانى عن سهل رضى الله عنه قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ان أبا بكر لم يسؤنى قط فاعرفوا ذلك ، أيها الناس إنى راض عنه وعن عمر »

مدح أبى بكر الصديق رضى الله عنه

من قصيدة طويلة قالها محمد بن جابر الهوارى الشاعر الأندلسى الضرير فى مدح العشرة المبشرين بالجنة

« فمنهم (أبو بكر) خليفة الذى له الفضل والتقديم فى كل مشهد »
« وصديق هادى الخلق والمؤثر الذى لانفاقه للمال فى الله قد هدى »
« وصهر رسول الله وابنته التى يبرئها آى الكتاب المجد »
« وصاحبه فى الغار إذ قال لاتخف فثالثنا ذو العرش أوثق منجد »
« جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاّ خيمتى أم معبد »
« وعتق بلال حسبه فهو سيد تأثل [1] فى الإسلام إعتاق سيد »
« فلما أراد الله قبض نبيه وصار الى دار النعيم المخلد »
« تقدم فى نيل الخلافة بعده باجماعهم لا بالحسام المهند »
« وقد خالفت يوم السقيفة فرقة فلما رأته الحق لم تتردد »
« وقام علىّ بعد ذاك مبايعاً فأثنى ثناء المخلص المتودد »
« وأظهر عذراً فى تأنيه صادقاً وبايع طوعاً لا لفقدان مسند »
« فآب بحمد منهمو غير قاصر ومن يتبع الإنصاف والحق يحمد »
« وما أشبه الصديق فى الفضل مشبه ولا أحصيت أوصافه بتعدد »

(١) تأثل : اتخذ أصل مال

كلمة عامة

فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه

من يتصفح حياة هذا الخليفة الأعظم ، ويحللها تحليلاً دينياً تاريخياً يجده مبرزاً فى كل ناحية من نواحى العظمة ، فقد كان إماماً تقياً ، وحاكماً سياسياً ، وقائداً قوياً ، وقاضياً عادلاً ومصلحاً ، ورحيماً ، وكريماً وعفيفاً ، وأميناً ، ومتواضعاً ، ومتحلياً بمكارم الأخلاق

فإذا نظرنا إليه من الناحية الدينية ، وجدنا أنه كان ذا نفس عالية حفظها الله من دنس الجاهلية ، إذ دعاه والده كما يعتقد إلى عقيدة يظن فيها الفلاح فامتنع أبو بكر عن طاعة أبيه ، متمسكا بالحكمة العالية : لاطاعة لمخلوق مع معصية الخالق ، وأقام عليه الحجة أنه مخطىء فى اعتقاده وأن الصنم لايضر ولا ينفع ، ولا يصح أن يكون إلهاً ، وما من إله إلّا كان الله جل جلاله

ولما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان ، بادر باجابة الدعوة ، ولم يتردد لحظة فيها ، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : مادعوت أحداً الى الإسلام إلاّ كانت له كبوة غير أبى بكر

فاذا ولجنا ناحية السياسة ، ودخلنا بك الى (سقيفة بنى ساعدة) وقد احتدم الجدال ، واستطارات الفتنة ، ووقعت الحرب الأهلية ووثبت الأنصار ، وعلى رأسهم زعيمهم (سعد بن عبادة) للإمرة ليشاركوا فيها قريشاً ، وقد استحال ذلك ؛ ولكن لم يكد أبو بكر يخطب القوم بتلك الخطبة السياسية التى سحرت الرجال ، واقتلعتهم من عنادهم إلى الولاء ، حتى صارت الكلمة له ، وتولى الأمر وصار الخليفة

حدثنا عمر رضى الله عنه قال : لقد أردت أن أخطب القوم وقد أعددت كلمة لأدخل بها إلى القلوب حتى قال أبو بكر : على رسلك يا عمر ، وأتى بما كنت قدزورته بديهة ، وأربى عليه

وانك لو استعرضت سير عظماء الرجال ، الذين كانوا يتطلبون الملك ويسعون إليه ، لما وجدت لواحد منهم مثل هذا الموقف الشريف الذى وقفه أبو بكر فى هذه السقيفة

وإن (نابليون بونابرت) عظيم عظماء الغرب ، الذى يضرب به المثل فى الشجاعة والسياسة ، لم يرق إلى الملك إلّا بعد جهود بذل فيها الأرواح والأموال ولم يصل إليه إلا فى منازل

ولم يكن أبو بكر بولىّ عهد ، كما هو معروف ، ولا مستخلف إلا على الصلاة ، ولكن روح أبى بكر وإيمانه المتين رفعاه بمرة إلى ذروة خلافة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقمة المجد ، فصار المثل الأعلى للقدوة الحسنة وطيب الأحدوثة

ولذا قال سيدنا أبو هريرة : والله الذى لا إله غيره لو لم يستخلف أبو بكر ماعُبد الله تعالى ، قالها ثلاثاً

ولا تنس حسن رأيه ، وشدة اعتماده على الله ، فى تسيير جيش (أسامة) وجرح الأمة بالنبى صلى الله عليه وسلم لم يندمل ، فكان أحسن الآراء وأحزمها ، مع قلة المال والرجال، وقد أظهر للإسلام قوةً عظيمةً وقع بها الرعب فى قلوب المرتدين والمحاربين مع كثرتهم

وبذلك لَمَّ شعث المسلمين بعد فرقتهم بارتداد كثير من العرب عن الإسلام

وكذلك شجاعته ، وإقدامه على محاربة الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاده حتى أرغم أنفهما وخضد (كسر) من شوكتيهما . ولولا هذا العمل لتشتت أمر المسلمين

ولا يزال الإسلام إلى يوم تنتهى الخليقة يحمل لأبى بكر تلك المنَّة الكبرى التى أنقذته فى أول نأنأته من البوار ، وان تلك الفتوق التى فتقت بأهل الردة والخوارج لو لم يرتقها أبو بكر بتلك الشدة التى عرفت فى هذا الموطن من ذلك الرجل الرقيق القلب الذى يفصح عن عاطفته

فى أكثر الأحيان بالبكاء ، لاتسعت وهلك معظم المسلمين وخيارهم ورجع الأمر إلى جاهليته الأولى

ولست مبالغاً فى هذا القول ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينضم إلى الضعفاء خوفاً على الإسلام ، ويرجو أبا بكر أن يحط عن القوم الزكاة ولكن الخليفة كان أصلب عوداً ، وأسد سهماً ، ممن ظنوا فأبى ، وقال : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو أبيتم أن تقاتلوا معى لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم ، فأية عزيمة أصلب فى الحق من هذه العزيمة ؟ وأى إيمان أمتن من هذا الإيمان ؟ وأى رأى سياسى أرجح من هذا الرأى ؟

وكان عمر أول من قدر هذه العزيمة ، وهذا الإيمان قدرهما ، فما هو أن انتصر أبو بكر على أهل الردة حتى قبل عمر رأسه وقال : لولاك لهلكنا

فلو كان أبو بكر تساهل فى حرب الرِّدة لعمت الفوضى ، وضعف الإسلام فى الجزيرة ، ولكن قوة عزيمته ، ورباطة جأشه ، كانا سبباً فى تثبيت الديانة الإسلامية والوحدة العربية فى جزيرة العرب

وإذا نظرت إليه من الناحية الخلقية الدالة على (ديمقراطيته) أى حبه للشعب ، وتواضعه ، ومساواة نفسه بأى فرد ، فإليك حادثة حلب

الشاة للجارية ، فأى أمير ، أو ملك ، أو وال ، أو ماشئت من أهل السلطان ؟ ينقلب من عز الملك ، واستطالة السلطان ، الى حالب الغنم يحلب للحى شاتهم إلا أبا بكر الذى عرف أن عزة النفس ، وقوة اليقين ، وشرف الرجولة إنما يكون فى التواضع ، لا فى الكبرياء والعظمة ؛ وان هذا الرجل الذى هذب نفسه الدين ، وراضته التقوى ، من قوم عرفوا بالكبرياء والأنفة والغطرسة ؛ وانك لو تطلعت إلى تاريخ العرب ، لرأيته مملوءاً بحوادث كبريائهم وتعالى ساداتهم ، ولكن الإسلام جنّب ذلك ، وقارب بين الناس ، وجعلهم سواسية (أى ساوى بينهم)

و إن حلب أبى بكر شاة الجارية ، وهو خليفة فى أبهة عظمته ، لصفحة ناصعة فى تاريخ حياته ، وكفى بها فخراً له

وأما زهده ، وعفته ، وأمانته ، فحدث عنها ولا حرج ، فقد كان متعففاً عن أموال المسلمين ، لا يتناول منها إلا ما هو ضرورى له ، حتى إنه مات ولم يترك إلا عبداً و بعيراً وقطيفة ، وأوصى بردها لبيت مال المسلمين ، فقبلها عمر

وأما كرمه ، وجوده ، فكان رضى الله عنه خيّراً جواداً ، يعتق العبيد الذين كانوا يدخلون فى الإسلام و يعذبون فى سبيل الله ، وحسبك أنه قد اشترى بلالاً ثم أعتقه ، فقال فيه عمر :

(إن أبا بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا)

وقد بذل ماله فى سبيل دينه ، وناصر النبى صلى الله عليه وسلم وعاونه بماله حتى قال فيه :

مانفعنى مال قط مانفعنى مال أبى بكر ، فبكى أبو بكر وقال له : هل أنا ومالى إلا لك يارسول الله ، وكان رضى الله عنه شديداً فى صالح المسلمين مع شىء من الرفق واللين ، ولذا كان محبوباً ، سيداً مطاعاً مرهوباً فى آن واحد

ومن يطلع على كلامه ، وخطبه ، ووصاياه ، يرى أنه كان واسع الإدراك بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، سديد الرأى ، راجح العقل

وقد وضع رضى الله عنه أساسات مهمة فى القضاء والحكم بين الناس بالعدل حيث وضع :

أولاً — حق الشعب فى انتقاد الحاكم إذا أخطأ ، كما جاء فى خطبته يوم مبايعته وتوليته الخلافة ، حيث قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى

ثانياً — أساس وجوب النصيحة للحاكم وتحريم الغش

ثالثاً — أساس الإخاء ، والمساواة التامة بين طبقات الأمة ، فى نظر الحاكم ، لافرق بين قوى وضعيف ، وغنى ، وفقير ، وأمير ، وحقير ، وذلك قوله :

إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق

رابعاً — أساس طاعة الحاكم فيما هو حق وعدل فقط ، حيث قال ضمن خطبته .

إن من يطع الله ورسوله ، وأولى الأمر ، بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذى عليه من الحق

وبالجملة ، فحياته رضى الله عنه سلسلة فضائل ، وجليل أعمال ، بل كمال فى كمال ، رحمه الله رحمةً واسعةً وجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين

إهد لأولادك كتاب تربية البنين : واهد بناتك تربية البنات

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

نسبه وأصله

هـو عمر بن الخطاب . بن نفيل . بن عبد العزى . بن رياح . بن عبد الله . بن قرط . بن رزاح . بن عدى . بن كعب . بن لؤى . بن غالب . ابن فهر العدوى القرشى ، ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب ، فهو من أشراف مكة وعظماء قريش ، وأمه حنتمة بنت هاشم . بن المغيرة . ابن عبد الله . بن عمر . بن مخزوم ، وهى أخت أبى جهل ، وبنت عم خالد ابن الوليد

مولده

وُلد رضى الله عنه فى السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة

اسمه وكنيته ولقبه

لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام (عُمر) وكنّاه المصطفى عليه الصلاة والسلام (بأبى حفص) وهو ولد الأسد ، وكان يوم بدر ذكره ابن اسحٰق وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالفاروق) يوم أسلم فى دار الأرقم ، وبه تم

المسلمون أربعين ، فخرجوا وأظهروا الإسلام ، ففرق الله بعمر الحق من الباطل ، ولذا لقب بالفاروق

نشأته ومكانته فى قومه

كان رضى الله عنه فى صغره يرعى الغنم لأبيه ، فقد روى ابن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال : كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان (اسم مكان) فقال :

كنت أرعى للخطاب بهذا المكان ، فكان فظاً غليظاً ، فكنت أرعى أحياناً ، وأحتطب أحياناً ، فأصبحت أضرب الناس ، ليس فوق أحد إلا رب العالمين

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فكان يتاجر بماله أحياناً ، إلى الشام

وقد نشأ على الشهامة ، والنجدة ، والحمية ، وسداد الرأى ، وكان مسموع الكلمة فى قومه ، وكان مشهوراً بالشدة عزيز الجانب ، وله مكانة عظمى مع أنه لم يكن ذا مال ولا غنى . هكذا كان حال هذا الرجل العظيم فى جاهليته ، وسنرى كيف كان حاله فى الإسلام ؟ والى أية درجة بلغ به علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، والرأى ، والإخلاص فى محبة الرسول الأكرم ، وخدمة الدين القويم ؟

إسلامه

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون فى دار (الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى) فى أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ، وكانوا فى حاجة إلى الاستكثار من ذوى العصبية والجرأة ، وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة ، والبطش ، وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين ، لهذا قال :

اللَّهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك « عمر بن الخطاب أو عمرو ابن هشام » يعنى أبا جهل ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين إليه ، وهو عمر بن الخطاب ، فأسلم فى ذى الحجة لمضى ست سنين من البعثة ، وبعد إسلام تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة ، وقيل بعد أربعين رجلاً و إحدى عشرة امرأة ، وكان له من العمر ست وعشرون سنة

فكان أشد الناس دفاعاً عن الإسلام ، كالحصن الحصين ، بعد أن كان من أكبر المعارضين له ، وأشدهم إيذاء و بأساً على المسلمين ، يحرض عليهم بالأذى والضرر ، و يمنع الناس من الدخول فى الإسلام لما توهمه من الخطر على شرفه ومكانته

سبب إسلامه

وأما سبب إسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ، ومنها ما أخرجه (الحافظ عز الدين الجزرى) فى أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم أنه قال :

قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى ؟ قلنا : نعم

قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا يوماً فى يوم حار (شديد الحرّ بالهاجرة) فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك

قال : قلت وماذاك ؟ قال : أختك قد صبأت (خرجت من دينها)

قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصيبان فى طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب

قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا ، وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم

قال : فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت : ياعدوّة نفسها قد بلغنى أنك صبأت (خرجت من دينك)

قال : فأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به . قال : فسال الدم

فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل ، لقد أسلمت

قال : فدخلت وأنا مغضب ، فجلست على السرير فنظرت ، فاذا بكتاب فى ناحية البيت

فقلت : ماهذا الكتاب ؟ أعطينيه

فقالت : لا أعطيك ، لستَ من أهله ، أنت لاتغتسل من الجنابة ولا تطهر ، وهـذا لايمسه إلّا المطهرون

قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » فلما مررت بالرحمٰن الرحيم ذعرت ، ورميت بالصحيفة من يدى

قال : ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها : ﴿ سَبَّحَ لِلّٰهِ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الحديد

قال : فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع نفسى حتى بلغت : ﴿ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ حتى بلغت الى قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قال : فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله

فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى ، وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا : يا ابن الخطاب أبشر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال « اللَّهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب »

وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك ، فأبشر

قال : فلما عرفوا منى الصدق ، وقلت لهم : أخبرونى بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالوا : هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه

قال : فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب

قال : وقد عرفوا شدتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلموا باسلامى

قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده

قال : ففتحوا لى ، وأخذ رجلان بعضدى ، حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : أرسلوه ، فأرسلونى ، فجلست بين يديه ، فأخذ بمجمع قميصى فجذبنى اليه ثم قال : أسلم يا ابن الخطاب ، اللّهم اهده

قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله

فكبَّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة

وفى هذه القصة يقول المرحوم حافظ بك ابراهيم فى قصيدته العُمَرية مخاطباً عمر :

« رَأيت فى الدين آراء مُوَفَّقةً فأنزلَ الله قُرآناً يُزكّيها »
« وكنتَ أولَ من قرَّت بصحبته عَينُ الحنيفة واجتازت أمانيها »
« قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها بنعمة الله حصناً من أعاديها »
« خَرجتَ تبغى أذاها فى مُحمدِّها وللحنيفة جبار يُواليها »
« فلم تكد تسمعُ الآيات بالغةً حتى انكفأت تُناوى من يناويها »
« سَمعتَ سورة طه من مُرتلها فزلزلت نيَّةً قد كنت تنويها »
« وقُلت فيها مقالاً لا يُطاوله قولُ المحبِّ الذى قد بات يُطريها »
« ويومَ أسلمتَ عَزَّ الحقُّ وارتفعت عن كاهل الدين أثقالٌ يُعانيها »
« وصَاحَ فيه بلالٌ صَيحةً خَشَعت لها القلوب ولبَّت أمر باريها »
« فأنت فى زمن المختار مُنجدها وأنتَ فى زمن الصديق مُنجيها »
« كم استراك [1] رسولُ الله مُغتبطاً بحكمة لك عند الرأى يُلفيها [2] »

(١) ستراك : طلب رأيك (٢) يلفيها : يجدها

حاله بعد إسلامه

لما منَّ الله عليه بالإسلام ، وشرح صدره فى السنة السادسة من الرسالة ، صار من أشد أعوانه ، وأقوى أنصاره ، وجاء فى كتب الشريعة أنه لما أسلم نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر

وبعد أن كان المسلمون يعبدون ربَّهم خُفيةً أشار عمر على النبى صلى الله عليه وسلم بإظهار الدين ، وعدم الاختفاء والتستر ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون صفين ، يَؤُم أحدهما سيدنا عمر ، والثانى سيدنا حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، مهللين مكبرين ، داعين للدين ، جاهرين بالصلاة ، بعد أن كانت لا تفعل إلاَّ سراً

فببركة دعائه عليه الصلاة والسلام كان عمر من أكبر أسباب معزة الإسلام فى الفتح والنصر والأمان والهجرة ، حتى قال عبد الله بن مسعود : مازلنا أعزةً منذ أسلم عمر

وكان شجاعاً مهيباً هابته العرب والعجم ، حتى إنه لما أراد الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفيةً كغيره ؛ بل تقلّد سيفه ، وجاء إلى الكعبة ، وحولها صناديد مكة ، فدخلها وطاف ، وصلى ركعتين ، وقريش مجتمعة ، ثم خرج عليهم صائحاً بقوله : إنى مهاجر ، فمن أراد منكم أن تثكله (تفقده) أمه ،

ويَتيتم ولدُه، وتترمل امرأته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ؟ وتركهم وذهب ، فلم يجسر أحد على أن يلقاه

إخلاصه للرسول وللدين

وكان عمر من أشد المسلمين إخلاصاً للرسول صلى عليه وسلم وأحرصهم على نشر الإسلام ، لازم النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع غزواته ، وله فيها مواقف مشهورة مشهودة ، وكان من أقوى الناس جهاداً فى سبيل الله ، وصبراً على المشاق ، شديد الحرص على حماية الدين ، وحقوق الخلافة والمسلمين وفى أقصى درجات العدالة ، والسياسة ، والفراسة ، حتى إن عمرو بن العاص لما أراد فتح برزخ السويس (القنال) واستأذنه منعه وقال : أخشى أن الفرنج يكثرون بالمشرق و بلاد المغرب ، فوقع ماتنبأ به مما هو حاصل الآن

سبب تسمية عمر بالفاروق

لما أسلم عُمر أبى إلا أن يكون إسلامه مشهرًا يتسامع به الناس وأبى إلا أن يفاضل فى الدفاع عن عقيدته فصاح :

يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا و إن حيينا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلى ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم و إن حييتم

قال عمر : ففيمَ الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفّين : (حمزة) فى أحدهما و(عمر) فى الآخر ولهم كديد (صوت كصوت الحوافر فى الأرض الصلبة) ككديد الطحن حتى دخلوا المسجد . فإذا بقريش ، وقد أصابهم همّ وأكتئاب ما أصيبوا بمثلهما . قال عمر : فسمانى رسول الله عليه الصلاة والسلام الفاروق يومئذ . (أى الذى يفرق بين الحق والباطل)

مبايعته بالخلافة

لما مات أبو بكر ولى الخلافة بعده بعهد منه (سبق ذكره فى سيرة أبى بكر) وبويع له بالخلافة لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، فقام بأمورها ، ووطد دعائم الإسلام فى جزيرة العرب كلها . ولما بويع بالخلافة صعد المنبر وقال :

إنما مثل العرب مثل جمل آنف ، اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق

أول أعماله فى الخلافة

أول عمل عمله فى خلافته ثلاثة أمور :

١ — انتداب الناس مع أبى عبيد الثقفى لحرب الفرس

٢ — عزل خالد بن الوليد وتوسيد الإمارة العامة فى الشام إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح

٣ — بعث يَعلىَ بن أمية لاجلاء أهل نجران فأجلى النجرانيين النصارى منهم واليهود ، فتفرقوا بعضهم فى الشام ، وبعض النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

فتوحاته

فى عهده رضى الله عنه فتح المسلمون ممالك الفرس والروم ، واستولوا على كثير من ولاياتهم كالعراق وفارس والشام ومصر

ولما أتم عمرو بن العاص فتح بلاد مصر ، ولاه سيدنا عُمر حاكماً عليها فأخذ فى إصلاح شئونها ورفع المظالم المفروضة على الأهالى من الروم ، وبنى مدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) واتخذها مقراً لحكومته ، وشيد بها جامعه المشهور (بجامع عمرو) الذى هو أول مسجد للإسلام بمصر ، وحفر خليجاً يوصل النيل بالبحر وسماه خليج أمير المؤمنين

وبذلك زالت دولة الروم عن مصر ، كما زالت عن الشام

أولياته

قال العسكرى : هو أول من سمى أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ من الهجرة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من سن قيام شهر رمضان ، وأول من عسّ بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من ضرب فى الخمر ثمانين ، وأول من حرم المتعة ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وأول من جمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد ، وأول من حمل الطعام من مصر فى بحر ايلة إلى المدينة ، وأول من احتبس صدقة فى الإسلام ، وأول من أعال الفرائض ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من قال : أطال الله بقاءك (قاله لعلى) وأول من قال : أيدك الله (قاله لعلى) هذا آخر ماذكره العسكرى

وقال النووى فى تهذيبه : هو أول من اتخذ الدرّة ، وكذا ذكره ابن سعد فى الطبقات

قال : ولقد قيل بعده : لدرّة عمر أهيب من سيفكم

قال : وهو أول من استقصى القضاة فى الأمصار ، وأول من مصر الأمصار (الكوفة . والبصرة . والجزيرة . والشام . ومصر . والموصل)

وقيل : هو أول من كتب التاريخ ، وأول من أشار على أبى بكر بجمع

القرآن فى المصحف الشريف ، وأول من أنشأ الدفاتر لحصر الغزاة والغنائم وتقسيمها على مستحقيها ، وأول من وضع الخراج

وكان نقش خاتمه : كفى بالموت وأعظاً ياعمر

صفاته الخلقية

يكفى فى وصفه أن معاوية بن أبى سفيان قال لصعصة بن صوحان : صف لى عمر بن الخطاب ، فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً فى قضيته ، عارياً من الكبر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب ، أى أنه كان شديداً فى الحق ، عادلاً بين المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، نشر المساواة بين الرعية من عرب ومن عجم ، قبل أن تعرف الشعوب الأخرى معنى المساواة ، ولذا قيل : ان عمر بن الخطاب أول حاكم ديموقراطى فى الإسلام

وكان رضى الله عنه ميالاً للاستشارة وقبول النصح ، وكان لايستأثر بالأمر دون المسلمين ، ولا يستبد عليهم فى شأن من الشئون العامة ، فإذا نزل به أمر لايبرمه حتى يجمع المسلمين ، ويجيل الرأى معهم فيه ويستشيرهم

ومن مأثور قوله فى ذلك : لاخير فى أمر أبرم من غير شورى

وكان مسلكه فى الشورى جميلا ، فإنه كان يستشير العامة أولاً فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحاب الرأى منهم ، ثم يفضى إليهم بالأمر ، ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمود ، فالذى يستقر عليه رأيهم يمضيه

فهو يقال بحق : إنه أول واضع للنظم الدستورية

وكان رضى الله عنه قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش ، حتى ساوى البائس الفقير ، الذى إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع

لم تدعه نفسه الى رقيق العيش ، ونعيم الحياة الدنيا ، ولم يهتم بمكاثرة الناس فى المال ، ويرى مال المسلمين مرتعاً وبيلاً على من رعاه ، فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد ، واعتراض المعترضين

وقد بلغ من شدة احترازه من أخذ مال المسلمين ، أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله ، فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته ؟ بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال ، فاذا حلّ ميعاد الوفاء ، ولم يجد عنده ما يسد منه ، احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه

وكان لا يسمح لأحد من بيته أن ينتفع بشىء ليس له فيه حق

ومن المحقق أن الإنسان اذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً فى حقوقهم ، دعاهم ذلك الى محبته والرغبة فيه ، خصوصاً إذا كان حاكماً ، حدبوا عليه ، ومالوا إليه ، وأخلصوا فى طاعته نياتهم ، وكان أكرم عليهم من أنفسهم

فهو رضى الله عنه كان متمسكا بقول الشاعر :

« هى القناعة فالزمها تعش ملكا لو لم تكن لك فيها إلا راحة البدن »

« وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن ؟ »

صفاته الخلقية

أما صفاته الخَلقية ، فكان رضى الله عنه طويلاً ، أصلع ، أعسر ، أيسر ، يعمل بيديه كلتيهما ، ، وكان لطوله كأنه راكب ، شديد البياض ، تعلوه حمرة ، وكان أشيب ، يصفر لحيته ، ويرجل رأسه

الأحاديث الواردة فى فضله

أخرج الشيخان (البخارى ومسلم) عن أبى هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر قلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت

غيرتك ؛ فوليت مدبراً

فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكاً فجاً (أى طريقاً) قط إلا سلك فجاً غير فجك

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون (أى ملهمون) فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر

وأخرج الترمذى عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه

وأخرج الترمذى والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كان بعدى نبى لكان عمر ابن الخطاب

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال

جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أقرئ عمر السلام وأخبره أن غضبه عز ، ورضاه حكم

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فى السماء ملك إلا وهو يوقر عمر ، ولا فى الأرض شيطان إلاَّ وهو يفرق (أى يخاف) من عمر

وأخرج الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أبغض عمر فقد أبغضنى ، ومَن أحب عمر فقد أحبنى ، وأن الله باهى بالناس عشية عرفة عامةً ، وباهى بعمر خاصةً ، وأنه لم يبعث الله نبياً إلا كان فى أمته محدث ، وان يكن فى أمتى منهم أحد فهو عمر

قالوا : يا رسول الله كيف محدث ؟ قال تتكلم الملائكة على لسانه

رأى أبى بكر الصديق فى شدة عمر

دعا أبو بكر بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرنى عن عمر :

فقال ، يا خليفة رسول الله ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى

فقال أبو بكر : وإن . . . قال عبد الرحمن : هو والله أفضلنا ولكن فيه غلظة

فقال أبو بكر : تلك الغلظة التى نراها لأنه رآنى رقيقا ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيرا مما هو عليه . ويا عبد الرحمن لقد رأيت عمر فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى شىء آرانى الرضا عنه ، وإذا لينت له أرانى الشدة عليه ذلك رأى أبى بكر فى عمر . ومَن أصدق من أبى بكر يتحدث عن عمر

فيرينا خلائقه يرينا شدة فى غير عنف ولينا فى غير ضعف . وذلك خير ما تساس به الأمة العربية بل الأمم جمعاء .

أقوال الصحابة والسلف الصالح فيه

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ما على ظهر الأرض رجل أحب إلى من عمر (أخرجه ابن عساكر)

وقيل لأبى بكر فى مرضه : ماذا تقول لربك وقد وليت عمر ؟

قال : أقول له : وليت عليهم خيرهم (أخرجه ابن سعيد)

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو أن علم عمر وضع فى كفة ميزان ، ووضع علم أحياء الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم

وقال حذيفة : والله ما أعرف رجلاً لا تأخذه فى الله لومة لائم إلاَّ عمر

وقال سفيان الثورى : من زعم أن علياً كان أحق بالولاية من أبى بكر وعمر فقد أخطأ ، وخطأ أبا بكر ، وعمر ، والمهاجرين والأنصار

بعض مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه

لست أدرى ماذا أقول فى مناقب سيدنا عمر بن الخطاب التى يعجز اللسان عن سردها ، ويكل البنان عن شرحها ؟

إنى أكتفى بأن أقول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر:

يا عمار أتانى جبرائيل آنفا فقلت له : يا جبرائيل ، حدثنى بفضائل عمر ابن الخطاب فى السماء . فقال : يا محمد لو حدثتك بفضائل عمر بن الخطاب مثل مالبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً مانفدت فضائل عمر (وأن عمر حسنة من حسنات أبى بكر)

ولنبدأ بذكر بعض أمثلة من مناقبه وفضائله فنقول :

أمثلة من هيبته

١ ـ عن سعد بن أبى وقاص قال : استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل ورسول الله يضحك ؛ فقال له عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب

فقال عمر : فأنت كنتَ أحق أن يهبن

ثم قال : أى عدوات أنفسهن ، لتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلن : أنت فظ غليظ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلاّ سلك فجاً غير فجك ، أى هرب منك الشيطان يا عمر (فى الصحيحين)

٢ — ذكر ابن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فسمعت لغطاً وصوت صبيان ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا حبشية تزفن (ترقص) والصبيان حولها ، فقال : ياعائشة تعالى فانظرى ، فجئت فوضعت لَحْيِي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أنظر اليهم مابين المنكب إلى رأسه فقال لى : أما شبعتِ ؟ أما شبعتِ ؟ قالت : فجعلت أقول لا ، لأنظر منزلتى عنده ، إذ طلع عمر فارفض الناس عنها (أى انفض الناس عنها) قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنى لأنظر الى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر

قالت : فرجعت

٣ — وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة عن بريدة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه (غزواته) فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت : يارسول الله إنى كنت نذرت إن ردَّك الله سالماً من غزواتك أن أضرب بين يديك بالدُّف . قال : إن كنت نذرت فاضربى ، وإلَّا فلا فجعلت تضرب ، فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل عمر وهى تضرب ، فألقت الدُّف تحتها ، وقعدت عليه

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الشيطان ليخاف منك ياعمر .

إنى كنت جالساً وهى تضرب ، فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل علىّ وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، ثم دخلت أنت فألقت الدُّف

وفى هذه القصة قال حافظ إبراهيم رحمه الله :

« أَرَيْتَ تِلْكَ الَّتِى لله قَد نَذَرَتْ انْشُودَةً لِرَسولِ اللهِ تُهْدِيهَا »
« قَالَتْ نَذَرْتُ لَئِنْ عَادَ النَّبِىُّ لَنَا مِنْ غَزْوِهِ لَعَلَى دفِّى أُغَنِّيهَا »
« وَيَمَّمَتْ حَضْرَةَ الْهَادِى وَقَدْ مَلأَت أَنوارُ طَلْعَتِهِ أَرْجَاءَ نَادِيهَا »
« وَاسْتَأْذَنَتْ وَمَشَت بالدُّفِّ واندفعت
تُشْجِى بِأَلْحَانِهَا مَاشَاءَ مُشْجِيهَا »
« والْمُصْطَفَى أبو بكر بِجَانِبِهِ لَا يُنْكِرَانِ عَلَيْهَا مِن أَغَانِيهَا »
« حَتَى إِذَا لَاحَ عَنْ بُعْدٍ لَهَا عمرٌ خَارَتْ قُوَاهَا وَكَادَ الخوفُ يُرْدِيهَا »
« وَخَبَّأَتْ دُفَّهَا فِى ثَوبِهَا فَرَقاً مِنهُ وَوَدَّت لَوَ انَّ الأَرضَ تَطوِيهَا »
« قَد كَانَ حِلمُ رَسُولِ اللهِ يُؤنِسُهَا فَجَاءَ بَطشُ أَبِى حَفصٍ يُخَشِّيهَا »
« فَقَالَ مَهْيَطُ وَحى اللهِ مُبتَسِماً وَفِى ابتِسَامَتِهِ مَعنًى يُوَاسِيهَا »
« قَدْ فَرَّ شَيْطَانُهَا لَمَّا رَأَى عُمَراً إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَخْشَى بَأْسَ مُخْزِيهَا »

مثال من سطوته وهيبته ومساواته بين المسلمين

روى أن أحد أكابر الملوك وهو (جبلة بن الأيهم) عندما أراد

الدخول فى الإسلام أقبل إلى المدينة فى خمسمائة فارس عليهم ثياب الوشى ، وهو لابس تاجه ، وفيه قرط (مارية بنت ظالم) زوجة الحارث الأكبر الغسانى ، كان فيه لؤلؤتان عجيبتان ، ففرح أمير المؤمنين عمر بإسلامه وفرح المسلمون ، وخرجوا لمقابلته حتى حضر موسم الحج من عامه مع عمر رضى الله عنه

وبينما هو يطوف بالبيت الحرام إذ وطىء على إزاره (ردائه) رجل أعرابى من بنى فزارة فحلَّه ، فلطمه جبلة على وجهه فهشم أنفه ، فذهب الأعرابى إلى سيدنا عمر ليشكو المَلك

فطلبه سدنا عمر وقال له : مادعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزارى فهشمت أنفه ، فقال : إنه وطىء إزارى فحلَّه

فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه ، وإما أن يضربك مثل ما ضربته ؟ فعجب لذلك جبلة وقال : كيف يضربنى وأنا مَلك كبير ، وهو من السوقة ؟ فلا يصح أن يضربنى كما ضربته ، وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟

فقال له عمر : يا جبلة لقد جمعك وإياه الإسلام . والإسلام ساوى بينكما وكل المسلمين سواء ، لا فرق بين المَلك والرعية ، ولا فضل لأحد على أحد

إلا بالتقوى

فقال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام ، أعز منى فى الجاهلية

قال عمر : هو كذلك

قال جبلة : أخِّرنى إلى غد يا أمير المؤمنين ؛ قال عمر : ذلك لك

فلما جنَّ الليل خرج هو وأصحابه فلم يثن حتى دخل (القسطنطينية) على (هرقل) ملك الروم ، فتنصر وأقام عنده ، ثم ندم على ذلك ، وقال أبياتاً منها :

« تَنَصَّرتُ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ وَمَا كانَ فيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ »

« تَكَنَّفَنِي مِنها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ فَبِعْتُ بها العينَ الصَّحيحةَ بالعَوَرْ »

« فَيَالَيتَ أُمِّى لَم تَلِدْنِى وَلَيْتَنى رَجَعتُ إلى الأمرِ الَّذى قالَهُ عُمَرْ »

وعمر لم يكن يريد بعمله هذا التنفير من الإسلام ؛ وإنما كان يريد الإنصاف والتسوية بين المسلمين دون محاباة

وهكذا كان الدين الذى تخلق به عمر رضى الله عنه

وفى هذه الحادثة قال حافظ ابراهيم رحمه الله :

« كَم خِفتَ فِي اللهِ مَضعُوفاً دعَاكَ بِهِ وَكَم أَخَفتَ قَوِيًّا يَنْثَنِي تِيهَا »

أى أن عمر كان يخاف من الضعفاء كثيراً فى سبيل الله ؛ وكان يُخيف الأقوياء فى سبيل الله تعالى ، وهذا تأييد لقوله فى خطبة له :

« إن أقواكم عند الضعيف حتى أعطيه حقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه »

« أيها الناس إنى متبع ، وليس بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينونى ، وإذا زغت فقومونى » وفى ذلك يقول المرحوم حافظ بك إبراهيم

« وَفِى حَدِيثِ (فتى غسان[1]) مَوعظةٌ
لِكلِّ ذِى نُعْرَةٍ يَأْبَى تَنَاسِيهَا »

« فمَا القَوِىُّ قَوِيًّا رَغْمَ عِزَّتِهِ
عِندَ الخُصُومَةِ والفَارُوقُ قَاضِيهَا »

« ومَا الضَّعِيفُ ضَعِيفاً بعدَ حُجَّتِهِ
وَإن تَخَاصَمَ وَاليهَا وَرَاعِيهَا »

أى ليس الضعيف ضعيفاً بعد إقامة الحجة ، بل يكون قويًا ، لأن الولى وراعى الماشية متساويان فى الخصومة أمام عدالة عمر رضى الله عنه

مثال من صدقه والوفاء بوعده

عمر بن الخطاب والهُرْمُزان

لما أتى (بالهُرْمُزان) أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم ، وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحاً لك فى عاجلك وآجلك

قل : يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب فى الإسلام

---

(١) جبلة

فدعا له عمر بالسيف . فلما همّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين شربة من ماء أفضل من قتلى على ظمإ ؛ فأمر له بشربة من ماء ؛ فلما أخذها قال : أأنا آمن حتى أشربها ؟

قال عمر : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج

قال عمر : صَدقت ، لك التوقف عنك ، والنظر فى أمرك ، إرفعا عنه السيف ، فلما رفع عنه قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده

فقال عمر : أسلمت خير إسلام فما أخّرك ؟ قال : كرهت أن تظن أنى أسلمت جزعاً من السيف . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر به أن يُبَرّ ويكرم ، وكان بعد يشاوره فى توجيه الجيوش لأهل فارس

فمن هذه الحادثة نرى مقدار صدق سيدنا عمر ، وأنه اذا قال شيئاً فعله ، ولا يغير كلامه ، ويفى بوعده ، وهذه هى أخلاق المؤمن حقاً ، إذا قال صدق وإذا وعد أوفى

مثال من تقشفه وعدله

أرسل (كسرى) رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله، وليشاهد أفعاله فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال: أينَ ملـكِـكم؟ فقالوا: مَالنا ملك، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة

فخرج الرسول فى طلبه، فرآه نائماً فى الشمس على الأرض فوق الرمل الحار، وقد وضع بُردته كالوسادة تحت رأسه، والعرق يسقط من جبينه إلى أن بلّ الأرض، فلما رآه الرسول على هـذه الحال، وقع الخشوع فى قلبه، وقال: رجل تخاف جميع المـلوك من هيبته تـكون هذه حالته

ثم قال عبارته المشهورة (عَدلتَ يا عمر فنمتَ) ومَلـكنا يجور فلا جرم أن بقى ساهراً خائفاً (أى أن سيدنا عمر يعـدل بين الناس ويسوى بينهم فأمن ونام، وملـكنا يظلم ويحب نفسه ويصرف أموال الأمة على نفسه فهو بلا شك يكون خائفاً ولا ينام مستريحاً)

وفى ذلك قال المرحوم حافظ ابراهيم:

« وَراعَ صَاحِبَ كِسرَى أنْ رأى عُمَراً
بَينَ الرَّعيَّةِ عُطْلاً وَهْوَ راعيها »

أى أن رسول كسرى أعجبه أن شاهد سيدنا عمر رضى الله عنه عُطلاً أى غير متحل بأبهة الملك وهو خليفتها وراعيها

« وَعَهدُهُ بِمُلوكِ الفُرسِ أَنَّ لَهَا سُوراً مِنَ الجندوالاحْرَاسِ يَحميها »

وهو يعرف أن ملوك الفرس لها جنود وحرس يقومون بحراستهم

« رَآهُ مُستَغرِقاً فِي نَوْمِهِ فَرَأَى فِيهِ الجَلالَةَ فِي أَسْمَى مَعَانيها »

أى رآه مستثقلا فى نومه ، فرأى فيه العظمة وعلو القدر

« فَوقَ الثَّرَى تحتَ ظلِّ الدَّوحِ مُشتَمِلاً

بِبُرْدَةٍ كادَ طولُ العهْدِ يُبْلِيها »

رآه نائماً فوق التراب تحت ظل شجرة ملتفا ببرُدة (وهى كساء العرب) كادت تكون بالية من طول الزمن

« فَهَانَ فِى عَينِهِ مَا كان يُكبِرُهُ مِنَ الأَكَاسِرِ والدُّنيا بأيْديها »

أى حقر فى عينه ما كان يستعظمه من الأكاسرة ملوك الفرس و بأيديهم الملك العظيم

« وَقَالَ قَولَةَ أَصْبَحت مَثَلاً وَأَصْبَحَ الجيلُ بعدَ الجيلِ يرويها

« أَمِنتَ لَمَّا أقمتَ العدلَ بينَهُمُ فَنِمْتَ فيهم قَرِيرَ العين هَانيها »

أى قال عبارة صارت مثلاً ، يرويها الجيل بعد الجيل ، أى يتناقلها الناس على مرِّ الزمن ، وهى (عَدلْتَ فَنِمتَ) أى اطمأننت ياعمر ، لما أقمت العدل فى رعيتك ، ونمت قرير العين ، مسروراً متهنئاً ، لأن نومك نوم هادى لافزع فيه

وهكذا يكون الزهد والتقشف ، ويكون العدل والأمن فى الرعية

مثال آخر من تقشفه

قال العتبى : بُعث إلى عمر بحلل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حُلة ، والحلة ثوبان ، فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟

فقال سليمان : لا نسمع

قال : ولِمَ يا أبا عبد الله ؟

قال : لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حُلة

قال : لا تعجل يا أبا عبد الله

ثم نادى : يا عبد الله ، فلم يجبه أحد

فقال : يا عبد الله بن عمر

قال : لبيك يا أمير المؤمنين

قال : نشدتك بالله ، الثوب الذى ائتزرتُ به هو ثوبك ؟

قال : اللّهم نعم

فقال سليمان رضى الله عنه : أما الآن فقل ، نسمع

مثال من رحمته واهتمامه بأمور رعيته

كان سيدنا عمر رضى الله عنه يطوف ليلةً على حسب عادته ليقف على أحوال رعيته ، فرأى بيتا من الشعر (أى خيمةً) وهكذا كانت بيوت العرب

ولم يكن رأى هـذا البيت من قبل ، فقرب منه ليعرف خبره ، فسمع فى داخله أنين امرأة ، ورأى رجـلاً خارجه ، فجاء إلى الرجل وسأله عن وجوده وعن أنين المرأة . فقال له : إنى غريب وامرأتى تلد داخل البيت ولا أحـد عندها ، فذهب سيدنا عمر إلى منزله ، وأخبر زوجته (أم كلثوم) بنت سيدنا الإمام على بن أبى طالب ، وبنت السيدة فاطمة رضى الله عنها ، فتوجهت معه إلى البيت الذى فيه المرأة ، بعد أن أخذت مايلزم من الدهن والملابس . وأخـذ هو قدراً وشيئاً للطبخ ، فحمل القدر ، ومشت وراءه (أم كلثوم) حتى أتى إلى بيت الغريب ، فدخلت زوجته إلى المرأة لتساعدها وقال للرجل : أوقد ناراً ، وكان سيدنا عمر ينفخ فى النار بنفسه ليشعلها ، حتى إن الدخان كان يمر من بين لحيته حتى طاب الطبيخ ، وولدت المرأة

فقالت أم كلثوم لسيدنا عمر : بَشِّرْ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام (تريد أن المرأة ولدت ولداً ذكراً) وكان الرجل الغريب لايعرف أن الذى يوقد النار وينفخ فيها هو سيدنا عمر أمير المؤمنين . فلما سمع كلمة أمير المؤمنين خاف وخجل ، وأراد أن يعتذر لسيدنا عمر . فقال له : يجب علىّ أن أفعل ذلك بنفسى ؛ ثم قام وحمل القدر الى باب البيت وناولها أم كلثوم ، فأطعمت المرأة حتى إذا ارتاحت خرجت أم كلثوم

فقال سيدنا عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما بقى فى البرمة ، ثم قابلنى غداً إن شاء الله تعالى

فأكرمه سيدنا عمر ثانى يوم ، وانصرف الرجل من عنده مسروراً شاكراً

وهكذا كان سيدنا عمر رضى الله عنه شديد الحرص على راحة رعيته يتفقدهم بنفسه ، ويهتم بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته

وبلغ ذلك به أنه كان يعس أكثر لياليه بالمدينة بنفسه ، ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم

وهكذا شأن الأمراء العظام الذين يعرفون أنهم بما فوض إليهم من أمر الهيمنة على القانون ، خدام للرعية مسؤولون عن راحة الأمة وسعادتها ، لأن كل راع مسئول عن رعيته

مثال من اهتمام عمر برعيته

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر إلى السوق فلحقته امرأة شابة فقالت : يا أمير المؤمنين هلك زوجى (مات) وترك صبية صغاراً ، والله ما ينضجون كراعاً ، ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت عليهم الضياع ، وأنا ابنة (الغفارى) وقد شهد أبى الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فوقف عمر معها ولم يمض ، وقال : مرحباً مرحباً بنسب قريب

ثم انصرف الى بعير كان مربوطاً فى الدار ، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقة وثياباً ، ثم ناولها خطام بعيره ، وقال لها : اقتاديه ، فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أكثرت لها العطاء

فقال عمر : ثكلتك أمك ، والله إنى لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً ، فافتتحاه فى الدمشقية ، ثم أصبحنا نستفئ سهامهما فيه

مثال من شفقته ، ورحمته برعيته

ذكر ابن الجوزى عن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم (مولى عمر) قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى (حرة واقم) مكان بقرب المدينة ، حتى إذا كنا (بصرار) جبل ، إذ نار تتقد

فقال : يا أسلم ، إنى لأرى هاهنا ركباً قد ضربهم الليل والبرد انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فاذا أنا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون (أى يصيحون و يلوون)

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول ياأصحاب النار (فما أرق هذا الشعور ، وما أعظم هذه البلاغة)

فقالت المرأة وعليكم السلام فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادن بخير أودع

فدنا منها فقال : مابالكم ؟ قالت :ضربنا الليل والبرد . فقال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغَون ؟ قالت : الجوع . قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟

قالت : ما أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا و بين عمر

قال : إى و يرحمك الله ، ومايدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا و يغفل عنا

قال : فأقبل علىّ (أى على أسلم) فقال : انطلق بنا ، فانطلقنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق وكبةً من شحم ، فقال : احمله علىّ . فقال أسلم : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين . فقال : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أمّ لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها فهرول فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّى علىّ وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج ، ثم أنزل القدر بيده وقال : أعطنى شيئاً ، فأتته بقصعة أو صحفة فأفرغ الطعام فيها ، وقال لها : أطعميهم وأنا أسطح لك . فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك ، ثم قام وقاموا وهو يضحك و يحمد الله تعالى . فجعلت تقول : جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين ، فيقول لها قولى خيرا إنك إذا جئتى أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله

ثم جعل يده على يدى وقصدنا المدينة وقال لى : يا أسلم أن الجوع عدو ، وقد رأيتهم وهم يبكون ، فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون

وفى هذه الرواية قال المرحوم حافظ رحمه الله :

« وَمَن رَآهُ أَمَامَ القِدرِ مُنبَطِحاً والنَّارُ تَأخُذُ منهُ وَهُوَ يذكيها [1] »
« وَقَد تَخَلَّلَ فِي أَثنَاءِ لحيتِه مِنها الدخَانُ وفُوهُ غاب فِي فيهَا »
« رَأَى هُنَاكَ أَميرَ المُؤمِنِينَ عَلَى حال تَرُوعُ لعَمرُ اللهِ رَائيها »
« يَستَقبلُ النَّارخوفَ النَّارِ فِي غَدِهِ والعينُ مِن خَشْيَةٍ سالت مآقيها »

فهكذا تكون رحمته ، وشفقته برعيته ، وخشيته من الله تعالى

مثال من اهتمام عمر بانشاء المجتمعات والمحافظة على المبدأ الصالح للمجتمع

عن عبد الله بن عمر قال : بينما الناس يأخذون أعطياتهم بين يدى عمر رفع رأسه فنظر إلى رجل فى وجهه ضربة فسأله ؟ فأنبأه خبره فعلم أن الرجل قد جرح فى غزوة من الغزوات الإسلامية الأولى . فقال عمر : عُدوا له ألفاً فأعطى الرجل ألف درهم . ثم قال : عدوا له ألفاً فأعطى ألفاً أخرى . ثم قال له ذلك أربع مرات فاستحى الرجل من كثرة ما يعطيه عمر . فخرج فسأل عنه عمر فقيل له : إنا رأينا أنه قد استحى من كثرة ما يعطيه عمر

فقال : أما والله لو أنه مكث ما زلت أعطيه ، إنه لرجل ضرب ضربةً فى سبيل الله حفرت وجهه .

فهل رأيتم كيف كان عمر يرى فى جراحة الرجل رمزاً باقياً على قداسة الدعوة

---

(١) أى يشعلها

وشارةً لامعةً فى تاريخ الجهاد ؟ فهو ما أعطاه إلا براً بالدعوة و إشادة بالجهاد

* * *

ولقد روى ابن شهاب ، قال : قسم عمر مِرطاً (كساء مما تكتسيه المرأة) بين نساء أهل المدينة فبقى منها مِرط جيد فقال له بعض من عنده : أعط هذا زوجتك ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - يريدون أم كلثوم بنت على

فقال عمر : لا (أم سليط) أحق به فإنها ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت ترفو لنا القِرَب يوم أُحد

فانظر كيف رأى عمر أن المائة التى تَمُتُّ بها (أم سليط) فى استحقاقها للعطاء أو ثق وأعرق من مائة أم كلثوم بنت على وزوج عمر أمير المؤمنين

مثال من عدله فى رعيته

روى أنس قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد إذا جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بمجيب ، فما شأنك ؟

قال الرجل : سابقت على فرسى ابناً لعمرو بن العاص ، وهو يومئذ أمير على مصر ، فجعل يقنعنى بسوطه ، ويقول : أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمراً أباه ، فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن ، فانفلت منه وهذا حين أتيتك

فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصرى : أقم حتى يأتيك

فقدم عمرو بن العاص ، فشهد الحج : فلما قضى عمر رضى الله عنه الحج ، وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه ، قام المصرى ، فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدِّرة

قال أنس : ولقد ضربه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت

قال عمر : ضعها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه

فقال : يا أمير المؤمنين قد ضربت الذى ضربنى

قال : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنزع

ثم قال عمر رضى الله عنه : يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . فجعل يعتذر ، ويقول : إنى لم أشعر بهذا

فهذا مثال من عدل عمر رضى الله عنه فى رعيته ، فالواجب على كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ، وليعلم أن المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، وأن يسلك سنن العدل ، وأن يعامل الناس بالنصفة [1] وأن يراقب الله فى السر والعلانية

(١) بالانصاف

وليعلم ان الله سبحانه وتعالى يجازى على الخير والبرّ ، ويعاقب على الظلم والشر

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ابراهيم

مثال من احترامه لحقوق المرأة

جاء رجل إلى عمر رضى الله عنه يشكو إليه خلق زوجته ، فوقف ببابه ينتظرهُ ، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها ، وهو ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل قائلاً : إذا كان هـذا حال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع زوجته فكيف حالى ؟

فخرج عمر فرآه مولياً فناداه : ماحاجتك يا أخى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، جئت أشكو إليك خلق زوجتى واستطالتها على ، فسمعت زوجتك كذلك . فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالى ؟

فقال له عمر : تحملتها لحقوق لها علىّ فانها طباخة لطعامى ، خبازة لخبزى ، غسالة لثيابى ، مرضعة لولدى ، وليس ذلك بواجب عليها ، وسكن قلبى بها عن الحرام ، فأنا أتحملها لذلك

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، وكذلك زوجتى

قال : عمر فتحملها يا أخى فإنما هى مدة يسيرة

(عن نور الأبصار)

محافظته على صحة رعيته

عن أبى وائل قال : مرّ عمر رضى الله عنه بعجوز تبيع لبناً معها فى سوق الليل ، فقال لها : يا عجوز لاتغشى المسلمين ، وزوار بيت الله ، ولا تشوبى اللبن بالماء

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين

ثم مرّ بعد ذلك فقال : يا عجوز ألم أنصح إليك ألا تشوبى لبنك بالماء

فقالت : والله مافعلت . فتكلمت ابنة لها من داخل الخباء ، فقالت : يا أماه أغشاً وكذباً جمعت على نفسك

فسمعها عمر ، فهمّ بمعاقبة العجوز، فتركها لكلام ابنتها ، ثم التفت الى بنيه فقال لهم : أيكم يتزوج هذه البنت؟ فلعل الله عزوجل أن يخرج منها نسمةً طيبةً مثلها

فقال عاصم بن عمر : أنا أتزوجها يا أمير المؤمنين، فزوجها إياه . فولدت له أم عاصم . فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان . فولدت له عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد ورد فيه الناقص والأشج أعدلا بنى مروان ، فكان هو الأشج

« وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : اللَّهم أعز الإسلام بالعمرين »

مثال من خدمته ومساعدته للفقراء

ان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج فى سواد الليل وأخذ يدخل بيتاً ثم يخرج منه الى غيره . فرآه سيدنا طلحة وعلم بعض البيوت التى دخلها ، فلما جاء وقت الصبح ذهب سيدنا طلحة إلى ذلك البيت الذى دخله سيدنا عمر ليلاً ، فوجد فيه عجوزاً عمياء مقعدة (أى لاتقدر على المشى) فسألها عن السبب الذى كان يأتى من أجله سيدنا عمر وقال لها : لماذا يأتى هذا الرجل إلى بيتك ؟ يريد سيدنا عمر . فقالت له : إنه يسأل عنى ، ويأتى بما يصلح لى من الأشياء التى أحتاج إليها ، ثم إنه يخرج عنى الأذى (أى إنه كان يقضى لها مصالحها ويخدمها ويحضر اليها ماتحتاج اليه وينظف لها مسكنها)

فقال طلحة : ثكلتك أمك ياطلحة ، أعثرات عمر تتبّع ؟

وهذه ولا شك أعظم خدمة ومساعدة كبرى ، واحسان للفقراء ، وشفقة بالضعفاء ، فجزاه الله خير الجزاء

مثال من تواضعه

عن الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قدم على عمر فى وفد من

العراق ، قدموا عليه فى يوم صائف (شديد الحر) وهو محتجز بعباءة ويهنأ بعيراً (أى يعالج بعيراً كان مريضاً من إبل الصدقة) فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعِن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة

فقال رجل من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ؟

قال عمر : وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف ؟ هذا أنه من ولى أمر المسلمين ، فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة فى المداراة

فلله أى نفس طاهرة بارّة هذه النفس ؟ وأى حنان خالص من شوائب التصنع والرياء هذا الحنان ؟ وأى خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ، ويضع نفسه فى هذه الرتبة من التواضع والرحمة ؟

مثال آخر من تواضعه

فى المناقب عن حسن رضى الله عنه قال :

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينه وبين رجل كلام فى شىء فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟

فقال له عمر : دَعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لاخير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط ؛ بل من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين (لأن الدين النصيحة) و بوجوب انتصاح الإمام منهم ، ورضاه بنصحهم ، وتذكيرهم له بالتقوى والعدل

مثال آخر

ذكروا أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الشام عرضت له فى طريقه مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه ، فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : قد صنعت صنعاً عظيماً عند أهل الأرض (يعنى أهل الشام) فصك عمر فى صدره وقال له :

أواه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة . إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

فهكذا تكون أخلاق الرجال العظام ، الذين رفع الله نفوسهم بفضيلة التواضع (فإن من تواضع لله رفعه) لا بالكبرياء ، وسوّدهم على الأمم بعزة النفس ، لا بالغطرسة والتجبر ، وحببهم إلى الناس بحسن الخلق لا بالخيلاء ، والنفاق والرياء

مثال من حبه لرعيته ، وسهره على مصالحها

أرسل سيدنا عمر الى سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وهو من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قد نزل عند باب المدينة قافلة ، وأخاف إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم ، فهيّا بنا لحراستها ، فسار معه سيدنا عبد الرحمن ؛ ولما وصلا إلى المكان الذى نزلت فيه القافلة ، قال له سيدنا عمر : نَم أنتَ ، وأنا أحرسها

ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته والناس نيام ، وعينه لاتنام عن عبادة ربه

مثال من زهده وقصده

سأل سيدنا عمر رضى الله عنه بعض الصالحين فقال له : هل رأيت منى شيئاً تكرهه ولا تحبه لى ؟ فقال له : نعم سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين ، وأن لك قميصين : أحدهما لليل ، والآخر للنهار

فعدل سيدنا عمر رضى الله عنه عن ذلك ؛ لأنه علم أن ذلك تبذير وإسراف ، وهو لايريد إلا الشيء الضرورى ، وذلك ليوفر الأشياء للمسلمين ، ويحافظ عليها لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾
الإسراء

وقد فعل ذلك سيدنا عمر لحبه فى مصلحة المسلمين وزهده فى الدنيا

مثال آخر من زهده

ومن أمثلة زهده رضى الله عنه ، وكفه عن شهوات الدنيا ، وكان بيده خيرها وثمراتها ، أنه بعد فتحه فارس كان يأتيه الذهب وهو خمس الفيء فيبكى ويقول : ان الله زوى الدنيا عن محمد صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وبذلها لى ، فأخشى أن يكون قد فعل ذلك ليهلكنى ، ولكن عمر لم يهلك ، ولم تشغله هذه الأموال الهائلة المحمولة له ، فقد زهد فيها جميعاً ، وأصبح يكتفى بالكسرة والتمرة ، و بيده خزائن الأرض

وحكى أن سعد بن أبى وقاص بعد فتحه فارس ، وانتهاب جواهر كسرى ، أراد أن يهدى الى عمر جواهر من تلك التيجان ، التى كان يتعصب بها هؤلاء الملوك ، فأرسل رسولاً ببعضها ، فذهب من الكوفة إلى المدينة ، وهنا يقول : أتيت عمر فوجدته قائماً فى الغروب يطعم الناس ، و بيده درته ، ويقول : ضع مرقاً هنا يا (يرفأ) اسم خادمه ضع خبزاً هنا ، حتى أكل الناس وانصرف ، فتبعته حتى دخل منزله ونادى بزوجته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب

قائلاً : هلمَّ العشاء يا أم كلثوم فأخرجت له ملحاً جريشاً وخبزاً يابساً ، وعندئذ لمحني واقفاً على الباب فنظر إلى وقال : كأنك لم تشبع . فوالله لقد كان طعامكم خيراً من هـذا

فقلت له : يا أمير المؤمنين إنما أنا رسول سعد ، وقد أرسل لك جوهرتين من تاج كسرى ، وهما معى فى هـذا السَّفَط (وعاء كالقفة) وأريته سَفطاً كان معى ، فقال : حسناً ، ألقه هناك ، ثم ودعت ، وانصرفت إلى الكوفة ، فلم أكد أنيخ راحلتى بالكوفة ، حتى أدركنى رسـول عمر وقال : أجب أمير المؤمنين

فرجعت ، فاذا بعمر واقفاً وبيـده الدِّرة وقال : ويل أمك ماذا صنعت بى ؟ فما هو بعد أن تركتنى ونمت أتى الى ملـكان فأمسكانى وقادانى الى السَّفَطِ فاذا هو شعلة من نار ، فخذه عنى وبعه ، وفرق ثمنـه على المسلمين

مثال آخر

خرج عمر رضى الله عنه من المسجد (والجارود العبدى) معه فبينما هما خارجان إذا بامرأة على ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام . ثم قالت : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة . فقال لها : قولى

قالت : يا عمر ، عهدى بك وأنت تسمى عميراً فى سوق عكاظ تصارع

الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت ، خشى الفوت .

فبكى عمر رضى الله عنه

فقال (الجارود) لامرأة : قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته

فقال عمر : دَعها ؟ أما تعرف هذه ياجارود هذه (خَولة بنت حكيم) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها

أراد بذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ المجادلة

مثال من شفقته ورحمته برعيته

كان رضى الله عنه رحيماً ، شفيقاً بالناس . دخل عليه أحد عماله فوجده مستلقياً على ظهره ، وصبيانه يلعبون حوله ، فأنكر ذلك عليه

فقال عمر : كيف أنت مع أهلك ؟

قال : اذا دخلت سكت الناطق

فقال له : اعتزل عملنا ، فانك لاترفق بأهلك وولدك ؟ فكيف ترفق بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

احترامه للشرع والحق

لما رأى عمر رضى الله عنه الرجال يُغالون فى مهور النساء ، أراد أن يجعل لها حداً ، فخطب المسلمين فى المسجد مشيراً إلى ذلك

فردت عليه امرأة وقالت : كيف تفعل هذا ؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ النساء

فرجع عمر عن رأيه وقال : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر

مثال من عفته وأمانته وحرصه على مال المسلمين

حدثنى محمد بن عبيد قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح قال :

لما أُتِى عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود كان فى يده ويقول : والله ان الذى أدى الينا هذا لأمين

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين الله ، يؤدون اليك ما أديت الى الله ، فاذا رتعت رتعوا

قال : صدقت

مثال آخر

يحكى أن زوجة سيدنا عمر رضى الله عنه (أم كلثوم) بنت الإمام على وبنت فاطمة الزهراء، بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، اشتهت نفسها الحلوى فقال لها: ليس لنا ما نشترى به

فقالت: أنا أستفضل من نفقتنا فى عدة أيام مانشترى به

فقال لها: افعلى. ففعلت ذلك، واجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير، فلما عرفته ذلك ليشترى به الحلوى أخذه فرده إلى بيت المال. وقال: هذا يفضل من نفقتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم، وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وفى ذلك قال المرحوم حافظ بك ابراهيم:

« يَومَ اشْتَهَتْ زَوْجُه الْحَلوى فقال لها:

مِن أينَ لى ثَمَنُ الْحَلْوى فَأشْريها ؟ »

« لاتَمتَطى شَهواتِ النَّفْسِ جامِحَةً

فَكِسْرَةُ الْخُبزِ عَن حَلوَاكِ تَجزِيها »

« وهَل يَفى بَيتُ مال المسلمينَ بما

تُوحِى إليكِ اذا طاوَعتِ مُوحيها ؟ »

« أى لاتتبعى شهوات النفس ، فان مال بيت المسلمين لا يكفى لشهواتك اذا استرسلت فيها »

« قَالَتْ . لَكَ اللهُ إنى لَسْتُ أَرزؤُهُ
مَالاً لحاجَةِ نفسٍ كُنتُ أُبغيهَا »
« لَكِن أُجَنِّبُ شَيئاً مِن وظيفَتِنا
فى كُلِّ يَومٍ على حالٍ أُسَوِّيها »
« حَتَّى إذَا مَا مَلَكنا مَا يُكافئُها
شَرَيتُها ثُمَّ إنى لاَ أُثَنِّيها »
« قَالَ : اذْهَبى وَاعلمى إنْ كُنتِ جاهلَةً
أنَّ القَناعةَ تُغنى نَفسَ كَاسيها »
« وَأقبَلَت بَعد خَمس وهى حَاملةٌ
دُرَيْهماتٍ لتَقضى مِن تَشهِّيها »
« فقال . نَبَّهتِ منى غافلاً فَدَعى
هَذى الدَّراهِمَ إذ لاَحَقَّ لِى فيها »
« وَبلى عَلَى عُمَرٍ يَرضَى بِمُوفيةٍ
على الكفاف وَيَنْهى مُسْتَزِيديها »

« أى نبهتنى لما يجب علىّ أن أفعله ولا حق لى فى هذه الدريهمات

لأنها أمكن توفيرها من مرتب الوظيفة » وقد وعد ألّا يأخذ من مال المسلمين إلّا ما يصلحه ، و يصلح عياله بالمعروف

« مَا زَادَ عن قُوتِنا فالمُسلمون بهِ أوْلَى فقُومِى لبيت المالِ رُدِّيها »

« كَذَاكَ أخلاقُه كانت وَماعُهِدَت بَعدَ النُّبُوَّةِ أخلاقٌ تُحاكيها »

مشتراه ظلامة امرأة بخمسة وعشرين ديناراً

قيل : لما رجع عمر رضى الله عنه من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته ، فمرّ بعجوز فى خِباء لها ، فقصدها فقالت :

ما فعل عمر رضى الله عنه ؟ قال : قد أقبل من الشام سالماً .

فقالت : يا هذا لا جزاه الله خيراً عنى . قال : و لِمَ ؟ قالت :

لأنه ما أنالنى من عطاياه منذ ولى أمر المسلمين ديناراً ولا درهماً .

فقال : وما يدرى عمر بحالك ، وأنت فى هذا الموضع ؟

فقالت : سبحان الله ، والله ما ظننت أن أحداً يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها . فبكى عمر رضى الله عنه وقال : واعمراه ! كل واحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر . ثم قال لها : يا أمة الله بكم تبيعنى ظلامتك من عمر فإنى أرحمه من النار؟

فقالت : لا تهزأ بنا يرحمك الله .

فقال عمر : لست أهزأ بك ، ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً ؛ فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت : واسوأتاه ! شتمت أمير المؤمنين فى وجهه .

فقال لها عمر رضى الله عنه : لا بأس عليك ، يرحمك الله .

ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد ، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى الخلافة إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً ، مما تدعى عليه عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله تعالى ، فعمر بَرِئٌ منه .

(شهد على ذلك . على ، وابن مسعود)

ثم دفعها إلى ولده وقال : إذا أنا مُت فاجعلها فى كفنى ألقى بها ربى .

اختبار عمر للقضاة والقواد والأمراء

كان عمر مدرسة تخرج للدنيا كل من أعرقت فيه تعاليم عمر ، وإنها لتعاليم الإسلام - فكان يختبر القضاة والقواد والأمراء ويبعث بهم على

بصيرة من أمر فيهم ، و إليكم القصة الآتية الدالة على ذلك :

حدث مرةً أن (عمر) ساوم بفرس فركبها ليختبرها فعطبت . فقال عمر : لصاحبها : خذ فرسك . فقال الرجل : لا آخذها وقد عطبت .

قال عمر : اجعل بينى و بينك حكماً . فقال الرجل : رضيت (شُريحا) .

فتحاكما إليه ! فقال شريح : يا أمير المؤمنين خُذ ما ابتعت ، أو رد كما أخذت ! .

فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ؟ سِر إلى الكوفة قاضياً عليها .

قالوا : و إنه لأول يوم عرف فيه عُمر (شريحاً)

و بقى (شريح) قاضياً هناك ستين سنة ، وأى صفات أوجب للقاضى من حرية الإرادة ، ومن الاستقلال فى الرأى . ذلك الاستقلال الذى رفع شريح ليقضى على عمر فى حضرته ، وهو أمير المؤمنين . لقد لمحها عُمر فى شريح فرفعه إلى مقام القضاة .

(الجديلى بك)

نص الكتاب الذى كتبه عمر بن الخطاب

إلى عبد الله بن قيس

نظراً لما اشتمل عليه هذا الكتاب من القواعد الصحيحة لنظام القضاء والحكم نذكره بنصه قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس

سلام عليك . أما بعد ـ فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس الناس فى مجلسك ، وفى وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهى إليه .

فإن بينه أعطيته بحقه ، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية . فإن ذلك هو أبلغ فى العذر وأجلى للعماء ، ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت

فيه رأيك فهديت فيد لرشدك أن تراجع فيـه الحق . فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور، أو مجلوداً فى حد، أو ظنينا فى ولاء أوقرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان .

ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سـنة ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق .

و إياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والنكر عند الخصومة . فإن القضاء علم فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر، و يحسن به الذكر، فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه و بين الناس ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله . فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً فما ظنك بثواب عنـد الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمتـه والسلام عليك ورحمة الله .

(الجدبلى بك)

وفاة سيدنا عمر رضى الله عنه وسبب وفاته

توفى عمر رضى الله عنه فى أواخر ذى الحجة سنة ٢٣ من الهجرة وعمره ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ١٠ سنين وستة أشهر ، شهيداً بيد (أبى لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة) وهو غلام مجوسى اسمه (فيروز) حيث تربص له هذا الشقى حتى دخل المسجد وكبّر للصلاة ، وكبّر الناس وراءه ، فانقضّ عليه وطعنه بخنجر ، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة ، ولما قبضوا عليه نحر نفسه ، فقال عمر رضى الله عنه حين أدركه النزف : قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس ، ثم غلب على عمر النزف حتى غُشى عليه

فكان موت سيدنا عمر بهذه الكيفية الوحشية أول مصيبة وأعظم خطب حلّ بالمسلمين بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم

ودفن عمر بالروضة الشريفة التى بها قبر النبى عليه الصلاة والسلام

وقال حافظ بك فى مقتل سيدنا عمر رضى الله عنه :

« مَوْلى المغيرَةِ لَا جادَتْكَ غَادِيَةٌ ... من رحمةِ اللهِ ما جادَتْ غَوادِيها »
« مَزَّقْتَ منهُ أديماً حَشْوُهُ هِمَمٌ ... فى ذِمَّةِ اللهِ عَاليها وماضِيها »
« طَعَنتَ خَاصِرَةَ الفارُوقِ مُنْتَقِماً ... من الحنيفَةِ فى أعلى مَجَاليها »
« فَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ الإسلامِ حَائِرَةً ... تَشكُو الوَجِيعَةَ لمّا مات آسِيها »
« مَضى وخَلَّفها كالطَّوْدِ راسِخَةً ... وزَانَ بالعَدْلِ والتَّقْوَى مَغانيها »

سيدنا عمر والشورى فى الخلافة

سيدنا عمر رضى الله عنه أول من أمر بالتشاور لا نتخاب الخليفة ، وأما قبله فكانت توليته بالاستخلاف

قدَّم النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر للصلاة ، فرضى به المسلمون لأمر دنياهم ، كما رضيه النبى صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم

ثم استخلف أبو بكر عمر رضوان الله عليهما

فلما حدث حادث أبى لؤلؤة لم يرد عمر الاستخلاف ؛ بل أراد أن لا يتحمل تبعتها ميتاً كما تحملها حيًّا ، فلم يعهد بها إلى شخص بعينه وجعلها شورى فى النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فدعى على ابن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمرهم أن يتشاورا فى أمر الخلافة ، وقال لهم : انتظروا أخاكم طلحة بن عبيد الله ثلاثاً فإن جاء وإلاَّ فاقضوا أمركم ، وليشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شىء . قوموا فتشاوروا ، وليصل بالناس صهيب

ثم قال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة إن الله أعزَّ بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم

وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط وقم على رءوسهم ، فإن اجتمع خمسة على رأى واحد ، وأبى واحد فاشدخ رأسه (كسّرْ) بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ورضوا ، وأبى الاثنان فاضرب رأسهما فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفى هذه القصة قال المرحوم حافظ ابراهيم بك :

« يَارَافِعاً رايةَ الشُّورَى وحارِسَها ... جَزَاكَ رَبُّكَ خيراً عن مُحَبِّيها »

« لم يُلْهِكَ النَّزعُ مِن تأييدِ دولتها ... والمنيَّةِ آلامٌ تُعَانيهـا »

« لَمْ أنسَ أمرَكَ للمقدَادِ يحمِلُهُ ... إلى الجماعَةِ إنذاراً وتَنبيهاَ »

« إن ظَلَّ بعد ثلاثٍ رَأْيُهَا شُعَباً ... فجرد السَّيْفَ واضرب في هَواديها »

« فاعجَب لقُوَّةِ نفسٍ ليس يَصْرِفُها ... طَعْمُ المنيَّةِ مُرًّا عَنْ مَراميهـا »

« دَرَى عَمِيدُ بنى الشُّورَى بموضِعها ... فعَاشَ ما عاشَ يَبْنيها ويُعْليها »

« وَمَا استبَدَّ بِرَأْيٍ فى حُكومتِهِ ... إن الحكُومةَ تُغرى مُستَبِدِّيها »

« رَأْىُ الجماعةِ لا تشقى البلادُ بِهِ ... رَغمَ الخِلافِ وَرَأْىُ الفردِ يُشقيها »

نبذ من حكمه

من كتم سرّه كان الخيار فى يده

أعقل الناس أعذرهم للناس

ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع

لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت أيهما أركب

اتقوا من تبغضه قلوبكم

أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم

اقتصاد فى سُنّة ، خير من اجتهاد فى بدعة

أشقى الولاة من شقيت به رعيته

لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً

مروا ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا

من لا يعرف الشر كان أجدر به أن يقع فيه

من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد

ولو لا القيامة لكان غير ما ترون

نبذ من كلامه

كان رضى الله عنه يقول اللّهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسول صلى الله عليه وسلم

ولما احتضر كانت رأسه فى حجر ولده عبد الله فقال له : يا ولدى ضع رأسى على الأرض ؟ فقال له عبد الله : وما عليك إن كانت على فخذى ، أم على الأرض . فقال : ضعها على الأرض . فوضع عبد الله رأسه على الأرض ، فقال : ويلى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى ! ثم قال : وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر ولا وزر علىّ

ومن كلامه أيضاً : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فانه أهون عليكم من الحساب غداً

شذرات من خطب عمر بن الخطاب

١ - أول خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبى بكر ، صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التى اعتزم أن يسوس بها الناس

فقال ، بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« إنما مثل العرب كمثل جمل أنف (ذلول) اتبع قائده ، فلينظر قائدُه أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق »

وقد أراد بالطريق الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه

٢ - خطبته رضى الله عنه لما ولى الخلافة

لما دفن أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، صعد عمر المنبر فجلس ، ثم قام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنى داع فأمّنوا ، اللهم إنى شديد فألنى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم

اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف

ولا تبذير، ولا رياء، ولا سمعة، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك، والدار الآخرة.

اللّهم ارزقنى خفض الجناح، ولين الجانب للمؤمنين.

اللّهم إنى كثير الغفلة والنسيان، فألهمنى ذكرك على كل حال، وذكر الموت فى كل حين.

اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقنى النشاط فيها، والقوة عليها، بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بفضلك وتوفيقك.

اللّهم ثبتنى باليقين والبرّ والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى، والمحاسبة لنفسى، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات.

اللهم ارزقنى التفكر والتدبر، لما يتلوه لسانى من كتابك، والفهم له والمعرفة بمعانيه، والنظر فى عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت إنك على كل شىء قدير.

٣ — من خطبة له

ما كان الله ليرانى أن أرى نفسى أهلا لمجلس أبى بكر.

فنزل مرقاةً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«اقرأوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به، تكونوا من أهله، وزنوا به أنفسكم قبل أن توزنوا، وترتبوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله، ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزله ولىّ اليتيم، إن استغنيتُ عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف».

٤ — من خطبة له

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

«يأيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم.

ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم، كيف أخذها؟ وضعها، أين أضعها؟ وبالسير فيكم، كيف أسير؟ فربى المستعان.

فان عمر أصبح لايثق بقوة ولاحيلة، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته، وعونه، وتأييده».

٥ — من خطبة له فى الحثّ على حسن معاملة الرعية

« يأيها النـاس ، إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكنى أرسلهم إليكم ليُعلموكم دينكم ، وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأُقِصَّنهُ منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتُقِصُّه منه ؟

قال : إى والذى نفس عمر بيده ، إذن لأقصّنه منه ، وكيف لا أقِصُّه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه ؟

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمّروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

* * *

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبةٌ فى معصية لم يمهله أن يعزله ؛ لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضرر الرعية .

٦ — من خطبة له فى الحثّ على السعى

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللّهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً ، والله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض فقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الجمعة

٧ — من خطبة له فى الوعظ

أيها الناس إنه أتى علىّ حين وأنا أحسب أن من يقرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده . ألا وقد خيّل إلىّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل ، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحى ، وذهب النبى صلوات الله تعالى عليه ، فإنما نعرفكم بما أقول لكم .

ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً ، وأبغضناه عليه .

إقدعوا (كفوا) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة ، فانكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية .

إن هذا الحق ثقيل مرىء ، و إن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، وربَّ نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

٨ — خطبة له فى الوعظ أيضاً

إنما الدنيا أمل مخترم (منتقص) وأجل منتقضٌ ، و بلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر فى أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه .

بئس الجار الغنى ، يأخذك بما لا يعطيك من نفسه ، فإن أبيت لم يعذرك إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة للصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، و إن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

٩ - من خطبه يخاطب بها الشعب الإسلامى

أيها الناس : إنما كنا نعرفكم ، إذ بين أظهرنا النبى صلى الله عليه وسلم و إذ ينزل الوحى ، و إذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد انطلق ، وانقطع الوحى فإنما نعرفكم بما نقول لكم .

مَن أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه ، ومَن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه ؛ سرائركم بينكم و بين ربكم .

ألا و إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم ليعلموكم دينكم و يسلكوا بكم سننكم فمن رأى غير ذلك فليرفعه إلىّ فوالذى نفسى بيده لأقتصن منه .

بعض كتبه

١ - كتب إلى عامله بالبصرة ينصحه

أما بعد ، فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك ، فيالها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتطغيك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة ، وإياك أن تسقط سقطةً لا شَوَى لها (لا بقية لها) وتعثر عثرةً لالعاً لها (لا أقامه الله) .

٢ — كتب إلى أبى موسى الأشعرى ينصحه

أما بعد ، فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة ، فأقم الحدود ولو ساعةً من النهار ، وباشر أمور المسلمين ، وافتح بابك لهم ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها .

فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة ، همُّها فى السمن ، والسمن حتفها ، واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله فإذا زاغ زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته (وأسعد الناس من سعدت به الناس) والسلام .

٣ — كتب إلى معاوية ينصحه

أما بعد ، فإنى لم آلك فى كتابى إليك ونفسى خيرا . إياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وأدنه ، حتى تبسط لسانه ، وتجرىء قلبه .

وتعهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ، وضاق إذنه ، ترك حقه ، وضعف قلبه ، وإنما ترك حقه من حبسه ، وأحرص على الصلح بين الناس ما لم

يستبين لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والأيمان القاطعة فأمض الحكم

٤ - كتب إلى حذيفة بعد أن ولاه مدائن كسرى يقول :

إنه بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن ، من أهل الكتاب فطلقها ، فكتب إليه : لا أفعل حتى تخبرنى : أحلال أم حرام ؟ وما أردت بذلك ؛ فكتب إليه : لا ، بل حلال ؛ ولكن فى النساء الأعاجم خلابة وخداع ومكر ، فإن أقبلتم عليهنّ غلبنكم على نسائكم . فقال حذيفة : الآن أطلقها . تلك المحاورة تدل على مبلغ ما عُنى به عمر لسلامة الدولة وسلامة الأمة وكرهه لزواج سفراء الدول وممثليها من الأجنبيات وما يتداخل السياسة القومية من الوهن فى ذلك السبيل ، وما يصيب روح المجتمع من ذلك الصنيع

٥ - كتاب عمر إلى قائده أبو عبيدة بن الجراح

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح

سلام عليك - فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأشكره مليًّا (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ، ولم يزل معيناً لطيفاً

وأما قولك : إنك لا تقيم (بإنطاكية) لطيب هوائها فالله عز وجل لم

يحرم الطيبات على المتقين ، الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز :

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » .

وكان يجبُ عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة فى قتال من كفر بالله

هكذا كان ينظر عمر الفاروق إلى الدنيا ويسن الطرائق العمرانية لعمّاله فليعرف ذلك المتماوتون الذين يرضون بالعيش الدون ويقنعون من الحياة بذل المقام وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ألا ساء ما يعملون .

٦ - كتب إلى ابنه ينصحه

أما بعـد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه (أى تصدق على الفقراء) جزاه

فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فانه لا عمل لمن لا نية له (إنمـا الأعمال بالنيات) ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خَلِق له

أولاد عمر رضى الله عنه

وأما أولاده رضى الله عنه فثلاثة عشر ولداً : تسعة بنين ، وأربع بنات

أما البنون فهم : (عبد الله) ويكنى أبا عبد الرحمن ، (وعبد الرحمن الأكبر) شقيقه ، وأمهما زينب بنت مظعون الجمحى

(وزيد الأكبر) ، وأمه أم كلثوم بنت الإمام على كرم الله وجهه

(وعاصم) ، وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت

(وعياض) ، وأمه عاتكة بنت زيد

(وزيد الأصغر ، وعبيد الله) وأمهما مليكة بنت جرول الخزاعية

(وعبد الرحمن) الأوسط ، (وعبد الرحمن) الأصغر ، ويكنى أبا شحمة وهو الذى ضربه عمر فى الحد حتى مات كما جاء فى بعض الأخبار

وأما البنات الأربع فهن : (حفصة) زوج النبى صلى الله عليه وسلم ؛ (ورقية) وهى شقيقة زيد الأكبر ؛ (وفاطمة) أمها أم حكيم بنت الحارث ؛ (وزينب) أمها فكيهة

والجميع مذكورون بالتفصيل فى كتاب نور الأبصار

كلمة عامة عن عمر بن الخطاب

إن فَخرَ الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فإنما يفخر بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، هـذا الرجل العظيم الذى كان قبل إسلامه حرباً على الإسلام ، فأصبح بعد إسلامه نعمةً ورحمةً على الإسلام، وكان فى شخضيته بالغ الذروة ، ظاهر العظمة ، وفى عهد خلافته صاحب فضـل كبير جداً فى تثبيت دعائم الإسلام ، وقوته ، وانتشاره ؛ ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللَّهم أعز الإسلام بعمر »

وكان فى دخوله فى الإسلام ازدياد وقوة للمسلمين ، وكانت له فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عهـد أبى بكر الصديق ، المواقف الخطيرة ، والآراء الصائبة

ولما ولى الخلافة سار فيها سيراً محموداً ، وتم فى زمنه فتح أقطار الشام ، وفلسطين ، ومصر ، والعراق ، وانتهاء حكم دولتين عظيمتين فى هذه الأقطار ، وهما دولتا الفرس والروم ، وتأسيس الملك العربى الإسلامى تأسيساً حقيقيًا . وكانت الخطط التى انتصرت فيها جيوش المسلمين بتدبيره ، وحسن رأيه . ولم يكن عهده قاصراً على الفتوحات ؛ بل بدأ بوضع الأساسات التنظيمية لحسن إدارة البلاد ، وتدبير شؤونها ، ويرجع ذلك إلى الصفات السامية التى كان متحلياً بهـا ، من عزم ، وحزم ، وشدة ، وحنـكة ، وحسن تدبير ، وإلى

الرجال العظام الذين قادوا الجيوش ، وولوا إدارة الأقطار ، فكانوا أحسن مثال للعزم ، والشجاعة ، والعدل ، والادارة الصالحة أيضاً ، كخالد بن الوليد ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وعَمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وسعد ابن أبى وقاص ، والأحنف بن قيس ، وأمثالهم

وكان عمر يحب رعيته حباً جماً ، ويحب ما يصلحها ، ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقرب به إلى القلوب ، فكان عفيفاً عن أموالهم ، عادلاً بينهم ، مسوياً بين الناس ، لم يكن قوىّ يطمع أن يأخذ أكثر مما له ، ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله

كان رضى الله عنه حكيماً يضع الشىء فى موضعه ، يشتد حيناً ، ويلين حيناً ، حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها

عرف العرب معرفةً تامةً ، وعرف ما يصلح أنفسها ، فسيرها فى الطريق الذى لا تألم فيه ، فصيرها أمةً حرةً لاتستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان

ولذلك أتعب عمر من بعده ، فان النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها ، وإلا فأين ذلك الرجل الذى يفنى فى مصلحة رعيتـه ؟ ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم ، مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها

وكان عمر رضى الله عنه متشدداً فى صالح المسلمين ، رءوفاً بالرعية متبصراً بحقوقهم ، بعيداً عن كل أبهة وزخرف ، شديداً على عماله ، لا يتساهل فى صغيرة ولا كبيرة ، ولا يسمح لأحد من عماله أن يكون مستبداً ، خارجاً عن جادة العدل والحق فى سيرته العامة والخاصة ، عفيفاً عن أموال المسلمين عفةً تامةً ، فترك بسيرته وعدله وصفاته أحسن المثل ، وصار علماً من أعلام التاريخ الإسلامى عامةً ، والعربى خاصة

ومما يؤثر عنه ، أنه خطب مرة فقال : من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه ، فقام إليه أعرابى وقال له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ،

فقال عمر : الحمد لله على أن وجد من يقوم اعوجاجى

وفى ذلك عبرتان : الأولى ، أن الخليفة يرى حق الرعية فى تقويمه والانتقاد فيما يعمل ، ويمنحها هذا الحق جهاراً ، والثانية أن العرب لم يكونوا يعرفون المواربة ، فكان كلامهم صريحاً مملوءاً بالقوة والجراءة

ومن نظر فى سيرة عمر نظر خبير محقق ، رأى أنه كانت فى عمر خلال كريمة ، جعلت الأمة تحبه ، ولا يرى واحد فيها هوادةً فى طاعة أمر كبيرهم قبل صغيرهم ، وأبيهم قبل منقادهم ، فقد عرفوا منه قبل كل شىء أنه ضحى بنفسه فى مصلحة أمة ، لا يهمه من أمر نفسه شىء ، إلا أن يكون مع الله فى جميع أموره ، لا يرى لنفسه حقاً أن يتمتع فى هذه الدنيا بأكثر مما يتمتع به أفقر رجل من أمته ، تجد ذلك فى مأكله ومشربه وملبسه بينما كثير

ممن معه قد أقبلت عليهم الدنيا فأخذوا منها حظاً عظيماً

ثم عرفوا منه أنه للعامة قبل الخاصة ، لكل هؤلاء إلى مالهم من الحول والحيلة فى هذه الحياة ، ويقبل هو على عامة الناس وضعافهم فيقويهم ويسددهم ، وينظر فى صغار أمورهم وكبارها ، لا يبالى ما يصيبه من تعب الجسم فيما هو بسبيله

إن شكا إليه شاك جور عامله ، أو إساءة أصابته منه ، جمع بينهما فى صعيد واحد ، وأنصف ذلك الضعيف الصغير ، من ذلك القوى الكبير لذلك كانت قلوب الأمة معه ، عرفوا منه بعد ذلك خلالاً شريفةً أدبه بها القرآن الكريم ، من الحق ، والعدل ، والأمانة ، والصدق ، والصبر فى البأساء والضراء ، والوفاء بالعهد

وكفاه شرفاً وفخراً قول النبى صلى الله عليه وسلم فيه : إن الله جعل الحق على لسان عمر

كل تلك صفات تحلى بها عمر بن الخطاب فأتعب من بعده

هذا وتاريخ عمر رضى الله عنه حافل بالأمور الجسام ، التى جعلته سابقاً على كل من أتى بعده ، وجعلت كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعرون بأن الإسلام فَقَد بفقده أهم وأثبت أركانه ، بدليل أنه جاء عبد الله بن سلام ، وقد صلى على عمر يوم وفاته فقال : والله لئن كنتم سبقتمونى بالصلاة عليه ، لاتسبقونى بالثناء عليه ، فقام عند سريره وقال : نعم أخو

الإسلام ، كنت يا عمر جواداً بالحق ، بخيلاً بالباطل ، طيب الظرف ، لم تكن مداحاً ، ولا مغتاباً ، ثم جلس ودخل عليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو مسجى فقال : رحمة الله عليك ، مامن أحد أحبُّ إلىّ أن ألقى الله بما فى صحيفته بعد صحبة النبى صلى الله عليه وسلم من هذا المسجى

وقال سعيد بن زيد : إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمةً لاترتق إلى يوم القيامه ، وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح يوماً ، وهو يذكر عمر : إن مات عمر رق الإسلام ، وقال حذيفة : كان الإسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل لايزداد إلا قرباً ، فلما قتل عمر رحمه الله كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً

وقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، والله إن كان إسلامك لنصراً وإن كانت إمامتك لفتحاً ، والله لقد ملأت إمارتك الأرض عدلاً ، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك

ولم يتنازع فى عدل هـذا الرجل العظيم وحسن قصده اثنان ، ولاتزال كُتَّاب الفرنجة يقرون بفضله وعدله (والفضل ما شهدت به الأعداء) وقد قام بهذا من غير شهوة ، أومنفعة ذاتية ، أولذة دنيوية ، إنما قام به جميعاً لله ، وللحق ، وللإسلام فرحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً

٣- عثمان بن عفان رضى الله عنه

نسبه — هو عثمان بن عفان ، بن العاص ، بن أمية بن عبد شمس ، ابن عبد مناف ؛ بن قصىّ ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، ابن غالب القرشى الأموى ، ويجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جده الخامس عبد مناف . وأمه (أروى) بنت كريز ، بن ربيعة ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، وأمها البيضاء أم حكيم ، بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كنيته - ويكنى أبا عبد الله ، وأبا عَمرو ، كنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما

مولده — ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل ، من ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان من السابقين الأولين فى الإسلام ، وأول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة

وفى مولده ونسبه قال الشاعر الشيخ اسماعيل سرى الدهشان .

« من بعد ست لعام الفيل قد وضعت
عثمان (أروى) فيا أهلاً بعثمان »

« حَسبى أبا عمرو مازكاك من نسب
فأنتَ والمصطفى من نسل عَدنان »

« فى ظهر عبد مناف أنتما غيب
وبالشهادة فى الإسلام إلفان »
« فضل لأروى أبوها من قُصىّ أتى
وأمها عمة المختار فضلان »

نشأته وصناعته، ومكانته فى قومه

كان سيدنا عثمان رضى الله عنه تاجراً بزازاً، موفقاً فى تجارته، فاتسعت ثروته، وكثر ماله، وكان غنياً كريماً، حسن الشيمة، شبّ على كرم الأخلاق، وحسن السيرة، حيياً عفيفاً، ولذا كان محبباً فى قومه، مأموناً عندهم، محترماً لديهم، مبجلاً فيهم

وفى حرفته، ومنزلته فى قريش قال الشاعر الدهشان:

« لَكَ التلاد عن الآباء خالصةً فسرتَ تتجر من نجد لحوران »
« والمرء إن بارك الرزاق سلعته فلاتَبابَ (١) ولاعَوْد بخسران »
« تجارة فى قريش شأنها عَجب وأنتَ فيهم عداها باذخ (٢) الشان »
« ترعى الجوارَ وتقرى الضيف عن كرم يُثرى المُقل وَيكسو كلَّ عريان »
« مذلَّل السمع للعافى تعاونه ممهد القلب تأوى كل لهفان »

(١) تباب: هلاك وخسران (٢) باذخ: عظيم شأنه

« قد أغرموابك حباً إذ رأت بهم والحب يجذب لم يجذب بأشطان [١] »
« يُعظمونك لاخوفاً وقد وردوا هيماً [٢] فأصدرتهم ربى [٣] بإحسان »
« فكل بذل قليل فى محبتهم إياك والحب لايشرى بأثمان »
« فى الجاهلية لما تلتمس قدحا وفى التحنف لاحاس [٤] ولازانى »
« فيك الحياء ترد الطرف هيبته من الجلال ونور الوجه ربّانى »

إسلامه ، وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما بعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ، كان سيدنا عثمان رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وزوجه عليه السلام بنته (السيدة رقية)

فلما آذى المشركون المسلمين ، هاجر رضى الله عنه مع زوجه الى بلاد الحبشة ، فكان أول من هاجر

روى أنس قال : أول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبى صلى الله عليه وسلم : صحبهما الله ، ان عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط

ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة

(١) بأشطان : بالتباعد عن الحق (٢) هيما : حباً
(٣) ربى : النعمة (٤) حاس القوم : وطئهم وأهانهم

فلما أذن الله له بها ، هاجر إليها هو وزوجه ، وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل غزواته ومشاهده ؛ ولكنه لم يحضر غزوة (بدر) لأنه كان مشغولاً بتمريض زوجه (السيدة رقية) التى توفيت فى تلك المدة عقب انتصار المسلمين فى تلك الغزوة ، وأمهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غنيمتها ، ثم زوجه بنته الثانية (السيدة أم كلثوم) وتلك منقبة عظيمة لم تعرف لغيره من الناس قاطبةً ، ولذا سمى عثمان (بذى النورين) رضى الله عنه

وكان سخى اليد بماله الوفير ، جواداً فى طاعة الله ، وإعلاء شأن الإسلام

وفى إسلامه رضى الله عنه يقول الشاعر الدهشان :

« بدعوة من أبى بكر عقدت على حب الحنيفية العظمى بإذعان »

« صحبت طلحة فى طه تبايعه مع الزبير بتصديق وإيمان »

« فقبضة من رسول الله كان بها بسط لكم ونبذتم دين أوثان »

« وعمك الحكم العادى عليك بما أتيت من ترك أصنام بديان »

« يهوى رجوعك للعزى فحدت وقد عصيته رغم كيد أى عصيان »

« فالسابقون الحواريون أنت ومن صحبت عشرة أشياخ وفتيان »

هجرته الأولى من أذى قريش

« من ذا يوازيك (ذا النورين) منزلةً من أهل أحمد إلاَّ صهره الثانى »
« أيدته الجهد فى دعواه محتملاً أذى قريش بتسليم وتكلان »
« وحين خفت عداء القوم إذ فجروا واستهدفوك لأحقاد وأضغان »
« هَجرت مكة مع بنت النبى إلى أرض النجاشى لم تذعن لكفران »
« لما تحملتما طه دعا لكما فعدتما حين لا كيد لإنسان »
« وفى صباح الهدى حمد السرى ولقد يُنسى الأسى الطيب الرجعى لأوطان »
« وقال أحمد فى زوجيك إذ قضتا لو أن ثالثة لى يا ابن عفان »

مبايعته بالخلافة

بعد وفاة سيدنا عمر بثلاث ليال كان الناس يجتمعون فى تلك الأيام إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه ، فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان أحداً . ولما جلس عبد الرحمن للمبايعة وعليه عمامته التى عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم متقلداً سيفه ، ثم صعد المنبر ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

أيها الناس إنى سألتكم سرًّا وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما على ، وإما عثمان ، وقال لعلى : قم ياعلى . فقام

على ، فوقف تحت المنبر ، وأخذ عبد الرحمن بن عوف بيده وقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبى بكر وعمر ؟ فقال على : اللّهم لا ، ولـكن على جهدى من ذلك وطاقتى ، فأرسل يده . ثم نادى : قُم يا عثمان . فقام ، فأخـذ بيده وقال : أبايعك ، فهل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ . فقال عثمان : اللّهم نعم . فرفع رأسه إلى سقف المسجد وقال :

اللّهم اسمع ، قد خلعت مافى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان . فازدحم الناس يبايعون عثمان ، وقعد عبد الرحمن مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ، وقعد عثمان فى الدرجة الثانية تحته ، فجعل الناس يبايعونه بالخلافة ، وذلك فى مفتتح سنة ٢٤ هـ وكان سـنه فوق السبعين ، وسار فيها بالعدل والانصاف كما سيأتى ذكره

وفى مصير الخلافة إليه بالشورى يقول الشاعر :

« قد يمّم الصحب والأنصار أفضلهم دار بن مُخرمة والصحب قسمان »

« وباجتهاد ابن عوف بز قسمك إذ سعى ثلاث ليال سَعى كتمان »

« محض اجتهاد فلاميلٌ ولا عنت ولا مراعاة أفخاذ و بطنان »

« وما الخلافة إلاّ حولها فتنٌ والملك لله لا يبقى لإنسان »

« ما الملك فى الأرض للملاّك غير مُنى تمر كالطيف فى أوهام وسنان »

« لوشاءها المصطفى فى بيته أبداً لكان سعىُ علىٍّ قبل عثمان »
« ضلَّ الخوارج ثم الشيعة التحدت كلاهما كان فى زيغ وطُغيان »
« إلاَّ رجالاً هداهم ربهم رشداً أولاء للحق كانوا خير أعوان »

بدء أعماله فى الخلافة

ومن أعماله أنه ولى سعيد بن العاص (الكوفة) وأمره بفتح بقية بلاد العجم ، ووالاه بالإمدادات حتى فتحها وشتت جيوشها ، وقتل الأحنف قائد جيش المسلمين ملكها (يزد جرد) و بقتله انتهت دولة الفرس ، واستجاب الله دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام حين مزق كسرى كتابه وهى : (اللَّهم مزق ملكه كل ممزق)

, و بذلك استتب الإسلام فى تلك البقاع ، ثم أمر الجيش بالمسير الى (أرمينية) ففتحها أيضاً

ومن أعماله أنه أمر سيدنا معاوية عامله على الشام بإنشاء سفن قوية عظيمة ، لتحمل جيوش المسلمين الى ما تريد من الجهات ، فكان ما أمره . وبها تمكن من فتح جزائر البحر الأبيض المتوسط كقبرص ، وكريد ، ورودس ، وغيرها

ومن أعماله أنه أمر عبد الله بن أبى السرح الذى ولاّه على مصر بفتح طرابلس ، وافريقية ، فسيَّرها جيشاً تحت قيادة (الزبير بن العوام) ففتحها ،

وغنم منها أموالا كثيرة ، وبذلك صارت مملكة العرب من جهة الشرق إلى الهند ، ومن جهة الغرب إلى المحيط الأطلسى ، ومن جهة الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن جهة الجنوب إلى بحر الهند والنوبة

وباتصال تلك القرى بعضها ببعض عظمت الدولة ، ونمت الثروة ، ونفذت الكلمة ، وتجسمت الهيبة فى قلوب الأعداء

ومن مآثره الجميلة ترتيب الطعام فى شهر رمضان لأهل المدينة ، وإقامة دور للضيافات فى الكوفة

ومن مآثره إقطاعه الأرضين التى جلا أهلها عنها للعرب ، لكى يقيموا فيها ، ويعمروها ضناً بها أن تهمل ، وتخسر ثمرتها الدولة والناس

ومن مآثره اتخاذ دار القضاء بعد أن كان يقام فى المسجد

ومن أعظم آثاره (رضى الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء) أنه رتب السُّوَر القرآنية على النمط المعروف ، الذى نقرؤه الآن باجماع من الصحابة والحفاظ ، وجمع الصحف التى كانت عند حفصة فى مصحف واحد ، وجمع الناس على مصحف واحد ، بعد أن تعددت القراآت واختلف فيها أهل الأمصار ، وأمر بنسخ المصاحف منه ، فكتبوا أربعة وقيل خمسة ، وأرسل لكل قطر مصحفا وصار العمل على ذلك الى الآن ، وهو ما يسمى (بالمصحف العثمانى) نسبة إليه رضى الله عنه

وفى بدء أعماله فى الخلافة يقول الشاعر :

« ياواحد الستة الموصى بهم عمر والباذل النفس فى مرضاة رحمان »
« لما استقر اليك الملك وانفسحت لك المسافة فى عزّ وسلطان »
« زدت العطايا ووفدت الوفود إلى دار الخلافة من أشتات بلدان »
« وقمت فيهم خطيباً مُلقياً حِكماً طالت على قول لُقمان وسَحبان »
« بعثت بالكتب للأمصار حاملةً هدياً لعالمها فى حُسن تبيان »
« فاستحكموا العدل فى الذمى وانثلجت صدور أولاء من هُود ونصرانى »
« فشدت للحق صرحاً غير جانبه فى كل مصر فنعم الشائد البانى »
« وخير ماجدت للإسلام من أثر ماقد سبقت به من جمع قرآن »
« ثم التفت إلى الأمصار تلفتها لوجه ربك عن تأليه أوثان »

صفات سيدنا عثمان الخَلقية

كان أبيض اللون ، وقيل أسمر ، رقيق البشرة ، كثير شعر الرأس ، عظيم اللحية ، وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه ، ضخم الكراديس (جمع كردوسة وهى كل عظم تكردس اللحم عليه) بعيد مابين المنكبين ، وكان يصفر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب

عن عبد الله بن حزم المازنى قال :

رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه

وكان نقش خاتمه : آمنت بالله مخلصاً

وقيل : آمنت بالذى خلق فسوى

صفاته الخلقية ومناقبه

١ ـ أدبه مع نفسه ، ومع الرسول ﷺ

أخرج ابن عساكر عن ابن عيينة أنه قال : قال عثمان بن عفان : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام ، ولا مَسست فرجى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

« وقوله : ولا مَسست الخ غاية فى الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والاحترام ليده الشريفة التى مسَّ بها يده »

ليس بعجيب صدوره عن عثمان بن عفان ، مع ما عرف به من حبِّ الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له ، وبذل ماله فى سبيل مرضاته ، فرضى الله عنه وأرضاه

٢ ـ تاديبه لنفسه

قيل : كان لعثمان عبد فقال له : إنى كنت عركت أذنك فاقتص منى ، فأخذ بأذنه ، ثم قال عثمان : اشدد ، ياحبذا قصاص فى الدنيا ، لا قصاص فى الآخرة .

وهذه مكانة من كرم الأخلاق ، وخفض الجناح والتقوى ، وإعطاء الحق ، لا يبلغها إلاَّ أولئك الصحابة الكرام ، الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام

٣ ـ تأديبه للمسلمين

قيل : إن رجلاً من ثقيف جُلد فى الشراب فى خلافة عثمان بن عفان ، وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ، ومجلس فى خلوته ، فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه إياه ، وقال :

لا تعود إلى مجلسك أبداً إلاَّ ومعنا ثالث

واختصم عثمان هو وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : ياعثمان ، تخرج علىَّ فى الكلام ، وأنا أفضل منك بثلاث . فقال عثمان : وما هى ؟ قال : الأولى إنى كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب ،

والثانية شهدت بدراً ولم تشهده ، والثالثة كنتُ ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت

فقال عثمان : صدقت ، أما يوم البيعة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى فى حاجة ومدَّ يده عنى ، وقال : هـذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيراً من يدى ؛ وأما يوم بدر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفنى على المدينة ، ولم يمكنى مخالفته ، وكانت ابنته (رقيـة) مريضة ، فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها

وأما انهزامى يوم أحد ، فإن الله عفا عنى ، وأضاف فعلى إلى الشيطان ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

آل عمران

فغلبه عثمان بهذه الأجوبة السديدة

٤ — كرمه وبذله العظيم فى سبيل الله ورسوله

١ — يروى أنه لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربة الروم فى غزوة (تبوك) بين المدينـة والشام ، كان المسلمون فى عسر وضيق ،

قد أجهدهم الحر ، ولذلك سمى جيشها (جيش العسرة) فظهر كرم عثمان ، وتبرع رضى الله عنه بتجهيز غالبه من ماله ، فجهز ألف بعير وسبعين فرساً ، وصرف عشرة آلاف دينار ، فدعا له الرسول وقال : لا يضر عثمان ما عمل بعدها ، وتبرع أيضاً أبو بكر وعمر بما قدرا عليه

٢ — وكانت توجد بئر بالمدينة تسمى (بئر رومة) لرجل يهودى من بنى غفار لا يصلح للشرب غير مائها ، ولذا كان صاحبها يبيع منها القربة بمُدّ[1] فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : بعينها عين فى الجنة ، فأبى لأنه لم يكن له غيرها ، ولم يكن أسلم وقتئذ ، فاشتراها منه سيدنا عثمان بعشرين ألف درهم ، ووقفها على المسلمين ، وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم ، وقد قال عليه السلام (من حفر بئر رومة فله الجنة)

وزاد عثمان فى مسجد المدينة بالحجارة ووسعه ، وكان يعتق فى كل جمعة عبداً

وبالجملة فقد كان عثمان رضى الله عنه جليل الأعمال ، كريم الخصال ، جميل الصحبة ، حريصاً على رضا النبى صلى الله عليه وسلم ، بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين

لهذا أجلّ النبى صلى الله عليه وسلم قدره ، ونوّه بذكره فى أحاديث

(١) المد « مكيال ، وهو رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، وفى الشام صاع ونصف »

كثيرة سيأتى ذكر بعضها ، وفى انفاقه فى سبيل الدين يقول الشاعر :

« يَسَّرت للعسرة الشعواء غزوتها بالخيل والعير فيها كل قرحان »
« وجئت بالمال فى حجر النبى ولم تكن على الملة الكبرى بمنّان »
« ومن يعن ملة الإسلام فى حرج يَكن له الله حسباً خيرَ معوان »
« وبئر رومة قد خلّصت ركوتها من اليهودى تُسقى كل ظمآن »
« وكان هذا يبيع الماء من طمع للمسلمين بمقدار وميزان »
« فكان أجرك والمختار ضامنه عيناً من الماء فى جنات رضوان »
« وزدت فى مسجد المبعوث متخذاً بديل هذا بعدن خير بنيان »
« كأن مالك مال المسلمين متى شاءوا فلست على شىء بخزان »
« فكنت عند رسول الله ناصره يجلك العرب من قاصٍ ومن دان »

٥ — مثال من تصدقه ، وحبه لفعل الخير

أصاب الناس قحط فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا الى أبى بكر وقالوا : يا خليفة رسول الله إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

فقال لهم : انصرفوا ، واصبروا ، فانى أرجو الله أن لاتمسوا حتى يفرج الله عنكم

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة. فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هى ألف بعير موسوقة بُرًّا، وزيتاً، وزبيباً، فأناخت بباب عثمان رضى الله عنه، فلما جعلها فى داره جاء التجار فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذى وصل اليك، فانك تعلم ضرورة الناس. قال: حباً وكرامةً، كم تربحونى على شرائى؟ قالوا: الدرهم درهمين. قال: أعطيت أكثر من هذا

قالوا: يا أبا عَمرو مابقى فى المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا أحد، فمن ذا الذى أعطاك؟

قال: إن الله أعطانى بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا

قال: فإنى أشهد الله أنى جعلت ماحملت هذه البعير صدقةً لله على المساكين والفقراء

٦ — سياسته فى رعيته

كان عثمان رضى الله عنه لين الجانب، رءوف القلب، محسناً إلى الرعية، فكان إحسانه إليهم، ولينه معهم، سبب إساءتهم اليه، وافتراقهم فى مذاهب الاختلاف عنه، والدليل على ذلك ما قاله ابن عساكر فى تاريخه:

لما ولى عثمان حجّ سنواته كلها إلى آخر حجة حجها ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن ابن عوف فى موضعه ، وجعل فى موضع نفسه سعيد بن زيد ، هذا فى مؤخر القطار ، وهذا فى مقدمته ، وأمر الناس ، فكتب فى الأمصار أن توافيه العمال فى كل موسم ، ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس والأمصار ، أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإنى مع الضعيف على القوى ، ما دام مظلوماً ، إن شاء الله

فكان الناس كذلك ، فجر ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلةً إلى تفريق الأمة (أى بحجة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)

وجرّت هذه السياسة ، سياسة اللين ، والرأفة ، والعدل ، على عثمان الخطر والبلاء ، والفتن ، والجرأة على الخروج على الخليفة ، وضرًا بالخلافة

٧ — عدله

روى أن عثمان رضى الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه ، فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنك غبنتنى ، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومنى

قال : أذلك يمنعك ؟ قال : نعم . قال : فاختر بين أرضك ومالك

ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً أو بائعاً وقاضياً مقتضياً »

٨ — تفقده لحال رعيته

روى أن سيدنا عثمان كان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن ، وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم ، وعن أخبارهم ، وعن مرضاهم ، وهذا يدل على أنه كان دايم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم

٩ — تواضعه

كانت أخلاق سيدنا عثمان رضى الله عنه كلها فضائل ، اتشح بردائها ، وأخذ نفسه بها ، فهو من المكانة العليا من الأخلاق البارزة ، والشيم الجميلة ، وأخصها التقوى والكرم ، والحياد ، والتواضع ، فمما جاء من أخبار تواضعه ما أخرجه ابن عساكر فى تاريخه عن الحسن قال :

رأيت عثمان نائماً فى المسجد ، ورداؤه تحت رأسه ، فيجىء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجىء الرجل فيجلس إليه ، ويجىء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم

وروى عن الحسن أيضاً : أنه سُئل عن القائلة فى المسجد ، فقال : رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خلفية يقيل فى المسجد ، ويقوم

وأثر الحصا بجنبيه ، فقيل : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين

وروى أن عثمان كان يلى وضوء الليل بنفسه ، فقيل له : لو أمرت بعض الخدم فيكفيك . قال : لا . الليل لهم يستريحون فيه

وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتنى جدتى أن عثمان كان لايوقظ أحداً من أهله إذا قام فى الليل إلا أن يجده يقظان ، فيدعوه فيناوله الوضوء ، وكان يصوم الدهر

١٠ — حياؤه

كان عثمان رضى الله عنه مشهوراً بشدة الحياء ، وهو خلق جميل ، وأدب نفسى يزيد المرء رفعةً إذا توسطه ولم يفرط فيه

ومما جاء من أخباره فى الحياء ، مارواه ابن عساكر قال :

ذكر عند الحسن حياء عثمان ، فقال الحسن : إن كان ليكون جوف البيت — والباب عليه مغلق — فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه

١١ — كرمه وجوده

كان عثمان رضى عنه أكرم الناس ، ولم ينحصر كرمه فى ذوى قرابته ، بل تعداه إلى غيرهم أيضاً

ومما يروى عن كرمه ، ما أخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد قال :

انطلقت وأنا غلام فى الظهيرة ومعى طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا ، فاذا شيخ جميل حسن الوجه نائم وتحت رأسه لبنة (طوبة) أو بعض لبنة ، فقمت أنظر اليه أتعجب من جماله ، ففتح عينيه فقال : مَن أنت ياغلام ؟ فأخبرته . فنادى غلاماً قريباً منه ، فقال لى : ادعُه فدعوته فأمره بشىء وقال : اقعد

قال : فذهب الغلام فجاء بحُلة ، وجاء بألف درهم ، فنزع ثوبى وألبسنى الحلة ، وجعل الألف الدرهم فيها ، فرجعت إلى أبى ، فأخبرته ، فقال : يا بنى من فعل هذا بك ؟ فقلت : لا أدرى ، إلا أنه رجل فى المسجد نائم ، لم أر قط أحسن منه . قال : ذلك أمير المؤمنين عثمان

وروى ابن عساكر عن أبى اسحٰق السراج قال : قال لى أبو اسحٰق القرشى يوماً : مَن أكرم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت عثمان بن عفان . قال : كيف رفعت عثمان من بين الناس ؟ قلت : لأنى رأيت الكرم فى شيئين : فى المال ، والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاد بروحه على أقاربه

قال لله درك

وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً ، فقال له يوماً : قد تهيأ مالك فاقبضه ، قال عثمان : هولك معونةً على مُروءتك

١٢ - هديته للنبى صلى الله عليه وسلم

توجه سيدنا عثمان إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم يسأل عنه ، فوجده خرج فى طلب الرزق ، فذهب عثمان ، وبعث لهم دقيقاً وتمراً وغيره ، وكان العرب يعتمدون كثيراً على الغذاء من التمر (البلح الجاف) ؛ ثم رجع سيدنا عثمانُ ، وقال لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم : هذا يبطىء عليكم ، فأرسل لهم خبزاً ، ولحماً مشوياً

فلما جاء النبىُ صلى الله عليه وسلم ، وعلم بما فعله عثمان رضى الله عنه ، دعا له بخير ، وما فعله عثمان مع النبى صلى الله عليه وسلم يعتبر هدية ، لا صدقة

١٣ - صلاحه وتقواه

كان سيدنا عثمان رضى الله عنه كثير التقوى والقنوت ، كثير الصلاة ، كثير قراءة القرآن ، شديد الولع به ، والاستظهار له

روى ابن عساكر ، وأخرج عن إسرائيل بن موسى ، قال : سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لو أن قلوبنا طهرت ، ماشبعنا من كلام ربنا ، إنى أكره أن يأتى علىّ يوم لا أنظر فى المصحف

وروى ابن عساكر من طرق كثيرة ، أن عثمان كثيراً ماروُى فى المقام يصلى من أول الليل إلى بزوغ الفجر

الأحاديث الواردة فى فضله

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : ألا أستحى من رجل تستحيي منه الملائكة ؟ »

وأخرج البخارى عن أبى عبد الرحمن السلمى أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم ، فقال : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلاَّ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جَهَّز جيش العسرة فله الجنة ؟ فجهزتهم

ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ؟ فحفرتها . فصدقوه بما قال

وأخرج الترمذى عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

جاء عثمان الى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دنيار حين جهز جيش العسرة « وهو جيش غزوة (تبوك) وسمى بذلك لأنه ندب الناس إلى الغزو فى شدة القيظ فعسر ذلك عليهم » فنثرها فى حجره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول : ماضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم (قالها مرتين)

وأخرج الترمذى عن أنس قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ان عثمان بن عفان فى حاجة الله ، وحاجة رسوله ، فضرب باحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم

وأخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لعثمان : لو أن لى أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة ، حتى لا يبقى منهن واحدة وقد اختاره النبى صلى عليه وسلم زوجاً لابنته (رقية) و بعد موتها زوجه ابنته (أم كلثوم) فصار لعثمان اللقب الخالد على الأيام بتلك المصاهرة الشريفة وهو (ذو النورين)

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مرّ بى عثمان ، وعند ملك من الملائكة ، فقال : شهيد يقتله قومه إنا نستحى منه

وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان الملائكة لتستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله »

نبذ من كتبه

١ - كتب الى أمراء الجنود فى الثغور

أما بعد ، فانكم حماةُ المسلمين وذادتهم (المدافعون عنهم) وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا ، بل كان عن ملإ منّا . ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله مابكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فانى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه

٢ - كتب إلى عمال الخراج

أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلاّ الحقّ ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لاتظلموا اليتيم ، ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم

٣ - كتب إلى العامة

أما بعد ، فانكم إنما بلغتم مابلغتم بالاقتداء والاتّباع ، فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم ، فان أمر هذه الدنيا صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ،

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكفر فى العجمة ، فان استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا

٤ — وكتب الى عماله أيضاً

أما بعد ، استعينوا على الناس وكلّ ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمرَ الله أقيموه ، ولا تدهنو فيه و إياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وارضوا من الشرِّ بأيسره ، فان قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى يفرقها ، ويباعد بعضها من بعض ، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة (ابن عساكر)

٥ — وكتب اليهم أيضاً

إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال

وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحدٍ قبل استيجابه ، فان الله تعالى قال :

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ الغاشية

من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله (ابن عساكر)

نبذ من خطبه

١ — خطبته بعد ما بويع الخلافة

صعد المنبر وخطب الناس فقال : أيها الناس ، الحمد لله ، اتقوا الله فإن الدنيا كما أخبر الله لعب ، ولهو ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، فخير البلاد فيها من عصم واعتصم بالله وكتابه

وقد وكلت من أمركم لعظيم ، لا أرجو العون عليه إلاَّ من الله ، فإنه لا يوفق للخير إلاَّ هو ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب

٢ — أول خطبة خطبها

أما بعد ، فانى قد حُملتُ ، وقد قبلت ، ألا وانى متبع ، ولست بمبتدع ، ألا وان لكم علىّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباعَ من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسنّ سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملإٍ ؛ والكفّ عنكم إلاَّ فيما استوجبتم ، ألا وإن الدنيا خَضِرةٌ قد شُهيت الى الناس ، ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقةٍ ، واعلموا أنها غير تاركةٍ إلاَّ من تركها

٣ — من خطبة له

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، اتقوا الله ، فإن تقوى الله غُنم ، وإنَّ أكيسَ الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله ، نوراً لظُلمة القبور ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً ، وقد يكفى الحكيم جوامع الكلام ، والأصم ينادى من مكان بعيد ، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده (ابن عساكر) .

٤ — وخطب مرةً فقال :

إن الناس يبلغنى عنهم هنات وهنات (شرور وفساد) وإنى والله لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدار رحاها ، ألا وإنى زامٌّ نفسى بزمام ، ومُلجمها بلجام ، فأقودها بزمامها وأكبحها (أمنعها) بلجامها ، ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى ففى الله خلف منه ، وعزاء عنه .

ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً ، سائق يسوقها على أمر

الله ، وشاهد يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيء فليُبشر ، ومن كان آثما يريد الدنيا فقد خسر (ابن عساكر) .

٥ ـ آخر خطبة له

أما بعد ، إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى ، والآخرة تبقى ، فلا تُبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وان المصير إلى الله .

اتقوا الله عز وجل ، فإن تقواه جُنَّة (وقاية) من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ آل عمران

ومن كلامه

ما يَزَع الله بالسلطانِ أكثر مما يَزَع بالقرآن .

الهدية من العامل إذا عزل ، مثلها منه إذا عمل .

أنتم إلى إمام فعَّال ، أحوج منكم إلى إمام قوَّال .

وقال يوم قتل : لأن أقتل قبل الدماء أحبُّ إلى من أن أقتل بعد الدماء .

وفاته ، وسبب مقتله رضى الله عنه

بعد أن فتح المسلمون تلك الأقاليم ، واطمأنوا وكثرت عندهم الخيرات والأموال ، أخذوا ينقمون على الخليفة ، حيث رأى من الصالح للأمة عزل بعض الولاة فعزلهم ، وولى من فيه الكفاية من أقاربه وذوى رحمه ، فظن الناس به ظنوناً هو برئ منها ، وفشت الفتنة ، واستفحل أمرها ، حتى حضرت وفود من الكوفة ، والبصرة ، ومصر ، فى وقت واحد ، طالبين تولية غير عثمان ، أو عزل من ولاهم على الأمصار

وأخيراً استقر الحال على إجابتهم لما طلبوا من عزل بعض العمال

وعلى ذلك اختار أهل مصر أن يولى عليهم (محمد بن أبى بكر الصديق) فكتب عثمان لهم بذلك عهداً ، ورحلوا من المدينة مع واليهم الجديد .

وبينما هم ذاهبون رأوا عبداً من عبيد الخليفة على راحلة من إبله يستحثها فأوقفوه وفتشوه ، فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم الخليفة لعبدالله ابن أبى السرح مضمونه :

(إذا قدم عليك ابن أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم)

فأخذوا الكتاب ، ورجعوا إلى المدينة ، وأطلعوا الخليفة عليه ، فأقسم لهم

إنه ما فعل ولا أمر ولا علم ، فقالوا : هـذا أشد ، يؤخذ خاتمك ، وبعير من إبلك ، وعبـد من عبيدك ، وأنت لا تعلم ، ما أنت إلاَّ مغلوب على أمرك ، فطلبوا منـه الاعتزال ، أو تسليم الـكاتب ، فأبى ، فأجمعوا على محاصرته ، فحاصروه فى داره ، ومنعوا عنه الزاد والمـاء أياماً عديدة ، وهاجت الثوار ، وكثر القيل والقال ، فطلب منه بعض الصحابة الإذن بالمدافعـة عنه ، فلم يقبل ، ولم يأذن لأحـد ، حتى انه قال لعبيده الذين هبوا للدفاع عنه : (من أغمد منـكم سيفه فهو حرّ) استسلاماً للقضاء ، فتسلق بعض الأشرار الدار ، ودخلوا عليـه وقتلوه ، والمصحف بين يديه يتلو فيـه سورة البقرة فنزلت قطرة من دمه على « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » وكان يومئذ صائما

وكان ذلك فى الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هجرية ، وعمره ٨٢ سنة ، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً رضى الله عنه

وفى الفتنة يقول الشاعر :

« وحين تم صفاء الدهر وا أسفا ... أتى الزمان بتـكدير ونقصان »

« جنى عليك جناة ساء ظنهم ... فجاء من مصر أشياع بن حمران »

« والكوفة انتقضت والبصرة افتتنت ... بمثل بشر وأتباع ابن صوحان »

« وابن اليهودية السوداء مفسدهم ... بدعوة زينت فى شر آذان »

« فيمّموا البيت والشيطان قائدهم ... فما رأوا ناصراً من أى عدنانى »

« لـكنهم فى جماعات وفى عدد والشر محتدم فى كل وجدان »
« عدّوا عليك أموراً فاعتذرت لهم والعذر لم يجد فى ثورات ضمان »
« فأنت والشعب قد ثارت خشارته [1] كطالب النور من أبصار عميان »
« هل ينفع العذر والعتبى وقد حرنت جند العراق عن الرجعى ونجران »

الحصار

« فحاصروك وكفّوا الماء عنك عسى ترضى البراءة من أعباء سلطان »
« فكدت ترضى ولكن أين ذلك من شيخ على سمعه بالرأى ضـدان »
« دسوا عليك كتاباً لست كاتبه أهاج مصر ومنه هاج مصران »
« فجد جد حصار القوم فى خطر وأفلت الأمر من أهل وأخدان »
« وكان ممن وقاك القوم أربعة بباب دارك قاموا خوف غشيان »
« محمد ثم عبد الله يسبقه حول الخليفة للذود الحسينان »
« أبعد ذلك من يرمى أمانتهم ألاَ لقد ضل رامیهم بخذلان »

القتـل

« تسلقوا الدار من خلف وما حفظوا
عهداً فجادلتهم فى كل برهان »

---

(١) الخشارة (الردىء من كل شىء)

« وما ائتمرت بأمر الخلع فانقدت
أحقادهم فرماها شر طعان »

« شلت يداك أيا ابن الحمق كيف ترى
ومن رميت صريعاً أيها الجانى ؟ »

« الدين والحكم والتقوى فتكت بها
والله لم ينتطح فى ذاك كبشان »

« دَم الشهيد خزاك الله كيف جرى
على يديك أما تحنو على الجانى ؟ »

« أنكلت ملة إبراهيم عن سفه
وأصبح الصحب فى نوح وأحزان »

أولاد سيدنا عثمان رضى الله عنه

أولاد سيدنا عثمان رضى الله عنه ستة عشر : تسعة ذكور ، وسبع بنات ، وهى مذكورة فى كتاب نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ، وفى كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، نكتفى بالإشارة اليها

أولياته

أول من أقطع القطائع — وأول من حمى الحمى — وأول من خفض

صوته بالتكبير ـ وأول من خلّق (نقش) المسجد وطلاه ـ وأول من أمر بالأذان الأول فى الجمعة ـ وأول من رزق المؤذنين ـ وأول من أرتج عليه من الخلفاء فى الخطبة ـ وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ـ وأول من فوض الى الناس إخراج زكاتهم ـ وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ـ وأول من اتخذ صاحب شرطة ـ وأول من اتخذ فى الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء فى المسجد ـ وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد ـ وأول ماوقع الاختلاف فى زمانه بين الأمة فخطأ بعضهم بعضاً فى أشياء نقموها عليه ، وكانوا قبل ذلك يختلفون فى الفقه ولا يخطئ بعضهم بعضاً ـ وأول من هاجر الى الله بأهله من هذه الأمة ـ وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة

وصيتـــه

لما قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه ، فتشوا خزائنه ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ، ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة ، فيها ورقة مكتوب فيها :

« هذه وصية عثمان بن عفان : يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث مَن فى القبور ، ليوم لاريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله من الآمنين »

كلمة مختصرة عن عثمان بن عفان

إن سيدنا عثمان بن عفان كان من السابقين الأولين فى الإسلام ، تحمل الأذى ، و بذل الأموال الكثيرة فى سبيل الدعوة الى الدين

وكان أكثر ليناً وتسامحاً من عمر بن الخطاب ، فكان ذلك سبباً من أسباب اتساع الفتنة المشئومة ، فقد غلبه على أمره أقاربه ، و بنوع خاص (مروان بن الحكم) فكان ذلك باعثاً على الانتقادات والتقولات ؛ ومثبّطاً لبعض كبار الصحابة عن مؤازرته والدفاع عنه

ومما زاد ذلك توسعاً عدم كفاية بعض العمال الذين نصبهم ، فإنهم لم يحسنوا الادارة ولم يتمكنوا من منع الشغب والفساد

وقد كانت الفتوحات فى زمنه كثيرة أيضاً ؛ و إنما جاءت متممة لفتوحات عمر ، وفى زمن عثمان أنشىء أول أسطول عربى إسلامى فجمع العرب بذلك بين قوتي البحر والبر

وفى عهد عثمان خرج كثير من كبار الصحابة ورجال العرب إلى الأقطار المفتوحة ، وأخذ العرب يسيرون فى طريق العادات والحياة المدنية التى لم يكن لهم سابقة فيها

وكان عمر يشدد فى هـذا الأمر ، ويحاول منع العرب عن التوسع فيـه

٤- سيدنا على بن أبى طالب

كرم الله وجهه

نسبه - هو أبو الحسن على بن أبى طالب ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، ابن عبد مناف ، بن قصىّ ، فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت أسد ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، وكان علىٌ أصغر بنيها ، وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً ، فهو أول خليفة أبواه هاشميان

كنيته - وكناه عليه السلام (أبا تراب) وذلك أنه وجده نائماً فى المسجد قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جسده ، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول له : اجلس إنما أنت أبو تراب

فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها

وكان اسمه الأول الذى سمته به أمه (حَيدرة) باسم أبيها أسد بن هاشم (والحَيدرة) الأسد ، فغير أبوه اسمه وسماه (عليا)

مولده وإسلامه ونشأته - ولد بمكة داخل البيت الحرام فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم وشب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متحلياً بمكارم الأخلاق ، مقتدياً به فى أقواله وأفعاله ،

فنشأ عفّ اللسان ، قوى العزيمة ، طاهر العقيدة ، لم يتدنس بدنس الجاهلية ، ولم يعبد وثناً قط ، ولم يسجد لصنم ، ولذا قيل : علىّ (كرم الله وجهه) ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان علىّ أول صبى أسلم) وسنه ثمان سنين . وقال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب فى قصيدته المشهورة بالعلوية التى ألقاها فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ ما يأتى :

على فى صباه وإسلامه

« تبصَّرْ هَل ترى إلاَّ عليًا ... إذا ذُكر الهُدى ذاك الغُلاما »

« غُلام يَبتغى الإسلام دينًا ... ولَمَّا يَعْدُ أن بلغَ الفِطاما »

« إذ الرُّوحُ الأمين بقُم فأنذرْ ... أتى طه ليُنذِرَهم فقاما »

« وأمَّتهم إلى الإسلام أمٌّ ... غَدتْ بالسَّبق أوفرهم سِهاما (١) »

« وصَلى حَيدر فشأى قُريشًا ... إلى الحُسنى فسَمَّوه الإمَاما (٢) »

« وما اعتنق الحنيفَ بغيرِ رأى ... ولَم يَسلُك مَحجَّته اقتحاما (٣) »

« ولكنَّ النُّبوةَ أمْهلتهُ ... ليَجمع رأيه يوماً تَماما »

---

(١) المراد بها خديجة رضى الله عنها (٢) صلى أى جاء تالياً للأول — وشأى : سبق (٣) اقتحام الشىء ، دخوله بلا روية

« فأقبل والحجا يُرخى عليه جلالاً يُصغر الشيخَ الهُماما »
« يَمُد إلى النبيّ يَدَ ابن عمّ يحبل الله يعتصِمُ اعتصاما »

* * *

« صغيرَ السن يخطر فى إباء فلا ضيماً يخافُ ولا مَلاما »
« وما زالت به الأيام تَرقى على دَرَج النهى عاماً فعاما »
« وقد جمع الحجا والدينُ فيه خلائق تجمع الخير اقتِثاما (١) »
« فما أوفى على العشرين حتى شهدنا من عظائمه عُظاما (٢) »

ولما بلغ مرتبة الرجل ، كان بحراً لا يُدرك غوره فى الحلم والحكمة ، راسخ الإيمان ، سخياً جواداً ، يتصدق على الفقراء مع ضيق حاله ، أبى النفس ، شديداً على الكفار ، رحيماً على المؤمنين

زواجه — تزوج بالسيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الثانية من الهجرة ، وسنها خمس عشرة سنة ، ورزق منها بالحسن ، والحسين ، وزينب ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكان خطيباً مفوهاً ، يستولى بفصاحته على النفوس ، وكان ممن يكتبون الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال له النبى صلى الله عليه وسلم عندما آخى بين المهاجرين والأنصار

(١) الحجا : العقل . والخلائق : الخصال . والاقتثام : جمع صفات الخير
(٢) العظام : العظيم

(أنت أخى فى الدنيا والآخرة)

شجاعته وإخلاصه للنبى صلى الله عليه وسلم - فى الليلة التى اعتزم فيها الكفار قتل النبى عليه الصلاة وسلم أمره الرسول أن يبيت فى مكانه، إيهاماً للكفار، وخرج هو مع أبى بكر مهاجرين إلى المدينة، فامتثل علىّ أمره، وفداه بنفسه، ونام فى فراشه غير هيّاب ولا وجل، فلما دخلوا عرفوه، وأدركوا أن النبى قد فاتهم، وأخفقت مكيدتهم ومؤامرتهم

وقال الشاعر فى استخلافه ليلة الهجرة:

فلم يَنَس النبىُّ له صَنيعاً ... عَشية ودَّع البيتَ الحراما
عشيةَ سامه فى الله نفساً ... لغير الله تكبرُ أن تُساما (١)
فأرخَصَهَا فِدًى لأخيهِ لمَّا ... تسجَّى فى حَظيرته ونَاما
وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب الله تَفتحم اقتحاما (٢)
فلم يأبَه لها أنفاً علىٌّ ... ولم تُقلق بجفنَيهِ مَناما (٣)
وأغشى اللهُ أعينَهم فراحت ... ولم تَرَ ذلك البدرَ التَّماما
عَمُوا عن أحمدٍ ومضى بحِيًّا ... مع الصديق يدَّرع الظلاما

(١) سامه الشىء طلبه منه (٢) الاقتحام علو النفس فى غضب أو خوف
(٣) يأبه يلتفت

وغادرت البطاحَ به ركابٌ الى الزّوراء تعتزم اعتزاما (١)
وفى أمّ القرى خلّى أخاه على وَجدٍ به يشكو الأواما (٢)
أقامَ بها ليقضيها حقوقاً على طه بها كانت لزاما (٣)

وقد شهد علىّ مع الرسول صلى الله عليه وسلم الغزوات كلها إلاّ غزوة (تبوك) لأن النبى صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة ، فلما أسف على ذلك ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟

وكان له الآثار المحمودة ، والمواقف المشهودة ، فى الغزوات ، وهو الشجاع الذى لا يصد ، والقوي الذى لا يرد ، وكان الأبطال يتفاءلون باسمه ، فكانوا يكتبونه على سيوفهم ، كأنما هو آية النصر والفوز ، ولذا سموه « سيف الله المسلول »

أولياته — فهو أول المبارزين يوم بدر — وأول الثابتين يوم أحد — وأول الفاتحين يوم خيبر — وأول السابقين يوم فتح مكة

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبويع أبو بكر بايعه علىّ مع أنه كان يرى له حقاً فى الخلافة لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان يكره الخلاف

---

(١) البطاح : مكة . والزوراء : المدينة (٢) الأوام : مر الشوق
(٣) لزاما : لازمة

ولما ولى عمر بايعه علىّ كذلك ، وزوجه بنته أم كلثوم ، وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها

ولما بويع عثمان بايعه أيضاً ، حتى كان آخر خلافته ، وقام عليه الثوار ، وشنعوا عليه بتوليته أقاربه ، كان على كثيراً مايمحص له النصح ، ويرشده إلى مافيه النجاح والفلاح

خلافته ومبايعته

بعد موت سيدنا عثمان رضى الله عنه اختلف الناس فى أمر الخلافة ، وتحزبوا أحزاباً ، غير أن الحزب الأقوى كان مع سيدنا علىّ لتزكيته من أكابر الأنصار والمهاجرين وغالب الصحابة المعتبرين. فلما ذهبوا لمبايعته امتنع وقال لهم : « أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ، ومَن اخترتم رضيته فإنا مستقبلون أمراً له وجوه ، وله ألوان لاتقوم به القلوب ، ولاتثبت عليه العقول »

فناشدوه الله والدين ، وألحوا عليه وقالوا : لانعلم أحق منك ، ولا نختار غيرك ، فأبى ، فخوفوه الله فى مراقبة الإسلام حتى غلبوه فى ذلك فقال : قد أجبتكم ، فبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، وما تخلف عن مبايعته إلا نفر قليل ، منهم مروان ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبى سعيد الخدرى ، وكعب

ابن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم من بنى أمية ، ولحقوا بالشام عند معاوية ، ومعهم قميص سيدنا عثمان ليطالبوا بدمه ، مع أن سيدنا عليًا أخذ يسأل عن قاتله ، ويبحث ، فلم يهتد إلى الحقيقة

وفى ذلك قال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب فى قصيدته العلوية :

خلافته ومبايعته

مَضى عثمان والإسلام يُذْرى
عليه الدمع مُنهلًا سِداما (١)
فزَنَّ أبا الحسين به فريق
ولجُّوا فى الظنون به اتهاما (٢)
وحاشى أن يريد أبو حسين
(بذى النورين) سوءا أو ظلاما (٣)
علىّ كان أوّل من وَقاه
ومن ذادَ الردى عنهُ وحامى (٤)
فيالكِ فتنةً ضرِمت فكانت
نفوسُ المسلمين لها ضِرَاما (٥)

(١) السدام : ماء متدفق (٢) زنه : اتهمه . ولج فى الشىء : تمادى
(٣) الظلام : الظلم (٤) ذاد : دفع (٥) الضرام : الوقود

رأيت شرارَها ينتابُ مِصرا
ومكةَ والجزيرةَ والشآما

اختلاف المسلمين فى الخلافة

رَمَت بالمسلمين إلى شَتَات
وأمسى حبلُ وَحْدَتهم رِمَاما (١)
طوائف فرقهن المَرامى
ولولاَ الحقُّ ما افترقوا مراما

الطائفة التى على الحيدة ومن بايعه

فمنهم من أقام بكسر بيتٍ
وأخلَدَ للسَّكينة فاستَنَاما
وطائفة على الحقِّ استقرت
فكانت بين إخوتها قَوَاما (٢)
تُبايع وهى راضية عليًّا
وَترعَى فى خلافته الذِّماما (٣)

ولما دخل علىّ الكوفة دخل عليه رجل من حكماء العرب فقال :

(١) رمام : أى بال (٢) قواما : وسطا وعدلا (٣) الذمام : العهد

والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهى كانت أحوج إليك منك إليها

أعماله فى الخلافة

بدأ أعماله فى الخلافة بتغيير بعض الولاة خصوصاً من كانوا سبباً فى الخروج على عثمان ، ثم أخذ يرتب حكومته على ما يرى فيه الصالح وهدوء الخاطر ، فلم يلبث أن خرج عليه طلحة وابن العوام ، ولحقا بعائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحرضاها على المطالبة بدم عثمان ، فانضم إليهم خلق كثير ، وساروا بنحو ثلاثين ألف مقاتل إلى البصرة ، وحاربوا واليها ، حتى هزموه وقبضوا عليه ، فلما علم سيدنا على بذلك سار إليهم فى عشرة آلاف رجل وحاربهم محاربةً عنيفةً أسفرت عن هزيمتهم ، وعن قتل طلحة وابن العوام

وكانت عائشة إذا ذاك راكبة فى هودجها على جمل ، فسميت هذه الواقعة (واقعة الجمل) وعند انقضاء الحرب قابلها سيدنا على وأكرمها وردّها معززةً إلى المدينة

ومن أعماله أيضاً أنه ترك المدينة ، واتخذ الكوفة مقراً لحكومته وأرسل لمعاوية بن أبى سفيان يدعوه إلى الطاعة ، والدخول فيما دخل الناس فيه ،

ويقطع طمعه فى الخلافة . فامتنع معاوية وقال : حتى تقتل قاتل عثمان ، ويختار المسلمون لهم إماماً

وبعد مكاتبات كثيرة بينهما فى هذا الشأن دعا معاوية نفسه بأمير المؤمنين واستعد للمحاربة

حروبه — فلما علم سيدنا علىّ كرم الله وجهه بذلك أخذ جيشه وسار لمحاربته بالشام ، فاجتمع الجيشان فى جهة صفين (موضع فى العراق بشاطىء نهر الفرات) وسميت هذه الواقعة (بواقعة صفين)

وحينئذ طلب سيدنا على من معاوية المبايعة والرجوع عن الحرب ، فأبى وأصرّ كل منهما على مطلوبه متحققا أنه الصالح للأمة ، فنشبت الحرب بينهما بقوة وشدة مدة طويلة حتى ظهرت السآمة والضعف فى جيش معاوية

فلما رأى ذلك عزم على الفرار ، فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أطراف الرماح ، فرفعوها طالبين العمل بما فيها من التحكيم ، فقبل سيدنا على ذلك ، واختار أهل الشام (عمرو بن العاص) نائباً عنهم ، واختار أهل العراق (أبا موسى الأشعرى) وكتبوا عهداً بذلك ، وبأن الاجتماع يكون بدومة الجندل (قرية بين الشام والمدينة) فى يوم معلوم

ثم رجع على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى الشام ، وفى الموعد اجتمع

الحكمان وكثير من الناس ، وتفاوضا فى الأمر أياماً ، وكل منهما حريص على صاحبه ، الى أن اتفقا على أن كل واحد منهما يخلع صاحبه ، والمسلمون يبايعون من يشاءون

فقام فى الناس (أبو موسى الأشعرى) خطيباً وقال : قد اتفقت أنا وصاحبى هذا (عمرو ابن العاص) على أمر نرجو به صلاح هذه الأمة ، وهو أن يخلع كل منا صاحبه ، ثم يختار المسلمون خليفةً لهم ، وها أنا قد خلعت عليًّا ومعاوية كما أخلع سيفى هذا (وأخرجه من غمده) ثم قام (عمرو بن العاص) شاهراً سيفه ، وقال : أيها الناس إن صاحبى هذا الأشعرى قد قال ماسمعتم ، وخلع صاحبه عليًّا ، وأنا مُصدقٌ على خلعه أيضاً ؛ ولكنى أثبت صاحبى معاوية كما أثبت سيفى هذا (وأدخله فى قرابه) ونزل ، فصاحت الناس ، حكم الحكمان بغير مافى كتاب الله

وعلى ذلك انتهى الأمر ، وانصرف أهل الشام مع عمرو يهنئون معاوية بالخلافة ، وانصرف أبو موسى ، ولحق بمكة حياء من الناس ؛ ولكن هذه الحيلة لم تكن حاسمة للأمر ، بل بقى كل على ماكان عليه ، وجرت أمور ليس هنا محل ذكرها

وفاته وسبب مقتله

بناء على ما تقدم صارت الدولة الإسلامية حزبين متضادين ،غير أن الفتنة فشت فى حزب سيدنا على ، واستطار شررها مابين خوارج عليه ، وشيعته ، ومحاربين معه ، ومقاتلين لأجله ، حتى كثر النزاع ، وانتشر النفاق ، واختلفت الناس ، وتفرقت قلوبهم ، ولذا لما سأله بعضهم بقوله : كيف تختلف الناس عليك ، ولم تختلف على أبى بكر وعمر ؟ قال: إنهما كانا واليين على مثلى ، وأنا اليوم والٍ على مثلك . فأخذ سيدنا على كرم الله وجهه فى إطفاء تلك الفتنة ، ولكن كان كلما أطفأ واحدةً قامت أخرى ، حتى سئم الحياة ، وصار يستغيث بالله ، ويطلب اللحاق بمن سبقه ، فاجتمع بعض الخوارج وطلبوا قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ؛ فتعهد بقتل الامام علىّ (عبد الرحمن بن مُلجم المرادى) و بقتل معاوية (البرك بن عبدالله التميمى) و بقتل عَمرو (عَمرو بن بكر التميمى)

واتفقوا على تنفيذ ذلك كله فى فجر الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة . فأما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره حتى ضربه فى صلاة الصبح ضربة لم تمته ، وأمر به معاوية فقتل

وأما عَمرو بن بكر فذهب الى عمرو بن العاص بمصر فلم يخرج تلك

الليلة لعذر، وأناب عنه رجلاً يدعى (خارجة بن حبيب) فضربه الخارجى زاعماً أنه عمرو بن العاص فقبض عليه وقتل ، وعلى ذلك جاء المثل المشهور (أراد عمراً ، وأراد الله خارجة)

وأما ابن مُلجم فأتى الكوفة وانتظر عليًا حتى سمعه ينادى للصلاة فضربه بسيفه المسموم قائلا (الحكم لله لا لك يا على ، ولا لأصحابك)

فقال على : قتلنى الرجل ، لا يفوتنكم ، فلما قبضوا عليه ، قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه ، ولا تمثلوا به ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي يابنى عبد المطلب ، ثم قتلوا الرجل بعد موت أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، وكان عمره إذ ذاك ٦٣ سنة ، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، ودفن فى بلدة تسمى بالنجف فى بلاد العجم

تأبينه

قال بكر بن حسان فى تأبين الإمام على قصيدة نذكر منها مايأتى :

قل لابن مُلجَم والأقدار غالبة ... هَدمت للدين والإسلام أركانا

قتلت أفضل مَن يمشى على قدم ... وأفضل الناس إسلاما وإيمانا

وأعلمَ الناسِ بالقرآن ثم بما ... سنَّ الرسولُ لنا شرعاً وتبيانا

صِهر النبيِّ ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نوراً وبرهانا

وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمرانا

وقال أبو الأسود الدؤلى يرثى علياً رضى عنه :

ألا ياعين ويحك أسعدينا ألا تبكى أمير المؤمنينا
وتبكى أم كلثوم عليه بعبرتها وقد رأت اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الحاسدينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا ؟ بخير الناس طرًّا أجمعينا
قتلتم خير مَن ركب المطايا وذللها ومَن ركب السفينا
ومَن لبس النعال ومَن فداها ومَن قرأ المثانى والمبينا
وكل مناقب الخيرات فيه وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسباً ودينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخير نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحق لايرتاب فيه ويعدل فى العدى والأقربينا
وليس بكاتم علماً لديه ولم يخلق مَن المتكبرينا
كأن الناس إذ فقدوا علياً نعام حار فى بلد سنينا
فلا تشمت معاوية بن صخر فإن بقية الخلفاء فينا
وقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أولاد على رضي الله عنه

قد اختلف الناس فى عدد أولاده ، فمنهم من أكثر ، ومنهم من أقل ، ففى كتاب الأنوار لأبى القاسم اسماعيل أن أولاده ٣٢ اثنان وثلاثون ، ستة عشر ذكراً ، وست عشرة أنثى

وفى بغية الطالب : أولاده رضى الله عنه ٣٣ ثلاثة وثلاثون ، خمسة عشر ذكراً ، وثمانى عشرة أنثى بالاتفاق

أما الذكور فهم : الحسن ، والحسين ، ومحسن (وأمهم فاطمة الزهراء البتول بنت الرسول صلى الله علية وسلم) ومحمد الأكبر (أمه خولت بنت جعفر بن قيس الحنيفة) وعبيد الله ، وأبو بكر (أمهما ليلى بنت مسعود) والعباس الأكبر ، ويلقب بالسقاء ، وعثمان ، وجعفر ، وعبد الله (أمهم بنت حزام) ومحمد الأصغر (أمه أم ولد) ويحيى ، وعوف (أمهما أسماء بنت عميس) وعمر الأكبر (أمه أم حبيب) ومحمد الأوسط (أمه امامة بنت أبى العاص) مذكرون فى كتاب نور الأبصار

***

وأما البنات فهن : أم كلثوم الكبرى زوجة عمر بن الخطاب ، ورُقية ، وزينب الكبرى ، شقيقة الحسن والحسين ، ورُقية ، شقيقة عمر الأكبر ، وأم الحسن ، ورملة الكبرى (أمهما أم سعد) وأم هانىء ، وميمونة ، ورملة

الصغرى ، وزينب الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الخير ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، وتقية

وجميعهن مذكورات فى كتاب نور الأبصار

وصف الامام علىّ

ماذا يقول القائل ، فى وصف هذا الإمام العادل ؟ وكل وصاف منسوب إلى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول ؛ وكفى بشهادته صلى الله عليه وسلم بأنه (باب مدينة العلم) دليلاً على مكنون السرّ الذى فيه

فهو أول فى العلوم ، أول فى الشجاعة ، أول فى السخاء ، أول فى الحلم والصفح ، أول فى الفصاحة ، أول فى الزهد ، أول فى العبادة ، أول فى التدبير والسياسة ، أسدُّ الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، لولا تقاه لكان أدهى العرب ؛ كأنما أفرغ فى كل قلب ، فهو محبوب إلى كل نفس ، ظهر من حجاب العظمة بمعاليه ، فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك ، وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة ، أهل الذمة تحبه ، والفلاسفة تعظمه ، وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها ، ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها كأنما هو فأل الخير ، وآية النصر والظفر

هذا ماقاله المرحوم الشيخ محمد عبده فى وصفه

وقيل : دخل ابن عباس على معاوية فقال : يا ابن عباس صف لى علياً ؟ قال : كأنك لم تره . قال : بلى ؛ ولكن أحب أن أسمع منك فيه مقالاً

قال : كان أمير المؤمنين ، رضوان الله عليه ، غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماخشن ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا دعوناه ، وكان مع تقربه إيانا وقربه منا لانبدؤه بالكلام حتى يبتسم ، فإذا هو تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، أما والله يامعاوية لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قابض على لحيته يبكى ، ويتململ تململ السليم وهو يقول :

يا دنيا إياى تغرين ؟ أمثلى تشوقين ؟ لاحان حينك ، بل زال زوالك ، قد طلقتك ثلاثاً لارجعة فيها ، فعيشك حقير ، وعمرك قصير ، وخطرك يسير ، آه آه !! من بعد السفر ، ووحشه الطريق ، وقلة الزاد ! قال :

فأجهش ومن معه بالبكاء . (وقيل إن هذا مروىّ عن ضرار الصدائى)

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين يصف محاسن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) ومن حضره فى قصيدة له :

رأوا نعمة لله « ليست عليهم »

عليك وفضلاً بارعاً لاتُنَازَعُهْ

فعضوا من الغيظ الطويل أكفهم
عليك ومن لم يَرض فالله خادعه

من الدين والدنيا جميعاً لك المنى
وفوق المنى أخلاقه وطبائعه

صفاته ومناقبه

صفاته الخَلقية : كان على كرم الله وجهه ، شديد الأدمة ، نحيل العينين عظيمهما ، أقرب إلى القصر من الطول ، ذا بطن كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع ، أبيض الرأس واللحية

صفاته الخُلقية :

شجاعته : علاوة على ماسبق ذكره من شجاعته ، وإخلاصه للنبى عليه الصلاة والسلام نقول :

كان لعلى كرم الله وجهه فى الحرب مواقف مشهودة يضرب بها الأمثال ، فهو الشجاع الذى ما فر ط قط ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلاَّ قتله وقد شهد الغزوات كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا غزوة (تبوك) فقد حلفه على أهله حين خرج لقتال الروم فى جيش جرار ، وأبلى علىٌ فى نصرة رسول الله مالم يبله أحد

وكان رضى الله عنه قوياً جداً ، فهو الذى قلع (باب خيبر) واجتمع عليه عصبة من الناس ليقلبوه فلم يقدروا . قال جابر بن عبد الله : حمل علىٌ الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها ، وانهم جرّوه بعد ذلك فلم يحمله إلا أربعون رجلا (أخرجه ابن عساكر)

وهو الذى اقتلع هُبَل « صنم كبير كانت قريش تعبده) من أعلى الكعبة ، وكان عظيماً كبيراً فألقاه على الأرض

كرم أخلاقه ، وحلمه ، وعفوه — كان رضى الله عنه أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسىء ، يشهد بذلك أنه ظفر يوم واقعة الجمل بمروان بن الحكم ، وكان أعدى الناس له ، وأشدهم بغضاً ، فصفح عنه وكان عبد الله ابن الزبير يشتمه ويسبه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغد (اللئيم) على بن أبى طالب فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً وصفح عنه ، وقال له : اذهب فلا أرينك ، ولم يزده على ذلك وظفر سعيد ابن العاص بعد واقعة الجمل بمكة ، وكان له عدواً ، فأعرض عنه ولم يقل شيئا . وتمت له الغلبة على السيدة عائشة رضى الله عنها يوم الجمل ، فكانت عاقبة أمرها معه أن جهزها بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وردها الى المدينة مكرمةً محترمةً ، وحارب أهل البصرة وسبوه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقال رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علىٌّ وأصحابه أن يسوغوا له شرب الماء ، فقالوا : لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات عثمان بن عفان

فلما رأى أن الموت لامحالة منه تقدم بأصحابه ، وهجم على عسكر معاوية حملات كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم ، بعد قتل ذريع ، وملكوا عليهم الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفلاة بلا ماء ، فقال له أصحابه وشيعته : امنعهم الماء ياأمير المؤمنين كما منعوك ولا تسقهم قطرة ؛ واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب

فقال رضى الله عنه : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، انسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففى حد السيف مايغنى عن ذلك

تواضعه رضى الله عنه ـ كان يواسى الضعفاء ، ويجالس الفقراء ويساعدهم ، وكان يشترى طعامه بنفسه ويحمله ، فاذا أراد أحد أتباعه حمله عنه ، قال : أبو العيال أحق بحمله ، ولنضرب لكم مثلاً من تواضعه :

حكى سيدنا على عن نفسه قال : جعت بالمدينة جوعاً شديداً فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة (موضع قريب من المدينة) فاذا أنا

بامرأة قد جمعت مدراً (حصى) فظنتها تريد بلّه لتعمله طيناً ، هى فى حاجة اليه ، فأتيتها فعاطيتها كل دلو بتمرة ، فمددت ستة عشر ذنوباً (دلواً) حتى محلت يدى . ثم أتيتها فقلت بكلتا يدى : هكذا بين يديها (وبسط يديه جميعاً) فعدّت لى ست عشرة تمرة ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته فأكل معى ، وقال لى خيراً ، ودعا لى

فانظروا إلى أى حد تواضع سيدنا على حتى اشتغل للمرأة بالأجر وكيف خدمها ؟ ولم يعتمد على أحد فى الحصول على التمر منها ، لعلمه أن الانسان ينبغى ألا يأكل إلا من عرق جبينه ، وأن يجتهد فى العمل للحصول على نفقاته

عبادته ، وتقواه ـ كان رضى الله عنه ، أول من آمن من الصبيان ، فلم يتورط فيما تورطت قريش من العكوف على عبادة الأوثان ، ولم يسجد لصنم قط ، ولذا يدعى ويقال له فيه (كرم الله وجهه) كما تقدم وأقبل على عبادة ربه بقلب يملؤه الإيمان الخالص ، ويعمره الولاء المحض ، فكان إماماً فى العبادة ، والورع ، والتقوى

وفى ذلك قال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب فى قصيدته :

ونفساً لم تذق طعم الدنايا ولا لذّت من الدنيا طعاما
غذاها الدين مذ كانت فشبت على التقوى رضاعا وانفطاما

ونشّأها على كرم وأيد وصاغ من الجلال لها قواما
زكت فسمت عن الدنيا طِلابا وأضنى حبها قوماً وتاما (١)
طوى عنها على الضراء كشحاً وعاف نُضارَها تبراً وسَاما (٢)

زهده — وكان رضى الله عنه سيد الزهاد فى الدنيا ، الجانحين عن الأغترار بزخارفها ، والانخداع بباطلها ، وكان أخشن الناس مأكلا وملبساً ، طلق الدنيا ، وكانت الأموال تجىء إليه من جميع بلاد الإسلام

حدثنا أبو حاتم قال : حدثنا الأصمعى قال :

لما أتى على عليه السلام بالمال أقعد بين يديه الوزان والنقاد ، فكوّم كومة من ذهب ، وكومة من فضة ، وقال : ياحمراء ، ويابيضاء ، احمرى وابيضى ، وغُرّى غيرى ، وأنشد :

هذا جَنَاىَ وخيارُه فيه إذ كل جانٍ يدُه إلى فيه

رأيه وتدبيره — كان رضى الله عنه ، من أحسن الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، يفزع إلى مشورته الخلفاء إذا أشكل عليهم الأمر ، ألاترى أن عمر ابن الخطاب ، وقد عزم أن يتوجه بنفسه لغزو الفرس ، استشار الإمام علياً ، لما يعرفه من حصافة رأيه ، وثقوب فكره ، فأشار عليه بالرأى السديد ، وكان ماقاله له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه ، بكثرة ولاقلة ،

(١) تيمه (٢) قطعه

وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعده ، وأمده حتى بلغ مابلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده

والعرب اليوم ، وان كانوا قليلاً ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع . فكن قطباً ، واستدر الرحى بالعرب ، وأصلِهِمْ دونك نار الحرب الخ

ولقد أشار على سيدنا عثمان بأمور كان فيها خلاصه ، ولو قبلها لم يحدث له ماحدث

سياسته — كان رضى الله عنه صُلْباً فى الحق ، لا تلين قناته هوادة ، ولا تأخذه فيه مرعاة ، وهو يربأ بنفسه أن يستهوى الأفئدة بالمداجاة والمقاربة ، وبذل العطاء ، كما كان يفعل سواه ثم هو يرى أن حيدته عن خطته تلك تنكب عن منهاج الشرع القويم ، وانتقاص لدينه ، وكان من جراء ذلك أن انفض من حوله أمسّ الناس رحماً به ، كأخيه عقيل ، وابن عمه عبد الله بن عباس ، وكان مسلكه ذلك أحد أسباب إخفاقه ولنذكر مثلاً يؤيد ذلك :

رووا أن عقيلاً لزمه دين فقدم عَلَى عليّ بالكوفة فأنزله ، وأمر ابنه الحسن ، فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه ، فاذا هو خبز ، وملح ، وبقل ، فقال عقيل : ماهو إلّا ماأرى ؟

قال : لا . قال . فتقضى دينى . قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ما هى عندى . ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فانه أربعة آلاف فأدفعه اليك ، فقال : بيوت المال بيدك وأنت تسوفنى بعطائك قال : أتأمرنى أن أدفع اليك أموال المسلمين ، وقد ائتمنونى عليها ؟ قال : فإنى آت معاوية . فأذن له ، فأتى معاوية (وكان معاوية زوج خالته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة)

غاضب عقيل أخاه ، وهجره إلى معاوية ، فأكرمه وقربه ، وقضى حوائجه ، وأدى عنه دينه ، وقد قال له معاوية يوماً : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دنياى ، وقد آثرت دنياى ، أسأل الله خاتمة خير . وقال له معاوية : أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك علىّ . قال : صدقت ، إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير من أخى ، وأخى خير لنفسه منك

تصدقه و إحسانه — عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام الظهر ، فسأل ، سائل فى المسجد ، فلم يُعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يديه الى السماء ، وقال : اللّهم اشهد ، إنى سألت فى مسجد نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُعطنى أحد

شيئاً ، وكان علىّ رضى الله عنه فى الصلاة راكعاً ، فأومأ اليه بخنصره اليمنى ، وفيه خاتم من فضة ، فأقبل السائل ، فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى المسجد ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى السماء ، وقال : اللّهم إنّ أخى موسى سألك فقال :

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ طه (فأنزلت عليه قرآنا)

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ القصص

اللّهم وإنى محمد نبيك وصفيك ، اللّهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واجعل لى وزيراً من أهلى علياً اشدد به ظهرى

قال أبو ذر رضى الله عنه : فما استتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال : يا محمد اقرأ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ المائدة (نقلها أبو اسحق أحمد البقلى فى تفسيره)

ونقل الواحدى فى تفسيره برفعه بسنده الى ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان مع علىّ رضى الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم

ليلا ، و بدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا ، و بدرهم علانية ،

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ البينة

قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : أنت وشيعتك تأتى يوم القيامة أنت وهم راضين مرضيين ، ويأتى أعداؤك غضاباً مقمحين

قصة عن تصدق سيدنا على وأهله على الفقراء والمساكين

حصل لسيدنا على رضى الله عنه وأهله جوع ، فأخذ من يهودى صوفاً لتغزله السيدة فاطمة زوجته بالأجر ، ثم اشترى بأجرها ثلاثة أقداح من الشعير ، وفى اليوم طحنوا قدحاً وخبزوه أقراصاً ، ومن عادة العرب أن يطحنوا ويخبزوا فى ساعة واحدة

فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين وقال : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة . أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ،

أطعمونى شيئاً لله ، فأعطوه الأقراص

وفى ثانى يوم جاءهم يتيم وقال مثل ذلك ؛ وفى ثالث يوم جاءهم أسير وقال لهم مثل ذلك أيضا ، ثم باتوا على الماء (أى لم يأكلوا شيئاً) بل كانوا يشربون الماء فقط ، فجاع سيدنا الحسن والحسين جوعاً شديداً فخرج سيدنا علىّ الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك ، فأعطاه سَلَّة وقال له : اذهب بها الى تلك النخله ؛ فرزقهم الله تعالى رطباً جنياً ، فأكلوا حتى شبعوا وفيهم يقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا ﴾ الدهر

فهكذا يكون الإحسان والعمل الصالح لبنى الانسان

وقال فى جوده وكرمه المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب فى قصيدته المسماة بالعلوية مايأتى :

« على حُب الطعام يصدُّ عنه ليطعَمَهُ الأرامل واليتامى »
« سلِ القرآن أو جبريل تعلم مكارم لن تَبيد ولن تُرَاما »
« مَنِ الأبرار يغتبقون كأساً من الرضوان مُتْرَعةً وجَاما[1] »
« علىٌّ والبَتُول وكوكَبَاهُ ضِياء الأرض ان أفق أغاما[2] »
« ثناء فى الكتابِ له عبيرٌ تُقَصِّرُ عنه أرواحُ الخزَامى[3] »

---

(١) اغتبق : شرب الخمر ليلا ـ والجام : كأس فضة
(٢) أغام : كان ذا غيم (٣) الخزامى : نبت طيب

علمه — أما علمه كرم الله وجهه ، فما لا جدال فيه ، يشهد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلىّ بابها) وهذا حديث حسن أخرجه الترمذى ، وتشهد بذلك آثاره من وعظ ، وخطب ، ونثر ونظم ، وبدائع وحكم ، كلها مدونة فى كتبه المشهورة المنشورة بين الأمم مثل نهج البلاغة وغيره

وهو أول من ابتدع علم النحو وأنشأه ، وأملى على أبى الأسود الدؤلى قواعده وأصوله ، وقال له انح هذا النحو يا أبا الأسود ، وكان أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وأخطب الخطباء

وكان رضى الله عنه أبرع الصحابة فى علوم الدين ، إمامًا ثبتاً فى الفقه والتفسير ، حجةً فى الفتوى ، ليس أدل على ذلك من أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه رجع اليه فى كثير من المسائل التى أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقال غير مرة : لولا على لهلك عمر ، وقال : لا يفتين أحد فى المسجد وعلىٌّ حاضر ، وقال : اللهم لا تبقنى لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، والدليل على ذلك القصة الآتية التى تدل على حذقه وعلمه :

روى أن رجلا أتى به الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان صدر منه أن قال لجماعة من الناس وقد سألوه ، كيف أصبحت ؟ قال . أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصدق اليهود والنصارى ، وأمن بمن لا أدرى ، وأقر بما لم يُخلق

فأرسل عمر الى على رضى الله عنهما : فلما جاءه وأخبره بمقالة الرجل فقال : صدق

١ — يحب الفتنة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ التغابن

٢ — ويكره الحق ، يعنى الموت لقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ق

٣ — ويصدق اليهود والنصارى لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ البقرة

٤ — ويؤمن بما لم يره ، أى يؤمن بالله عز وجل

٥ — ويقر بما لم يُخلق يعنى الساعة

فقال عمر رضى الله عنه : أعوذ بالله من معضلة لا علىّ لها

وقال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب فى قصيدته المشهورة بالعلوية فى مدح سيدنا على بالعلم :

وسَل أهلَ السلام تَجد عليًّا أمام الناس يبتدر السلاما

حَوى علم النبوة فى فؤاد طَمَا بالعلم زخَّاراً فَطَامَا (١)

---

(١) طما : زخر وعلا ، وطام : حسن عمله

سقاه الحق أفواق المعانى وهيَّمة به حبًّا فهاما (١)
وزوَّده اليقينَ به فكانت أفاوقُ اليقين له قِواما
رَمى فى عالم الأنوار سَبخاً الى سُوح الجلال به ترامى (٢)

حكمه وقضاؤه ـ قال علىّ رضى الله عنه: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتنى وأنا شاب أقضى بينهم ، ولا أدرى ما القضاء ؟ فضرب صدرى ثم قال : اللَّهم أهد قلبه ، وثبت لسانه ، فو الذى فلق الحبة ، ما شككت فى قضاء بين اثنين

وقال عليه الصلاة والسلام أقضاكم علىّ

والسبب فى ذلك ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً مع جماعة من الصحابة فجاءه خصمان ، فقال أحدهما : يا رسول الله إن لى حماراً ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حمارى

فبدأ رجل من الحاضرين ، فقال : لاضمان على البهائم

فقال صلى الله عليه وسلم : اقض بينهما يا على

فقال على لهما : هل كانا مُرسلين أم مشدودين ؟ أم أحدهما مشدود والآخر مُرسل ؟

فقالا : كان الحمار مشدوداً ، والبقرة مُرسلة ، وصاحبها معها

---

(١) أفواق : اللبن ، والمراد هنا الإطلاق (٢) السوح : جمع ساحة

فقال علىّ على صاحب البقرة ضمان الحمار

فأقرّ صلى الله عليه وسلم حكمه ، وأمضى قضاءه

شفقته وعدله فى رعيته - يحكى أن سيدنا علياً جاء الى أصحاب التمر ، فوجد جارية تبكى عند التمر (وكان الخليفة وقتئذ) فلما رأى هذه الجارية تبكى أراد أن يعلم سبب بكائها ، فجاء اليها وقال لها : ماشأنك ؟ (يعنى لماذا تبكين ؟) فقالت الجارية : باعنى التمار بدرهم ، فردّه مولاى (سيدى) ولم يقبله . فقال سيدنا على : ياصاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهمها فانها خادم ، وليس لها أمر (يريد أن البيع لايلزمها لأن سيدها هو صاحب الشأن)

فدفع التمار سيدنا علياً ، وكان بعض الناس حاضراً

فقال المسلمون للتمار : أتدرى مَن دفعت ؟ أى هل تعلم مَن الذى دفعته بيدك ؟

فقال الرجل : لا : قالوا : هو أمير المؤمنين

فصب الرجل تمرها ، وأعطاها درهمها ، وأراد أن يعتذر لسيدنا على ، لأنه أخطأ فى دفعه ، وكان عليه أن يقبل منه كلامه فى أول الأمر

فجاء لسيدنا على ، وقال : أحب أن ترضى عنى

فقال على رضى الله عنه : ما أرضانى عنك إذا وفيت الناس حقوقهم

فاعتذر الرجل لسيدنا على عما كان منه

فمن هـذه القصة تعلم مقدار تواضعه ، وحلمه ، وعفوه ، وعدم ضرره للرجل الذى أساء الأدب ، وكيف نصح له ومنعه من ظلم الناس ؟ وأمره برد الحقوق الى أصحابها ، وترى أنه كان يهمه أمر الرعية والعدل بينهم ، وحسن المعاملة فى البيع والشراء مثل سـيدنا عمر ، وسيدنا عثمان ، رضى الله عنهم أجمعين

أمانته على مال المسلمين وعدله ـ كان رضى الله عنه أميناً على مال الأمة : فمما يؤثر عنه ، أنه كان فى بيت المال عقد لؤلؤ ، فطلبته ابنته من الخازن ، واستعارته لتتجمل به يوم عيد الأضحى ، فأرسله اليها عاريةً مضمونةً ، ترد لبيت المال بعد ثلاثة أيام ، فرآه سيدنا على فى عنق ابنته يوم العيد ، فعرفه فسألها من أين جاء اليها ؟

فقالت : استعرته من خازن بيت المال ، لأتزين به فى العيد ، ثم أرده ، فبعث اليه سيدنا على ووبخه على إعارته العقد لبنته بغير إذنه ، وبغير رضـا المسلمين . فقال له الخازن : إنها ابنتك ، وطلبته منى عارية مردودة ترده سالمـاً إلى موضعه ، فأمره سيدنا على بأن يرده من يومه وحـذّره بألّا يعود لمثل ذلك

ثم وبخ ابنته على ذلك ، فقالت له (وكانت تظن أنه يوافقها) :

يا أمير المؤمنين ، أنا ابنتك ، و بضعة منك ، فمن أحق بلبسه منى ؟ فقال لها : أكل نساء المهاجرين ، والأنصار ، يتزين فى مثل هذا العيد بمثل هذا ؟ (يريد أنها لاحق لها فى ذلك)

ثم أمرها برده ، فأعادته الى بيت المال

فمن هذه القصة نعلم مقدار حب سيدنا على للحق ، والعدل ، والانصاف ، وشدة أمانته ، وحرصه على مال المسلمين ، وأنه كان لا يحب أن تكون أسرته أحسن من باقى أسر المسلمين

وقيل : انه كان يكنس بيت المال ثم يصلى فيه رجاء أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين

يوم المباهلة - هو اليوم الذى أخذ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام عليا كرم الله وجهه ، والسيدة فاطمة الزهراء زوجته والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين وقصد (مباهلة النصارى) ودعا القوم المشركين للبراز للدعاء والمباهلة ، فجاء زعيم النصارى ونظر فى وجوههم ، فصعق من النور الربانى ، والهيبة والجلال ، فقال لقومه : هؤلاء قوم إذا دعوا لا ترد دعوتهم

وقد نزلت فى المباهلة الآية الآتية :

﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ آل عمران

وفى ذلك يقول الشيخ محمود عبد الله القصرى فى قصيدته العلوية :

وخصّهم يوم قصد الإبتهال بأن
قال اتبعونى لحجى فرقة الاضَم
فتابعوه خروجاً للوجوه ضيا
يبديه سر معان فى قلوبهم
قال الزعيم وجوه لاترد اذا
توجهت لاله العرب والعجم
لآن آمنت قبل الابتهال بأن
قد ينكر الفم طعم الماء من سقم
قد حصحص الحق أنى لا أباهلكم
وانى مخطىء فى الزّعم والزّعم

الاحاديث الواردة فى فضله

قد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل الإمام علىّ كرم الله وجهه وحب رسول الله له نذكر بعضها :

١ - قال الإمام أحمد بن حنبل : ماورد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضائل ماورد لعلى رضى الله عنه

(أخرجه الحاكم)

٢ - وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلّف على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال : يارسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان ، فقال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ؟ غير أنه لانبى بعدى »

٣ - وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم خيبر : لأعطين اراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يدوكون (أى يخوضون ويتحدثون) ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علىّ بن أبى طالب ؟ فقيل هو يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا اليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عينيه ، ودعا له فبرئ ، حتى كأن لم

يكن به وجع ، فأعطاه الراية

٤ ـ وأخرج مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : لما نزلت هذه الآية : « ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً فقال : اللّهم هؤلاء أهلى

٥ ـ وأخرج الترمذى والحاكم ، وصححه عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرنى بحب أربعة ، وأخبرنى أنه يحبهم ، قيل : يارسول الله سمهم لنا ، قال : علىّ منهم (يقول : ذلك ثلاثا) وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان

٦ ـ وأخرج التُرمذى والنسأى وابن ماجه عن حبشى بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « علىّ منى وأنا من علىّ »

٧ ـ وأخرج التُرمذى عن ابن عمر قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فجاء على تدمع عيناه فقال : يارسول الله آخيت بين أصحابك ، ولم تؤاخ بينى وبين أحد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أخى فى الدنيا والآخرة

٨ ـ وأخرج مسلم عن على قال : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة انه لعهد النبى الأمى الىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق

٩ ـ وأخرج الترمذى والحاكم عن على قال : قال رسول الله ﷺ

(أنا مدينة العلم وعلىّ بابها) هذا حديث حسن على الصواب ، وسبق ذكره فى علمه

١٠ - وأخرج الحاكم وصححه عن على قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت : يارسول الله بعثتنى وأنا شاب أقضى بينهم ، ولا أدرى ما القضاء ؟ فضرب صدرى بيده ثم قال اللّهم اهد قلبه ، وثبت لسانه ، فوالذى فلق الحبة ماشككت فى قضاء بين اثنين ، وسبق ذكره فى قضائه

١١ - وأخرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب : علىّ أقضانا

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال : أفرض أهل المدينة وأقضاهم على بن أبى طالب

١٢ - وقال عبد الله بن عيّاش بن أبى ربيعة : كان لعلى ماشئت من خرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة ، والقدم فى الإسلام ، والعهد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب ، والجود فى المال

١٣ - وأخرج أبويعلى عن أبى هريرة قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطى علىّ ثلاث خصال ، لأن تكون لى خصلة منها أحب الىّ

من أن أعطى حمر النعم . فسئل ، وماهن ؟ قال : تزوجه ابنته فاطمة وسكناه المسجد ، لايحل لى فيه مايحل له ، والراية يوم خيبر

١٤ - وأخرج أبو يعلى ، والبزار عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آذى عليا فقد آذانى

١٥ - وأخرج الطبرانى بسند صحيح عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحبّ علياً فقد أحبنى ، ومَن أحبنى فقد أحبّ الله ، ومن أبغض علياً فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله

١٦ - وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سبّ علياً فقد سبنى »

١٧ - وأخرج الطبرانى عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « علىّ مع القرآن والقرآن مع على لايفترقان حتى يردا على الحوض

آثاره

نبذ من كلامه ، وحكمه ، ووصاياه

١ — النثر

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما انتفعت بكلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعى بكتاب كتبه إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فانه كتب الىّ :

أما بعد فان المرء يسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، ويسره إدراك مالم يكن ليفوته ، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على مافات منها ، وما نلت من دنياك ، فلا تكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه ، وليكن همُّك لما بعد الموت ، والسلام

وأخرج ابن عساكر عن ربيعة قال : قال علىّ : كونوا فى الناس كالنحلة فى الطير ، إنه ليس فى الطير شىء إلا وهو يستضعفها ، ولو يعلم الطير مافى أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها

خالِطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم ، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم ، فان للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحبّ

وأخرج ابن يحيى بن جعدة قال : قال على بن أبى طالب : ياحملة القرآن

اعملوا به ، فانما العالم من علم ، ثم عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم ، يجلسون حلقاً فيباهى بعضهم بعضاً ، حتى إن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لاتصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله

وقال رضى الله عنه يخاطب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن اردت أن تلحق بصاحبيك ، فاقصر الأمل ، وكُل دون الشبع ، وارقع القميص ، والبس الإزار ، واخصف النعل تلحق بهما

وقال رضى الله عنه : الشىء شيئان : شىء قصر عنى لم أرزقه فيما مضى ، ولا أرجوه فيما بقى ، وشىء لاأناله دون وقته ، ولو استعنت عليه بقوة أهل السموات والأرض

فما أعجب الإنسان ليسره درك مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، ولو أنه فكر لأبصر ، ولعلم أنه مدبر ، واقتصر على ماتيسر ، ولم يتعرض لما تعسر ، واستراح قلبه مما استوعر

فكونوا أقل ما تكونون فى الباطن آمالاً ، وأحسن ما تكونون فى الظاهر أعمالاً ، فان الله تعالى أدب عباده المؤمنين أدباً حسناً ، فقال عز من قائل :

﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقرة

ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ، طلباً لما عند الله تعالى ! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله

ومن كلامه : التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميراث ، ولا وحشة أشد من العجب

ومن كلامه رضى الله عنه : لاتكون غنياً حتى تكون عفيفاً ، ولا تكون زاهداً حتى تكون متواضعاً ، ولا تكون متواضعاً حتى تكون حليماً ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ماتحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلاً أن يرتكب ما عنه نهى ، وكفى به عقلاً أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله ، واكفف عن الناس ماتحب أن يكف الناس عنك ، وأكرم من صافاك ، وأحسن مجاورة من جاورك ، وإن جانبك

واكفف الأذى ، واصفح عن سوء الأخلاق ، ولتكن يدك العليا إن استطعت ، ووطن نفسك على الصبر على ما أصابك ، وألهم نفسك القناعة ، وأكثر الدعاء تسلم من ثورة الشيطان ، ولا تنافس على الدنيا ، ولا تتبع الهوى ، وعليك بالشيم العالية ، تقهر من يناويك

وعنه أيضاً : قل عند كل شدة . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم تكف ، وقل عند كل نعمة : الحمد لله ، تزد منها

و إذا أبطأت عليك الأرزاق ، فاستغفر الله يوسع عليك . مفتاح الجنة الصبر ، ومفتاح الشرف التواضع ، ومفتاح الكرم التقوى

قال ينصح ابنه الحسن

يابنى اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك و بين غيرك ، فأحب لغيرك ماتحب لنفسك ، واكره له ماتكره لها ، ولا تظلم كما لاتحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ، مانستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل مالاتعلم ، و إن قلّ ماتعلم ، ولا تقل مالا تحب أن يقال لك ، ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرًّا

واعلم أن حفظ مافى يديك ، أحَب الىّ من طلب مافى يد غيرك ، ولاتأكل من طعام ليس لك فيه حق ، فبئس الطعام الحرام ، وجدّ فى الحصول على معاشك ، و إياك والاتكال على المنى ، فانها بضائع الموتى والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور

وقال ينصحه أيضا

يابُنى سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، وإياك أن تذكر فى الكلام ما كان مضحكاً ، وإن حكيت ذلك عن غيرك ، وأكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذى به تطير ، وأصلك الذى إليه تصير ، ويدك التى بها تصول ، ولسانك الذى به تقول ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه

وقال ينصحه أيضا

يابنى ابذل لصديقك كل المودة ، ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة ، وأعطه كل المواساة ، ولا تفش له كل الأسرار

وكتب إلى ابنه الحسن ينصحه

أحيى قلبك بالموعظة ، ونوره بالحكمة . وذلله بذكر الموت وقوه بالغنى عن الناس ، وحذره صولة الدهر وتقلب الأيام والليالى ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وسر فى ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوه ، وأين حلوا ونزلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة ، وحلوا ديار الغربة ،

وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لاتعرف ، والخطاب فيما لاتكلف ، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك ، ولا تأخذك فى الحق لومة لائم ، وتفقه فى الدين ، وعوّد نفسك الصبر على المكروه

وقال يعظه أيضاً

يابنى احفظ عنى أربعا وأربعا لايضرك ماعملت معهن : أغنى الغنى العقل ؛ وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ؛ وأكرم الحسب حسن الخلق

يابنى إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ماتكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب ، فانه كالسراب ، يقرب اليك البعيد ، ويبعد عنك القريب

من توصيته لجيش بعثه إلى العدو

إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم فى قبيل الأشراف ، وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم ردءا ودونكم مرداً ، ولتكن مقاتلتكم من

وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن

واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة .

وصيته لأولاده

يابَنى ، عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا إليكم ، وإن فقدتم بكوا عليكم

يابَنى ، إن القلوب جنود مجندةٌ تتلاحظ بالمودة ، وتتناجى بها ، وكذلك هى فى البغض ، فاذا أحببتم الرجل من غير حق سبق منه إليكم فأرجوه ، واذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه

نبذ من كتبه

كتب الى معاويه ينصحه

اتق الله فيما لديك ، وانظر حقه فى عليك ، وارجع الى معرفة مالاتعذر بجهالته ، فان للطاعة أعلاماً واضحة ، وسبلاً نيرةً ، ومحجةً نهجةً ، وغايةً

مطلوبةً ، يردها الأكياس ، ويخالفها الانكاس ، من نكث عنها جار عن الحق ، وخبط فى التيه ، وغير الله نعمته ، وأحل به نقمته ، فنفسك نفسك ، فقد بين الله لك سبيلك ، وحيث تناهت بك أمورك ، فقد أجريت الى غاية خسر ، ومنزلة كفر

وكتب الى عامله على البَصرة ينصحه

دع الإسراف مقتصداً ، واذكر فى اليوم غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل ليوم حاجتك

أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين ، وأنت عنده من المتكبرين ؟ وتطمع وأنت متمرغ فى النعيم ، تمنعه الضعيف والأرملة ، أن يوجب لك ثواب المتصدقين ؟ وإنما المرء مجزى بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، والسلام

كتب الى عامله على البَصرة ينصحه

كتب على كرم الله وجهه الى عثمان بن حنيف عامله على البَصرة وكان بلغه أنه دعى الى وليمة فمضى اليها ، قال رحمه الله :

أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى أن رجلاً من فتية أهل البَصرة

دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل اليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب الى طعام قوم عائلهم مَجفو ، وغنيهم مَدعو ، فانظر الى ماتقضمه ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ، ألا وان لكل مأموم إماماً يقتدى به ، ويستضىء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه (الإزار والرداء) ومن طعامه بقرصية ، ألا وانكم لاتقدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بورع واجتهاد ، وعفة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالى ثوبى طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتانى دَبرة ، ولهى فى عينى أدهى وأوهى من عصفة مِقرة (أى مُرَّة)

كتب معزياً قوماً فى ميت لهم

إن هذا الأمر ليس بكم بدىء وليس إليكم انتهى . وقد كان صاحبكم هذا يسافر فعدوه فى بعض أسفاره فإن قدم عليكم وإلا فتقدمون عليه .

ومن كلامه فى الحكم

ليس شىء أحسن من عقل زانه علم ، ومن علم زانه حكم ، ومن حلم

زانه صدق ، ومن صدق زانه رفق ، ومن رفق زانه تقوى .

إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض ، وأداء الفرض ، والوفاء بالعهد ، والإيجاز بالوعد .

ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى مايخافه وأبعد مما يرجو .

ومن حكمه كرم الله وجهه

البخل عار ، والجبن منقصة ، والفقر يخرس الفطن عن حجته ، والمقل غريب فى بلدته ، والعجز آفة ، والصبر شجاعة ، والزهد ثروة ، والورع جنة ، نعم القرين الرضا ، والعلم وراثة كريمة ، والآدب حلل مجددة ، والفكر مرآة صافية ،

إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، و إذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه

من أبطأ عمله لم يسرع به نسبه ، ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه .

نبذ من حكمه وأمثاله

خير اخوانك من واساك ، وخير منه من كفاك . خير مالك ما أعانك على حاجتك ، من كان فى النعمة جهل قدر البلية ، السؤال مذلة ، والعطاء محبة ، صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، الحرُّ حر ولو مسه الضر . ماضل من استرشد ، ولا خاب من استشار ، المودة بين الآباء صلة بين الأبناء ، جودة الكلام فى الاختصار ، خير الكلام ماقل ودل ، ولم يطل فيمل ، جليس المرء مثله ، خف الله تأمن غيره ، خالف نفسك تسترح ، خير الأصحاب من يدلك على الخير ، دليل عقل المرء فعله ، ودليل علمه قوله ، دوام السرور برؤية الإخوان ، رفاهة العيش فى الأمن ، دم على كظم الغيظ تحمد عواقبك ، ذكر الموت جلاء القلوب ، زينة الباطن خير من زينة الظاهر

حكم وأمثال له أيضاً

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، ماهلك امرؤ عرف قدره . المرء مخبوء تحت لسانه . من عذُب لسانه كثر إخوانه . بالبرّ يستعبد الحر . لامروءة لكذوب . لا داء أعيى من الجهل . لا مرض أضنى من قلة العقل . المرء عدو ماجهل . الفصح بين الملأ تقريع .

إذا تم العقل نقص الكلام . من طلب ما لم يعنه فاته مايعنيه من كثر مزاحه لم يخل من حقد عليه أو استخفاف به

قلب الأحمق وراء لسانه ، ولسان العاقل وراء قلبه

شذرات من خطبه

خطبته بعد البيعه له بالخلافة

لما تمت بيعة علىّ برضا معظم أهل المدينة صعد رضى الله عنه المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ، ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى تؤدكم الى الجنه ، إن الله حرم حرمات غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق . لايحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت ، فان الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا ، فانما منتظر بالناس أخراهم

اتقوا الله (عباد الله) فى بلاده ، وعباده ، فانكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولاتعصوه ، واذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض.

ثم نزل

من خطبة له فى الوعظ

رحم الله امرءاً سمع حكما فوعى ، ودعا الى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا ، راقب ربه ، وخاف ذنبه ، قدم خالصاً ، وعمل صالحاً ، اكتسب مذخوراً ، واجتنب محذوراً ، رمى غرضاً ، وأحرز عِوَضاً . كابر هواه ، وكذب مناه ، جعل الصبر مطية نجاته ، والتقوى عُدة وفاته ، ركب الطريقة الغَراء ، ولزم المحجة البيضاء اغتنم المهل ، وبادر الأجل ، وتزوَّد من العمل

من خطبة له فى الوعظ أيضا

أعجب مافى الانسان قلبه ، وله مواد فى الحكم وأضداد من خلافها ، فان سنح (ظهر) له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وإن أتاه الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته العزة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى ، وان عضته فاقة بلغ به البلاء ، وان جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط فى الشبع كظته (ملأته) البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له قاتل

ومن خطبة له فى التقوى

حمد الله وأثنى ثم قال : أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله ، ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فانه من فرط فى عمله لم ينتفع بشىء من أمله

أين التعب بالليل والنهار ؟ المقتحم للجج البحار ، ومفاوز القفار ، يسير من وراء الجبال ، وعالج الرمال . يصل الغدوّ بالرواح ، والمساء بالصباح ، فى طلب محقرات الأرباح هجمت علية منيته فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ماجمع بوراً ، وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسوراً

أيها اللاهى الغار بفسه كأنى بك ، وقد أتاك رسول ربك ، لايقرع لك باباً ، ولا يهاب لك حجاباً ، ولا يقبل منك بديلاً ، ولا يأخذ منك كفيلاً ، ولا يرحم لك صغيراً ، ولا يوقر فيك كبيراً ، حتى يؤديك الى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأمم الخالية ، والقرون الماضية

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشيّد ، وزخرف ونجد ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يُمتّع ؟

أين من قاد الجنود ، ونشر البنود ؟ أضحوا رفاتا ، تحت الثرى أمواتاً ، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون

عباد الله ، فاتقوا الله ، وراقبوه ، واعملوا لليوم الذى تسير فيه الجبال

وتشقق السماء بالغمام ، وتتطاير الكتب عن الأيمان والشمائل ، فأىّ رجل يومئذ تراك ؟ أقائل : هاؤم اقرءوا كتابيه ، أم ياليتنى لم أوت كتابيه نسأل من وعدنا باقامة الشعائر جنته أن يقينا سخطه

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظةِ كتابُ الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

هذا وإن كتاب نهج البلاغة قد جمع من خطب الإمام على رضى الله عنه ونصائحه ، ومواعظه ، ما فيه الكفاية ، بعد كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لمن أراد التضلع والاستزادة من النصح والإرشاد

شعره

جاء فى كتاب ترجمة على بن أبى طالب للاستاذ أحمد زكى صفوت المدرس بدار العلوم سابقاً مايأتى :

يعزى الى الامام على كرم الله وجهه ديوان شعر فيه زهاء ألف وأربعمائة بيت أكثرها فى الحكمة ، والزهد ، والابتهال ، وهو فى جملته ضعيف الصناعة ، وقد عزاه بعضهم الى الشريف الرضى جامع نهج البلاغة

ولم يصح منه إلا النزر النادر اليسير ، مما تجيش به نفسه فى مواطن النزال ، ومصارعة الأبطال ، فى عدم المبالاة ، أو عند استحسان بلاء من أبلى فى وقائعه

أيام صفين من القبائل كهمدان وربيعة

فمن ذلك ماذكره ياقوت الحموى فى معجم الأدباء عن أبى عثمان المازنى من أنه لم يصح أن علياً تكلم من الشعر بشىء غير هذين البيتين وصوبه الزمخشرى :

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى فلا وربك مابرّوا ولا ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتى لهم بذات ودقين لايعفو لها أثر
(ذات ودقين ـ الداهية)

وقال ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة : من شعر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان مجوّداً ، ماقاله يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا فوارسُها حمر النحور دوامى
تيممت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جُنتى وسهامى
فجاو بنى من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كأسد ضِرام

وذكر ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد : أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال فى حضين بن المنذر صاحب رايته بصفين :

لمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حُضين تقدما
يقدمها فى الصف حتى يزيرها حياض المنايا تقطر السم والدما

جزى الله عنى والجزاء بكفه ربيعة خيراً ماأعف وأكرما

وقال فى همدان :

لهمدان أخلاق ودين يزينهم وبأس إذا لاقوا وحسن كلام

فلوكنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وذكر الطبرى فى تاريخه ، وهو ممن يوثق بأخباره : إن لعلى رضى الله عنه أشعاراً وأرجازاً قالها حين البيعة ، وفى وقعة الجمل ، ووقعة صفين : فمن رجزه فى وقعة الجمل

يالهف نفسى على ربيعة ربيعة السامعة المطيعة

وفى وقعة صفين :

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الحاوية (١)

وذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب بعض أرجازه فى صفين وفى قتال الخوارج ، فمن رجزه فى قتال أهل النهروان :

يأيها ذا المبتغى عليّا إنى أراك جاهلاً شقيّا

قد كنت عن كفاحه غنيا هَلُمَّ فابرز هاهنا إليّا

وكان علىٌّ كثيراً مايذكر هذين البيتين :

أشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا

(١) البطن

ولا تجزع من الموت إذا حلّ بناديكا

وذكر أبو على القالى ، فى كتابه الأمالى ، بضعة أبيات له فى الفخر :

إذا المشكلات تصدّين لى كشفت حقائقها بالنظر

وإن برقت فى مخيل [1] الصوا ب عمياء لا يجتليها البصر

مقنّعة بغيوب الأمور وضعت عليها صحيح الفكر

لسانى كشقشقة [2] الأرحبى [3] أو كالحسام اليمانى الذكر

ولست بأمّعة [4] فى الرجال يسائل هذا وذا ما الخبر؟

ولكننى مذرب [5] الأصغرين [6] أبين مما مضى ما غبر

وذكر المرحوم الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول للغة العربية بوزارة المعارف فى كتابه المواهب الفتحية . وقد قال الشّعبى : كان أبو بكر شاعراً ، وكان عمر شاعراً ، وكان عثمان شاعراً ، وكان علىّ أشعر الثلاثة والله أعلم

---

(١) المخيل : السحاب الذى يخال فيه المطر

(٢) الشقشقة : مايخرجه البعير من فيه إذا هاج

(٣) الأرحبى : نسبة إلى (أرحب) قبيلة من همدان

(٤) أمعة : الرجل الذى لا رأى له ولا عزم

(٥) مذرب : حاد ماض

(٦) الأصغران : القلب واللسان

دستور على بن أبى طالب كرم الله وجهه

إن لعلى بن أبى طالب دستوراً هو فى الحق أبو الدساتير، فهو يقرر حقوق الرعية، ويحدد السلطات، ويحصن القضاء، ويحمى القضاة — حتى منع العزل — الذى يهتفون به اليوم كان مقرراً فى دستور علىّ منذ ثلاثة عشر قرناً، وهو إلى ذلك صورة عُليا للسياسة الرشيدة، لم يدع شيئاً من فضائل الحكم، ولا كرائم الولاية إلا أتى عليها فيضاً مما تجيش به الفطر السليمة مطبوعاً بطابع الدين الأسمى

هذا هو الدستور يعنى به على بن أبى طالب إلى واليه على مصر ليعمل به فى حكم البلاد

وإن شئت فهو دستور السياسة الإسلامية لرجل الإسلام علىّ يقول على لواليه فيما يجب على الوالى لرعيته

« أشعر قلبك الرحمة بالرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، وممن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده

« وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس،

فإن فى الناس عيوباً الوالى أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك، ولا تعجلَنَّ إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاش وإن تشبه بالناصحين ، ولا يكونن المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة »

فيالها من أحكام دستورية امتزج فيها القانون بالحق

دستوره من رعاية خراج الدولة والرفق فى جباية الضرائب إذا ما أزمت الأزمة

يقول على لواليه :

« وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله

« وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، فإن شكى الناس ثقلاً أوعلةً أو انقطاع شِرب أوغرقاً اغتمر الأرض ، أوعطشاً أجحف بها خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شىء خففت به المؤونة عنهم فإنما

يؤتى خراج الأرض من أعواز أهلها »

فهل رأيتم حناناً من الراعى على رعيته أبلغ من ذلك الحنان ؟ وهل رأيتم سياسة عمرانية أنزه من تلك السياسة الإسلامية البارة ؟

دستوره من تحصين القضاء وحماية القضاة

حصّن على القضاء وحمى القضاة من قبل أن تعرف تلك المبادىء فى النظم الحديثة ، وتلك لعمر الحق عظيمة من عظيمات الإسلام فكان علىّ يقول لواليه :

« واختبر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه .

« وليكن القاضى أوقف الناس عند الشبهات ، وآخذ بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم ، وأصبرهم على كشف الأمور ، وأحرصهم عند اتضاح الحق ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء - وأولئك قليل

« ثم أكثر بعد ذلك تعهد قضائه وأفسح له فى البذل مايزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر فى ذلك نظراً بليغاً »

تلك بعض آيات الدستور العلوى فاقرأها وافحصها تجدها غاية فى الإحكام والأحكام .

وصية علىّ لمن يستعمله على الصدقات

فيقول له : انطلق على تقوى الله وحده ، لا شريك له ، ولا تروعنّ مسلماً ولا تجتازن كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله

فإذا قدمت الحىّ فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ثم تقول : عباد الله ، أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل : لا فلا تراجعه ، وإن أنعم لك مُنعم فانطلق معه من غير أن تخيفه ، أو توعده أو تعسفه أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فإن أكثرها له . فإذا آتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمةً ولا تفزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها . »

تلك مأثرة من سياسة علىّ ومن شاء أن يستزيد فإلى آثار علىّ وإنها لجليلة وإنها لخالدة

كلمة عامة فى على بن ابى طالب

إن علياً - كرم الله وجهه - نشأ فى الإسلام منذ صباه ، فلم تمازجه عادات الوثنية والجاهلية ، وقد ترعرع فى حضن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ملازماً له ، وفى سبيله مستميتاً ، فكانت له المواقف الخطيرة بين يديه ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يعطف عليه ، ويحبه كثيراً كما ذكر فى أحاديثه ، وقد اشتهر رضى الله عنه بالشدة ، والورع ، وعدم المداجاة

فلما ولىَ الخلافة سار فيها بهذه الأخلاق الفاضلة ، وكان العرب قد ابتعدوا قليلاً عن حياة السذاجة ، فلم تكن الشدة تقع لديهم موقعاً مرضياً شأنها فى عهد عمر

ولم يستمع علىّ رضى الله عنه لنصح الناصحين بالتساهل مع معاوية وغيره ، فاتسعت دائرة الفتنة ، وحدث ماحدث من الحرب الداخلية (الواردة فى كتب التاريخ)

وكان العرب من جهة ثانية قد شعروا بالحياة الناعمة ، والرفاهية ، وأخذ حب الجاه والمركز يقوى نفوس بعض رجالهم ، فكان ذلك أيضاً سبباً من أسباب كثرة الخلاف ، بل ان هذا من الأسباب

الرئيسية التى حملت معاوية وعمراً وطلحة والزبير على الخلاف ، وقد كانت الحروب الداخلية مانعاً قوياً ، منع المسلمين من الاستمرار فى فتوحاتهم الخارجية ، فلم تتسع البلاد التى دخلت فى حوزة العرب أكثر مما كانت عليه فى عهد عثمان رضى الله عنه ، هذا الى أن الفتن الداخليه قد فتحت باباً لكثرة الفرق الإسلامية من شيعة (١) ، وخوارج (٢) ، وأوجدت تباعداً بين قلوب المسلمين فنفر بعضهم من بعض فى أقطار الحجاز والعراق والشام نفوراً كان سبباً فى تكرار الفتن ودس الدسائس من حين إلى حين

وكان علىٌ ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهى : الشجاعة والعفة ، والفصاحة

١ — فأما الشجاعة فقد كان محله منها لايجهل ، وقف المواقف المشهودة المعهودة ، وخاض غمرات الموت ، لايبالى أوقع على الموت ،

---

(١) الشيعة هم الذين نصروا علياً رضى الله عنه على خصومه ، وظلوا متحزبين له ولأبنائه من بعده ، وكثيراً ما خرجوا ضد خلفاء الأمويين ثم العباسيين انتصاراً لأبناء على مع تعصبهم فى حبة وحب أبنائه وهم فرق عديدة

(٢) أما الخوارج فهم الذين خرجوا على علىّ ومعاوية لأنهما فى نظرهم مصدر الفتن بين المسلمين . وقد تكرر خروج الخوارج ضد خلفاء بنى أمية اعتقاداً منهم بأنهم يتولون حكم المسلمين بغير حق وصلاحية، وكانوا يظهرون الورع والتقوى، ويستميتون فى حروبهم ضد جيوش الخلفاء الأمويين وأنصارهم وهم فرق عديدة

أم وقع الموت عليه ؟ وأول ماعرف من شجاعته مبيته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ، وهو يعلم أن قوماً يترصدونه ، حتى إذا خرج قتلوه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر فى نفسه

ثم فى واقعة بدر ، وما بعدها من المشاهد ، كان علماً خفاقاً لايخفى مكانه ، يبارز الأقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته ، وقد آتاه الله من قوة العضل ، وثبات الجنان ، القسط الأوفر ، أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنه ، حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ، ففعل الأفاعيل ، وكان الناس يهابون مواقفه ، ويخشون مبارزته ، لما يعلمون من شدة صولته ، وقوة ضربته

٢ ـ وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه مجولاً ، صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صباه ، وأخذ عنه القرآن الكريم ، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبدمناف ثم بنى هاشم ، ولم يزل معه الى أن توفى عليه السلام . كل هذا أكسبه قوة فى استنباط الأحكام الدينيه ، فكان الخلفاء (أبو بكر وعمر وعثمان) يستشيرونه فى الأحكام ، ويرجعون الى رأيه إذا خالفهم فى بعض الأحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

٣ ـ وأما الفصاحة ، فيعرف مقداره فيها من خطبه ، ومكاتباته

الواردة فى كتاب نهج البلاغة ، هذه الصفات العالية مع مامنحه الله من شرف القرابة للرسول ، صلى الله عليه ، ومصاهرته له ، جعلته يرى لنفسه فضلاً على سائر قريش ، صغيرها وكبيرها ، شيخها وفتاها ، ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم ، وهذا كان من أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر له (كما جاء فى كتب التاريخ)

***

وبالجملة فان حياة هذا البطل تظهر لنا مواطن العبقرية فى أرفع الأبطال الذين أنجبهم الشرق الإسلامى ، تظهر لنا مناحى البطولة فى نفسه الرفيعة الأنوف ، وتشرح لنا سر المأساة التى انتهت بالرجل إلى أن يموت بالسيف (وهو صاحب القلم والسيف)

هذه الحياة ينطوى تحتها سر هذا العَلَم الذى خفق على سطح الأرض ثلاثاً وستين عاماً ، والشهاب الراصد الذى تعلقت به قلوب الناس ، فأبت أن ترده الى التراب ، وإنما ردته الى السماء ، ولبثت تنتظر أن يعود اليها يحمل نور السماء

فما كان الرجل فى حياته بضعة من الأرض فحسب ، بل روح من العلى اتخذها الله من أشرف ذريات آدم عليه السلام ، وأفاض عليها النور فى فجر الإسلام المجيد ، فكانت أجمل صورة يرتسم فيها جلال المؤمن ، أو الإنسان المؤمن ، أو الإنسان الكامل

٥ - عمر بن عبد العزيز

خامس الخلفاء الراشدين

عمر بن عبد العزيز هو خامس الخلفاء الراشدين ، بشهادة إمامين جليلين من أئمة الإسلام وهما : الإمام سفيان الثورى رحمه الله ، وهو إمام من أئمة المسلمين ، وعَلَم من أعلام الدين ، توفى بالبَصرة سنة إحدى وسبعين ومائة ، والإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنهما ، فكل منهما قال : الخلفاء الراشدون خمسة .

أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . وعمر بن عبد العزيز

***

نسبه - هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز ، بن مروان ، بن الحكم ، القرشى ، الأموى . وأمه أم عاصم ، ليلى بنت عاصم ، ابن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مولده - وُلد بحلوان إحدى ضواحى القاهرة ، سنة إحدى وستين للهجرة (فهو يُعد مصرياً ، وإن كان أصله عربياً)

نشأته - نشأ فى عز ونعيم ، لأن والده عبد العزيز بن مروان كان والياً على مصر وحاكمها ، أرسله الى المدينة ليتعلم بها ، فأخذ العلم عن

أنس بن مالك ، وغيره من العلماء الأكابر ، فأورثه العلم إيماناً صادقاً ، وكان يتشبه بجده عمر بن الخطاب ، فنشأ زاهداً عفيفاً ، ويرجع الفضل فيه إلى بيت عمر بن الخطاب ، وإلى أثر الوراثة الطيبة ؛ بعد فضل الله عليه

خلافته

ولى الخلافة سنة تسع وتسعين من الهجرة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الله ، وذلك أن سليمان أوصى له بها حين احتضر ، وآثره على يزيد ومسلمة ابنى عبد الملك ، فظهرت عليه علامات الاستياء ، لما يعلم فى الخلافة من عظيم التبعات ، واستقبلها بحزم وعزم ، وترك زينة الدنيا وزخرفها ، وقدم عليه وفود الشعراء للتهنئة فلم يأذن لهم ، وقال لابنه : قل لهم ﴿ إنى أخافُ إنى عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يونس

وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

أنت ابن عبد العزيز الخير لا رهق
غمر الشباب ولا أزرى بك القدم
تدعو قريش وأنصار الرسول له
أن يمتعوا بأبى حفص وما ظلموا
راحوا يحيون محموداً شمائله
صلت الجبين وفى عرنينه شَمَم

يرجون منك ولا يخشون مظلمةً
غرفاً وتمطر من معروفك الديم

أحْيابك الله أقواماً فكنت لهم
نورالبلاد الذى تُجلى به الظُلم

لم تلق جَدّا كأجداد يعدهم
مروان ذو النور والفاروق والحكم

أشبهت من عمر الفاروق سيرته
سن الفرائض وائتمت به الأمم

ألفيت بيتك فى العلياء مكّنه
أسُّ البناء وما فى سورها هدم

***

يا أعظم الناس عند العفو عافيةً
وأرهب الناس صولات اذا انتقموا

قد جربت مصر والضحاك أنهم
قوم اذا حاربوا فى حربهم قحم

هلا سألت بهم مصر التى نكثت
أو راهطاً يوم يحمى الراية البهم

عبد العزيز الذى سارت برايته

تلك الزحوف الى الأجناد فاصطدموا

ما كان من بلد يعلو النفاق به

إلا لأسيافكم ممن عصى لُحَم

عبد العزيز بنى مجداً ومكرمةً

إن المكارم من أخلاقكم شيم

ولم يكن عمر بن عبد العزيز كغيره من الخلفاء السالفين الذين كانوا يجودون على الشعراء بالكثير من الصلات والجوائز ، فلم يعط جريراً سوى أربعة دنانير قائلا له : خذها فانها والله من خالص مالى

فخرج جرير من عنده وهو يقول : جئتكم من عند خليفة يمنع الشعراء ويعطى الفقراء ، وإنى عنه لراضٍ

وقدم عليه وفود أهل كل بلد لتهنئته ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز فاشرأب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : يا غلام ليتكلم من هو أسن منك

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استحق الكلام ، ولو أن الأمور بالسن لكان هاهنا من هو أحق منك بمجلسك هذا

فقال عمر : صدقت . تكلم ، فهذا هو السحر الحلال

فقال الغلام : ياأمير المؤمنين ؛ نحن وفد التهنئة ، لا وفد التعزئة ، ولم يقدم أحد منا إليك ، رغبةً ولا رهبةً لأننا قد آمنا فى أيامك ماخفنا ، وأدركنا ما طلبنا ، فأعجب عمر بكلامه ، وسأل عن عمره ، فقيل له : عشر سنين

فقال عمر : ارفعوا الغلام فوق مرتبته

حالته قبل الخلافة وبعدها

كان عمر بن عبد العزيز أعظم أموى ترفهاً وتملكاً ، غذى بالملك ، ونشأ فيه ، لايعرف إلا هو . تعصف ريحه ، فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى (العُمرية)

فكان الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، وانه ترك كل شىء كان فيه لمَّا استخلف ، غير مشيته ، فانه لم يستطع تركها ، ولم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة ، فزهد فى الدنيا ورفضها ، فكان رحمه الله فى أول نشأته يحب النعيم والترف كغيره من أبناء الأمراء والعظماء

يدلنا على ذلك مارواه البخارى فى التاريخ عن حجاج الصواف قال : أمرنى عمر بن عبد العزيز ، وهو والٍ على المدينة المنورة ، وحاكم عليها أن أشترى له قميصاً ، فاشتريته بأربعمائة درهم ، فلما عرضته عليه ،

ولمسه لم يرض به ، ولم يقنع ، بل قال : ما أخشنه ! ولما ولى الخلافة أمرنى أن أشترى له قميصاً وألاَّ أغلو فى ثمنه ، فاشتريته بأربعة عشر درهماً ، فلما رآه ولمسه قال : سبحان الله ما ألينه ! وهل يلبس المسلمون مثل هذا ؟

ويشبه هذا ماحُكى : أنه رضى الله عنه كان له غلام مملوك لزمه منذ كان والياً على المدينة يقال له (درهم) واختصه بخدمته ، فقال له يوماً بعد أن صار خليفة للمسلمين .

ماذا ترى من حالنا الآن يادرهم ؟ فقال الغلام : أرى الناس بخير ما عداك وما عدانى . قال عمر : وكيف ذلك ؟ قال درهم إنى عهدتك قبل الخلافة عطراً ، لبَّاساً ، فاره المركب ، طيب الطعام ، (أى انه كان متأنقاً فى الثياب والطعام والشراب والدابة التى يركبها والعطر الذى يتطيب به) فلما وليت الخلافة رجوت أن أستريح فزاد عملى ، وصرت أنت فى عناء ، فبكى عمر

وبعد أيام أحضر الغلام بين يديه ، ثم قال له : اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله وانصرف الى حيث تريد ، ودعنى فيما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه مَخْرجا . وعمر بن عبد العزيز أحد التابعين الموثوق بهم قال الامام أحمد بن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز

عمر لا يكذب مطلقا

وكان عُمر رضى الله عنه لا يكذب مطلقاً فمما يؤثر عنه : أنه خرج مع سليمان يريد الصائفة ، فالتقى غلمانه وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان فشكوا ذلك الى سليمان فأرسل الى عمر ، فقال له : ضرب غلمانك غلماني قال : ما علمت،فقال له سليمان : كذبت . قال عمر : ما كذبت مذ شددت على إزارى ، وعلمت أن الكذب يضر أهله . وان فى الأرض عن مجلسك هذا لسعة

فتجهز عمُر يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان فشقّ عليه ، فدخلت فيما بينهما عمة لهما فقال لها سليمان : قولى له يدخل على ولا يعاتبنى فدخل عليه عمر . فاعتذر اليه سيمان وقال له : يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ، ولا أكربنى أمر ، إلا خطرت فيه على بالى ، فأقام

عمر يعظم مسجد الرسول ﷺ

كان عمر بن عبد العزيز إذ كان والياً على المدينة ، إذا بات على ظهر المسجد (مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) لم تقر به امرأة إعظاماً لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

موافقة صلاة عمر صلاة النبي ﷺ

لما قدم أنس بن مالك ، خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، من العراق الى المدينة ، كانت تعجبه صلاة عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر أميرها ، فصلى أنس خلفه ، فقال : ماصليت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يتم الركوع والسجود ، ويخفف القعود والقيام

أول عمل بدأ به عمر حين ولى الخلافة

لما ولى الخلافة أبطل بدعة من أقبح البدع ، وسنّ بدلاً منها سنة من خير السنن

فقد كان خطباء المنابر يوم الجمعة يختمون خطبهم بلعن الإمام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه حتى يربوا الناس على كراهته وكراهة ذريته ، فأمر الخليفة العادل أن يتركوا هذه البدعة الشنعاء ، وأن يختموا خطبهم بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل

وفى ذلك يقول كُثير عزة الشاعر :

« وَليتَ فلم تشتم عليًا ولم تُخف بريئاً ولم تتبع مقالة مُجرم »

« تكلمت بالحق المبين وإنما تبينُ آيات الهدُى بالتكلم »

انصراف عمر عن مظاهر الخلافة
وإقباله على إحياء الكتاب والسنة

لما دفن سليمان ، وقام عمر بن عبد العزيز مقامه فى الخلافة ، قربت اليه المراكب ، فقال : ماهذه ؟ قالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلى

فتركها ، وخرج يلتمس بغلته ، وقال : يامزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين

ونصبت له سرادقات وحجر ، لم يجلس فيها أحد قط ، كانت تضرب للخلفاء أول مايُولون

فقال : ماهذه ؟ قالوا : سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يُولى . قال : يامزاحم ، ضم هذه الى أموال المسلمين

ثم ركب بغلته وانصرف الى الفرش ، والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط ، يفرش للخلفاء أول مايُولون . فجعل يدفع ذلك برجله حتى

يفضى الى الحصير ، ثم قال : يامزاحم ، ضم هذا الى أموال المسلمين

وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب ، من هذه القارورة الى هذه القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر ، وكان الخليفة إذا مات فمالبس من الثياب أو مسّ من الطيب كان لولده ، وما لم يلبس من الثياب ، وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعـده ، فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان : هذا لك ، وهذا لنا . قال : وما هذا ؟ وماهذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ، ومسّ من الطيب ، فهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده فهو لك

قال عمر : ما هذا لى ، ولا لسليمان ، ولا لـكم ولـكن يامزاحم ضم هـذا كله الى بيت مال المسلمين . ففعل ، فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب ، والسرادقات ، والحجر ، والشوار (اللباس والزينة ، ومتاع البيت) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ماقد علمتم ، وبقيت خصلة وهى : الجوارى ، نعرضهن فعسى أن يكون ما تريدون فيهن ، فان كان والاّ فلا طمع لـكم عنده

فأتى بالجوارى ، فعرضن عليه كأمثال الدُّمى (الصور المزينة) ، فلما نظر اليهن جعل يسألهن واحدةً واحدةً ، مَن أنت ؟ ولمن كنتِ ؟ ومَن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ، ولمن كانت ، وكيف أخذت ، فيأمر بردهن الى أهلهن ، ويُحملن الى بلادهن حتى فرغ منهن

فلما رأوا ذلك يئسوا منه ، وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق

واحتجب عن الناس ثلاثاً لايدخل عليه أحد ، ووجوه بنى مروان ، و بنى أمية ، وأشراف الجنود والعرب ، والقواد ببابه ، ينتظرون مايخرج عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث ، وحملهم على شريعة من الحق ، فعرفوها ، فرد المظالم ، وأحيا الكتاب والسنة ، وسار بالعدل ، ورفض الدنيا ، وزهد فيها ، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل ، فرحمه الله رحمةً واسعة

نهيه عن القيام وما شرطه فى صحبته

لما ولى عمر بن عبد العزيز ، قام الناس بين يديه ، فقال : يا معشَر الناس ان تقوموا نقم ، وان تقعدوا نقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض ، وسنَّ سنناً ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها مُحق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لاتصل الينا حاجته ، و يدلنا من العدل على مالانهتدى اليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، و يؤدى الأمانة الينا والى الناس ، ولا يغتب عندنا أحدا ، ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا

ابتداؤه بالسلام

وكان عمر بن عبد العزيز يتقدم الى الحرس إذا خرج عليهم ألاّ يقوموا إليه ، ويقول لهم : لاتبتدئونى بالسلام ، إنما السلام علينا لكم

عزمه على الاعتصام بالكتاب والسنة

وقال عمر بن عبد العزيز : سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فى أمر خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ، ولاّه الله ماتولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا

قال محمد بن عبد الحكم : فسمعت مالكاً يقول : وأعجبنى عزم عُمر فى ذلك

صفاته ومناقبه

قد أجمع أهل العلم على أنه كان ذا علم غزير ، وعقل كبير ، وصلاح وفضل ، وزهد وورع وعدل ؛ أما شفقته على المسلمين ، ورحمته برعيته

وحسن سيرته فيهم ، فحدث عنها ولا حرج ، لم تشغله عبادة ربه عن رعيته ، ولم تحل بينه وبين مايصلحهم من جليل الأمور ودقيقها ، كما لم تقعده أعباء الخلافة ومتاعبها ، وما تقتضيه سياسة الملك من سهر ونصب عن قيامه بحق خالقه ، فكان رضى الله عنه يصرف النهار وبعض الليل أحياناً فيما يعود على الأمة بالخيرات ، فاذا ما فرغ من ذلك أقبل على عبادة ربه شطراً من الليل

وكان يحب العدل ، ويكره الجور ، ولا يرى أفضل من الحق ، حتى أجمع العلماء على أنه من أئمه العدل ، ولنضرب أمثالا عن بعض مناقبه فنقول .

مثال من زهد عمر وطعامه

قال مالك بن زياد : يقولون مالك زاهد ، فأى زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا بما فيها فتركها

وقال ابن الحكم : لما ولى عمر بن عبد العزيز : زهد فى الدنيا ، ورفض ما كان فيه ، وترك أن يُخدم وترك ألوان الطعام ، فكان إذا صُنع له طعام هُيئ على شىء وغطى حتى اذا دخل اجتذبه فأكله

مثال من تواضعه

قال رجاء بن حَيوة : سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز ، و بينما نحن نتكلم إذا بالسراج قد اعتل ، ولم يكن نوره جيداً ، فقمت أنا أريد إصلاح السراج ، فأمرنى عمر بالجلوس ثم قام هو بنفسه ، فأصلح السراج ، ثم عاد فجلس

فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز (ومعنى ذلك أنه لم ينقص منه شيء بقيامه وصلاحه المصباح بفسه)

ثم قال . ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه

مثال آخر من تواضعه

ناداه رجل فقال : ياخليفة الله فى الأرض فقال له عمر : مَهْ ، إنى لما ولدت اختار لى أهلى اسماً فسمونى عمر ، فلو ناديتنى ياعمر أجبتك ، فلما كبرت اخترت لنفسى الكنى ، فكنيت بأبى حفص فلو ناديتنى ياأبا حفص أجبتك فلما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين ، فلو ناديتنى ياأمير المؤمنين أجبتك ، وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك ، ولكن خلفاء الله فى الأرض ، داود النبى عليه السلام وشبهه

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ ص

مثال آخر من تواضعه

حكى سيدنا النضر بن سهل عن أبيه فقال :

قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوماً : روّحيني بالمروحة حتى أنام ، فروّحته فنام ، وبينما هي تروحه غلبها النوم فنامت ، فلما انتبه سيدنا عمر وجدها نائمة ، فأخذ المروحة وجعل يروحها ، فلما قامت من نومها ورأت أمير المؤمنين يروّحها خجلت وخافت ، وصاحت وصرخت ، فقال لها سيدنا عمر ابن عبد العزيز : لاتخافي ، إنما أنت بشر مثلي ، أصابك من الحر ما أصابني ، فأحببت أن أروحك كما روحتني

فمن هذه الحكاية يعلم مقدار تواضعه ، وكيف جعل نفسه مثل جاريته وخدمها كما خدمته ؟

مثال من حلمه

ولما ولي سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة ، خرج ليلة الى المسجد ومعه حرسيّ « رجل من الحرس » فلما دخل سيدنا عمر المسجد مرّ

فى الظلام برجـل نائم فعثر به ، فرفع الرجل رأسه اليه وقال له : أمجنون أنت ؟ فقال سيدنا عمر : لا . فاغتاظ الحرسىّ من ذلك ، لأنه يوبخ الخليفة أمير المؤمنين ، وهمّ بأذية الرجل النائم ، ظناً منه أنه يرضى أمير المؤمنين بأذيته ، فمنعه سيدنا عمر ، وقال له : إن الرجل لم يعمل شيئاً غير أنه سألنى ، أمجنون أنت ؟ فقلت : لا . فمن هـذه الحـكاية يعلم ما كان عليـه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من الحلم

مثال من تعجيله فى قضاء الحقوق

جاءت الى عمر بن عبد العزيز امرأة من أهل الـكوفة فقالت : ياأمير المؤمنين ما أصبت أنا ولا بناتى مما قسم أمير المؤمنين قليلاً ولا كثيراً . قال : ومَن أنتِ ؟ قالت العرفاء والمناكب . قال : ارجعى حتى العشية فأكتب لك

ثم قال : مَه فلعلى لا أبلغ العِشاء ، ادخلى على فاطمة بنت عبد الملك (يعنى زوجته) فبينما هى عند فاطمة إذا قام عمر فسكب وضوءاً لنفسه ، فقالت المرأة لفاطمة : ألا تأخذين عليك ثيابك من هذا الرجل يرى رأسك مكشوفاً ؟

قالت لها : أما تعرفين مَن هذا ؟ هذا أمير المؤمنين يسكب لنفسه وضوءاً

قالت المرأة : ثم دعانى وكتب لى كتابا

مثال من ورعه وتقواه وعبادته

مما يؤثر عنه أنه كتب الى الولاة والعمال فى الأقاليم فقال :
لاتقيدوا مسجوناً فى سجنه؛ لأن ذلك يمنعه من تمام الصلاة

ومما يدل على تمسكه بعرى الدين، وحمل الرعية على أن تكون قائمةً بما يجب من حق الله وحق الناس ، أنه رضى الله عنه كتب الى جميع عماله كتابا يقول .

اجتنبوا كل مايشغلكم عن أداء الصلوات فى أوقاتها ، فمن ضيعّها كان لما سواها أضيع ، وأنه خطب يوماً فقال : أما بعد ، فانه ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى نزل عليه كتاب ، إن ما أحله الله فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام الى يوم القيامة ، ألاَ وإنى متبع ، ولست بمبتدع ، وهذه الخطبة واردة ضمن خطبه

وسُئلت فاطمة بنت عبد الملك (زوجة عمرُ بن عبد العزيز) عن عبادة عمر ؟

فقالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاةً ولا أكثرهم صياماً ، ولكن ، والله ما رأيت أخوف لله من عمر ، لقد كان يذكر الله فى فراشه ، فينفض انفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول : ليُصبحن الناس ولا خليفة لهم

مثال من عدل عمر بن عبد العزيز

كان سيدنا عمر إماماً عادلاً ، وحاكماً رشيداً يكره الظالمين والجبارين حتى الذين وطدوا الملك لبنى أبيه الأمويين ، واستعانوا على ذلك بظلم الناس وأذاهم

وكان يحذر ابن عمه سليمان فى أيام حياته أذى الناس ، وينهاه عن الظلم ، وقتل الخوارج ، ويقول له : احبسهم حتى يتوبوا

وفى ذات يوم عرض على سليمان أحد الخوارج ، فكلمه سليمان فأغلظ الخارجى فى القول ، وقال يخاطب الخليفة : نزع الله لحييك

فأرسل سليمان فى طلب عمر بن عبد العزيز فحضر فأخبره بما كان من الخارجى ، وبما وقع منه من السب والشتم ، فسكت عمر ولم يفه بكلمة ، فقال سليمان : لابد أن تفتينى فى شأن هذا الخارجى . فقال عمر : أرى أن تشتمه كما شتمك فقال سليمان : ألست تفتى بقتله ؟ فقال عمر : لايقتل أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبياً

مثال من خلقه الكريم

جاءه رجل من أهل خراسان بعد أن تمت له البيعة فقال : يا أمير المومنين إنى رأيت فى منامى قائلاً يقول : إذا ولى الأشج من بنى أمية

فانه يملأ الأرض عدلاً ، كما مُلئت جوراً ، وقد سألت الناس ، فأخبروني أنك أنت الأشج (يعنى الذى بوجهه أثر جرح من رفس دابه من دواب أبيه)

فلما سمع عمر قوله قال له : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم . قال عمر : فبالذى أنعم به عليك أحق ماتقول ؟ قال الرجل : نعم ، فأمر عمر أن يقيم الرجل فى الضيافة ، ويراقب حتى لا يفلت ولا يهرب ، فمكث أكثر من شهر

وفى ذات يوم أرسل عمر فى طلبه ، فجاءوا به بين يديه ، فقال عمر للرجل : أتدرى لِمَ حبستك ؟ قال : لا قال : إنى أرسلت إلى بلدك أسأل عنك ، فأثنى عليك الأصدقاء والأعداء ، فانصرف الى بلدك راشداً آمناً

هذه الحادثة تدل على ما كان عليه الخليفة الأموى الراشد من الخلق الكريم المتين ، فانه لم تخدعه قولة هذا الرجل الخراسانى ، ولم يغتر بها ، بل اتهمه فيما حدثه به ، ولذلك بعث الى عامله على خراسان يسأله عن حاله . ولما علم أنه ممن حسنت سمعته فى بلده لم يُجزه بأكثر من أن يأمره بالانصراف وهو آمن على نفسه

مثال من رفقه ، وحسن معاملته لرعيته

كان عمر بن عبد العزيز من أكبر دعاة الإنسانية فى العالم ، ومن أعظم الذين أقاموا دعائم المساواة بين أفراد البشر على ظهر الأرض . فقد كانت أطفاله تخرج الى الطرقات وتختلط بأولاد الفقراء والمساكين فى الحارات ، وترتع وتلعب معهم

ولقد خرج ولد له فى يوم من الأيام ، فأخذ يلعب مع أترابه فى السن فشج غلام وجهه ، وأسال منه الدم ، فأخذ الخدم الغلام الذى شجه وأدخلوه بيت الامارة لينظروا ماتأمر به زوجة الخليفة (وهى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان) فسمع عمر جلبة فى البيت ، فانتقل من حجرته ليرى ماذا جرى ؟ فرأى غلاماً صغيراً يبكى ، وله أم مسكينة تتضرع الى زوجته لتغفر لابنها ذنبه وخطأه ، فسأل عمر عن سبب هذه الجلبة ، فحدثوه بما كان ، وأخبروه أن الغلام ، الذى شج وجه ابنه ، يتيم ، وأن أمه أيم لازوج لها ، ومسكينة لاذنب عليها فيما اقترفه ولدها

فرق عمر لليتيم وأمه ، ورفق بهما ، وقال للخدم : اسألوا المرأة : أللغلام عطاء مع اليتامى ؟ (يعنى سلوها هل له شيء مقدر فى بيت المال ؟) فقالت : لا . فقال عمر : اكتبوه فى سجل اليتامى المستحقين للمعونة

فلما سمعت فاطمة زوجته قوله غضبت ، وقالت لعمر : ما أشد خوفى

على أبنائى من الفقراء واليتامى بعد الذى فعلت ! فالتفت اليها عمر وقال : إنهم أزعجوه كثيراً والله تعالى يقول :

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ البقرة

ويقول ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران

فسكتت فاطمة ، وكظمت غيظها

فانظروا رحمكم الله الى شدة حلم سيدنا عمر بن عبد العزيز ، ورفقه بالضعفاء والمساكين واليتامى ، ومقابلته السيئة بالاحسان ، وهذا هو منتهى العدل والانسانية

مثال من عفته

أتت عمر بن عبد العزيز سَلَّتا رطب من الأُردُن ، فقال : ماهذا ؟

قالوا : رطب بعث به أمير الأردن . قال : علام جيء به ؟

قالوا : على دواب البريد . قال : فما جعلنى الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعوهما ، واجعلوا ثمنهما فى علف دواب البريد

قال ابن الحكم : فغمزنى ابن أخيه فقال لى : اذهب فاذا قامتا على ثمن فخذهما على . قال : فأخرجتا الى السوق فبلغتا أربعة عشر درهماً ، فأخذتهما فجئت بهما الى ابن أخيه ، فقال : اذهب بهذه الواحدة الى

أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه واحدة

قال فأتيته بها فقال : ماهذا ؟ قلت اشتراها فلان ابن أخيك فبعث اليك بهذه ، وحبس لنفسه الأخرى ، قال : الآن طاب لى أكله

مثال من تعففه عن مال المسلمين

يحكى أن سيدنا عمر بن عبد العزيز كان يقسم تفاحا للمسلمين (والخليفة هو الذى كان يعمل ذلك) لأن كل أموال المسلمين كانت عند الخليفة . وبينما هو يقسم التفاح ويفرقه على أهله ، ومن يستحقه ، أخذ ابن له صغير تفاحة ، فقام اليه سيدنا عمر وفك يده ، وأخذ التفاحة من فمه ، ووضعها فى التفاح ، فذهب الولد يبكى الى أمه فلما علمت السبب أرسلت الى السوق فاشترت له تفاحاً

فلما رجع سيدنا عمر ووجد ريح التفاح قال لزوجته « يافاطمة » هل أخذت شيئاً من تفاح المسلمين ؟ فقالت : لا . وأخبرته بما حصل فقال لها : والله لقد انتزعتها من ابنى فكأنما انتزعتها من قلبى ، لكنى كرهت أن أضيع نفسى بتفاحة من فىء المسلمين

فمن هذه الحكاية يفهم جلياً ما كان عليه سيدنا عمر بن عبد العزيز من الزهد والتعفف عن مال المسلمين

مثال آخر من عفته وزهده

مما يؤثر عنه فى العفة والزهد قال رجاء بن حَيوة :

أمرنى عمر بن العزيز أن أشترى له ثوباً بستة دراهم ، فاشتريته له ، فجسّه فقال : هو على ما أحب لولا أن فيه لِيناً

قال رجاء : فبكيت . قال : فما يبكيك ؟ قال رجاء : أتيتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة ؛ وأتيتك وأنت أمير بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب لولا أن فيه لِيناً

فقال : يا رجاء إن لى نفساً تواقة ؛ تاقت الى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوجتها ؛ وتاقت الى الإمارة فوليتها ؛ وتاقت الى الخلافة فأدركتها ، وقد تاقت الى الجنة ؛ فأرجو أن أدركها إن شاء الله تعالى

وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً مايتمثل بهذه الأبيات :

نهارك يامغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك مايفنى وتفرح بالمنى
كما غر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غِبّه
كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

مثال من أمانته وحرصه على مال المسلمين

جلس سيدنا عمر بن عبد العزيز ليلة للنظر فى قضايا المسلمين وقصص الرعية فى ضوء السراج (المصباح) فجاء غلام (خادم) له فكلمه فى مسألة ليست من مسائل المسلمين ، بل كانت تتعلق ببيته وأموره الخاصة ، فقال له سيدنا عمر : أطفئ السراج ثم حدثنى ، لأن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، ولا يجوز استعماله إلاَّ فى أشغال المسلمين

وضعه حلى زوجته فى بيت المال

قال سيدنا عمر لزوجته فاطمة بنت عبد الملك : قد علمت حال هذا الجوهر (لحليها) وماصنع فيه أبوك ، ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله فى تابوت ثم أطبع عليه وأجعله فى أقصى بيت مال المسلمين ؟ وأنفق ما دونه ، فان خلصت اليه أنفقته ، وان مت قبل ذلك فلعمرى لَيَرُدَّنه اليك ، قالت له : افعل ماشئت . ففعل ذلك ، فمات رحمه الله ولم يصل اليه ، فردّ ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه وقالت : ما كنت لأتركه ، ثم آخذه ، فقسمه بين نسائه ونساء بنيه

مثال من محافظته على الوقت وعدم تأخيره العمل الى غد

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز ينجز أعماله فى أوقاتها ، ولا يؤخر عمل اليوم للغد . قيل له ياأمير المؤمنين ، لو ركبت فروحت عن نفسك . قال : فمن يجزى عنى عمل ذلك اليوم ؟ فقيل له : تجزيه من الغد ؟ قال : لقد فدحنى (أثقلنى) عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع على عمل يومين ؟

قيل له : فان سليمان قد كان يركب وينتعش ويجرى عمله ، قال عمر : ولا يوم واحد من الدنيا أجزاه سليمان

استطلاعه حال رعيته

خرج يوماً راكباً يستطلع أخبار البلاد ، فلقى راكباً من أهل المدينة فسأله عن حالها فقال : إنى تركت المدينة . والظالم مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغنى موفور ، والعائل مجبور

فسرّ بذلك عمر وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس

سخاؤه فى سبيل الله واكتفاؤه بالقليل

قال الحكم بن عمر الحمصى : ان أول عمل بدأ به عمر فى خلافته ، بيعه ما كان يملكه من متاع ومركب ولباس وغيره ، وقد بلغ ثمنها ثلاثة وأربعين ألف دينار جعلها فى سبيل الله ، وعين له درهمين فقط كل يوم لينفقهما فى معاشه

رأفته وشفقته بالحيوان

كتب عمر الى ولاته يحذرهم القسوة على الحيوان بتحميله مالا يطيق ، ويأمرهم بمعاقبة من يعذبه أو يشوه خلقه أو يمثل به

عجز عمر عن نفقة الحج وشوقه الى الجنة

قيل : إن عمر بن عبد العزيز قال لمزاحم مولاه :

إنى قد أشتهيت الحج فهل عندك شىء ؟ قال مزاحم بضعة عشر ديناراً . قال : وما تقع منى ؟

ثم مكث قليلاً ثم قال له : ياأمير المؤمنين تجهز ، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان

قال عمر : اجعلها فى بيت المال ، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها

ما يكفينا ، و إن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها

فلما رأى عمر ثِقَلَ ذلك عليّ قال : ويحك يامزاحم لايكبُرْ عليك شيء صنعته لله ، فان لى نفساً تواقة ، لم تتق الى منزلة فنالتها إلاّ تاقت إلى ماهى أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة ، وإنها اليوم قد تاقت الى الجنة

إيثاره بيت مال المسلمين على أولاده

قيل له : هؤلاء بنوك (وكانوا اثنى عشر) ألا توصى لهم بشيء فانهم فقراء ؟

قال : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ الأعراف

والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين ، إما صالح فالله يتولى الصالحين ، و إما غير صالح فما كنت لأعينه على سفه

وصيته الى أولاده

قيل : لما حضرته الوفاة جمع أولاده ، وجعل يصوب نظره فيهم ، و يصعده ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ، ولا مال لهم . يابنى انى خيرت نفسى بين أن تفتقروا الى آخر الأبد ، و بين

أن يدخل أبوكم النار ، فاخترت الأول

يابنى عصمكم الله ورزقكم ، وقد وكلت أمركم الى الله الذى نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين

وكان عنده وقتئذ (مسلمة بن عبد الملك) فوهبه أربعين ألفاً ليفرقها على أولاده ، وقال له : عن طيب نفس فعلت ، فقال عمر : « فرقها على من أخذت منه ظلماً »

فقال له مسلمة : لقد جمعت علينا قلوباً متفرقة ، وجعلت لنا فى الصالحين ذكراً .

آخر ماتكلم به عمر قبل وفاته

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة كان عنده مسلمة بن عبد الملك وزوجته فاطمة والخصى ، فقال : قوموا عنى ، فانى أرى خلقاً ما يزدادون إلاّ كثرة ، ماهم بجن ولا إنس

قال مسلمة : فقمنا وتركناه ، وتنحينا عنه ، وسمعنا قائلا يقول :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص

ثم خفت الصوت ، فقمنا ودخلنا ، فاذا هو ميت مغمض مُسجّى

تاريخ وفاته

مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله سنه ١٠١ هجرية فى شهر رجب وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، فماتت معه الفضائل ، واندثرت الكمالات ، وقضى على العدل ، وكثر الإسراف والبذخ

قيل : ان أحد طلاب الدنيا من وارث الملك دسّ له السم بيد خادم فى طعامه وشرابه ، فلما أحس عمر بدنو أجله اشترى موضع قبره ، ولم يتجاوز مرضه تسعة أيام ثم ترك الجيفة لكلابها ، وأقبل على الآخرة معداً العُدة لحسابها

ورثاه جرير بقوله :

« يَنْعَى النُّعاة أمير المؤمنين لنا يا خيرَ من حج بيت الله واعتمرا »
« حُملت أمراً عظيماً فاصطبرت له وصرت فيه بحكم الله ياعمرا »
« فالشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا »

***

فرحم الله عمر ، ورحم رجال العدل والدين ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، وانا لله وانا اليه راجعون وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون

نبذ من خطبه وحكمه

١ — خطبة له فى أنه منفذ لأوامر الله

أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليكم كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال الى يوم القيامة ، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إنى لست بقاض ، وإنما أنا منفذ لله ، ولست بمبتدع ولكنى متبع ، لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، ألا إنى أثقلكم حملاً

يأيها الناس ، إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم

٢ — خطبة له فى التقوى

يأيها الناس ، عليكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شىء ، ولا خلف من التقوى

أيها الناس ، انه قد كان قبلى ولاة تجترّون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم

أيها الناس ، إنى لست بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرت ، ألاَ ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم

٣ — خطبة له فى البعث

أيها الناس ، انى لم أجمعكم لأمر أحدثته ، ولكنى نظرت فى أمر معادكم وما أنتم اليه صائرون ، فوجدت المصدق به أحمق (أى من خالف أمر الدين وهو مصدق بالبعث والجزاء كان أحمق) والمكذب هالكاً ، ثم نزل

٤ — خطبة له فى الوعظ

أما بعد ، أيها الناس ، فلايطولن عليكم الأمد ، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة ، فان من وافَتْهُ منيته ، فقد قامت قيامته ، لايستعتب من شىء ، ولا يزيد فى حسن ، ألاَ لاسلامة لامرىء فى خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله

إلاَ و إنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا و إن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا و إنى أعالج أمراً لايعين عليه إلا الله ، قدفنى عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعجمى ، وهاجر اليه الأعرابى ، حتى حسبوه ديناً لايرون الحق غيره

ثم قال : إنه لأحبُّ الىَّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلاَّ بحقها ، ولا قوة إلا بالله

٥ - خطبة له فى التذكير بالموت وحرصه على كفاية رعيته

أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدًى ، وإن لكم معاداً ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه ، والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحُرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، حتى تردوا الى خير الوارثين ، ثم أنتم فى كل يوم تشيعون غادياً الى الله ، ورائحاً قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحباب ، وخلع الاسلاب ، وواجه الحساب ، وسكن التراب ، مرتهناً بعمله ، غنياً عما ترك ، فقيراً الى ماقدم

ثم قال : وايم الله ، إنى لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فأستغفر الله لى ولكم وأتوب اليه ، وما أحد منكم تبلغنى حاجته إلا حرصت أن أسد من حاجته ماقدرت عليه ، وما أحد لايسعه ما عندى إلاّ وددت أنه بدئ بى ، وبلُحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم

وايم الله إنى لو أردت غير هذا من رخاء أوغضارة عيش ، لكان اللسان به منى ذلولاً ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق ، أمرنى فيه بطاعته ، ونهانى فيه عن معصيته . ثم رفع طرف ثوبه ووضعه على وجهه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال :

نسأل الله التوفيق والهدى ، والعمل بما يحب ويرضى

وهذه آخر خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله

نبذ من كتبه

١ — كتابه الى عماله فى رد المظالم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العمال

أما بعد ، فانى كنت كتبت اليكم برد المظالم ، ثم كتبت إليكم أن تحبسوها ، ثم كتبت اليكم بردها ، فاطلعت من بعض أهلها على خيانات وشهود زور ، حتى قبضت أموالا قد كنت رددتها

ثم إنى رأيت أن أردها على سوء ظن بأهلها أحبُّ الىَّ من أن أحبسها حتى ينجلى الأمر من غدٍ على ماينجلى عنه ، فاذا جاءك كتابى هذا فارددها على أهلها والسلام

٢ — كتابه الى العمال بإطاعة الله واجتناب نواهيه

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العمال :

أما بعد ، فان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وإن دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم كتابه الذى أنزله عليه ، أن يُطاع الله فيه ويتبع أمره ، ويجتنب مانهى عنه ، ونقام حدوده ، ويعمل بفرائضه ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويعترف بحقه ، ويحكم بما أنزل فيه

فمن اتبع هدى الله اهتدى ، ومن صدّ عنه فقد ضل سواء السبيل

و ان من طاعة الله التى أنزل فى كتابه ، أن يدعو الناس الى الإسلام كافة ، وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة ، وأن توضع الصدقات والاخماس على قضاء الله وفرائضه

وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر لايمنعون ولايحبسون

٣ — وفى كتاب آخر

إنى آمرك فيما وليتك من عملى ، وأفضيت اليك من أمرى بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، واتباع ما أمر الله به ، واجتناب مانهى الله عنه ،

وقلة الالتفات الى شيء خالف ذلك ، ليكون الذى آمرك به فى سيرتك ، والنظر فى نفسك وفى عملك وما تفضى به الى ربك ، وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قِبَلَكَ

وأنت تعلم علماً يقيناً أنه ليست نجاة ولا حرز إلا أن ينزل بذلك المنزل من طاعة الله

ودع أن ترصدَ شيئاً ليوم ترجوه أو تخافه ، سوى ماترجوه غداً من الله وتخاف منه ، فانك قد رأيت عبراً فى نفسك ، وعبراً ما مثلها وعظ مثلنا ، وكفى مثلاً ما أصابك الى حظك من الله ، والسلام

. . .

هـذه هى خلاصة سيرة عمر بن عبد العزيز وفضائله ، ومن يطلع عليها يقول بحق : هكذا تكون الخلفاء ، وعلى سيرته فلتسر الملوك والأمراء ، وبمثله يقتدى العلماء ، والعظماء ، والأمراء

كلمة موجزة عن عمر بن عبد العزيز

لقد كان سيدنا عمر بن عبد العزيز رجلاً صالحاً ، تقياً ، متعبداً ، ورعاً ، زاهداً ، وكان مع ذلك إماماً عادلاً ، رشيداً سائساً ، محباً للرعية ، مشفقاً عليها ، رفيقاً بها ، محسناً اليها ، أميناً على أموالها ، لم تشغله عبادة ربه عن النظر فى شئون رعيته ، ولم تحل بينه و بين ما يصلحهم من جليل الأمور ودقيقها ؛ كما أنه لم تقعد به أعباء الخلافة وأوزارها ، وما تقتضيه سياسة الملك من سهر ونصب عما عليه لله من عبادة وطاعة

فكان رضى الله عنه يصرف النهار و بعض الليل أحياناً فيما يعود على الأمة بالخيرات ، فاذا ما فرغ من ذلك « إذا هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة به »

ولما كان سيدنا عمر بن عبد العزيز من أولى الصلاح والتقى كان الناس فى أيامه يتساءلون عن العبادة وتلاوة القرآن

و إذاً فكما أن الملوك على غرار (أى على مثال) رعيتهم كذلك الناس على دين ملوكهم ، وإذا كان العلم كما يقال بالتعلم ، والخلق بالتخلق ، كان حقاً على كل واحد أن يقرأ سيرة هذا الخليفة الصالح ، لما فيها من مكارم الأخلاق ، ودلائل الخيرات ، ويأخذ نفسه بما تحويه من نفائس الحكم ومحاسن العظات

فان كان حاكماً تعلم منها سيرة العدل وسياسة الرعية ، فيكون له من حب الأمة وانقيادها له ما يتمتع بأثره فى حياته ، ثم يجد حين ينقلب الى ربه بعدلته حسن ثوابه

وإن كان عالماً تعلم منها ما يجب على العلماء من حسن المنطق والعمل بالعلم ، وما ينبغى لهم من مناصحة الرعاة ، وإظهارهم على ما يبدو لهم من زلل أو خطل ، حتى يؤدوا ما بأعناقهم من حق الله وحق العلم ، ويقوموا بما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبث العلم بين الناس

وإن كان غنياً تعلم منها كيف يستثمر الخير بما أعطيه من ثروة ، وكيف يضع المال مواضعه ؟ فيجود به على الفقراء الذين لا يستطيعون حيلةً ولا ضرباً فى الأرض ، ويعود به على الضعفاء والمساكين ، وينفقه فى سبيل الله وعمل البرّ ، فيجد بذلك من اللذة والسعادة فى الحياة الدنيا ما تتصل به سعادة الحياة الآخرة فيدرك خير الدارين وينقلب بكلتا الحسنيين

وإن كان من أهل الخصاصة تعلم منها القناعة والعفاف ، والرضا بالكفاف ، فلم تذهب نفسه حسرات على الغنى ، ولم يغَش فى سبيله غير سبيل التقى ، فيعيش بعزة عيش الأغنياء ، ويظفر حين يرجع الى الله بأجر الأتقياء

وإن كان ممن أصابه الدهر بشيء من نكباته فأطار طائر صبره ، وولج به فى ظلمات اليأس ، وحوالك اللجاجات ، علمه بما فيه من صنوف الحكمة وضروب الأمثال ، كيف يكون الصبر على الأرزاء ، والرضا بالقضاء ، فيستشعر قلبه برد الراحة واليقين ، ويكون من الذين ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

وإن كان من غير أولئك وهؤلاء ، فهو لابد واجد فى سيرة هـذا الرجل العظيم ، والإمام الكريم ، ما يصلحه فى الحياة ، وينفعه بعد الممات

انتهى بعون الله الجزء الثالث من كتاب أحسن القصص فى يوم السبت ١٠ شعبان سنة ١٣٦٩ . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع وهو يشمل خلاصة سير أئمة الدين والصالحين

وختاماً أسأل الله أن يوفقنا للعمل بشريعة المصطفى وأن يحيينا ويميتنا على سنته

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه فى المبدأ والختام ؟

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله

فهرس

الصفحة	الموضوع
٢	مقدمة الطبعة الأولى
٤	« « الثانيـة
	١ ـ أبو بكر الصديق
٦	نسبه
	اسمه ولقبه فى الجاهلية
٧	مولده
٨	نشأته ومجمل صفاته
٩	إسلامه
١٢	صحبته لرسول الله
١٣	محبة الرسول له وتعظيمه
١٤	خلافته
١٦	مبايعته بالخلافة
٢٣	أول أعماله بعد الخلافة
«	تسيير جيش أسامة
٢٤	حرب أهل الردة
٢٦	غزواته وفتحه لبعض الممالك
٢٧	جمعه للقرآن

الصفحة	الموضوع
٢٨	أولياته
٢٩	مناقب أبى بكر الصديق
«	أدبه فى حضرة الرسول
٣٠	شجاعته
٣٢	علمه وتقواه
«	قضاؤه وعدله
٣٣	حلمه وسلامة قلبه
٣٤	تواضعه
٣٥	تأديبه لنفسه وحسن اعتذاره
٣٦	حرصه على العمل والسعى
«	على المعاش
٣٨	رأفته برعيته
٣٩	زهده وورعه
٤٠	أمانته على مال المسلمين
٤١	كرمه ومساواته بين الناس
«	انفاق ماله على رسول الله

الصفحة	الموضوع
٤٣	نبذ من كلامه وحكمه
٤٥	شذرات من خطبه
٤٩	وصاياه
٥١	مرضه - وفاته
٥٤	تأبينه
٥٧	الأحاديث الواردة فى فضله
٦٤	كلمة عامة فى أبى بكر
	٢ - عمر بن الخطاب
٧١	نسبه وأصله
«	مولده - اسمه وكنيته ولقبه
٧٢	نشأته ومكانته فى قومه
٧٣	إسلامه
٧٤	سبب إسلامه
٧٨	حاله بعد إسلامه
٧٩	اخلاصه للرسول وللدين
«	سبب تسمية عمر بالفاروق
٨٠	مبايعته بالخلافة
«	أول أعماله فى الخلافة
٨١	فتوحاته
٨٢	أولياته

الصفحة	الموضوع
٨٣	صفاته الخُلقية
٨٥	صفاته الخَلقية
٨٥	الأحاديث الواردة فى فضله
٨٨	أقوال الصحابة والسلف الصالح فيه
٨٨	مناقب عمر
٨٩	هيبته
٩١	سطوته ومساواته بين المسلمين
٩٤	صدقه ووفاؤه
٩٦	تقشفه وعدله
٩٨	تقشفه
٩٨	رحمته واهتمامه
١٠٠	اهتمام عمر برعيته
١٠١	شفقته ورحمته برعيته
١٠٣	اهتمامه بانشاء المجتمعات
١٠٤	عدله فى رعيته
١٠٦	احترامه لحقوق المرأة
١٠٧	محافظته على صحة رعيته
١٠٨	خدمته ومساعدته للفقراء
١٠٨	تواضعه

الصفحة	الموضوع
١١١	حبه لرعيته وسهره على مصالحها
١١١	زهده وقصده
١١٤	شفقته ورحمته برعيته
١١٥	احترامه للشرع والحق
١١٥	عفته وأمانته وحرصه على مال المسلمين
١١٨	مشتراه ظلامة امرأة
١١٩	اختبار عمر للقضاء والقواد والأمراء
١٢١	نص كتابه إلى عبد الله بن قيس
١٢٣	وفاته
١٢٤	عمر والشورى
١٢٦	نبذ من حكمه
١٢٧	نبذ من كلامه
١٢٨	شذرات من خطبه
١٣٤	بعض كتبه
١٣٨	أولاده
١٣٩	كلمة عامة عن عمر
	٣ — عثمان بن عفان
١٤٤	نسبه — كنيته — مولده
١٤٥	نشأته — وصناعته — ومكانته في قومه
١٤٦	إسلامه وصحبته للرسول
١٤٨	مبايعته بالخلافة
١٥٠	بدء أعماله في الخلافة
١٥٢	صفاته الخَلقية
١٥٣	صفاته الخُلقية ومناقبه
«	أدبه مع نفسه ومع الرسول
١٥٤	تأديبه لنفسه
«	تأديبه للمسلمين
١٥٥	كرمه وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله
١٥٧	تصدقه وحبه لفعل الخير
١٥٨	سياسته في رعيته
١٥٩	عدله
١٦٠	تفقده لحال رعيته
«	تواضعه
١٦١	حياؤه — كرمه وجوده
١٦٣	هديته للنبي
١٦٣	صلاحه وتقواه
١٦٤	الأحاديث الواردة في فضله

الصفحة	الموضوع
١٦٦	نبذ من كتبه
١٦٨	نبذ من خطبه
١٧٠	نبذ من كلامه
١٧١	وفاته وسبب قتله
١٧٤	أولاده — ١٧٤ أولياته
١٧٥	وصيته
١٧٦	كلمة مختصرة عن عثمان
	٤ — على بن أبى طالب
١٧٧	نسبه — كنيته — مولده
١٧٨	على فى صباه واسلامه
١٧٩	زواجه ببنت رسول الله
١٨٠	شجاعته
١٨١	أولياته
١٨٢	خلافته ومبايعته
١٨٥	أعماله فى الخلافة
١٨٨	وفاته وسبب مقتله
١٩١	أولاده
١٩٢	وصف الامام على
١٩٤	صفاته ومناقبه

الصفحة	الموضوع
١٩٤	صفاته الخَلقية
«	صفاته الخُلقية
«	شجاعته
١٩٥	كرم أخلاقه وحلمه وعفوه
١٩٦	تواضعه
١٩٧	عبادته وتقواه
١٩٨	زهده
«	رأيه وتدبيره
١٩٩	سياسته
٢٠٠	تصدقه واحسانه
٢٠٤	علمه
٢٠٦	حكمه وقضاؤه
٢٠٧	شفقته وعدله فى رعيته
٢٠٨	أمانته على مال المسلمين
٢٠٩	يوم المباهلة
٢١١	الأحاديث الواردة فى فضله
٢١٥	آثاره
«	النثر
«	نبذ من كلامه وحكمه ووصاياه

الصفحة	الموضوع
٢٢١	نبذ من كتبه
٢٢٣	من كلامه فى الحكم
٢٢٤	من حكمه أيضاً
٢٢٥	من حكمه وأمثاله
٢٢٧	شذرات من خطبه
٢٣٠	شعره
٢٣٤	دستور على بن أبى طالب
٢٣٧	وصيته لمن يستعمله على الصدقات
٢٣٨	كلمة عامة فى على بن أبى طالب

٥ ـ عمر بن عبد العزيز

الصفحة	الموضوع
٢٤٢	نسبه ـ مولده
«	نشأته
٢٤٣	خلافته
٢٤٦	حالته قبل الخلافة و بعدها
٢٤٨	عمر لا يكذب مطلقاً
«	عمر يعظم مسجد الرسول
٢٤٩	موافقة صلاة عمر صلاة النبى
٢٤٩	أول عمل بدأ به
٢٥٠	إقباله على إحياء الكتاب والسنة
٢٥٢	نهيه عن القيام وماشرطه فى صحبته
٢٥٣	ابتداؤه بالسلام
«	عزمه على الاعتصام بالكتاب والسنة
«	صفاته ومناقبه
٢٥٤	زهده وطعامه
٢٥٥	تواضعه
٢٥٦	حلمه
٢٥٧	تعجيله فى قضاء الحقوق
٢٥٨	ورعه وتقواه
٢٥٩	عدله
«	خلقه الكريم
٢٦١	رفقه وحسن معاملته
٢٦٢	عفته
٢٦٣	تعففه عن مال المسلمين

الصفحة	الموضوع
٢٦٤	زهده
٢٦٥	أمانته وحرصه على مال المسلمين
«	وضعه حلى زوجته فى بيت المال
٢٦٦	محافظته على الوقت
«	استطلاعه حال رعيته
٢٦٧	سخاؤه واكتفاؤه بالقليل
«	رأفته وشفقته بالحيوان
«	عجز عمر عن نفقة الحج وتشوقه إلى الجنة
٢٦٨	إيثاره بيت مال المسلمين على أولاده
٢٦٨	وصيته إلى أولاده
٢٦٩	آخر ما تكلم به قبل وفاته
٢٧٠	تاريخ وفاته
٢٧١	نبذ من خطبه وحكمه
٢٥٩	نبذ من كتبه
٢٦٢	كلمة موجزة عن عمر بن عبد العزيز

القرآن

ينبوع العلوم والعرفان

في ثلاثة أجزاء

تأليف الأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب المصرية (سابقاً)

كتاب غزير المادة، عظيم الفائدة، جمع من الآيات القرآنية ما يدل على أن القرآن الكريم حوى جميع العلوم الكونية ولم يترك علماً إلا وشرحه شرحاً وافياً، ولم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

وهو موضوع فى ثلاثة أجزاء: (الأول) يشمل علم الطب والصيدلة والصحة والتاريخ الطبيعى من حيوان ونبات ومعدن وجيولوجيا (علم طبقات الأرض).

(الثانى) يشمل: علم الفلك وعلم الجغرافيا وعلم الملاحة والسياحة والتاريخ الأثرى. وقد تم طبعهما و يطلبان من مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه

(الثالث) يشمل: الكتابة والقراءة والخط وعلم الحساب والهندسة، والهندسة المعمارية والرى، والعلوم الطبيعية من حرارة وصوت وضوء وكهرباء، والمخترعات الحديثة كالتلغراف واللاسلكى والتليفون والمغناطيسية وما يتبعها من البوصلة البحرية والميكروفون (مكبر الأصوات) والتيلفزيون، وعلم الصناعة والنجارة وعلم الحرب وفن الطيران وعلم البحرية الخ. وهو تحت الطبع

وقد أتبعت كل علم بنبذة مختصرة عن العلم نفسه ليستفيد منها الطالب علماً وديناً وصحة وزراعة وصناعة وتجارة والله الموفق.



كتاب صغير الحجم ، كبير القدر ، يهدى النشء إلى واجباتهم المدرسية ، والمنزلية ، والاجتماعية ، فيشبون من صغرهم على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الخصال ، وجليل الأعمال ، التى يكونون بها رجالاً فى المستقبل ، نافعين لأنفسهم ، ووطنهم وأسرتهم



كتاب صغير الحجم، كبير القدر، وضع لتربية البنات تربيةً إسلاميةً حقة، فى أدوار حياتهن المنزلية والمدرسية ، والاجتماعية ، ويشمل كثيراً من الحكايات التهذيبية والأناشيد الأدبية ، والحكم والأمثال الوعظية ، لتكون بها سيدة مهذبة ، ومدبرة عاقلة ، وامرأة صالحة ، نافعة لأمتها وأسرتها

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الرابع

يشمل خلاصة سير ومناقب ومذاهب الأئمة الأربعة وبعض الصالحين

[الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين

أما بعد فهذا الجزء الرابع من كتاب أحسن القصص

وهو يشمل خلاصة سير ومناقب الأئمة المجتهدين ، هداة الأمة الإسلامية وحماة الدين ، الذين أقاموا قواعد الدين على أساس متين ، ودعوا الناس إلى عبادة رب العالمين ، فملأوا بشريعتهم وعلومهم الآفاق والبلدان ، وسارت بجيش ذكرهم الركبان ، فى كل زمان ومكان

وهؤلاء الأئمة الأعلام هم :

١ ـ الإمام الكوفى أبو حنيفة النعمان

٢ ـ الإمام مالك بن أنس رفيع القدر والشان

٣ ـ الإمام الشافعى المتصل نسبه الشريف بآل عدنان

٤ ـ الإمام أحمد بن حنبل الذى سلك بعلمه الطريق الأحمد فى السر والاعلان

٥ ـ الإمام الليث الذى عم الأنام بالكرم واللطف والغيث.

وقد أنشد بعضهم فى مدحهم

« قوم إلى الله ساروا بالعلوم على نجائب الفكر ركباناً ووحدانا »
« وفارقوا الأهل واللذات واغتربوا وقد جفوا فى طلاب العلم أوطانا »
« حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة وذكرهم عطر الأكوان إعلانا »
« هم الأئمة لازالت علومهم تبدى لنا رشفها روحا وريحانا »

وقد أضفت إليهم سير بعض الصالحين من آل بيت النبى المختار عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام

فيرى المطلع على سيرهم ومناقبهم المثل الأعلى فى الدين والعلم والأخلاق والله تعالى أسأل أن ينفعنا بهم وبعلومهم ، ويحفنا ببركاتهم ، وأن يهدينا للعمل بشريعتهم ، والسير على طريقتهم ، إنه سميع مجيب الدعاء

السيد على فكرى
الأمين الأول لدار الكتب المصرية
ورئيس المغيرين

١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ ـ ٢٤ يونيه سنة ١٩٣٤

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين)

الحمد لله الذى وفق عباده المخلصين المسلمين لحسن عبادته ، واختارلهم من أئمة الدين المجتهدين الصالحين لإقامة شريعته، واتباع حدوده وأحكامه والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المهتدين الذى قال :

« مَن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »

و بعد فقد نفدت ـ ولله الحمد والشكر ـ الطبعة الأولى من الجزء الرابع . من كتابنا (أحسن القصص) الشامل لسير ومناقب ومذاهب الأئمه الأربعة الأعلام السادة الكرام الذين أقاموا قواعد الإسلام على أساس متين وهم : (أبو حنيفة النعمان ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل) ونشروها فى جميع الأقطار

وسنقدمه الآن للطبعة الثانية سائلين المولى عزوجل أن يزيد فى انتشاره ليعم نفعه ـ فى العالم الإسلامى. و إتماما للفائدة رأينا أن نختتم المذاهب

الأربعة بخلاصة تاريخية بمبلغ انتشارها الآن عند جمهور المسلمين نقلاً عن الرسالة التى وضعها المرحوم أحمد باشا تيمور

والله الموفق لما فيه رضاه الهادى الى الصراط المستقيم .

ونرجو أن يجعلنا من عباده الصالحين ، ويختم لنا ولمن اطلع على كتابنا هذا بخاتمة السعادة أجمعين ؟

على فكرى

١٥ شعبان سنة ١٣٦٩ ـ أول يونيه سنة ١٩٥٠

١ ـ الامام أبى حنيفة النعمان

« مختصر من كتاب حياة الإمام للاستاذ السيد عفيفى القاضى الشرعى »

مولده ونسبه

ولد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه (بالأنبار بالكوفة) سنة ثمانين من الهجرة النبوية فى عصر الدولة الأموية فى خلافة عبد الملك بن مروان

وذلك فى حياة جماعة من الصحابة رضى الله عنهم

ويقال : إن أباه (ثابتا) هو الذى أهدى (الفالوذج)[1] لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم عيد النيروز ، وقيل : كان ذلك يوم المهرجان

وكان (ثابت) أبو أبى حنيفة يقول : أنا فى بركة دعوة صدرت من على رضى الله عنه فى حقى

اسمه وكنيته

اسمه : النعمان وقيل : معنى النعمان الدم ، أو الروح ، فيكون اتفاقا حسناً ؛ لأن أبا حنيفة روح الفقة وقوامه ومنه منشؤه ونظامه

(١) الفالوذج المعروف بالبالوظة .

كنيته : أبو حنيفة (مؤنث حنيف) وهو الناسك أو المسلم ، لأن الحنيف هو المائل الى الدين الحق

وقيـل : ان سبب كنية الإمام بذلك أنه كان ملازماً لصحبة الدواة وحنيفة (بلغة العراق) الدواة فكنى بها

صفته ـ كان الإمام أبو حنيفة من أحسن الناس صورة ، وأبلغهم نطقاً ، وأكملهم ايراداً ، وأحلاهم نغمةً ، وأبينهم لما يريد

وكان حسن الوجـه ، حسن اللحية ، حسن الهيئة والثياب ، حسن المجلس ، حسن السمت ، هيوباً ، شديد الكرم ، كثير المواساة لإخوانه ، كثير التعطر ، ولذا قيل :

كان إذا خرج من منزله يعرف بريح المسك قبل أن يراه الناس

أصله ـ هو عربى المولد والنشأة ، وجدوده من فارس ، ولاغضاضة إذا كان الإمام فارسى الأصـل فالتقوى أعلى نسب ، وأقـوى حسب لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

وقوله عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« يأيها الناس إن ربكم واحـد ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسـود على أحمر ، ولا لأحمر على أسـود إلاّ بالتقوى »

فالاعتبار إذاً للتقوى ، لا للنسب المجرد ، وشرف العلم والتقوى ، فوق شرف النسب والحسب

بشارة النبي ﷺ بالإمام أبي حنيفة

قال الإمام السيوطى رحمه الله : ذكر العلماء ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بشر بالإمام أبى حنيف فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم وهو :

« لوكان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس »

وفى هذا الحديث الشريف أصل صحيح يعتمد عليه فى البشارة بأبى حنيفة ، وفى الفضيلة التامة له ، لأنه لم يبلغ أحد فى زمن أبى حنيفة من أبناء فارس فى العلم مبلغه ولا مبلغ أصحابه

علومه ـ أخذ الإمام أبو حنيفة من العلوم بأوفر نصيب ، وبلغ فيها مبلغاً يشار اليه بالبنان ، وقد تفوق فى علوم النظر والقياس ، وإصابة الرأى حتى قالوا عنه : « أبو حنيفة إمام أهل الرأى »

أما العلوم الشرعية والعربية ، والأدبيه والحكمية ، فكان فى كل هذا بحراً لايجارى ، وإماماً لايمارى

وأما الفقه ، فقد ذكر الإمام الشافعى : أن الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه

وأما الحديث ، فقد قال الإمام أبو يوسف : ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث من أبى حنيفة كان بصيراً بعلل الحديث ، وبالتعديل والتجريح ، مقبول القول فى هذا ، وأنشد الإمام أبو المؤيد :

« نعمان قد سبز العلوم بأسرها حتى علا منها ذرى الأطواد »
« ثم انتهى منها الى الفقه الذى قد راح فى الأغوار والأنجاد »
« وهداه لما لج فى طلب الهدى محمود فطنته الى حمّاد »
« ثم انبرى من بعده يفتى الورى حقاً برغم معاطس الحسّاد »
« لقد ارتقى فى فقهه فى قلة هدمت معاهدها قوى الإلحاد »
« فرقُ الضلال حَدَوْ إليه مطيَّهم فهدامُ ولكل قوم هادى »

زيادة نشاطه وإقباله على العلم والتدريس والافتاء

قال الإمام رحمه الله : كنت أجلس للتعليم ، وأصبر لأصحابى طرفى النهار مع المداومة ، فرأيت ليلةً فيما يرى النائم كأنى أنبش قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأستخرج عظامه فأجمع بعضها على بعض ، فأعظمنى ذلك وأفزعنى ، فتركت المجلس ، وأرسلت رجلاً أميناً ثقةً

إلى (ابن سيرين عالم الرؤيا) يسأله عن هذه الرؤيا ، فذهب الرجل وسأله فعبرها تعبيراً رجوت منه الخير ، فخف عنى ما كنت أجده من تلك الرؤيا ، وعدت إلى العلم والتعليم

قال يحيى بن نصر : ما الذى عبَّر ؟ قال الإمام : السماع من غيرى أحسن . قلت : على كل حال أحب أن أعلم

قال صاحب هذه الرؤيا : يُحيى علماً قد أُميت ؛ وفى رواية أخرى يُحيى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

شجع هـذا أبا حنيفة ، وزاده نشاطاً فزاد إقباله على التدريس والإفتاء ، وكثرت أصحابه حتى صارت حلقة درسه أوسع الحلقات فى المسجد وأعظمها ، وعمل أشيـاء أعجزت غيره وتفوق على الجميـع واستحكم له الأمر ، فانصرف إليه وجوه النـاس ، وأكرمه الخلفاء والأمراء والحـكام وأشراف الدولة

وما زال كذلك حتى ارتفع شأنه ، وزاد إقبال الناس عليه ؛ ولـكن مع الأسف كان خصومه وحساده يصغرون من شأنه ، ويشوهون من سمعته ، ويؤلفون فى ذمه ، والانتقاص من قدره ، المؤلفات ؛ ولـكنه لم يعبأ بهم ، ولم يلتفت لأقوالهم ، وكان يقول :

« عفا الله عمن قال فينا مكروهاً ؟ ورحم الله من قال فينا جميلاً »

تفقهوا فى دين الله ، وذروا النـاس ، وما قد اختاروا لأنفسهم ،

فيحوجهم الله تعالى للعلم

وعلى الرغم مما اصابه من ذم الخصوم ، وكيد الحساد ، كان حافظاً لسانه لايذكر أحداً بسوء ، وكان لا يخوض فيما لا يعنيه ولا يستمع إليه ، ولم يغتب أحداً قط ، اعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها ، وكان طويل الصمت ، كثير الفكر . دقيق النظر فى الفقه ، لطيف الاستخراج فى العلم والعمل ، والبحث والتنقيب ، كثير العقل ، قليل المجادلة للناس ، قليل المحادثة لهم

وكان يعلم أنه لا يسلم من ذم الناس وحسدهم أحد فطرح المبالاة لكلامهم ، واستعمل المبالاة لكلام الله تعالى ، وهذا هو العقل كله والراحة كلها ، وهذا هو المثل الأعلى الذى يجب أن يكون مثل العلماء وأهل الكمال والفضيلة ، وقد أنشد بعضهم :

لأبى حنيفة فى العلوم منار ... مُلئت بها الآفاق والأقطار
شيخ البرية فى العلوم ومن له ... تروى المناقب عنه والأخبار
متعبد لله طول حياته ... وعليه منه سكينة ووقار
قد كان يحيى ليله متهجدا ... وله بكل وظيفة أذكار
وعطاؤه قد كان سمحاً للورى ... وله بذاك على الدوام فخار

تلاميذه ـ لا يمكن حصر تلاميذ الإمام أبى حنيفة الآخذين عنه ، ولم يظهر لإمام من أئمة الإسلام من الأصحاب والتلاميذ مثل ما ظهر لأبى حنيفة ، ولم ينتفع العلماء وجميع الناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه

ومن هؤلاء العلماء (حماد بن أبى سليمان) وهو الذى لازمه حتى تخرّج به ، وكان أفقه أهل زمانه وأكرمهم

خصائصه ـ اختص الإمام أبو حنيفة عن غيره من الأئمة بخصائص منها :

١ ـ أنه وُلد فى زمن جماعة كثيرة من الصحابة ، واتفق المحدثون على أن أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على عهده وهم :

أنس بن مالك ، خادم الرسول ، وعبد الله بن أبى أوفى ، وسهل بن سعد الساعدى ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة

ولا خلاف فى ذلك فهو من أهل القرن الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية ؛ ووصفهم بالعدالة

روى الشيخان : (البخارى ومسلم) وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »

وروى مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خير الناس القرن الذى أنا فيه ، ثم الثانى ، ثم الثالث »

وأنشد الإمام أبو المؤيد :

غدا مذهب النعمان خير المذاهب

كذا القمر الوضاح خير الكواكب

« تفقه فى خير القرون مع التقى

ومذهبه لاشك خير المذاهب »

٢ - أنه اجتهد فى زمن التابعين ، وكان مقدماً فى الفتوى معظما فى زمنهم

وقيل : إنه أخذ عن أربعة آف شيخ من التابعين ، أو يزيدون وأنه اتفق له من الأصحاب مالم يتفق لأحد من بعده من الأئمة

٣ - رواية الأئمة الكبار عنه حتى قيل : لولم يستدل على فضل الإمام أبى حنيفة إلاَّ برواية الكبار عنه لكفى ، ومنهم (عمرو بن دينار) فإنه من شيوخ أبى حنيفة وكبار العلماء

٤ - أنه أول مَن دوَّنَ علم الفقه ورتبه أبواباً ، ثم تابعه الإمام مالك ابن أنس فى ترتيب الموطأ ، فلم يسبق أبا حنيفة احد ؛ لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم

فلما رأى أبو حنيفة العلم منتشراً خاف عليه فجعله أبواباً مبوَّبة وكتباً مرتبة

وهو أول من وضع كتاب الفرائض وأول من وضع كتاب الشروط وهو كما قال المتنبى

« إمام رست للعلم فى كنه صدره

جبالٌ جبالُ الأرض فى جنبها قَفُّ »

٥ ـ انتشار مذهبه فى أقاليم ليس فيها غيره وهى : الهند والسند والروم ، والترك و بلاد ماوراء النهر ، وغالب بلاد العجم وغير ذلك

٦ ـ أنه كان يأكل وينفق على أهل العلم وغيرهم من كسبه ، ولم يقبل الجوائز (العطايا)

٧ ـ أنه مات محبوساً ساجداً لله

٨ ـ أنه كان كثير العبادة والقيام بالليل ، وقراءة القرآن

روىٰ عنه : أنه كان يحيي نصف الليل ، وقد ختم القرآن فى شهر رمضان ستين ختمة : ختمة بالليل ، وختمة بالنهار

وأنشد الامام أبو المؤيد فى خصائصه :

« إن الامام أبا حنيفة لم تذق عيناه قط لذاذة الإغفاء »

« وعلى كتاب الله مذهبه بُنى لله ثم السنة الغراء »

« ثم اجتماع المسلمين فانهم نظروا بنور الحق فى الظلماء »

« ثم القياس على النصوص فانه زهرٌ لأهل الملّةِ الزهراء »

٩ ـ أنه كان يخاف الله ، ويؤثر رضا ربه على كل شىء ، ولو أخذته السيوف فى الله تعالى لا حتمل ، وكان يصلى ويبكى ويدعو ويقول :

« رب ارحمنى يوم تبعث عبادك ، وقنى عذابك ، واغفرلى ذنوبى يوم يقوم الأشهاد »

١٠ ـ قيامه لله حق القيام ، فانه كان إذا رأى منكراً ذهب ذلك

اللين ، واحمرت عيناه ، وانقلبتا فى أم رأسه ، وانتفخت أوداجه ، وما رأى منكراً قط إلا أزاله

مناقب الإمام رضى الله عنه

ترفعه ورفضه لمناصب الدولة — عرض الخلفاء والولاة والأمراء مناصب الدولة على الإمام أبى حنيفة فأبى أن يتولى واحداً منها ، فضربوه وعذبوه وحبسوه على هذا الإباء فأصر عليه حتى مات مسجوناً من جراء امتناعه من أن يتولى القضاء ، ويدل على ذلك ما يأتى :

١ — روى الخطيب عن الربيع بن عاصم قال : أرسلنى يزيد بن هبيرة والى العراقين لمروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية فقدمت بأبى حنيفة فأراده على بيت المال فأبى فضربه أسواطاً

٢ — وعن أبى حفص الكبير وغيره قالوا : كان ابن هبيرة والياً على العراق فى زمن بنى أمية فظهرت الفتنة بالعراق فجمع ابن هبيرة فقهاء العراق ببابه فيهم (ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن أبى هند) وغيرهم ، فولى كل واحد منهم شيئاً من عمله ، وأرسل إلى أبى حنيفة ليكون على خاتمه ، ولا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبى حنيفة ولا يخرج شىء من بيت المال إلا من تحت يد أبى حنيفة ، فامتنع أبو حنيفة ، فحلف ابن هبيرة إن لم يفعل ليضربنه

فقال له جماعة هؤلاء الفقهاء : إنا ننشدك الله أن تمتلك نفسك فانا إخوانك وكلنا كاره لهـذا الأمر لم نختره ، ولم نجد بداً من ذلك ، فأبى وقال :

لو أرادنى أن أعد له أبواب المسجد لم أفعل ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم ، واختم أنا على ذلك الكتاب ؟ فوالله لا أدخل فى هذا أبداً .

فحبسه صاحب الشرطة جمعتين لم يضربه ثم ضربه أربعة عشر سوطاً

٣ ـ روى الخطيب عن عبد الله بن عمرو قال : كلم ابن هبيرة أبا حنيفة فى أن يلى قضاء الكوفة فأبى ، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط ، فى كل يوم عشرة أسواط ، وهو على الامتناع ، فلما رأى ذلك خَلى سبيله

٤ ـ روى عن بشر بن الوليد قال : كان أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين أرسل إلى أبى حنيفة وأراد أن يوليه القضاء فأبى

فحلف عليه أبو جعفر ليفعل ، فحلف أبو حنيفة لا يفعل . فقال الربيع لأبى حنيفة ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف ؟ فقال : أبو حنيفة امير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه منى على كفارة يمينى ، فأمر بحبسه ، ثم دعا به فقال : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال أبوحنيفة : أصلح الله أمير المؤمنين ، ياأمير المؤمنين اتق الله ، ولا تشرك فى أمانتك من لا يخاف الله ، والله ما أنا مأمون

الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلا أصلح لذلك

فقال أمير المؤمنين : كذبت أنت تصلح لذلك

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد حكمتَ على نفسك ، إن كنتُ صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، وإن كنت كاذباً فكيف يحل لك أن تولى قاضياً كذاباً ؟ ومع ذلك فانى رجل مولى ، ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى ، فأمر به إلى السجن ولبث به إلى أن مات ودفن فى مقابر الخيزران

٥ — وفى رواية أخرى ، ان أبا جعفر المنصور دعا أبا حنيفة وسفيان الثورى وشريكا النخعى فدخلوا عليه ، فقال لسفيان : هذا عهدك على قضاء البصرة فالحق بها ، وقال لشريك : هذا عهدك على قضاء مدينتى وما يليها فامضِ ، وقال لحاجبه: وجِّه معهم متوكلا بهم ، فمن أبى منهم فاضربه مائة سوط ، فأما شريك فانه تقلد القضاء ، وأما سفيان فانه هرب إلى اليمن ، وأما أبو حنيفة فلَمْ يقبل ، فضربه مائة سوط وحبس إلى أن مات رضى الله عنه ورحمه رحمةً واسعةً

زهده وورعه : ١ — عن ابن المبارك قال : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها ؟ فقيل : أبو حنيفة

٢ — وعن الحسن بن صالح قال : كان أبو حنيفة شديد الورع ،

هائباً للحرام ، تاركاً لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، ما رأيت فقيها أشد ديانة منه لنفسه ولعلمه ، وكان جهاده كلّه الى قبره

٣ - وعن الحسن بن زياد قال : والله ما قبل أبو حنيفة جائزةً ولا هديةً

٤ - وعن بكر بن ابن ابراهيم قال : جالست الكوفيين فلم أرفيهم أروع من أبى حنيفة

٥ - روى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فقر منها ؟

٦ - روى عن محمد بن شعاع عن بعض أصحابة أنه قيل لأبى حنيفة : قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم ، قال : فما رضى أبو حنيفة . فلما كان فى اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه صَلَّى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه ، فقال : من حضر ما يكلمنا إلاّ بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته فقال : ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت

ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته ، وقال لابنه : اذا مت ودفنتمونى فخذ هذه البدرة واذهب بها الى الحسن بن قحطبة فقل له : هذه وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة ، قال ابنه : ففعلت ذلك . فقال

الحسن : رحمة الله على أبيك لقد كان شحيحاً على دينه

٧ — قيل لأبى حنيفة : تعرض عليك الدنيا فتعرض عنها ولك عيال ؟ فقال : الله تعالى للعيال ؛ وإنما قوتى أنا فى الشهر درهمان ، فما جمعى لمن ؟ يسألنى الله تعالى عن الجمع لهم إن أطاعوه تعالى أو عصوه ، فان رزق الله تعالى غادٍ ورائح على العاصين والمطيعين . ثم قرأ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

٨ — وعن عبد الله بن المبارك قال : وقعت الى الكوفة أغنام من الغارة واختلطت بغنم أهل الكوفة فسأل أبو حنيفة : كم تعيش الغنم ؟ فقالوا : سبع سنين ، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين

ورأى بعض الجند أكل لحماً ورمى فضلته فى نهر الكوفة ، فسأل عن عمر السمك فقيل له : كذا وكذا . فامتنع من أكل السمك تلك المدة

٩ — وقال الإمام القشيرى : كان ابو حنيفة لا يجلس فى ظل شجرة غريمه ويقول كل قرض جر منفعة فهو ربا

---

١٠ — وعن يزيد بن هارون قال : ما رأيت رجلاً أورع من ابى حنيفة ، رايته يوماً جالساً فى الشمس عند باب انسان فقلت له :

يا أبا حنيفة لو تحولت الى الظل ؟ فقال : لى على صاحب هذه الدار دراهم ولا أحب أن أجلس فى ظل فناء داره . قال يزيد : فأى ورع أكثر من هذا ؟

أمانته — عن عبد الله بن صالح قال : قال رجل للحكم بن هشام أخبرنى عن أبى حنيفة ؟ قال : كان أعظم الناس أمانةً ، فقد أراده السلطان على مفاتيح خزانته أو يضرب ظهره ، فاختار عذابه على عذاب الله . قال : ما رأيت أحداً يصف أبا حنيفة كما وصفته . قال : هو والله كما قلت

وعن وكيع قال : كنت عند أبى حنيفة فجاءت امرأة بثوب خز (حرير) فقالت : بعه لى . فقال : بكم قيل لك تبعينه ؟

قالت : بمائة درهم قال : هو خير من ذلك

قالت . تهزأ بى ؟ قال : هاتى رجلاً . فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم

وعن على بن حفص البزاز قال : كان حفص بن عبد الرحمن شريك أبى حنيفة فبعث اليه أبو حنيفة بمتاع وأعلمه أن فى ثوب كذا وكذا عيباً فاذا بعته فبين ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين ولم يعلم من اشتراه

فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله ، وكان ثلاثين ألف درهم ، وفاصل شريكه (باينه) أى قاطعه

قناعته ـ كان إذا وضع بين يديه الطعام ترك منه بقدر ما يأكله ثم يطعمه لإنسان فقير أو لمن فى بيته يحتاج اليه

قال أبو حنيفة لعيسى بن موسى أمير الكوفة :

كسرة خبز وقعبُ ماء وفرد ثوب مع السلامه
خير من العيش فى نعيم يكون من بعده ندامه

وفور عقله ـ لقد بلغ الإمام أبو حنيفه من وفور العقل ماجعله يستنبط مذهباً وما جعل الإمام الشافعى يقول : ما قامت النساء عن رجل أعقل من أبى حنيفة

وذُكر أبو حنيفة عند هارون الرشيد يوماً فترحم عليه وقال : كان ينظر بعين عقله ما لا يراه غيره بعين رأسه

وقال ابن المبارك : ما رأيت رجلاً أعقل من أبى حنيفة

وقال على بن عاصم : لو وزن عقل أبى حنيفة بنصف عقل أهل الأرض لرجح بهم

وقال الإمام أبو يوسف : ما صاحبت أحداً يقدر أن يقول : انه رأى أكمل عقلاً أو أتم مروءة من أبى حنيفة

وروى القاضى بن كاس : أن أبا حنيفة كان جالساً فى المسجد فسقط فى حجره من السقف حيّة عظيمة ، فما تغير ولا تحول ، بل قال :

﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾

وأخذها بيده اليسرى ورمى بها عنه

فراسته ـ كان أبو حنيفة ينظر الى الانسان فيعرف مافى نفسه بشدة فراسته ، وكان بمجرد معاشرته لشخص يعرف ما يؤول اليه أمره ، ويحدثه عما يحصل له فى مستقبله ، فكأنه كان يقيس مستقبله على ماضيه

ولقد بلغ من حسن فراسته وصدقها أنه قال لداود الأنطاكى : أنت تتخلى للعبادة . وقال لأبى يوسف : أنت تميل الى الدنيا . فكان كما قال

ومما يدل على فراسته أن محمد بن ابراهيم الفقيه قال : كان أبو حنيفة جالساً فى المسجد فمرّ عليه رجل فقال أبو حنيفة : هذا الرجل غريب ، وفى كمه شىء من الحلوى ، وهو معلم صبيان ، فقام بعض أصحاب أبى حنيفة وتبع الرجل فوجده غريباً ، ووجد فى كمه زبيباً ، ووجد أنه معلم صبيان

فسألوا أبا حنيفة عن هذه المسائل ؟ فقال : رأيته ينظر يميناً وشمالاً وكذلك الغريب يفعل ، وأريت الذباب على كمه فعلمت أن فى كمه شيئاً من الحلوى ، ورايته ينظر الى الصبيان فعلمت أنه معلم صبيان

ذكاؤه ـ كان أبو حنيفة آية فى الذكاء والفطنة ، فكانت توجه اليه الأسئلة المعقدة المبهمة فيجيب عنها على البديهة إجابةً مسكتة

كان يعرف كيف يتقى المكايد ، ويتخلص من الورطات ، وينجو من المهالك

ومما يدل على ذكائه القصة الآتية :

قال محمد بن مقاتل : قصد رجل أبا حنيفة فقال له : ماتقول فى رجل لايرجو الجنة ، ولا يخاف من النار ، ولا يخاف الله تعالى ، ويأكل الميتة ، ويصلى بلا ركوع ولا سجود ، ويشهد بما لايرى ، ويبغض الحق ، ويحب الفتنة ، ويفر من الرحمة ، ويصدق اليهود والنصارى ؟

فقال أبو حنيفة ـ وكان يعرفه شديد البغض له : يا فلان سألتنى عن هذه المسائل فهل لك بها علم ؟ فقال الرجل : لا

فقال أبو حنيفة لأصحابه . ماتقولون فى هذا الرجل ؟

قالوا : شر رجل ، هذه صفات كافر

فتبسم أبو حنيفة وقال لأصحابه : هو من أولياء الله تعالى حقاً

ثم قال للرجل : إن أنا أخبرتك أنه من أولياء الله تعالى تكف عن سوء لسانك ؟

قال : نعم

قال أبو حنيفة . أما قولك ، لايرجو الجنة ولا يخاف من النار ، فانه يرجو رب الجنة ، ويخاف رب النار

وقولك : لايخاف الله ، فإنه لايخاف الله تعالى أن يجور عليه فى عدله وسلطانه قال تعالى :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

وقولك : يأكل الميتة ، فهو يأكل السمك

وقولك . يصلى بلا ركوع ولا سجود ، أراد الصلاة على النبى أو صلاة الجنائز

وقولك : يشهد بما لم يره فهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله

وقولك : يبغض الحق ، فهو يبغض الموت ، وهو الحق ، ويحب البقاء حتى يطيع الله تعالى

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

وقولك : ويحب الفتنة ، أراد أنه يحب المال والولد

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

وقولك . يفر من الرحمة ، أراد أنه يفر من المطر (وهو غيث ورحمة)

وقولك : يصدق اليهود والنصارى . أراد قول الله تعالى عنهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾

فقام الرجل وقبل رأس أبى حنيفه وقال : أشهد أنك على الحق

حلمه وعفوه ـ استطال السفهاء على أبى حنيفة ما استطالوا ، وناله من

بذاءة الجهال ، وكيد الحاقدين والحساد مانالهم ، فكان ممن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً ، واذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً

ومما يدل على حلمه الحوادث الأتية :

١ ـ قال يزيد بن الكميت : شهدت أبا حنيفة قد شتمه رجل ، واستطال عليه وقال له : يازنديق ، فقال له أبو حنيفة : غفر الله لك ، هو يعلم منى خلاف ماتقول ، وهو يعلم أنى ما عدلت به أحداً منذ عرفته ، ولا أرجو إلاّ عفوه ، ولا أخاف إلا عقابه ، ثم بكى عند ذكر العقاب وسقط صريعاً ثم أفاق

فقال له الرجل : اجعلنى فى حلٍّ . فقال : كل من قال فىّ شيئاً من أهل الجهل فهو فى حلٍّ ، وكل من قال فىّ شيئاً مما ليس فىّ من أهل العلم فهو فى حرج ، فان غيبة العلماء لاتبقى شيئاً بعدهم

وقيل له : الناس يتكلمون فيك ، ولا تتكلم فى أحد ؟

قال : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء وَاللهُ ذو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

٢ ـ وقال عصام بن يوسف : قام رجل فى ناحية المسجد وجعل يسب أبا حنيفة ويشتمه ، فما قطع أبو حنيفة حديثه ، ولا التفت اليه ، ولا أجابه ، ونهى أصحابه عن مخاطبته

فلما فرغ من درسه وقام تبعه ذلك الرجل البذىء

فلما وصل أبو حنيفة الى باب داره قام على بابه واستقبل الرجل

بوجهه وقال : هذه داري ، فان كنت تريد أن تتم باقي كلامك فأتمه حتى لايبقى معك شيء

فاستحيا الرجل وقال : اجعلني في حلٍ . فقال : أنت في حلٍ

كرم أخلاقه ـ ما كان أبو حنيفة إماماً في العلم والفقه فحسب ؛ ولكنه كان إماماً أيضاً في الفضيلة ومكارم الأخلاق

روى عن ابراهيم بن سعيد الجوهري أنه قال :

كنت عند أمير المؤمنين هارون الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف ، فقال له الرشيد :

يا أبا يوسف صف لي أخلاق أبي حنيفة ، فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

وهو عند لسان كل قائل ، علمي بأبي حنيفة أنه كان شديد الذب عن محارم الله تعالى أن تؤتى ، شديد الورع ، لاينطق في دين الله إلا بعلم ، يحب أن يطاع الله تعالى ولا يعصى ، مجانباً أهل الدنيا في زمانهم ، لا ينافس في غيرها ، طويل الصمت ، دائم الفكر ، على علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً ، إن سُئل عن مسألة كان عنده فيها علم نطق به ، وأجاب فيها بما سمع ، وإن كان غير ذلك قاس على الحق واتبعه ، صائناً نفسه ودينه ، بذولاً للعلم والمال ، مستغنياً بنفسه عن جميع الناس ، لايميل الى طمع ، بعيد عن الغيبة ، لايذكر أحدا إلا بخير

فقال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين حقاً

وقال ابن عمران الموصلى : كان فى أبى حنيفة عشر خصال ، ما كان واحدة منها فى أحد إلا صار رئيساً فى قومه ، وساد قبيلته وهى :

الورع ، والصدق ، والفقه ، ومداراة الناس ، والمروءة الصادقة ، والإقبال على ماينفع ، وطول الصمت ، والإصابة فى القول ، ومعونة اللهفان عدواً كان أو صديقاً .

أكله من كسب يده - تواترت الروايات على أن الإمام رضى الله عنه كان يتجر فى البَزّ (الثياب من الكتان أو القطن) وكان مسعوداً فى ذلك ، ماهراً فيه ، وكان له حانوت بالكوفة وشركاه يسافرون له فى شراء ذلك وفى بيعه

قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة باذلاً للمال ، مستغنياً بنفسه عن جميع الناس ، لايميل الى طمع ، وقال عمر بن حماد بن أبى حنيفة : كان أبو حنيفة بزازاً (بائع البز) ودكانه معروف فى دار عمر بن حريث . وقال محمد بن مقاتل : كان أبو حنيفة خَزازاً (بائع الخز) فجاءت امرأة فطلبت ثوب خَز فقال لغلامه . أخرج لها ثوب خز ، فأخرجه الغلام وضرب يده عليه وقال : صلى الله على محمد ، فغضب أبو حنيفة وقال : تمدح ثوبى بالصلاة على محمد ، لا أبيع ثوبى اليوم ، فلم يبع ذلك اليوم شيئاً من متاعه

كرمه ومؤاساته ـ كان أبو حنيفة أبر الناس بأصحابه ، وأكرمهم مجالسة ، ولا يكاد يسأل عن حاجة إلا قضاها ، وقديماً قالوا : إن ذوى الشرف أتم عقولاً وكرماً من غيرهم

ومما يدل على كرمه الحوادث الآتية :

١ ـ قال اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة : ان أبا حنيفة حين حفظ حماد ابنه (سورة الحمد) وهب للمعلم خمسمائة درهم ، وفى رواية ألف درهم ، فقال المعلم : ما صنعت حتى أرسل الى هذا ؟ فأحضره واعتذر اليه فقال : ما هذا إلا مستحقر فيما علمت ولدى ، والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه اليك تعظيماً للقرآن

٢ ـ وعن قيس بن الربيع قال : كان أبو حنيفة يبعث بالبضائع الى بغداد فيشترى بها الأمتعة ويحملها الى الكوفة ، ويجمع الأرباح عنده من سنة الى سنة فيشترى بها حوائج الأشياخ المحدثين وقوتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم ، ثم يدفع باقى الدنانير من الأرباح اليهم فيقول :

أنفقوا فى حوائجكم ، ولا تحمدوا إلاَّ الله تعالى ، فانى ما أعطيتكم من مالى شيئاً ، ولكن من فضل الله تعالى فيكم ، وهذه أرباح بضاعتكم فانه هو والله مما يجريه الله تعالى لكم على يدى

٣ ـ وكان رضى الله عنه إذا جلس اليه الرجل سأل عنه ، فان كان

به فاقة أعطاه ، فجلس اليه رجل عليه ثياب رثة ، فلما تفرق الناس أمره بالجلوس حتى خلا به ، فقال له : ارفع هـذا المصلى وخذ من تحته ألف درهم أصلح بها حالك . فقال الرجل : أنا موسر وأنا فى نعمة . فقال له : أما بلغك الحديث : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغى لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك

٤ - وعن مِسعَر قال . كان أبو حنيفة اذا اشترى لعياله شيئاً أنفق على شيوخ العلماء مثل ما أنفق على عياله ، واذا اكتسى ثوباً فعل كذلك ، واذا جاءت الفاكهة والرطب وكل شىء يريد أن يشتريه لنفسه ولعياله لا يفعل ذلك حتى يشترى لشيوخ العلماء مثله ، ويشترى بعد ذلك لعياله

٥ - وعن أبى يوسف قال : كان أبو حنيفة شديد البرّ لكل من عرف ، وكان يهب للرجل خمسين ديناراً أو أكثر ، فاذا شكره بحضرة قوم غمه ذلك وقال : اشكر الله تعالى ، فانما هو رزق ساقه الله تعالى اليك

٦ - وعن اسحق بن اسرائيل قال : سمعت أبى يقول . كان أبو حنيفة جواداً يواسى أصحابه المؤاساة الكثيرة ، ويبرهم فى الأعياد ، ويرسل الى كل واحد منهم قدر منزلته ، ويزوج من احتاج اليه ، وينفق عليه من عند نفسه ، ويقوم بحوائجهم

٧ - وعن سفيان بن ابراهيم قال : كنت مع أبى حنيفة فى طريق

يعود مريضاً ، فرأى رجلاً من بعيد فاختبأ الرجل منه ، وأخذ فى طريق آخر فصاح أبو حنيفة : أى فلان ، عليك بالطريق الذى أنت فيه ، لا تأخذ فى طريق آخر فلما علم الرجل أن أبا حنيفة بَصُر به خجل ووقف ، فقال له أبو حنيفة : لم عدلت عن طريقك الذى كنت عليه ؟ قال الرجل : لك علىّ عشر آلاف درهم ، وقد طال على الوقت وامتد ، ولم أقدر أن أؤدى ؛ فلما رأيتك استحييت منك ، فقال له أبو حنيفة : سبحان الله بلغ بك الأمر كل هذا ، حتى اذا رأيتنى تواريت عنى . . . قد وهبت لك مثل ذلك كله ، وأشهدت على نفسى ، فلا تتوار منى بعد هذا ، واجعلنى فى حلٍّ مما دخل فى قلبك منى حيث لقيتنى

٨ — وعن شريك قال . كان أبو حنيفة يصبر على من يعلمه ، وان كان فقيراً أغناه ، وأجرى عليه وعلى عياله حتى يتعلم ، فاذا تعلم قال له : قد وصلت الى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام

٩ — وعن يحيى بن خالد قال : حبس ابراهيم بن عيينة بسبب دين لزمه وهو أكثر من أربعة آلاف درهم فقام بعض اخوانه فجمع له من الناس وصار إلى أبى حنيفة

فقال أبو حنيفة : كم دينه ؟ قال : أكثر من أربعة آلاف درهم قال : فهل أخذت من أحد شيئاً ؟ قال : نعم . قال : رد ما أخذت على

من أخذت منه ، وأنا أقضى جميع ما عليه من الدين

١ وعن السعدى الكوفى قال : أهديت الى أبى حنيفة هدايا فكافأنى بأضعاف ذلك ، فقلت له : لو علمت أنك تفعل مثل هـذا لم أفعل ما فعلت . فقال : لاتفعل مثل هذا ، فان الفضل للسابق والبادى . ألم تسمع هـذا الحديث الشريف « من صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تـكافئونه به فأثنوا عليه » ؟

فقلت : هذا الحديث أحب الى من جميع ما أملك

تفقده لأصحابه — قال الوليد بن قاسم : كان أبو حنيفة حسن التفقد لأصحابه ، يسأل عن أحوالهم ، فمن عرف به حاجة واساه ، ومن مرض منهم أو مرض قريب له عاده ، ومن مات منهم أو مات قريب له شيع جنازته ، ومن نابته منهم نائبة سعى فى حوائجهم ، وكان كريم الطبع ، وكان لايكلمه أحد فى حاجة إلاّ قضاها

حسن جواره — كان الإمام أبو حنيفة حسن الجوار ، حسن السمت ، حسن العشرة والمواساة ، والاحتمال والمداراة

وكان له جار فاسق سكير عوّاد مُغَنٍّ اذا جَنَّ الليل أقبل على لعبه ولهوه ، وكان أكثر صياحه وغنائه اذا ثمل هو وأصحابه

« أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر »

حتى حفظ عنه كل غنائه لـكثرة ما كان يردده ، فأخذه الحرس

من داره وهو سكران وحبسوه ، فافتقد أبو حنيفة صوته ، فقال : ماذا فعل جارنا ؟ لقد فقدنا صوته . فقيل : أخذه الحرس البارحة وحبسوه . فقال أبو حنيفة : قوموا بنا نسعى فى خلاص جارنا ، فان حق الجار واجب ، وقد أوصى به جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم . فقام وقمنا معه حتى أتينا مجلس الأمير . فلما بصر بأبى حنيفة قام الأمير وأخذ بيد أبى حنيفة ورفعه مكاناً علياً وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لمحبوس عندك من جيرانى أخذه الحرس البارحة وأسألك أن تطلقه وتهب لى جرمه

فقال الأمير : قد فعلت ، ولجميع من معه فى الحبس ، هلا بعثت برسول حتى أقضى به حقك وأخرج عن واجبك ؟ فجزاه ابو حنيفة خيراً ، ثم بعث الى الحبس فأخرج كل من كان فيه ، وجىء بهم مع الفتى جار أبى حنيفة . فلما وقفوا بين يدى الأمير قال لهم :

خليت سبيلكم لحرمة شيخى أبى حنيفة ، فاشكروا له وادعوا ، ففعلوا . ثم قال لهم : اذهبوا فقام أبو حنيفة وأخذ بيد جاره وقال له : هل أضعناك يافتى ؟ قال : لاياسيدى ومولاى ، لاترانى بعد اليوم أفعل شيئاً تتأذى به

ثم أخرج أبو حنيفة عشرة دنانير وأعطاها لجاره وقال له : استعن بهذا المال على نقصان دخلك وقت الحبس ، ومتى كان لك حاجة

فابسطها الينا ، واترك الحشمة فيما بيننا و بينك ، ثم قال : ادخل على أهلك ليسروا بك

فقام الرجل وقبل رأس أبى حنيفة ودخل منزله ، ثم اختلف الى درس أبى حنيفة وتفقه حتى صار من فقهاء الكوفة

وكان فى هـذا درس عظيم لهداية جاره ، وامتناعه عن تعاطى المسكر

نزاهته وعفته ، ورده جوائز الأمراء والخلفاء

عرضت على الإمام جوائز الخلفاء والأمراء وأرباب الدولة فردّها وما قبل هديةً منهم بدليل ما يأتى :

١ - قال يوسف بن خالد : أجاز المنصور أبا حنيفة بثلاثين ألف درهم فى دفعات . فقال : يا أمير المؤمنين إنى ببغداد غريب ، وليس لها عندى موضع ، اجعلها فى بيت المال . فأجابه المنصور الى ذلك

فلما مات أبو حنيفة أُخرجت . فقال أبو جعفر المنصور : خدعنا أبو حنيفة

٢ - وقال خارجة بن مصعب : أجاز المنصور أبا حنيفة بعشرة آلاف درهم ، فدعى ليقبضها ، فشاورنى وقال : إن رددت عليه هديته غضب ، وإن قبلتها دخل على فى دينى ما أكرهه ، فقلت له . إن هـذا

المال عظيم فى عينه ، فاذا دعيت لتقبضها فقل له : لم يكن هـذا أملى من أمير المؤمنين

فدعنى ليقبضها فقال ذلك : فرفع اليه خبره فحبس الجائزة

وكان دائماً يتمثل بهذين البيتين :

عَطاء ذى العرش خير من عطائكمُ

وفضـله واسع يرُجى لمنتظر

أنتم يـُكدِّر ما تعطون مَنُّكمُ

والله يُعطى بلا مَنٍّ ولا كدَرِ

وصايا الامام فى آداب القضاء

عن نوح بن أبى مريم قال : كنت أسأل أبا حنيفة عن معانى الأحاديث ، فـكان يفسرها ويبينها ، وكنت أيضاً أسأل عن المسائل الغامضة ، وعامةً ما كنت أسأله عن مسائل القضاء والأحكام

فقال لى يوماً : يانوح ، انك ستولى القضاء

فلما رجعت الى (مرو) لم ألبث إلاَّ قليلا حتى ابتليت بالقضاء ، فـكتبت اليه كتاباً أعلمه بذلك ، وأعتذر اليه فـكتب الى :

من أبى حنيفة الى أبى عصمة :

أما بعد ، فقد ورد علىّ كتابك ، ووقفت على مافيه ، وقد قُلدت

أمانةً عظيمةً يعجز عنها الكبار من الناس ، وأنت كالغريق ، فاطلب لنفسك مخرجاً ، وعليك بتقوى الله فانها من قوام الأمور ، والخلاص فى الميعاد ، والنجاة من كل بلية ، وبها يدرك أحسن العواقب

قرن الله تعالى بخير العواقب أمورنا ، ووفقنا لمرضاته إنه سميع مجيب

واعلم أن أبواب القضاء لا يدركها إلاَّ العالم النحرير الذى وقف على أصول العلم بالكتاب والسنة وأقاويل الصحابة ، وكان له بصر ورأى ونفاذ ؛ فاذا أشكل عليك شىء من ذلك فارحل الى الكتاب والسنة والإجماع ، فان وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، وإلاَّ فردّه الى النظائر واستشهد عليه بالأصول

ثم اعمل بما كان الى الأصول أقرب وبها أشبه ، وشاور أهل المعرفة والبصيرة ، فان فيهم من يدرك مالا تدركه أنت

فاذا جلس اليك الخصمان للحكومة فسوِّ بين القوى والضعيف ، والشريف والوضيع فى المجلس ، والإقبال والكلام ، ولا تظهرن من نفسك شيئاً يطمع منك الشريف بشرفه ، ويئس الوضيع لضعفه

واذا جلس الخصمان بين يديك فدعهما حتى يستمكنا فى الجلوس ، ويذهب عنهما خجل المجلس والروع ، ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ،

واستوعب كلام كل واحد منهما ، ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدان إلاَّ أن يأخـذا فى فضل فتمنعهما عن ذلك ، وتبين لهما ذلك ، ولا تقض عند الضجر والغضب والحزن ، ولا تقض حاقناً ولا جائعاً ولا خائفاً ، ولا تقض وأنت مشغول البال ، ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ، وردهم مجالس لعلهم يصطلحون ، فان كان وإلاَّ قضيت بينهم ، ولا تقض على أحد حتى تتبين لك الوجوه التى تلزمه ذلك ، ولا تلقن الشاهد ، ولا تشر فى مجلسك ، ولا تومىء الى أحـد ، ولا تكلن إلى قرابتك شيئاً من الأمور ، ولا تجيبن أحـداً فى دعوته فتلزمك التهمة ، ولا تتحدث فى مجلس القضاء ، (وآثر تقوى الله على ما سواه يكفك أمور دنياك وآخرتك ويرزقك السلامة)

أنعم بهذه الوصايا وحبذا لو عمل بها قضاتنا

وصاياه فى سياسة الناس ومعاشرتهم

بعـد أن أخـذ يوسف بن خالد السمتى العلم عن أبى حنيفة وأراد الرجـوع الى بلدته البصرة استأذن أبا حنيفة فى ذلك . فقـال له أبو حنيفة حتى أزوّدك بوصية فيما تحتاج اليه فى معاشرة الناس ومراتب أهل العلم ، وتأديب النفس وسياسة الرعية ، ورياضة الخاصة والعلماء ،

وتفقد أمر العامة ، حتى اذا خرجت بعلمك كان معك آلة تصلح له تزينه ولا تشينه . وهاهى الوصية التى زوّده بها

الوصية الذهبية

إنك متى أسأت معاشرة الناس صاروا لك أعداء ، وإن كانوا لك آباء وأمهات ، ومتى أحسنت معاشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء

كأنى بك وقد دخلت البَصرة ، وأقبلت على من يخالفوننا بها ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم وخالفتهم وخالفوك ، وهجرتهم وهجروك ، وضللتهم وضللوك وبدعوك ، واتصل ذلك الشين بنا وبك ، فاحتجت الى الانتقال عنهم ، والهرب منهم ، وهذا ليس من رأيى ، لأنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بُد ، حتى يجعل الله تعالى له مخرجاً

إذا دخلت البَصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فأنزل كل رجل منهم منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقّر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ، ودار الفجار ، واصحب الأخيار ، ولا تتهاون بالسلطان ، ولا تحقرن أحداً ، ولا تقصرن فى إقامة مروءتك ،

ولا تخرجن سرّك الى أحد ، ولا تثقن بصحبة أحد حتى تمتحنه ، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعاً ، ولا تألفن ماينكر عليك فى ظاهرك ، وإياك والانبساط الى السفهاء ، ولا تجيبن دعوة ، ولا تقبلن هدية ، وعليك بالمداراة والصبر ، والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر ، واستجد ثيابك ، واستغره دابتك ، وأكثر استعمال الطيب ، واجعل لنفسك خلوة ترم بها حوائجك ، وابحث عن أخبار حشمك وتقدم فى تأديبهم وتقويمهم ، واستعمل فى كل ذلك الرفق ، ولا تكثر العتاب فيهون العدل ، ولا تل تأديبهم بنفسك فانه أبقى وأهيب لك

وحافظ على صلواتك ، وابذل طعامك ، فانه ماساد بخيل

ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس ، فمتى عرفت بفساد بادرت الى إصلاحه ، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية

وزر من يزورك ومن لايزورك ، وأحسن الى من يحسن إليك أو يسىء . وخذ العلم وأمُر بالعرف ، وتغافل عما لايعنيك ، واترك كل من يؤذيك ، وبادر فى إقامة الحقوق

ومَن مرض من إخوانك فعُدْه بنفسك ، وتعاهده برسلك ، ومَن غاب منهم افتقدت أحواله ، ومن قعد منهم عنك فلاتقعد أنت عنه ، وصل من جفاك ، وأكرم من أتى ، واعفُ عمن أساء اليك ، ومن

تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل ، ومن مات منهم قضيت حقه ، ومن كانت له فرحة هنأته بها . ومن كانت له مصيبة عزيته عنها ومن أصابته جائحة توجعت بها

ومن استنهضك بأمر من أموره نهضت له ، ومن استغاثك فأغثه ، ومن استنصرك نصرته ، وأظهر تودداً الى الناس ما استطعت ، وأفش السلام ، ولو على قوم لئام ، ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس أو ضمك وإياهم مسجد ، وجرت المسائل وخاضوا فيها بخلاف ماعندك لاتبد لهم منك خلافاً ، فان سُئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر ، وهو كذا ، وكذا ، والحجة له كذا ، فان سمعوه منك عرفوا منزلتك ومقدارك ، وأعط كل من يختلف اليك نوعاً من العلم ينظر فيه ، وخذهم بجلي العلم دون دقيقه ، وآنسهم ومازحهم أحياناً ، وحادثهم فانه يستديم لك المودة ، وأطعمهم أحياناً وتغافل عن زلاتهم ، واقض حوائجهم ، وارفق بهم وسامحهم ، ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجر ، وكن كواحد منهم

وعامل الناس معاملتك لنفسك ، وارض منهم ما ترضاه لنفسك ، واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها ، ودع الشغب ، واستمع لمن يستمع منك ، ولا تكلف الناس مالا يكلفونك ، وارض لهم مارضوا لأنفسهم ، وقدم اليهم حسن النية ، واستعمل الصدق ،

واطرح الكبر جانباً ، وإياك والغدر وإن غدروا بك ، وأدِّ الأمانة وإن خانوك ، وتمسك بالوفاء ، واعتصم بالتقوى ، وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم فانك إن تمسكت بوصيتى هذه رجوت لك أن تسلم ، ثم قال له : إنه يحزننى مفارقتك وتؤنسنى معرفتك ، فواصلنى بكتبك ، وعرفنى حوائجك ، وكن لى كلك فانى لك كلى . وكان يقول : من كان فقيراً فليأت إلىَّ أعطه رأس مال يستغنى بذلك ، ألاَ وهو : الأمانة

مناجاته ربه

كان الإمام يناجى ربه فيقول :

إلهى ، إن كان صغيراً فى جنب طاعتك عملى ، فقد كَبُر فى جنب رجائك أملى

إلهى ، كيف أنقلب بالخيبة محروماً ، وظنى بجودك أن تقبلنى مرحوماً

إلهى ، إن عَزب رأيى عن تقديم مايصلحنى ، فما عَزب يقينى عنى فيما ينفعنى

إلهى ، أعززت نفسى بايمانك ، فيكف تذلها بين أطباق نيرانك

إلهى ، إذا تلونا من كتابك شديد العقاب أشفقنا ، وإذا تلونا منه الغفور الرحيم فرحنا ، فنحن بين أمرين : لا يؤمننا كتابك سخطك ، ولا يُؤسنا من رحمتك أن قصر سعينا عن استحقاق نظرك ،

فأفِضْ علينا رحمتك ، إنك لم تزل بى بارًا أيام حياتى ، فلا تقطع برّك عنى أيام وفاتى ، إن غفرت فبفضلك ، وإن عذبت فبعدلك ، يامن لايرجى إلاَّ فضله ، ولا يخشى إلاَّ عذابه ، ومن شواهد نعماء الكريم استتمام نعمائه ، ومن محاسن الجواد استكمال آلائه

إلهى ، إن أخطأت طريق النظر لنفسى بما فيه كرامتها ، فقد تبينت طريق الفزع بما فيه سلامتها

إلهى ، إن كنت غير مستأهل لما أرجو من رحمتك ، فأنت أهل أن تجود على المذنبين بفضلك

إلهى ، أمرت بالمعروف وأنت أولى به من المأمورين ، وأمرت بصلة السؤال وأنت خير المسئولين

إلهى سترت على فى الدنيا ذنوباً أنا الى سترها يوم القيامة أحوج فلا تفضحنى بها على رءوس الأشهاد

إلهى ، لاتردنى عن حاجة أفنيت عمرى فى طلبها منك

اللّهم ، هب لى توبةً نصوحاً تذيقنى من حلاوتها ، ويصل الى قلبى برد رأفتها

اللّهم لا أنزل حاجتى إلاَّ بك ، ولا أطلبها إلاَّ اليك ، فاقض يارب حاجتى ، فأنت منتهى الحوائج ، واجعلنى فى رحمتك مع الأبرار

دعاؤه عند موت ابنه

لما وضع ابنه فى قبره قال اللّهم هذا ابنى ، رزقتنيه ، ومتعتنى به مدة من الدنيا ، وتوفيته بأجله ورزقه ولم تظلم أحداً

اللّهم ، ما وعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى هذه ، فقد وهبت جميع ذلك له ، فهب لى عذابه ولا تعذبه . فأبكى الناس جميعاً

وفاته وسببها

إن امتناع الإمام عن تولى القضاء كان سبباً فى أن أبا جعفر المنصور أمر بحبسه ، وضيق عليه تضييقاً شديداً فى الطعام والشراب ، وأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط ، وفعل به ذلك عشرة أيام ، فلما تتابع عليه الضرب بكى وأكثر الدعاء ، ومكث بعد ذلك خمسة أيام ، وتوفى رحمة الله تعالى عليه ورضى الله عنه . وبعضهم قال : انه مات مسموماً ، واتفقوا على أنه رضى الله عنه مات سنة ١٥٠ هجرية واختلفوا فى الشهر الذى مات فيه ، فبعضهم قال فى رجب ، وقال بعضهم فى شعبان ، وقال أبو يوسف فى النصف الأول من شوال ، ودفن بالرصافة شرقى بغداد

وقال الإمام أبو المؤيد : أكثر الروايات المعتمد عليها أن وفاته

كانت فى رجب وعمره يوم وفاته ٧٠ سنة، ولم يكن له من الأولاد غير ابنه حماد

ولما أحسّ الإمام بالموت سجد ، فصعدت روحه الى ربها وهو ساجد ، وقد روى الإمام أحمد ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » فهنيئاً للإمام لأنه من المقربين حقاً عند الله

الرثاء

لما توفى الإمام أبو حنيفة بكاه الناس ورثاه الشعراء وأبنه الخطباء وهذا نموذج من المرثيات التى قيلت فيه :

لقد طلع النعمانُ من أرض كوفةٍ
كغُرّة صُبح يستفيض ابتلاجُها
هو المرتضى فى الدين والمقتدى به
وصدرُ الورى فى الخافقين وتاجُها
إذا مرض الإسلام والدين مرضةً
فمن نُكَتِ النعمان يُلقَ علاجها

وإن كسدَت سوقُ الهدى وتراجعت

فمن مذهب النعمان يُلقىَ رواجُها

وإن فُتحت أبواب جهل وبدعةٍ

على النـاس يوما كان منها رِتاجُها

وإن غمة عمت فمنه انجـلاوها

وإن شدةٌ ضاقت فمنه انفراجهـا

حوى العذبَ من بحر الشريعة صافياً

وحظ جميع العـالمين أجاجُهـا

لقد خصص الله النبى محمـداً

بأشـياء منها النفس دام ابتاجها

فأمّتهُ قد أُخرجت خير أمةٍ

كما جاء والنعمانُ فيهـا سراجهـا

فهاهو فى أرض ببغداد قد ثوى

أضاءت به أرجاؤها وفجاجها

المذهب الحنفى

قال المرحوم أحمد باشا تيمور فى رسالته عن المذهب الحنفى ما يأتى باختصار:

المذهب الحنفى هو أقدم المذاهب الأربعة، وصاحبه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الكوفى رضى الله عنه المولود سنة ٨٠ والمتوفى ببغداد سنة ١٥٠ على الأصح

وكان أهل مصر لا يعرفون هذا المذهب حتى ولّى قضاءها اسماعيل ابن اليسع الكوفىّ من قبل المهدى سنة ١٦٤ وهو أول قاضٍ حنفى بمصر، وأول من أدخل اليها مذهب أبى حنيفة فكان من خير القضاة إلاّ أنه كان يذهب الى إبطال الأحباس (الوقف) فثقل أمره على أهل مصر وقالوا: أحدثت لنا أحكاماً لا نعرفها ببلدنا فعزله المهدى

وفشا مذهب أبى حنيفة فى مصر بعد ذلك مدة تمكن العباسيين، إلا أن القضاء بها لم يكن مقصوراً على الحنفية؛ بل كان يتولاه الحنفيون تارةً، والمالكيون أو الشافعيون أخرى

ولما حكم الفاطميون مصر أظهروا مذهب الشيعة الاسماعيلية وولوا القضاة منهم، فقوى هذا المذاهب بالدولة وعمل بأحكامه، إلا أنه لم يقض على المذاهب الأخرى فى العبادات؛ لأن الفاطميين كانوا يبيحون للرعية

التعبد بما يشاءون من المذاهب . ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى : ان الفاطميين كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ، ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم

وكانت مذاهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ظاهرة الشعار فى المملكة الفاطمية بخلاف مذهب أبى حنيفة ، وكانوا يراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه

ثم لما قامت الدولة الأيوبية بمصر ، وكان سلاطينها شافعية ، قضوا على التشيع وأنشأوا المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية ، وكان نور الدين الشهيد حنفياً ، فنشر مذهبه ببلاد الشام ، ومنها كثرث الحنفية بمصر

وقدم اليها أيضاً عدة من بلاد المشرق فبنى لهم صلاح الدين الأيوبى (المدرسة السيوفية بالقاهرة) وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ ؛ ولكن لم يبلغ المذهب مبلغه فى القوة والكثرة بمصر إلا فى آخر هذه الدولة

وأول من رتب دروساً للمذاهب الأربعة الصالح نجم الدين أيوب فى مدرسة الصالحية بالقاهرة سنة ٦٤١

ثم لما استولى العثمانيون على مصر حصروا القضاء فى الحنفية وأصبح الحنفى مذهب أمراء الدولة وخاصتها ورغب كثيرون من أهل العلم فيه لتولى القضاء ، إلا أنه لم ينتشر بين أهل الريف والصعيد انتشاره فى المدن ولم يزل كذلك الى اليوم

٢ - الامام مالك بن أنس رضي الله عنه

عالم المدينة

مولده ونسبه - ولد رضى الله عنه بالمدينة سنة ٩٣ هجرية على المشهور، وهو مالك بن أنس، بن أبى عامر الأصبحى، بن عمرو، بن الحارث ابن سعد، بن عوف، بن عدى، بن مالك، بن يزيد

وأما أمه فقيل اسمها (العالية) بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك من الأزد، حملت به فمكث فى بطنها سنتين وقيل : ثلاث سنين

نشأته - نشأ الإمام مالك بالمدينة بين الصحابة والتابعين والأنصار والعلماء والفقهاء

نشأ بينهم غلاماً عاقلاً، حافظاً، ضابطاً، متقناً للسنة، برّاً تقياً، فتعلم منهم وجمع علومهم، وحفظ آراءهم ونقل آثارهم، وعرف مذاهبهم، وأحكم قواعدهم، وكدّ وكدح، حتى صار إماماً فى السنة، وسيد فقهاء الحجاز، وهو الذى قيل فيه : « لايفتى ومالك فى المدينة » وأصبحت مثلا .

وكان رحمه الله فى أول أمره فقيراً، ثم توالت عليه منح الخلفاء،

فحسنت حاله ، وأظهر نعمة الله عليه ، وواسى أهل العلم ، وأشركهم فى ماله ، وكان منهم الإمام الشافعى رضى الله عنه

هيئته وخلقته ـ كان رحمه الله حسن الهيئه ، يكره الثياب الخَلِقة ، ويعدها مُثلة ، وكان يكره حلق الشارب ويراه مُثلة ، وكان طويلاً عظيم الهامة ، أصلع الرأس ، أبيض الشعر واللحية ، شديد البياض الى الشقرة ، وكان لباسه الثياب العدنية الجياد ، والخرسانية والمصرية المرتفعة ، ويتطيب بطيب جيد ويقول : ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه ، وخصوصاً أهل العلم ينبغى لهم أن يظهروا مروآتهم فى ثيابهم إجلالا للعلم

وكان له خاتم منقوش عليه ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

فسُئل يوماً عن ذلك فقال : سمعت قول الله تعالى عقب هذه الآية :

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

مناقبه

أخلاقه وآدابه ـ كان رحمه الله على جانب عظيم من الأدب وكرم الأخلاق ، حسن السيرة ، طيب السريرة ، وكان شديد الاهتمام بتشييع الجنائز ، وعيادة المرضى ، ومواساة الفقراء ، وقضاء الحقوق ،

فلما كبر انقطع عن ذلك كله ، واحتمل له الناس ذلك ، وكان رحمه الله شديد الكراهية للغيبة ومن قوله فيها :

« كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم ، فلما تكلموا فى عيوب الناس صارت لهم عيوب ، وكان عندنا قوم لهم عيوب ، فلما سكتوا عن عيوب الناس نسيت عيوبهم »

أدبه ولطفه فى معاملة ضيفانه ـ هيأ الإمام مالك رضى الله عنه دعوةً للطلبة ، فلما مضوا الى داره ودخلوا قال لهم : هذا المستراح ، وهذا الماء ، ثم دخلوا ولم يدخل معهم ؛ بل دخل بعد ذلك

فسأله بعضهم فيما قال ، وفيمَ عدم دخوله معهم ؟

فقال : أما اعلامى بالمستراح والماء فانما دعوتكم لأبرّكم ، ولعل أحدكم يصيبه حصر بول أو غيره فلا يدرى أين يذهب ؟ وأما تركى الدخول معكم البيت ، فلعلى أقول ها هنا يا فلان ؟ وهاهنا يا فلان ، فأنسى بعضكم ، فيظن انى تركته بغضاً فيه ، فتركتكم حتى أخذتم مجالسكم ودخلت عليكم

علومه ـ كان رحمه الله متقدماً فى العلوم ، وقد أخذ العلم عن نحو مائة شيخ انتقاهم وارتضاهم ، فما لبث فيهم إلاّ وقد تبين فضله ، واشتهر علمه ، ونبل قدره ، وعظمت منزلته ، وعرفت مكانته ، وظهرت سيادته ، فأقروا بفضله ، وأذعنوا لعلمه ، فساد جميع أقرانه ، وفاق أهل زمانه ، حتى سُمِّى

(عالم المدينة) (وإمام أهل الهجرة) واشتهر خبره فى الأمصار ، وانتشر علمه فى سائر الأقطار ، وضربت له أكباد الإبل ، وارتحل اليه الناس من كل مصر ، وأتوه من كل قطر

فجلس لتدريس العلم وهو ابن سبع عشرة سنة وأشياخه متوافرون فمتع الله المسلمين بطول حياته ، فعاش قريباً من تسعين سنة ، ومكث يفتى الناس نحواً من سبعين سنة ، وشهد له التابعون بالفقه والحديث ، واحتاج اليه معلموه ومشايخه ، وسألوه عن أمر دينهم ، وروى عن الأئمة المشهورين ، والعلماء المذكورين منهم : محمد بن شهاب الزهرى إمام السنة ، وربيعة بن عبد العزيز فقيه أهل المدينة ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وموسى بن عقبة هؤلاء كلهم أشياخه ، ورووا عنه ، وألف كتابه المشهور (بالموطأ)

وروى أن مالكاً رضى الله عنه لما أراد أن يؤلف كتابه بقى متفكراً بأى شىء يسمى تأليفه . قال : فنمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : وطّىء للناس هذا العلم فسمّى كتابه (الموطأ)

وقيل : إنه وضع فيه أربعة آلاف حديث أو أكثر

وقيل : إن مالكاً حفظ مائة ألف حديث ، وكان أحفظ أهل زمانه كما قال أبو قدامة

تبشير النبي ﷺ به

قال التابعون وتابعوهم : انه العالم الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

« ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة »

وفى حديث آخر :

« ليس على ظهر الدنيا أعلم منه ، فتضرب الناس إليه أكباد الإبل »

وفى حديث آخر :

« يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يوشك أن يضرب الرجل أكباد الإبل فلا يجد عالماً أعلم من عالم المدينة »

وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« يخرج ناس من الشرق والغرب فى طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة »

وفى معنى هذا الحديث نظم بعضهم :

قال نبيُّ الهدى حديثاً من حفَّه الله بالسكينه
يخرج من شرقها وغرب من طالبي الحكمة المبينه
فلا يروا عالماً إماماً أعلم من عالم المدينة

ثناء العلماء والفضلاء عليه

١ ـ قال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مدحه : إذا جاءك الحديث عن مالك فشدَّ يدك به

٢ ـ وقال الإمام الشافعى أيضاً : إذا ذكر الحديث فمالك النجم وما أحد آمن على علم من مالك

٣ ـ وقال حماد بن سلمة : لو قيل لى اختر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إماماً يأخذون عنه العلم ، لرأيت مالكاً لذلك موضعاً وأهلاً ، ورأيت ذلك صلاحاً للأمة

٤ — وقال عبد الله بن المبارك : ما رأيت أحداً ممن كتب عنه علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أهيب فى نفسى من مالك ، ولا أشدَّ إعظاماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك ، ولا اشحَّ على دينه من مالك فلو قيل لى اختر للأمة إماماً لاخترت لها مالكاً

٥ ـ وقال الليث بن سعد رضى الله عنه : علم مالك علم تقى ، علم

مالك أمان لمن أخذ به من الأنام ، وقال أيضاً : والله ما على وجه الأرض أحب الى من مالك

مجلسه للعلم ـ كان مجلسه للعلم ، مجلس وقار وحلم ، تحوطه الهيبة ، وتحفه العظمة والبركة ، لأنه كان رجلاً مهيباً ، عظيماً نبيهاً ، ليس فى مجلسه شىء من المراء ، واللغط ، والجدل

وكان الغرباء يسألونه الحديث والحديثين ، أو قال الحديث بعد الحديث وربما أذن لبعضهم فقرأ عليه

وكان له كاتب لنسخ كتبه يقال له : (حبيب) يقرأ للجماعة فليس أحد ممن حضره يدنو منه ، ولا ينظر فى كتابه ، ولا يستفهمه ، هيبةً له وإجلالاً ، وكان حبيب إذا أخطأ أصلح له مالك

تزاحم طلاب العلم على بابه ، وسكوتهم فى مجلسه

قال أبو مصعب : كان الناس يزدحمون على باب مالك ، ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم ، وقال : كنا نكون عند مالك فلا يكلم ذا ذا ، ولا يلتفت ذا الى ذا ، والناس مائلون برؤوسهم (هكذا) وكانت السلاطين تهابه وهم قاعدون يستمعون

وكان يقول فى المسئلة : نعم ، أولا ، فلا يقال له : من أين قلت هذا ؟ وقال يحيى بن شعبة : وصلت المدينة سنة ١٤٤ أربع وأربعين ومائة

ومالك بن أنس رضى الله عنه أسود الرأس واللحية ، والناس حوله سكوت، لا يتكلم أحد منهم هيبةً له وتعظيماً لقدره

ولا يفتى أحد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره فجلست بين يديه ، فسألته فحدثنى ، فاستزدته فزادنى ، ثم غمزنى أصحابه فسكت أمانته للعلم : ارتفعت أمانة العلم عنده لدرجة لاتقوى عليها نفوس العلماء فنزل منزلاً لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا

قال عبد الرحمن بن مهدى : كنا عند مالك فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة شهور ، حملنى أهل بلادى مسألةً أسألك عنها

فقال له : سل . فسأله . فقال له : لا أحسن : فقطع بالرجل وكأنه قد جاء الى من يعلم كل شىء

قال الرجل : وأى شىء أقول لأهل بلادى إذا رجعت اليهم ؟

قال له : تقول لهم . قال مالك بن أنس : لا أحسن

تعظيمه للمدينة

من آدابه العالية أنه كان مع ضعفه وكبر سنه يمشى ولا يركب دابة فى المدينة تعظيماً لبلد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدليل على ذلك ما قاله الإمام الشافعى رضى الله عنه

قال الإمام الشافعي رضى الله عنه : رأيت على باب مالك دواب من أفراس خراسان ، جاءته هدية ، وقيل : من مصر ، ما رأيت أحسن منها .

فقلت : ما أحسن هذه !

فقال : هذه هدية منى اليك

فقلت: دع لنفسك منها دابةً تركبها

فقال : إنى لاستحى من الله عز وجل أن أطأ تربةً فيها نبى الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة

تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ

قال عبد الله بن المبارك : كنت عند مالك وهو يحدثنا ، فلدغته عقرب ، ست عشرة مرة ، وهو يتغير لونه ، ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تفرق الناس عنه ، قلت له : يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً . قال : نعم ، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال مطرف : كان مالك اذا أتى الناس إليه خرجت اليه الجارية فتقول لهم :

يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فان قالوا : المسائل خرج اليهم بحالته ، وإن قالوا : الحديث ، دخل مغتسله فاغتسل

وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، ولبس تاجه ، وتعمم ، ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصبه ، فيخرج ويجلس عليها ، وعليه الخشوع ، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقيل : إنه لم يكن يجلس على تلك المنصة إلاَّ اذا حدَّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سُئل فى ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً . وكان يكره أن يحدث فى الطريق ، أو وهو قائم ، أو مستعجل وقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا رفع أحد صوته فى المجلس قال له : اخفض صوتك فان الله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾

الحجرات

فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفعه عند صوته

وذكر القاضى أبو الفضل عياض بسنده : أن أبا جعفر المنصور ناظر مالكاً فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مالك : ياأمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله عز وجل أدب قوماً فقال :

﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ الحجرات

ومدح قوماً فقال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ الحجرات

وذم قوماً فقال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الحجرات

و إن حرمته ميتاً ، كحرمته حياً ، فاستكان لها أبو جعفر

احترامه و تعظيمه للعلم

قال عتيق بن يعقوب الزبيرى رحمه الله : قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن الإمام مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس

فتوجه اليه البرمكى وقال له : أبلغه عنى السلام ، وقل له : يحمل إلى الكتاب فيقرؤه على

فجاءه البرمكى وأخبره ، فقال له : أبلغه عنى السلام ، وقل له : إن العلم يزار ولا يزور ، و إن العلم يؤتى اليه ، ولا يأتى

فذهب البرمكى وأخبر هارون الرشيد ، وكان عنده أبو يوسف القاضى ، فقال : يأمير المؤمنين ، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك ابن أنس فى أمر فخالفك ، اعزم عليه

فبينما هو كذلك إذ دخل مالك بن أنس ، فسلم وجلس

فقال الرشيد : يابن أبى عامر أبعث اليك فتخالفنى

فقال مالك : يأمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى قد رفعك وجعلك فى هذا الموضع الكريم ، فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم ، فيضع الله عزك ، وإنى لم أخالفك ؛ بل أردت أن أمير المؤمنين يرفع العلم ويعظمه ، حتى يرفع الله قدره

فقام الرشيد يمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه كتابه الموطأ وأجلسه معه على المنصة ؛ فلما أراد أن يقرأ مالك . قال لمالك : تقرؤه على ؟

قال : ما قرأته على أحد من زمان

قال الرشيد : فلتخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك

فقال مالك : إن العلم إن منع عن العامة لأجل الخاصة لا ينفع الله به الخاصة

فأمر أن يقرأ معن بن عيسى القزازى عليه

فلما بدأ بالقراءة قال مالك رضى الله عنه لهارون الرشيد

يأمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا ، وأنهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون عن المنصة فجلس بين يديه تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله

وسئل مالك رضى الله عنه عن طلب العلم؟ فقال : جميل ، ولكن انظر الذى يلزمك من حين تصبح الى حين تمسى فالزمه

وكان رحمه الله تعالى فى تعظيم علم الدين مبالغاً حتى اذا أراد أن

يحدث توضأ وصلى ركعتين ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، واستعمل الطيب ، وتمكن فى الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث ، فقيل له : ما السبب فى ذلك ؟ فقال :

أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهكذا يكون تعظيم العلم ، فالعلماء إذا عظموا العلم عظمهم الله عند الناس وجعل لهم الهيبة فى قلوب الملوك ومن دونهم

تعظيم الخلفاء والأمراء له

أما رفعة قدره عند الخلفاء ، وعظم منزلته عند الأمراء ، ورجوعهم الى رأيه دون غيره من الآراء ، وتقديمهم له على من سواه ، ونفوذ كلمته فى العامة ، وانقيادهم له بالطاعة ، وكمال سيادته عند الكافة ، فقد كان له فى ذلك المقام الأترف ، والمحل الرفيع الأشرف ، بحيث إنه لم يكن فى وقته من يساويه ، ولا من يقرب منه فيساميه ، ولذا كانت الخلفاء تقتدى بعلمه ، والأمراء تستضىء بنور رأيه ، والعامة منقادة الى قوله ، وكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان ، ويقول فلا يُسأل عن دليل على قوله ، ويأبى الجواب فلا يجسر أحد على مراجعته ، ولذلك قال فيه بعض محبيه

يأبى الجواب فلا يراجع هيبةً والسائلون نواكس الأذقان

لبس الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وكانت الملوك تسائله أن يراسلهم ، فلا يرضى بذلك ، وتعرض عليه أن يقضى لهم فيعرض عن ذلك ، وكانوا مع ذلك يسألونه ويتعلمون منه ، ويأتونه ولا يستنطقون عنه ، ويجلسون اليه ، ويتمثلون اليه بين يديه ، ويأمرون نوابهم باستشارته ، ولا يقضى أمر دون مشورته

أبو جعفر المنصور والإمام مالك

١ — بلغ أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين أن العلماء يطعنون عليه ويتكلمون فيه فبعث الى مالك ليلاً ، فأتاه خائفاً منه ، فدخل اليه بين صفوف الرجال ، معتدين بالسلاح ، قائمين عن يمينه وعن يساره ، حتى خلص اليه ، فوجده فى بيته جالساً ليس معه أحد

قال مالك : فجعل يدنينى حتى جلست قريباً منه ، ثم استدنانى حتى مست ركبتى ركبته

فقال : ما هذا الذى يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء ؟ وأنتم أحق الناس بالطاعة ، وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة ؟

فقال : فقلت . يأمير المؤمنين إن الله تعالى يقول فى كتابه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا

قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ الحجرات

فجرى بينهما كلام ومذاكرة ، إلى أن ذكر له مالك ، أنه لما بعث اليه ليلاً وطلبه ، خاف منه القتل على نفسه

فقال أبو جعفر : حاشالله يا أبا عبد الله أن أثلم ركناً للمسلمين ، فان لم أكن بالذى أبنيه لهم ، فلست بهادمه ، ولكن إن أردت ما عندنا فاذهب معى الى مدينة السلام ، فلا أقدم أحداً عليك

فقال له مالك : إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل الى مخالفته ، وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »

فقال له المنصور : فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه

فبينما هما فى أثناء الكلام ، خرج عليهما بعض أولاد المنصور ، فلما رأى مالكاً رجع كالفزع

فقال المنصور : أتدرى مم فزع ؟

قال مالك . قلت لا يأمير المؤمنين

قال لأنه لم ير أحداً جلس منى هذا المجلس غيرك

فلما انصرف مالك أجازه المنصور بجائزة سنية ، قيل : إنها ثلاث صرر كل صرة ألف دينار

فلما خرج مالك قال ولد المنصور لأبيه :

أتدنى رجلاً من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس ؟

فقال له المنصور : يابنى والله ما على وجه الأرض رجل يستحيا منه إلا مالك بن أنس ، وسفيان الثورى

قال مالك . ووجدت المنصور أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وآثار من مضى . وهذا معنى ما ذكره ابن قتيبة دون لفظه

وقال جرير : إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على موطئه فقال له

لا تفعل ياأمير المؤمنين ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم ، وعملوا به ودانوا ، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوا شديداً ، فدع الناس وماهم عليه ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم

المهدى ومالك بن أنس

٢ ـ قال أبو مصعب : لما قدم المهدى المدينة استقبله مالك وغيره من أشراف المدينة على أميال منها

فلما أبصر المهدى مالكاً وعليه ثياب سود عدنية انحرف اليه المهدى وعانقه ، وسلم عليه ، وسايره ، فالتفت اليه مالك فقال :

يأمير المؤمنين انك تدخل الآن المدينة فيمن يقوم عن يمينك وعن يسارك ، وهم أولاد المهاجرين والأنصار ، فسلم عليهم ، فانه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ولا بلد خير من المدينة

فقال له : لم يا أبا عبد الله ؟

قال : لأنه لا يعرف قبر نبى على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم ينبغى أن يعلم فضلهم على غيرهم ، ففعل المهدى ما أمره به مالك

فلما دخل المدينة ونزل ، وجه الى مالك ببغلة ليركب ويأتيه ، فرد مالك البغلة وقال : إنى لأستحيى من الله أن أركب فى مدينة فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتاه ماشياً ، وكانت به علة فاتكأ على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى ، وعلى حسن بن أبى زيد العلوى وعلى ابن على اليمنى ، وكانوا من علماء المدينة وأشرفها

فقال المهدى : سبحان الله رد البغلة إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيض الله له هؤلاء ، فوالله لو دعوتهم أنا الى هذا ما أجابونى اليه

فقال له المغيرة : نحن يأمير المؤمنين قد افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ مالك علينا

امتناعه عن القضاء محافظةً على الدين

روى أن أباجعفر المنصور أمير المؤمنين قال لمـالك :

ماتقول فى مالى ؟ قال : خير مال : انصرف إن شئت .

ثم قال لأبى حنيفة : ماتقول فى مالى ؟ قال : يأمير المؤمنين أنت أعلم به . فقال له : انصرف إن شئت

وقال لابن أبى ذئب : ماتقول فى مالى ؟ فقال له : شر مال : فقال له : انصرف إن شئت

ثم مكث مدةً : ثم أرسل الى مالك بمـال ، وقال لرسوله : إن لم يقبله فاضرب عنقه ، فقبله مالك وسلم

فأرسل الى ابن أبى ذئب بمـال ، وقال لرسوله : إن قبله فاضرب عنقه ، فرده ابن أبى ذئب وسلم

وأرسل الى أبى حنيفة بمال وقال لرسوله : قل له : أمير المؤمنين يأمرك أن تضعه حيث ترى ، فان قبله فحبسه ، وإن رده فحبسه

فقال أبو حنيفة للرسول : أمير المؤمنين يعرف من اين جمعه ؟ وهو يعرف أين يضعه ؟

ثم ارسل اليهم الثلاثة وقال لمـالك : إنى اريد ان أوليك القضاء فقال له : لا اصلح لذلك (لأنى محمود)

وقال لأبى حنيفة . مثل ذلك ؛ فقال له أبو حنيفة

لا أصلح لذلك (لأنى مولى) ولا يصلح أن يقضى بين الناس إلاّ ذو شرف فى قومه

وقال لابن أبى ذئب : مثل ذلك ، فقال : لا أصلح لذلك (لأنى قرشى) ومن كان شريكك فى نسبك فلا يصلح أن يكون شريكك فى سلطانك

وإنما قالوا ذلك رضى الله عنهم واعتذروا به هروباً منهم عن القضاء ورغبةً عنه ، خوفاً على أديانهم

(وأما قول مالك إنى محدود) فإنما أراد بذلك السياط التى ضربه بها جعفر بن سليمان الهاشمى أمير المدينة من جهة أبى جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائة لما أفتى أن يمين المكره لا يلزم ، فلما سمع أبو جعفر حمله الى العراق على قبة ، ثم قال لمالك بعد ذلك :

اقتص منه فانه قد ظلمك . فقال له : يأمير المؤمنين ليس لى عليه قصاص ؛ لأنى جعلته فى حل لأنه من قرابة رسول لله صلى الله عليه وسلم ، فاستحييت أن آتى يوم القيامة متعلقاً برجل من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلبه بمظلمة

وكانت تلك السياط على مالك عند الناس كالحلل المنشورة لما

علموا أنه أفتى بحق ، وضرب بباطل ، عفا عن هـذه المظلمة تعظيماً لجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتعظيم أمير المؤمنين له ، وتمكينه من القصاص من نائبه وابن عمه

وقد قيل : ان أبا جعفر هو الذى نهى مالـكاً عن حديث (ليس على مكره طلاق)

ثم دسّ اليـه من سأله عنه ، فحدثه به على رؤوس الناس فضربه بالسياط ، وإن كتف مالك انخلعت حينئذ رضى الله عنه

وما زال الله سبحانه وتعـالى يعلى من قدر سيدنا مالك رضي الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام ، وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة والـكرامة ، حتى كانت تلك السياط حلية تحلى بهـا ، وفضيلة سما قدره اليها

صلاحه وتقواه

وأما تقواه لربه ، ومعرفته بعظيم قدر نبيه ، وصحبه وآله ، وتعظيمه لشريعته واتباعه لسنته ، ونصيحته لأمته ، وانفاذ همته ، وكمال مروءته ، وكمال هيئته ، ووفور هيبته ، فقد كان من ذلك على غاية من التحفظ وفى نهاية التقيظ ، مبرزاً فى ذلك بالتقدم ، معروفاً به و بالعلم والتوسم ، وفيما ذكر دلالة ظاهرة عليه

قال ابن وهب : قيل لأخت مالك ما كان يشغل مالكاً فى بيته ؟ قالت : المصحف والتلاوة

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لونه ويصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه ، فقيل له : ما السبب فى ذلك ؟ فقال :

لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علىّ ما ترون ، لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم ، فاذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم اصفر

وقال للقاضى عياض رحمه الله : كان مالك لا يركب فى المدينة دابة ويقول :

« أستحيى من الله أن أطأ تربةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة »

وقد روى : أن مالكاً رضى الله عنه ما جالس سفيهاً قط ، وهذه خصلة لاتعرف لأحد غيره ، وكان كثير الصلاة والأذكار ، والأوراد فى الأسحار ، والدروس فى العلوم والتكرار

زهده وورعه

قيل لما اشتهر مالك رضى الله عنه بالعلم ، وانتشر وصفه وذكره

فى البلاد ، حملت إليه الأموال فكان يفرقها على أصحابه ، وأصحابه يفرقونها فى وجوه الخير ، موافقةً لفعله ، وما كان يدخرها ، وكان يقول : ليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب منه

ومما يؤثر عنه : أن المهدى أمير المؤمنين سأله وقال له : هل لك دار ؟ فقال : لا ، ولكن أحدثك : سمعت ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره

وسأله الرشيد : هل لك دار ؟

فقال : لا . فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال : اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الرحيل إلى بغداد قال له :

ينبغى لك أن تخرج معنا ، فإنى عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن

فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده فى الأمصار فحدثوا فعند أهل كل مصر علم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اختلاف أمتى رحمة

وأما الخروج معك فلا سبيل اليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد

وهذه دنانيركم كما هى ، إن شئتم فخذوها ، وإن شئتم فدعوها

يعنى انك إنما كلفتنى مفارقة المدينة بما اصطنعته لدى من أخذ هذه الدنانير ، فالآن خذها فانى لاأوثر الدنيا وما فيها على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفاته

توفى مالك رضى الله عنه لعشرة أيام خلت من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ومرض يوم الأحد ، ومات يوم الأحد ، وعاش تسعين سنة ، وأوصى أن يكفن فى بعض ثياب بيض ، ويصلى عليه بموضع الجنائز ، فصلى عليه أكثر الناس ، فمنهم : ابن عباس وهاشم وابن كنانة وشعبة بن داود وكاتبه حبيب وابنه ، ووجد عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجداً عظيماً

ودفن بالبقيع فى ظاهر المدينة ، ونزل فى قبره جماعة رضى الله عنهم ولما بلغ أهل العراق موت الإمام مالك رحمه الله ارتجت له العراق وعظمت مصيبتهم بموته

تأبينه

أنشد أبو عمار فى تأبين مالك وفى موطأه قصيدة طويلة نذكر منها مايأتى :

أيا طالباً للعلم إن كنت طالباً حقيقة علم الدين تحظى وترغب

فبادر موطأ مالك قبل فوته فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطا كل علم تريده فان الموطأ الشمس والعلم كوكب
هو الحق عند الله بعد كتابه وفيه لسان الصدق بالحق معرب
هو الأصل طاب الفرع منه لطيبه ولم لا يطيب الفرع والأصل طيب
ومن لم يكن هذا الموطأ ببيته فذاك من التوفيق بيت مخيب
جزى الله عنا فى موطّاه مالكا بأفضل مايجزى اللبيب المهذب
فقد أحسن التحصيل فى كل ماروى كذا فعل من يخشى الإله ويرغب
لقد رفع الرحمٰن بالعلم قدره غلاماً وكهلاً ثم إذ هو أشيب
لقد فاز أهل العلم شرقاً ومغرباً فأضحى به الأمثال فى الناس تضرب
وما فاقهم إلاَّ بتقوى وخشية وأن كان يرضى للاله ويغضب
فلا زال يسقى قبره كل عارض من العفو إذ يهمى عليه ويسكب

أولاده

خلف من الولد رضى الله عنه أربعة : يحيى ، ومحمداً ، وحمادة ، وأمّ أبيها فأما يحيى وأم أبيها ، فلم يوص بهما الى أحد ، كانا مالكين لأنفسهما ، وأما محمد وحمادة فوصى بهما الى ابراهيم بن حبيب من أهل المدينة

بعض أقوال وحكمه

من حكمه : العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يضعه الله تعالى فى القلب

من أقوال مالك : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب . الدنو من الباطل هلكة ، والقول فى الباطل يصد عن الحق . ولا خير فى شىء من الدنيا بفساد دين المرء أو مروءته . ولا تأس على الناس فيما أحلّ الله لهم . إياكم وأصحاب الرأى فانهم أعداء السنة . السنة سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق

أوصى مالك رجلاً فقال له : عليك بتقوى الله ، وطلب العلم من عند أهله . وقال مالك : ما كان فى كتاب الله أوفيما أحكمته السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق لاشك فيه ، وما كان من اجتهاد الرأى فالله أعلم به . لايؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ من سواهم : لايؤخذ من مبتدع يدعو الى بدعة ، ولا من سفيه معلن بسفهه ، ولا عمن يكذب فى حديث الناس ، وإن كان يصدق فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عمن يعرف هذا الشأن

وقال : إذا قلّ الكلام أصيب الجواب ، وإذا كثر الكلام كان من صاحبه فيه الخطأ

وقال : إذا لم يكن للانسان خير لم يكن للناس فيه خير

وقال رضى الله عنه : الفظاظة مكروهة لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

ولقوله تعالى . ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

وقال مالك رضى الله عنه : قال سعيد بن عباد : صلّ صلاة امرئ مودع يظن أن لن يعود ، وأظهر اليأس عما فى أيدى الناس فانه الغنى ، وإياك وطلب الحاجة فانه الفقر الحاضر ، وقد علمت أنه لابد لك من قول ، فاياك وما يعتذر منه

وقال رضى الله عنه : من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه

وقال رضى الله عنه : لاينبغى أن تتكلم بشىء تستحى منه ولا تمشى فى حاجة تستحى فيها

وقال رضى الله عنه : حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية ، والعلم حسن لمن رزق خيره ، وهو قسم من الله فلا تمكن الناس من نفسك ، وان من سعادة المرء أن يوفق للخير ، وان من

شقاوة المرء ألاّ يزال يخطىء ويزل ، وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه

وقال رضى الله عنه : ينبغى للعالم ألاّ يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه ، وان كان يقع عليه فى ذلك نقص فى ماله ، فان العامة لا يعرفون قدره أو نحو هذا

قال خالد بن خداش : ودعت مالكا فقلت : أوصنى يا أبا عبد الله قال : عليك بتقوى الله ، وطلب العلم من عند أهله

المذهب المالكى

قال المرحوم أحمد باشا تيمور فى رسالته عن المذهب المالكى ما يأتى باختصار

أما المذهب المالكى فهو منسوب الى إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحى رضى الله عنه المولود سنة ٩٣ هجرية والمتوفى بالمدينة سنة ١٧٩ وهو ثانى الأربعة فى القدم ، ويقال لأصحابه (أهل الحديث) .

وقد نشأ المذهب بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ثم انتشر فى الحجاز وغلب عليه ، وعلى البصرة ومصر ، وما والاها من بلاد إفريقية ، والأندلس ، وصقلية ، والمغرب الأقصى ، الى بلاد السودان . وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع

وأول من قدم به الى مصر على ما جاء فى خطط المقريزى عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح ، ثم نشره بها عبد الرحمن بن القاسم ، واشتهر بها أكثر من مذهب أبى حنيفة لكثرة أصحاب مالك فيها ، ولم يكن مذهب أبى حنيفة يعرف بمصر

والآن يتبع مذهب مالك فريق كبير من المصريين ، ويكاد يعم الوجه القبلى (الصعيد)

ومن العجب أن تكون بلاد الصعيد محوطة بالمذهب المالكى من كل ناحية وتبقى بلدة (فرشوط) شافعية المذهب الى يومنا هذا

كما قال فضيلة الاستاذ الشيخ التفتازانى

٣ - الامام الشافعى رضي الله عنه

مولده - ولد الإمام الشافعى رضى الله عنه بغزة عسقلان (الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بأرض فلسطين) سنة خمسين ومائة فى شهر رجب

نسبه من جهة أبيه - هو محمد أبو عبد الله ، بن إدريس ، بن العباس ، ابن عثمان ، بن شافع ، بن السائب ، بن عبد يزيد ، بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف ، ويجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف (وهاشم الذى فى أجداد الشافعى غير هاشم الذى فى أجداد النبى صلى الله عليه وسلم) وقيل فى نسبه :

نسب كأنّ عليه من شمس الضحى
نوراً ومن خلق الصباح عمودا
مافيه إلاّ سيد من سيّد
حاز المكارم والتقى والجودا

نسبه من جهة أمه - أمه السيدة فاطمة بنت عبد الله ، بن الحسن ، ابن حسين ، بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقيل ان السيدة فاطمة لما حملت به رأت فى نومها كأن كوكب المشترى خرج من

بطنها وارتفع فى الجو ، وسقطت منه أجزاء أصاب كل جزء منها بلداً فأضاءه ، فقامت السيدة مذعورة من نومها ، وفى الصباح قصت رؤياها على المعبرين ، فأخبروها بأنها ستضع ولداً يملأ أطباق الأرض علماً

فلما وضعته فى رجب من السنة المذكورة سمته (محمداً) و بعد الوضع بأيام جاءت الأخبار من بغداد إلى (غزة) بأن الإمام أبا حنيفة النعمان توفى ، وأنهم دفنوه (بالرصافة) فى شرق بغداد ، ولما حسب أهل الشافعى حسابهم ظهر لهم أن وفاته رضى الله تعالى عنه كانت فى نفس اليوم الذى وضعت فيه السيدة فاطمة ابنها محمداً فاتخذوا هذه الحادثة تاريخاً لميلاده وفيه إشارة الى أنه يخلفه فى علمه

نشأته — لما كبر الشافعى و بلغ من العمر سنتين ، رأت أمه أنه إذا مابقى فى (غزة) ضاعت نسبته من قريش ، فحملته الى (مكة المكرمة) ونزلت بحى هناك بجوار الحرم يقال له (شعب الخيف) وقد نشأ يتيماً فقيراً يؤاسيه ذوو قرابته من قريش ، وحفظ القرآن وهو ابن تسع ، وأولع بالشعر واللغة ، ورحل الى البادية فى تطلبها ، ثم تفقه فى الدين ، وجالس أهل العلم ، وفتح الله عليه من العلم مالم يفتح على غيره ، حتى أفتى وهو ابن خمس عشرة سنة كما سيأتى ذكره

بشارة المصطفى ﷺ به

قد ورد ذلك فى حديثين فى كل منهما إشارة اليه :

الحديث الأول : حديث عالم قريش - ورد من حديث ابن مسعود ومن حديث أبى هريرة ، ومن حديث على بن أبى طالب ، ومن حديث ابن عباس

أما حديث ابن مسعود فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لانسبوا قريشاً فان عالمها يملأ الأرض علماً اللهم أذقت أولهم عذاباً ، فأذق آخرهم نوالاً »

وأما حديث أبى هريرة ، فقد قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم اهد قريشاً فان (عالمها يملأ طبق الأرض عاماً) اللهم كما أذقتهم عذاباً فأذقهم نوالاً (دعا بها ثلاث مرات)

وأما حديث على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا تؤموا قريشاً ، وائتموا بها ، ولا تقدموا على قريش ، وقدموها ، ولا تعلموا قريشاً ، وتعلموا منها ، فان أمانة الأمين من قريش تعدل أمانة اثنين من غيرهم ، وأن علم عالم قريش يسع طباق الأرض »

وأما حديث ابن عباس فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللَّهم اهد قريشاً ، فان علم العالم منهم يسع طباق الأرض ، اللَّهم أذقت أولها نكالاً فأذق آخرها نوالاً »

الحديث الثانى : وهو أن الله سبحانه وتعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها

عن أحمد بن حنبل يقول : يروى فى الحديث عن صلى الله عليه وسلم : أن الله يمنّ على أهل دينه فى رأس كل مائة سنة برجل من أهل بيتى يبين لهم أمر دينهم ، وانى نظرت فى مائة سنة فاذا هو رجل من آل رسول الله (وهو عمر بن عبد العزيز) وفى رأس المائة الثانية ، فاذا هو (محمد بن إدريس الشافعى)

وقال ابن عدى : سمعت محمد بن على بن الحسين يقول : سمعت أصحابنا يقولون : كان فى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وفى الثانية محمد بن إدريس الشافعى

وقال الحاكم : سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول غير مرة : سمعت شيخاً من أهل العلم يقول لأبى العباس بن سريج : إبشر أيها القاضى ، فان الله منّ على المسلمين بعمر بن عبد العزيز على رأس المائة ، فأظهر كل سُنّة ، وأمات كل بدعة ومنّ الله على رأس المائتين بالشافعى حتى أظهر السنة ، وأخفى البدعة ، ومنّ الله على رأس الثلثمائة بك

طلبة للعلم والاجتهاد فيه

لما بلغ الشافعى رضى الله عنه تسع سنين ، وكان قد أتم حفظ القرآن كله ، رأى أنه لم تكن هناك فائدة من بقائه فى الكُتّاب ، فانسلخ منه ، ودخل المسجد الحرام يجالس العلماء ، ويحفظ الحديث ، وعلوم القرآن ، وغيرها من مختلف العلوم فى سفيان بن عيينه ، ومسلم ابن خالد الزنجى وغيرهما ، وكان لشدة فقره يجمع العظام ليكتب عليها مذكراته عن الدروس التى يتلقاها عن أساتذته ، وكان يذهب الى دواوين الحكومة ، ويلتقط قصاصات القراطيس من تحت أقدام الكتاب ليكتب على ظاهرها ، وفى المسافات الخالية فيها المذكرات المذكورة ويقول :

العلم صيدٌ ، والكتابة قيده قيِّد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها بين الخلائق طالقة

ولم يَرَ الشافعى فى ذلك غضاضةً ، بل بالعكس كان يعتقد أن من أهم أسباب الفلاح فى العلم الفقر ، ولذلك كان يقول : ما أفلح فى العلم إلاَّ من طلبه فى القلة

كثرت القصاصات والعظام عند الشافعى ، وضاق بها صندوقه

وحجرته ، ولم يعد يجد مكاناً ليستريح فيه فى الحجرة ، أو ينام فيه ، فصمم أن يحفظ ماجمعه فى تلك القصاصات والعظام عن ظهر قلب ، ويستغنى عنها ، وفعلاً حبس نفسه فى الحجرة ، وأخذ يحفظ كل ما كتبه فوق العظام والقصاصات بعزيمة صادقة لاتعرف الملل ، حتى أتم حفظها ، واستغنى عنها وخرج من الحجرة وهو يقول :

علمى معى حيثما يَمّمت ينفعنى
صدرى وعاء له لابطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

إن هذه العملية قوّت الحافظة عند الشافعى الى حد مدهش جداً ، حيث بلغت به الدرجة أنه اذا فتح كتاباً ليحفظ فيه ، اجتهد أن يغطى بطرف كمه الصحيفة اليسرى ، مخافة أن يقع نظره عليها فيحفظها قبل أن يحفظ الصحيفة اليمنى

ولم يصل الشافعى الى هذا القدر من الذكاء المفرط ، والحفظ الخارق للعادة ، والفهم السريع ، إلاّ بفضل قوة إيمانه ، وصدق يقينه ، وحسن اعتقاده ، فهو يقول : انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه ، فقال له : مَن أنت ياغلام ؟ فقال : أنا من رهطك يارسول الله . فقال : ادن منى ، فدنا منه ، فأخذ من ريقه ، وأمرّ على لسان الشافعى وفمه

وشفتيه ، وقال له : امض بارك الله فيك .

قام الشافعى من نومه ، وهو يعتقد تمام الاعتقاد أنه إذا جىء له بالجبال صحفاً حفظها ، وكانت هـذه الرؤيا مفتاح باب الفتوح على الشافعى ، حيث أصبح وله رغبة فى تحصيل العلم إلى حـد أنه كان إذا سُئل عنه قال : أسمع الكلمة التى لا أعرفها فتودّ أعضائى أن يكون لكل واحد منها سمع يتنعم بسماع تلك الكلمة .

وإذا قيـل له : كيف حِرصك عليه ؟ قال : حرص البخيل الجموع على المال .

وإذا قيل له : كيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة التى ضلّ ولدها وليس لها غيره .

وكان يقول : ليس العلم ما حفظ ، وإنما العلم ما نفع .

وكان الشافعى يقسم الليـل ثلاثة أقسام : ثلث للعلم ، وثلث للصـلاة ، وثلث للنوم .

حفظه للقرآن ـ قال الربيع رحمه الله : كان الإمام الشافعى يختم القرآن فى كل يوم مرة ، وفى رمضان يختم القرآن ستين مرة ، كل ذلك فى الصلاة .

وكان جميل الصوت فى القراءة جـداً ، حتى إن علماء مكة كانوا ، وهو فى الثالثـة عشرة من العمر ، إذا ما أرادوا البـكاء من خشية الله تعالى جمع

بعضهم بعضاً وقالوا : هيّا بنا إلى ذلك الصبى المطلبى ليسمعنا القرآن فيبكينا ، فإذا جاءوا وسمعوه ، رأيتهم يتساقطون بين يديه من كثرة البكاء ، ورأيت أعينهم تفيض من الدمع طرباً واستحساناً وخشوعاً وخضوعاً ، وكان إذا رأى منهم ذلك أمسك عن القراءة شفقةً عليهم ورحمةً بهم .

وكان بالرغم من جمال صوته يقرأ القرآن قراءة الفاهم لمعناه ، الواقف على دقائق مغزاه .

تبحره فى الحديث والفقه واللغة والأدب — ولما بلغ من العمر الخامسة عشرة كان قد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب والشعر حتى إن الأصمعى نفسه ، وهو شيخ الشعراء ، كان يفتخر بأنه حضر أشعار الهذليين على الشافعى وهو فى الخامسة عشرة ، وكان يجيد الشعر ، فهو وإن كان القائل :

« ولولا الشعر بالعلماء يُزرى لكنتُ اليوم أشعر من لَبيد »

إلّا أنه كان أشعر من لبيد حقيقة ، ولم يكن شعره قاصراً على التصوف والزهد أو المواعظ والحكم ؛ بل كان يقول فى الغزل والحب والتعازى ، وله نَظْم كثير جمعه المرحوم محمد افندى مصطفى فى رسالة خاصة سماها (الجوهر النفيس فى أشعار الإمام محمد بن إدريس)

إجازته للفتوى — ولما رأى أستاذه الإمام مسلم بن خالد الزنجى أن الشافعى وصل إلى هذا الحد فى العلوم أجازه بالفتوى فكنت تدخل المسجد

الحرام ، فترى الشافعى وهو فى الخامسة عشرة جالساً على كرسيه يعلم الناس العلم ، ويفتيهم فى أمور دينهم ، وكان يقول :

« كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلّا الحديث وعلم الفقه والدين »

« العلم ما كان فيه قال حدثنا وماسوى ذلك وسواس الشياطين »

رحلاته

كان رضى الله عنه يقول :

« ما فى المقام لذى عقل وذى أدب

من راحة فدع الأوطان واغترب »

« سافر تجد عوضاً عمن تفارقه

وانصَب فان لذيذ العيش فى النَّصَب »

رحلة الإمام الشافعى إلى المدينة لطلب العلم

وحضوره درس الإمام مالك وحفظه للموطأ

استمر الشافعى فى تحصيل العلم وتدريسه ببيت الله الحرام ، تحضر عليه العلماء والشعراء والأدباء ، كالأصمعى وغيره ، إلى أن تجاوز العشرين من عمره بقليل ، حيث ظهر للناس وقتها كتاب الموطأ للإمام مالك ، واشتهر بينهم ،

فاشتاقت نفس الشافعى إلى رؤية الإمام مالك رضى الله عنه بالمدينة المنورة والاستفادة من علمه ، فاستعار كتاب الموطأ من رجل من أهل مكة وحفظه فى زمن يسير كعادته ، ثم تقدم إلى والى مكة ورجاه فى أن يكتب له جواب توصية لوالى المدينة كى يقدمه للإمام مالك ، ولفرط حب الوالى للشافعى كتب له جوابين ، أحدهما لوالى المدينة ، والثانى للإمام مالك ، وسلمهما للشافعى .

أخذ الشافعى الجوابين ، وعاد إلى البيت مسرعاً مسروراً ، ومن شدة فرحه قرع الباب قرعةً عنيفةً فقالت أمه : مَن الطارق ؟ فقال : أنا الشافعى . فقالت : أرجع وتعلم الأدب ، ثم عُد ، هذا التعنيف من أمه أثر فى نفسه ، وأدرك أنه لم يتم تأديبه بعد فعزم على ألّا يرجع إليها إلّا وقد كمل أدباً وعلماً ثم عاد لوقته ولحق بركبه إلى المدينة ، وتعرف بشيخه ، وكان من المتغالين فى حب الإمام مالك .

فلما رأى شيخ الركب شوق الشافعى إلى مالك فرح به ، وقدم له أحسن بعير فى قافلته ، وكان اسمه (الأبرق) وأخذ هو فى الدرس حتى ختم من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة ، بالليل ختمة ، و بالنهار ختمة ، ودخل المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر ، فصلى فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم دنا من القبر وسلم على صاحبه عليه الصلاة والسلام ، و بعد ذلك ذهب إلى والى المدينة ودفع إليه الجوابين ، ففتح الوالى الجواب الخاص به وقرأه ، ثم

نظر إلى الشافعى وقال له :

« والله يا بُنيّ لو أن والى مكة طلب إلى السعى من جوف المدينة إلى جوف مكة ماشياً حافياً لكان أهون عليّ من الذهاب إلى بيت الإمام مالك » .

فقال الشافعى : يمكنك أن تحضره إلى هنا ، فقال الوالى : هيهات ! ليتنا إذا ركبنا إليه ووقفنا على بابه يفتح لنا الباب ، ولكن هيّا بنا على بركة الله .

ركب الوالى وأخذ الشافعى معه إلى أن وصلا إلى دار مالك ، فتقدم رجل وقرع الباب ، فخرجت جارية سوداء ، فقال لها الوالى : قولى لمولاك إننى بالباب ، فدخلت الجارية وأبطأت ، ثم خرجت تقول : إن مولاى يقول لك : إن كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة حتى يخرج لك الجواب عليها ، وإن كان المجىء لشىء آخر فقد عرفت يوم المجلس فانصرف إليه . فقال لها الوالى : قولى لمولاك إن معى كتاباً له من والى مكة فى مهمة خاصة به .

فدخلت الجارية ، ثم خرجت ، وفى يدها كرسى ، وبعد ذلك خرج مالك ، فإذا هو شيخ طويل القامة ، أشقر اللون ، عليه المهابة والوقار ، ومتطليس فدفع الوالى الكتاب إليه .

فلما بلغ إلى قوله : إن محمد بن ادريس رجل شريف ، من أمره ومن

حاله كذا وكذا ، رمى مالك الكتاب من يده وقال : يا سبحان الله صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يطلب بالوسائل « أى بالوسائط والتوصيات » .

فتقدم الشافعى إليه وقال : أصلحك الله تعالى إنى رجل مطلبى ، ومن حالى ومن قصتى كذا وكذا ، فلما سمع مالك كلامه عطف عليه ونظر إليه ساعة ، وكان لمالك فراسة فسأله : ما اسمك ؟ قال : محمد، قال له : يا محمد اتق الله ، واجتنب المعاصى ، إنى أرى فى قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية ، فانه سيكون لك شأن فى الناس .

فقال الشافعى : نعم وكرامة . قال مالك : إذا كان الغد فتجىء لنقرأ لك الموطأ .

فقال الشافعى : إنى أقرؤه يا مولاى حفظاً . قال مالك اقرأ . فأخذ الشافعى يقرأ ومالك يسمع له ، وكلما خاف الشافعى على مالك من الملالة سكت فيقول له : زد يا فتى فإنى أستحسن قراءتك

وهكذا استمر الشافعى على الحضور إلى بيت الإمام مالك ، فى كل يوم يقرأ عليه الموطأ ، ومالك يسمعه له ، حتى قرأ عليه الموطأ كله فى أيام يسيرة .

و بعد ذلك رأى الشافعى أن يحضر مجلس الإمام مالك فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم للسماع منه ، فرآه داخلاً من باب المسجد « الواقع بالوجهة

الشرقية » مؤتزراً ببردة ، متشحاً بأخرى ، متطيباً مغتسلاً ، مسرحاً لحيته ، وكانت هذه عادته عند قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقام له مَن فى المسجد ، وقد هابه الشافعى مهابة عظيمة ، وجلس حيث انتهى به المجلس بعد ما جلس مالك والحاضرون

ثم بدأ مالك فى قراءة الحديث ، والشافعى يكتب بريقه على يده مايسمعه حتى فهم وحفظ كل ما حدث به ، فتعجب مالك من ذلك

وأقام الشافعى ضيفاً عند مالك ثمانيـة أشهر ، يلازمه فى البيت وفى المسجد ، ويقدم له مالك الطعام والماء بيده ، ويأخـذه فى صحبته إلى المسجد ، وبعـد ما يقرأ مالك على النـاس الموطأ يعطيه للشافعى ليمليه عليهم ، وهم يكتبونه ، فازداد بذلك الشـافعى حفظاً للموطأ وفهماً له وعرفه الناس .

شهادة الإمام مالك بسعة علمه

كان الإمام مالك رضى الله عنه يثنى على فهم الشافعى وحفظه ، وشهد له بسعة علمه ، ووصله بهدية لما رَحَل عنه

وكان الشافعى يقول : مالك معلمى وأستاذى ، منه تعلمنا ، وما أحد أمن علىَّ من مالك ، وقد جعلت مالـكاً حجة بينى و بين الله

وكان المصريون من عادتهم ؛ بعد قضاء الحج فى مكة ، أن يحضروا إلى المدينة المنورة للصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستماع الموطأ من مالك ، وكان الشافعى يمليه عليهم ، ومن ذلك الحين عرف المصريون الشافعى ، ومالت قلوبهم إليه ، واهتموا بالوقوف على أخباره ، وكان فيمن أملى عليهم الموطأ فى المدينة من المصريين (عبد الله بن الحكم وأشهب ، وابن القاسم ، والليث بن سعد) حتى إن الشافعى لما قدم على مصر كان عبد الله بن عبد الحكم أعظم نصير له ، وكان أهل العراق كالمصريين حينما يقدمون الى المدينة بعد أداء فريضة الحج لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولسماع الموطأ كان الشافعى يملى عليهم الموطأ كغيرهم

رحلته إلى العراق

لما سمع الشافعى من بعضهم أخبار علماء العراق ، كأبى يوسف ، ومحمد بن الحسن ، صاحبى الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه اشتاق الى السفر معهم إلى العراق للاجتماع بأولئك العلماء وأمثالهم ، فدخل على الامام مالك وقال له : خرجت من مكة فى طلب العلم ولم أستأذن والدتى ، فهل أعود إليها أو أرحل فى طلب العلم ؟ فقال له مالك : يا بنى العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ، ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها

لطالب العلم رضاء بما يطلبه ؟

فقال الشافعى : أريد السفر إلى العراق ، فزوّده مالك بستة وأربعين ديناراً ، واكترى له راحلة إلى الكوفة بأربعة دنانير ، وخرج يودعه إلى البقيع ، وهناك سأله الشافعى من أين لك هذا المال يامولاى ؟

فقال مالك : ان ابن القاسم المصرى أعطانى مئة دينار اقتسمتها بينى وبينك .

وبعد أربعة وعشرين يوماً من المدينة وصل ركب الحاج إلى الكوفة فقصد الشافعى علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه فى ظاهر الكوفة وصلى العصر .

وبينما هو فى المسجد إذ رأى غلاماً يصلى فلم تعجبه صلاته فنصحه ، فلم يقبل الغلام ، وقال : أنا أصلى هكذا خمس عشرة سنة بين يدى أبى يوسف وابن الحسن صاحبى أبى حنيفة فما عابا علىّ شيئاً وأنت تعيبها ، ونهض خارجاً غضبان أسفاً

وصادف أنه وجد لدى باب المسجد الإمام أبا يوسف ومحمد بن الحسن ، فسألهما الغلام عما إذا كان فى صلاته عيب ؟ فقالا : اللّهم لا . فقال الغلام : إن فى المسجد رجلا عابها ، فقال له ابن الحسن اذهب إليه وقل له : بم تذخل

الصلاة ؟ فذهب الغلام إلى الشافعى وسأله هـذا السؤال فجاوبه الشافعى : إنى أدخل الصلاة بفرضين وسنة . فقال له ابن الحسن ارجع إليه واسأله عن الفرض والسنة ، فقال له الشافعى : أما الفرضان فهما النية وتكبيرة الإحرام ، وأما السنة فهى رفع اليدين . فعاد الغـلام إلى الشيخين وأخبرهما بالجواب ، فعرفا أن هـذا قول من نظر فى العلوم ، فدخلا المسجد ، فقام لهما الشافعى إجلالاً وتعظيماً ، وأظهر البشاشة لهما ، وجلس بين يديهما ، فسأله محمـد بن الحسن عن نسبه و بلده فأخبره عنهما ، ثم سأله عمـا إذا كان رأى الإمام مالـكا ، فقال : من عنده أتيت . فقال : هل نظرت فى الموطأ ؟ قال حفظته عن ظهر قلب

فعظم ذلك على محمـد بن الحسن وأخذ يسأله عدة أسئلة فى الطهـارة والزكاة والبيوع وغيرها والشافعى يجاوب عليها أحسن إجابة فازداد إعجابه به ، وأخذه إلى داره وأباح له أن ينسخ من مكتبته ما شاء من كتبه

وأقام الشافعى مدةً فى الـكوفة ضيفاً على محمد بن الحسن نسخ فى خلالها كثيراً من الـكتب ، ولمـا أتم غرضه أراد السياحة فى بلاد فارس وما حولها من بلاد الأعاجم ، والطواف بالعراق ، فعرض ذلك على محمـد بن الحسن فوافق عليه وأعطاه ثلاثة آلاف ليستعين بها فى سياحته

رحلته الى بلاد فارس وغيرها

أخذ الشافعى المال وساح فى بلاد فارس وما حولها من بلاد الأعاجم ثم سافر إلى (ديار ربيعة ومضر) ومنها رحل إلى بلاد شمال العراق ، حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم ، وهى الأناضول الآن ، وعرج على (حران) وأقام فيها زمناً ، ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام فى الرملة فى جنوب بيت المقدس

وقد استغرقت هذه السياحة حولين كاملين من سنة ١٧٢ هـ الى سنة ١٧٤ هـ ازداد الشافعى فيهما علماً بما حفظه من العلماء بأمور العباد وأخلاقهم وعاداتهم ولغاتهم وتعرف بكثير ممن أملى عليهم الموطأ وهو فى المدينة فكانوا خير معين له فى هذه البعثة

عودته إلى المدينة

وبينما هو فى الرملة إذا بركب المدينة قد جاء من الحجاز ، فسألهم الشافعى عن الإمام مالك ، فقالوا إنه بخير ، واتسعت أرزاقه ، فاشتاق الشافعى إلى السفر إلى المدينة لرؤيته ، فاشترى راحلة وسافر عليها إلى المدينة المنورة ، فوصلها بعد ٢٧ سبعة وعشرين يوماً ، ودخلها ساعة العصر

حوالى سنة ١٧٤ هـ وقصد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فسلم على صاحبه ، وصلى العصر ، وحضر درس الإمام مالك ، الذى لما علم بوجوده استدعاه وضمه إلى صدره ، ونزل عن كرسيه ، وقال له : أتم أنت الدرس ياشافعى ، و بعد ما أتم الشافعى الدرس أخذه مالك إلى بيته

ولم يمض على الشافعى زمن طويل بعد عودته إلى المدينة حتى جاءت الأخبار من مصر بوفاة (الإمام الليث بن سعد) فى نصف شعبان سنة ١٧٥هـ وأنهم دفنوه فى القرافة الصغرى ، فحزن لوفاته مالك والشافعى ، وسيأتى الكلام عليه

وأقام الشافعى بعد ذلك فى المدينة المنورة أربع سنوات وأشهراً ملحوظاً بعين الإمام مالك إلى أن توفى الإمام مالك فى شهر ربيع سنة ١٧٩هـ ، ودفن بالبقيع فى ظاهر المدينة ، ووَجدت عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجداً عظيما كما مرّ ذكره

رحلته إلى اليمن وزواجه

مات مالك ، و بقى الشافعى ، ولا معين له فى المدينة إلا الله تعالى ، وكان عمره وقتئذ ٢٩ سنة تقريباً ، وصادف أن جاء والى اليمن الى المدينة ، فكلمه جماعة من قريش فى موضوع الشافعى ، فأخذه الوالى كاتباً له

ولما عاد إلى (صنعاء) قلده عملاً مستقلاً أحسن الشافعى إدارته وأثنى عليه الناس وأحبه الوالى

وقد تزوج الشافعى فى هـذه الأثناء من السيدة (حميدة) بنت نافع (حفيدة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) ورزق منها ابنه (أبا عثمان محمداً) وابنتيه (فاطمة وزينب) وقد ارتقى أبو عثمان محمد فى المناصب حتى كان قاضياً لمدينة حلب

حسن معاشرته لزوجته

وكان الشافعى رضى الله عنه رقيق المعاشرة مع زوجته ، حتى بلغت به الدرجة من الرقة أن كنى ابنه منها باسم جدها سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه فكناه (بأبى عثمان محمد) ولم يكنه بأبى إدريس أو الشافعى

وكان مثلاً أعلى للحياة الزوجية الصريحة ، حيث كان يوصى زوجته ألّا تعارضه فى القول عند سورة غضبه ، مخافة أن يمحو أثر هذه المعارضة ما فى قلبه من المحبة لها فيقول :

« خذى العفو منى واستديمى مودتى

ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب »

« فإنى وجدت الحب فى القلب والأذى

إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب »

وأقام الشافعى فى اليمن على عمله ، يحكم بين النـاس بالعدل ، ملازماً الإمام يحيى بن حسان صاحب الإمام الليث بن سعد ، غير منقطع عن طلب العلم وتدريسه لحظة ، ولم يدع الفرص تفوته مدة وجوده فى هذه البلاد ، بل تعلم فيها علوم الفراسة ، وهى علوم خاصة ببلاد اليمن وقتها وقد تفوق فيها .

حقد حساده عليه ووشايتهم به عند الرشيد

ثم ان تقدمَ الشافعى فى اليمن ، ومكانته عند الوالى والناس ، وعلو قدره فى العلوم والمعارف ، سواء كانت فقهية ، أو رياضية ، أو فلسفية ، أو طبية ، أو فلـكية الخ . كان سبباً فى حقد صدور الحاسـدين عليه ، فوشوا فى حقه للخليفة هارون الرشيد وهو فى بغداد ، واتهموه بأنه رئيس حزب (العلويين) فى اليمن ، وأنه يدعو إلى عبد الله بن الحسين ، فأرسل الخليفة أحـد قواده إلى اليمن ، فبعث له ذلك القائد بكتاب يخوفه من (العلويين) ، ويذكر له فيـه الشافعى ، ويقول عنه : انه يعمل بلسانه ، مالا يقدر المقاتل عليه بحسامه وسنانه وإن أردت يا أمير المؤمنين أن تبقى الحجاز عليك ، فاحملهم إليك ، فبعث الرشيد إلى والى اليمن يأمره بأن يحمل (العلويين) إلى بغداد ومعهم الشافعى مكبلاً بالحديد .

حادثته مع الرشيد

اعتقل العلويّون وفى جملتهم الشافعى ، ووضع فى رجليه الحديد تنفيذاً لأوامر الخليفة ، وأرسلوا إلى بغداد ، فدخلوها فى غسق الليل ، وأحضروا بين يدى هارون الرشيد ليلاً ، وكان جالساً من وراء ستار ، وكانوا يقدمون إليه واحداً واحداً ، وكل من تقدم منهم قطع رأسه

كل ذلك والشافعى بالباب يدعو ربه بدعائه المشهور عنه وهو :

« اللَّهم يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير »

ولما جاء دوره حملوه إلى الخليفة ، وهو مثقل بالحديد ، فرمى مَن بحضرة الخليفة بأبصارهم إليه

فقال الشافعى : السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته ، ولم يقل ورحمة الله

فقال الرشيد : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، بدأت بسنة لم تؤمر باقامتها ، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى

فقال الشافعى : إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى

﴿ ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

وهو الذى إذا وعد وفى ، فقد مكنك فى أرضه ، وأمنتنى بعد خوفى ، حيث رددت علىّ السلام بقولك (وعليك رحمة الله) فقد شملتنى رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين

فقال الرشيد : وما عذرك من بعد ما ظهر أن صاحبك يريد عبد الله ابن الحسن ، طغى علينا و بغى ، واتبعه الأرذلون ، وكنت أنت الرئيس عليهم ؟

فقال الشافعى : أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم على العدل والإنصاف ؛ لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب ، فإن جدت علىّ بفكه عن قدمى ، جثيت على ركبتى ، كسيرة آبائى عند آبائك ، وأفصحت عن نفسى ، وإن كانت الأخرى ، فيدك العليا ، ويدى السفلى ، والله غنى حميد

فالتفت الرشيد إلى غلامه (سراج) وقال له : خلِّ عنه ياسراج فأخذ سراج ما فى قدميه من الحديد ، فجثا الشافعى على ركبتيه وقال : قال الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾

حاشا لله أن أكون ذلك الرجل ، لقد أفك المُبلِّغ فيما أبلغك به

يا أمير المؤمنين ، إن لى حرمة الإسلام ، وذمة النسب ، وكفى بهما وسيلةً ، وأنت أحق من أخذ بأدب كتاب الله تعالى ، أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذاب عن دينه ، المحامى عن ملته ، فتهلل وجه الرشيد ، ثم قال : ليفرخ روعك (ليزول فزعك) فإنا نراعى حق قرابتك وعلمك ، ثم أمره بالقعود فقعد ، وأخذ الرشيد يسأله أسئلةً فى علوم القرآن ، وهو يجاوبه بما أدهشه ، والحاضرين ، وسرَّه سروراً عظيماً ، ثم قال له : عِظنى يا شافعى .

فأخذ الشافعى يعظ الرشيد وعظاً تصعدت له القلوب التى فى الصدور ، حتى بكى الرشيد بكاء شديداً ، فهاج الحاضرون ، فنظر إليهم الشافعى غضباً واستمر فى وعظه .

ولما أفاق الرشيد من بكائه قال : أمرنا لك بصلة ألفى دينار ؛ فنهض الشافعى وقال : كلاَّ والله يا أمير المؤمنين ، لايرانى الله عز وجل ، وقد سوَّدت وجه موعظتى بقبول الجزاء عنها ، ثم استأذن فى الانصراف فأذن له وخرج .

لم يكن الشافعى بالرجل البسيط ، وإنما هو يدرى مقدار مسئولية الاعتذار عن عدم قبول صلة الخليفة .

فبعد أيام قليلة طلب الإذن فى مقابلة الرشيد ، فأذن له . وفى هذه المرة

أمر له الرشيد بألف دينار ، فتقبلها الشافعى ، ودعا لأمير المؤمنين فضحك الرشيد وقال : ما أفطنك ، قاتل الله عدوك .

ولما خرج الشافعى أمر الرشيد غلامه (سراجا) باتباعه حتى يرى ماذا يفعل بالمال، فجعل الشافعى يفرق ذلك المال قبضةً قبضةً على رجال حاشية القصر ، حتى انتهى إلى خارج القصر وما معه إلّا قبضةً واحدة ، فدفعها إلى سراج وقال له : انتفع بها . فرجع سراج إلى الرشيد وأخبره بما رأى . فقال الرشيد : ألا إن بنى المطلب ما فارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شرف ولا فى سخاء .

حضوره مجلس العلماء ببغداد ومناظرته لهم

وأقام الشافعى فى بغداد يجالس علماءها ، ويحضر عليهم ، كالإمام وكيع ابن الجراح ، وأبى أسامة وغيرهما ، ويصنف التصانيف ، وأتم فيها وضع كتابه القديم ، وأقبلت عليه الناس ، وأصبحت حلقته أكبر الحلقات ، فأوغر ذلك صدور بعض علماء العراق ، وبخاصة قلوب المقربين منهم إلى الخليفة ، فاتفقوا فيما بينهم أن يضعوا عدة مسائل على شكل الألغاز التى توضع لمقياس قوة الذكاء عند الناس ، ثم يطرحونها على الشافعى أمام الخليفة فى مجلس المناظرة ليعجزوه . وكان الرشيد يحضر هذا المجلس للفكاهة والعلم .

و بعد أن طرحوا عليه الأسئلة ، وأجاب عليها الشافعى أجوبةً سديدةً ، تبسم الرشيد وقال : « أكثر الله فى أهلى مثلك » وأمر له بألفى دينار ، فتسلمها الشافعى وفرقها على خدم القصر وحاشيته كعادته رضى الله عنه .

امتناعه عن تولية القضاء

على أثر هـذه المناظرة أراد الرشيد أن يولى الشافعى قضاء اليمن ، فقال الشافعى :

أطال الله عمر أمير المؤمنين ، لا حاجة لى فى ذلك ؛ ولـكن حاجتى أن يكون لى نصيب من سهم ذوى القربى فى مصر إن سمحت مكارمه .

فقال الرشيد : هو كذلك إن شاء الله .

مكانة الشافعى

ومن ذلك الحين أخذت مكانة الشافعى تزداد لدى الخليفة ، وأصبح فى بغـداد موضع إكرام أمرائها وعلمائها وساداتها طول مدة إقامته فيها ، حتى بلغت الدرجة من احترامه أن مرض الإمام أحمد بن حنبل (ولا يجهل أحد من هو أحمد بن حنبل وما هى مرتبته عند أهل بغداد) فعاده الشافعى فى بيته ،

فنزل ابن حنبل من سريره ، وأجلس الشافعى مكانه ، وجلس هو على الأرض يُسائله ساعةً .

ولما أراد الشافعى الانصراف أركبه ابن حنبل دابته ، ومشى تحت ركابه وهو مريض مخترقاً شوارع بغداد وأسواقها حتى أوصله إلى بيته .

إن هـذه العظمة التى نالها الشافعى من علماء بغداد وعظمائها ، لم تكن لتثنى عزمه عن ديمقراطيته ومخالطة الجمهور ، والوقوف على عباداتهم ومعاملاتهم حتى إذا رأى فى شىء منها نقصاً أو عيباً ألف التآليف ، وصنف التصانيف ، حتى إن الإمام أبا يوسف نفسه قال له :

« أنت أولى من يصنف فى هذا الزمان يا شافعى » .

وقد ألف كتاباً فى أربعين مجلداً وسمّاه (الزعفران) وعرف هذا الكتاب بالحجة وهو أحد الكتب القديمة التى وضعها الشافعى بالعراق .

عودته إلى مكة

بعد ذلك رأى الشافعى أن يرجع إلى مكة ، فسافر إليها حوال سنة ١٨١ هـ وضرب خباءه فى ظاهرها ، فخرجت إليه أهل مكة للسلام عليه ، فقسم بينهم ما جاء به من العراق من ذهب وفضة ، عملاً بوصية أمه له كلما جاء إلى مكة . وهكذا دخل الشافعى مكة فارغاً كما خرج منها فارغاً ، وأقام

فى مكة سبع عشرة سنة يعلم الناس العلم ، وينشر مذهبه بين الحجاج وهم ينقلونه عنه إلى بلادهم .

وفى خلال السبع عشرة سنة هذه مات الإمام أبو يوسف فى سنة ١٨٢ هـ ومات بعده بست سنوات الإمام محمد بن الحسن سنة ١٨٨ هـ ، ومات بعده بخمس سنوات الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٣ هـ ، وقيل بعده بخمس سنوات ابنه الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وانفرد بالخلافة الخليفة المأمون فى هذه السنة واشتهر عنه حبه للعلويين وعطفه عليهم .

عودته إلى بغداد

فرأى الشافعى أن يعود إلى بغداد ، فعاد إليها فى تلك السنة ، وهى سنة ١٩٨هـ وأقام فيها شهراً واحداً ، وكان يلقى دروسه فى جامعها الغربى ، وكانت حلقات العلماء فى هذا الجامع تربو على العشرين حلقة ، فأصبحت ثلاثاً فقط ، وانضم الباقون إلى حلقة الإمام الشافعى .

سفره إلى مصر

وصادف أن غضب المأمون على عامله فى مصر ، وكان المطلب بن عبد الله ، فأمر بعزله وتولية العباس بن موسى مكانه ، وهو أحد رجال بنى العباس ، فرأى الشافعى السفر من بغداد إلى مصر مع العباس بن موسى فخرج

أهل بغداد لوداعه ، وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل فمسك الشافعى بيد ابن حنبل ساعة الوداع وقال :

« لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر
ومن دونهـــا أرض المهامة والقفر »

« فوالله لا أدرى أللعز والغنى
أساق إليها أم أساق إلى القبر ؟ »

وكأن الشافعى أحسّ بأنه سيموت فى مصر ، وأن قبره سيكون فى مصر فبكى ، وبكى لفراقه ابن حنبل والمودعون ، وعاد ابن حنبل وهو يقول لأهل العراق : لقد كان الفقه قفلاً ففتحه الله بالشافعى .

ورافق الشافعى فى رحلته هذه إلى مصر الربيع بن سليمان المرادى وعبد الله ابن الزبير الحميدى وغيرهما .

وفى ٢٨ شوال سنة ١٩٨ دخل الشافعى مصر مع العباس بن موسى الذى أراد أن ينزله فى داره فاعتذر ونزل عند أهله من بنى أزد ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة المنورة ونزل عند أخواله من بنى النجار .

وفى الصباح دخل على الشافعى عبد الله بن الحكم ، وكان من كبار علماء مصر وأعيانها ، وممن أملى عليهم الشافعى الموطأ فى المدينة . فرآه مخضباً

شعره بالحمرة ، طويل القامة ، جهورى الصوت ، كلامه حجة فى اللغة ، عليه دلائل الشجاعة والفراسة ، قليل لحم الوجه ، مستطيل الخدين ، طويل العنق ، طويل عظم العضد والساعد والفخذ والساق ، ورأى فى يده اليسرى خاتماً منقوشاً عليه : « وكفى بالله ثقةً لمحمد بن إدريس » فسلم عليه ، فرد عليه الشافعى السلام ، ثم وضع عبد الله بن عبد الحكم بين يدى الشافعى أربعة آلاف دينار ، منها ألف من عنده وثلاثة آلاف من عند أعيان مصر وتجارها ، فشكر له الشافعى جميله وإكرام المصريين له

إلقاء دروسه فى جامع عَمرو

وابتدأ الشافعى رضى الله عنه فى إلقاء دروسه بجامع عَمرو بن العاص من بعد صلاة الصبح إلى الظهر ، ثم يأخذ عصاه وينصرف إلى داره ومعه بعض تلاميذه (كالمزنى والربيع الجيزى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم) ويقول : الدنيا دار سفر ، ولا بد للمسافر من العصا .

وهو أول من سن سنة العمل فى مصر إلى الظهر ، وكان يعمل فى المسجد ثمانى ساعات ، أى من الساعة الرابعة صباحاً إلى الثانية عشرة ، وكان يطلق لتلاميذه الحرية فى التفكير فى أدلة المسائل وبراهينها ، ويقول لهم : إذا

ذكرت لكم دليلاً أو برهاناً لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه ؛ لأن العقل مضطر لقبول الحق :

وكانت العلماء تسمع منه فى الجامع ، وعلى باب داره ، إلا محمد بن عبد الحكم ، فانه كان يصعد إلى أعلى الدار ، وربما تغدى مع الشافعى ، وإذا نزل أركبه دابته وأتبعه ببصره حتى يغيب ، فإذا غاب كان يقول : « وَددت لو أن لى ولداً مثله ، وعلى ألف دينار لا أجد لها وفاء » .

وكانت العلماء تحضر على الشافعى رجالاً ونساء كنظام جامعات أوروبا الآن ، ولم يكن هناك حرج من هذا النظام إذ ذاك ، لوجود العفة والحياء بين الرجال والنساء .

مَن نبغ من المصريين والمصريات على يديه

ونبغ على الشافعى كثير من المصريين والمصريات ، فمن الرجال : الربيع الجيزى ، وحرملة ، والمزنى ، والبويطى ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وغيرهم ، وكلهم صاروا أئمة فى الدين أساتذة فى الأدب .

ومن النساء كثيرات كذلك ، كالسيدة أخت المزنى التى أخذ عنها العلماء ودرج اسمها فى جدول كبار فقهاء الشافعية رضى الله عنها

وكان الربيع الجيزى أكثر الناس ملازمةً للإمام الشافعى رضى الله عنه ، وقد سمى باسمه شارع فى الجيزة ، وقبر الربيع لم يزل موجوداً إلى

وقتنا هـذا فى داخل شونة من شون الغلال التى على النيـل فى جنوب بندر الجيزة .

تآليف الشـافعى

وضع الشافعى فى مصر كتبه الجديدة ، وكانت نحو عشرين مجلداً : منها كتابه الجديد ، وكان يدرس فيه مذهبه بمسجد سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه . و « كتاب الأم » وقد طبعه المرحوم أحمد بك الحسينى « وهو من أجل الـكتب فى أصول الفقه جمع بين حجة المأخذ و بين متانة العبارة ، فهو الأم الولود حقيقة لـكل حقيقة فى علم الفقـه ومعرفة الأحكام » والاملاء الصغير ، والأمالى الـكبرى ، ومختصر الربيع ، ومختصر المزنى ، ومختصر البويطى وكتاب الرسالة ، وكتاب الجزية وغيرها من كتب التفسير والأدب .

ووضع وهو فى مصر علم أصول الفقه ، وهو أول من وضع هذا العلم .

مناقبه

١ ـ زهده ـ كان رضى الله عنه زاهداً فى دنياه ، مقتصداً فى لبسه ، يلبس الثياب الرفيعة من الـكتان والقطن البغدادى ، وكان ربما يلبس قلنسوة ليست مشرفة جداً ، ويلبس العمامة والخف .

وكان يعيش وهو فى مصر على ما كان مرتباً له من جهة السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وعلى ما كانت ترسله إليه السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من بغداد من نقود وثياب وشى ، وكان يقسمها كلها بين الناس كعادته .

٢ - ورعه - مما يدل على ورعه رضى الله عنه أن عبد القاهر بن عبد العزيز ، وكان رجلاً صالحاً ورعاً سأل الشافعى عن مسائل فى الورع والشافعى يقبل عليه لورعه .

فقال للشافعى : أيما أفضل ؟ الصَّبْرُ أو المحبة أو التمكين ؟

فقال الشافعى رضى الله عنه : التمكين درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكين إلّا بعد المحبة فإذا امتحن وصبر مكن ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى امتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ، والتمكين أفضل الدرجات . وكان يقول رضى الله عنه فى الورع :

« المرء إن كان عاقلاً وَرِعاً أشغله عن عيوب غيره ورعه »

« كما العليل السقيم أشغله عن وجع الناس كلهم وجعه »

٣ - تقواه وخوفه من الله تعالى - كان رضى الله عنه تقياً يخاف الله

فلا يرتكب خطيئةً ، ولا يقع فى منكر ، وقيل : أنه قرأ بعضهم عنده يوماً قوله تعالى :

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ .

فتغير لونه ، واقشعر جلده ، واضطربت مفاصله ، وخرَّ مغشياً عليه .

فلما أفاق قال : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، واعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت هيبة المشتاقين ، إلهى هب لى جودك وجَلِّلْنِى بسترك ، واعف عنى فى تقصيرى بكرمك .

فإذا كان هذا خوف الشافعى من الله مع علمه به فكيف حالك أيها الإنسان مع جهلك بجميل صفاته ؟

ويل للجاهلين الغافلين ! وويل ثم ويل للقاسية قلوبهم :

وقال عبد الله بن محمد البكرى : كنت مع الإمام الشافعى رضى الله عنه بشط بغداد فرأى شاباً يتوضأ فقال له : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة ، ثم مضى .

فأسرع الشاب فى وضوئه ثم لحق بالإمام الشافعى ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال له : هل لكَ من حاجة ؟ قال : نعم ، فعلمنى مما علمك الله .

فقال له : اعلم أن من عرف الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد فى الدنيا قرَّت عيناه بما يراه من ثواب الله غداً ، أفلا أزيدك ؟ قال : بلى . قال : من كانت فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان :

من أمر بالمعروف وأتمر به ، ونهى عن المنكر وانتهى عنه ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيدك ؟ قال : بلى . قال : كن فى الدنيا زاهداً ، وفى الآخرة راغباً ، واصدُق الله فى جميع أمورك تنج به غداً مع الناجين ، ثم مضى.

فسأل الشاب عنه ، فقيل له : هذا الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان يقول : وَددت لو أن الناس انتفعوا بهذا العلم ولم ينسب إلى منه شىء

وقال أيضاً رضى الله عنه : ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وما كلمت أحداً قط إلَّا لا أبالى أن يبين الله تعالى الحق على لسانى أو على لسانه

وقال أيضاً : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا كابرنى أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته

مثال من تقواه وتوحيده لله — روى سويد بن سعيد رحمه الله قال : كان الشافعى رضى الله عنه جالساً بعد صلاة الصبح فى المسجد النبوى إذ دخل عليه رجل فقال له : إنى أخاف من ذنوبى أن أقدم على ربى وليس لى عمل غير التوحيد

فقال له الإمام الشافعى رضى الله عنه : يامؤمن لو أراد الله عز وجل

أن يُؤيسك (يحل بك اليأس) من المسامحة لديه ، لما أحالك فى مغفرة الذنوب عليه ، حيث قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ﴾

ولو أراد عقوبتك فى جهنم وتخليدك فى النار لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك إياه ، ثم أنشد فقال :

« إن كنت تغدو فى الذنوب جليداً
وتخاف فى يوم المعـــاد وعيداً »
« فلقد أتاك من المهيمن عفوه
وأباح من نعم إليك مزيدا »
« لا تيأسن مِن لاطف بك فى الحشا
فى بطن أمك مضغةً ووليـدا »
« لو شاء أن تصلى جهنم خالداً
ما كان ألهم قلبك التوحيـدا »

فبكى الرجل ، وأقبل على العبادة ، وفرح بكلامه رضى الله عنه

مثال من أدعيته — روى عبـد الله بن مروان قال : كنت أجلس فى حلقة العلم عند الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وأكتب ما أفهمه فجئته سحراً فوجدته فى المسجد وهو قائم يصلى ؛ فجلست حتى فرغ من صلاته ، ثم دعا بدعوات حفظتها منه . فكان من جملة ذلك : « اللهم امنن علينا

بصفاء المعرفة ، وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا و بينك على السنة ، وارزقنا صدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك ، وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقروناً بالعفو فى الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين » .

قال : فلما فرغ من دعائه خرج من المسجد وخرجت خلفه فوقف ينظر إلى السماء وهو يتمثل بهذه الأبيات :

« بموقف ذلى دون عزتك العظمى
بمخفى سر لا أحيط به علما »

« باطراق رأسى باعترافى بزلتى
بمد يدى أستمطر الجود والرحما »

« بأسمائك الحسنى التى بعض وصفها
لعزتها تستغرق النثر والنظما »

« بعهد قديم من ألست بربكم
بمن كان مجهولاً فعلمته الاسما »

« أذقنا شراب الأُنس يامن إذا سقى
محبًّا شراباً لا يضام ولا يظما »

مثال آخر من دعائه — من جملة دعائه رضى الله عنه الذى دعا به حين دخل على الرشيد : اللّهم إنى أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ،

وبركة جلالتك ، من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلاَّ طارقاً يطرق بخير

اللّهم أنت عياذى بك أعوذ ، وأنت ملاذى بك ألوذ ، يامن ذلَّت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له مقاليد الفراعنة ، أعوذ بجلالك وكرمك من خزيك ، وكشف سترك ونسيان ذكرك ، والانصراف عن شكرك ، أنا فى كنفك فى ليلى ونهارى ، وظعنى وإسفارى ، ذكرك ، ذكرك شِعارى ، وثناؤك دِثارى ، لا إله إلا أنت تنزيهاً لاسمك ، وتكريماً لسبحات وجهك ، أجرنى من خزيك ومن شر عذابك ، وقنى سيئات مكرك ، واضرب علىَّ سرادقات حفظك ، وأدخلنى فى حفظ عنايتك برحمتك يا أرحم الراحمين

عفته عن اللّغو وفحش الكلام — كان الشافعى رضى الله عنه عفيفاً عن اللغو وفحش الكلام ، فيحكى أنه مرَّ يوماً برجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت إليه الشافعى وقال : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شىء فى وعائه ، فيحرص أن يفرغه فى أوعيتكم ، ولوردت كلمةُ السفيه لشقى رادها كما يشقى قائلها :

وكان ينشد ويقول :

« يخاطبنى السفيه بكل قبح فأكره أن أكون له مجيباً »
« يزيد سفاهةً فأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيبا »

وقال رضى الله عنه :

« إذا سبنى نذل تزايدت رفعةً وماالعيب إلَّا أن أكون مسابه »
« ولو لم تكن نفسى علىَّ عزيزة لمكّنتها من كل نذل تحاربه »

وقال رضى الله عنه :

« قل بما شئت فى مَسَبّة عرضى فسكوتى عن اللئيم جوابْ »
« ما أنا عادم الجواب ولكن ما من الأسد أن تجيب الكلابْ »

عزة نفسه — لم يكن فى نظره شىء أحط من أن يذل المرء نفسه لمنصب يتولاه ، أو مرتب يتقاضاه ، مع أنه فى هذه الحياة الدنيا يكفيه للمعيشة كِسرة و بعد الموت حفرة

وكان يقول :

« أمطرى لؤلؤاً جبال سرند يب وفيضى آبار تكرور تبرا »
« أنا ما عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا »
« همتى همة الملوك ونفسى نفس حرّ ترى المذلة كفرا »
« وإذا ما قنعت بالقوت عمرى فلماذا أزور زيداً وعمرا »

ويحكى أنه دخل على الإمام الشافعى طالب بعد انتهاء الدروس

وقال له : أوصنى ، فقال له الشافعى : يا بُنى خَلقك الله حرًّا فكن كما خَلقك الله .

قناعته - كان رضى عنه يرى الحرية الصحيحة فى القناعة ، والذل كل الذل فى الطلب والسؤال فيقول :

« العبد حرٌّ إن قَنَع والحرُّ عبد إن قنِع »

ويقول :

« رأيت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها متمسك »
« فلا ذا يرانى على بابه ولا ذا يرانى به منهمك »
« فصرت غنياً بلا درهم أمرُّ على الناس شبه الملك »

قال الربيع : قال عبد الله بن عبد الحكم للشافعى : إذا أردت أن تسكن البلد يعنى (مصر) فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به .

فقال له الشافعى : يا أبا محمد ، من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعاً قط ، وكان يقول :

« إذا أصبحت عندى قوت يومى فخل الهمَّ عنى يا سعيد »
« ولا تخطر هموم غدٍ ببالى فإن غداً له رزق جديد »
« أسلم إن أراد الله أمراً وأترك ما أريد لما يريد »

وكان يقول :

« قنعت بالقوت من زمانى وصنت نفسى عن الهوان »
« خوفاً من الناس أن يقولوا فضل فلان على فلان »
« ومَن كنت عن ماله غنيًّا فلا أبالى إذا جفانى »
« ومَن رآنى بعين نقص رأيتـــه بالذى رآنى »
« ومَن رآنى بعين تمّ رأيته كامل المعـــانى »

كرمه وسخاؤه ـ أحبه المصريون لكرمه ومروءته ، وصدق رؤياه ، ولعلمه وفضله وتقواه ، ولقربه من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن كرمه ، أنه خرج يوم وقفة العيد الكبير من مسجد سيدنا عمرو ابن العاص مع تلميذه المزنى ، ولما وصل إلى البيت رأى غلاماً ينتظره لدى الباب ومعه كيس مملوء بالنقود ، فتقدم الغلام إلى الشافعى وقال له : يُقرئك سيدى السلام ، ويقول لك : خذ هذا الكيس .

أخذ الشافعى الكيس ، ووضع قدمه على سلم الدار يريد الصعود ، فخرج له رجل من أهل الفسطاط وقال له : وضعت امرأتى الساعة ، ولم يكن معنا شىء ، فناوله الشافعى الكيس بما فيه ، ودخل هو بيته ولم يكن معه شىء .

وأخرج البيهقي من طريق الحسن بن حبيب قال : سمعت الربيع يقول : رأيت الشافعي ركب حماراً فمرَّ على سوق الحذائين (صانعي الأحذية) فسقط سوط من يده فوثب غلام من الحذائين فمسح السوط بكمه وناوله إياه ، فقال الشافعي لغلامه : ادفع تلك الدنانير التي معك لهذا الفتى ، قال : ما أدري إن كانت تسعة أو سبعة .

وروى الحميدي : أن الشافعي رضي الله عنه خرج إلى اليمن في بعض أشغاله ثم انصرف إلى مكة ومعه عشرة آلاف درهم ، فضرب خيمة خارج مكة ، فكان الناس يأتونه فما برح من مكانه حتى فرقها جميعها .

برُّه بأقاربه — كان باراً بأقاربه ، يحترمهم ، ولا يتكبر عليهم ، وكان يقول : أظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأسواق ، وتكبر على ذوي الفضل .

مواساته وتفقده للفقراء — كان لا يأتي عليه يوم إلا يتصدق فيه ، وكان يتصدق بالليل ولا سيما في رمضان ، ويتفقد الفقراء والضعفاء ، وكان نفقته على أهله ما يتعارف من سعة التجار وأهل الفضل ، وكان أكرم الناس مجالسة .

حلمه وعفوه — كان رضي الله عنه عفواً حليماً لمن أساء إليه ، يقابل السيئة بالحسنة ، ولا يضمر حقداً لأحد ، وفي ذلك يقول :

« لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسى من هم العداوات »
« إنى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات »
« وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنه قد حشى قلبى مودات »

ثناء الناس عليه - قال هارون بن سعيد : ما رأيت مثل الشافعى قط ، ولقد قدم علينا مصر ، فقالوا : قدم علينا رجل من قريش فقيه ، فجئناه وهو يصلى ، فما رأيت أحسن منه وجهاً ، ولا أحسن صلاة ، فافتتنا به ، فلما قضى صلاته تكلم ، فما رأينا أحسن منه منطقاً ، وكان يتكلم فى الحقيقة ، وفى الزهد ، وفى أسرار القلوب ، وكان يقول :

كيف يزهد فى الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة ؟

وكيف يسلم من لا يسلم الناس من لسانه ويده ؟

وكيف ينطق بالحكم من لا يريد بقوله وجه الله عز وجل ؟

وسأله بعض الناس عن الرياء فقال له : أنت إذا خفت على نفسك العجب فانظر طلب رضا مَن تطلب ، وفى أى نعيم ترغب ، ومن أى عقاب ترهب ، وفى أى عافية تشكر ، وأى بلاء تذكر ؟

ثناء الإمام أحمد بن حنبل على الإمام الشافعى

اتفق أن الإمام الشافعى بات عند الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهما . وكانت بنت الإمام أحمد تسمع كثيراً عن الشافعى ، وكان أبوها يعظمه جداً ،

فكانت تودُّ لو رأت الشافعى ، فلما نزل عند أبيها فرحت لعلها ترى أفعاله الطيبة العظيمة ، أو تسمع أقواله الكريمة .

ولما كان الليل ، قام الإمام أحمد إلى الصلاة وذكره كعادته ، والإمام الشافعى مستلق على ظهره (نائم على ظهره) والبنت ترقبه إلى الفجر ، فجاءت إلى أبيها الإمام أحمد وقالت له : رأيتك تعظم الشافعى ، وما رأيت له فى هذه الليلة صلاةً ولا ذكراً ولا ورداً ؛ وبينما هم فى الحديث إذ قام الإمام الشافعى ، فقال له الإمام أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ، ولا أبرك ولا أربح ، فقال : كيف ذلك ؟ فقال الشافعى : لأنى رتبت فى هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهرى كلها فى منافع المسلمين ، ثم ودعه ومضى .

فقال الإمام أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذى عمل الشافعى الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم .

(المغزى) العالم الذى يشتغل بالعلم لينفع الناس أفضل من العابد الذى يعبد ويذكر ، وأن طلب العلم قد يفضل العبادة .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما صليت صلاةً منذ أربعين سنة إلَّا وأنا أدعو للشافعى .

فقال له ابنه : يا أبت ، أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟

فقال الإمام أحمد بن حنبل : يا بنى ، الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فانظر يا بُنى هل من هذين خلف ؟

وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميمونى : كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعى ، فرأيت أحمد يعظمه وقال : بلغنى ، أو قال : يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، وأرجو أن يكون الشافعى على رأس المائة الأخرى .

مرضه — أقام الشافعى فى مصر خمس سنين وتسعة أشهر من ٢٨ شوال سنة ١٩٨ هـ إلى ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ هـ يعلم الناس ، ويؤلف كتبه الجديدة السالفة الذكر ، وينشر مذهبه بين الناس .

وفى نهاية هذه المدة أصابه نزف شديد بسبب داء (البواسير) حيث بلغت به الدرجة أنه إذا ركب الدابة ملأ الدم سراويله والسرج وربما وصل إلى الخفين .

ولما اشتد به الضعف لازم بيته فزاره تلميذه المزنى فوجد أهله وقد ثقبوا له السرير ووضعوا تحته الطشت ليجتمع الدم فيه ، فسأله عن حاله فقال : أصبحت والله لا أدرى أروحى تساق إلى الجنة فأهنئها ، أو إلى النار فأعزيها ، ثم رفع بصره إلى السماء وقال :

« ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلّما »

« تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما »

وبعد ذلك نظر إلى من حوله من أهله وقال لهم : إذا أنا مُتُّ فاذهبوا إلى الوالي واطلبوا إليه أن يغسلني .

وفاته — في ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة ٢٠٤ هـ ، وبعد العشاء الأخيرة فاضت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بين يدي تلميذه الربيع الجيزي .

وما انتشر خبر نعيه في مصر إلّا وقد عم أهلها الحزن والأسى وخرجت الناس من بيوتهم يريدون حمله فوق أعناقهم من شدة هول المصاب .

أصبح يوم الجمعة ٣٠ رجب سنة ٢٠٤ هـ ولا حديث للناس إلّا طلب الرحمة والرضوان للراحل الكريم ، وذهب أهله إلى الوالي ، وكان محمد بن السري بن الحكم ، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام الشافعي كما أوصى ، فقال لهم الوالي : هل ترك الإمام ديناً ؟ قالوا : نعم . فأمر الوالي بسداد ذلك الدين كله ، ثم نظر إليهم وقال لهم : هذا معنى تغسيلي له (أي براءة ذمته من دينه) .

جنازته ودفنه — وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي

مخترقة شوارع الفسطاط وأسواقها ، حتى إذا ما وصلت إلى درب السباع وهو شارع السيدة نفيسة الآن ، أمرتهم السيدة نفيسة رضى الله عنها بإدخال النعش إلى بيتها ، فأُدخل النعش ، ونزلت هى إلى فناء الدار وصلت عليه صلاة الجنازة وقالت : رحم الله الشافعى إنه كان يحسن الوضوء .

واستمرت الجنازة سائرة إلى أن وصلت إلى القرافة الصغرى حيث تربة بنى زهرة وهم أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وعرفت بتربة أولاد بن عبد الحكم ، وفيها دفن الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وعرفت بعد دفنه بتربة الشافعى إلى وقتنا هذا .

تأبينه — ورثى الشافعى خلق كثير يوم وفاته منهم تلميذه المزنى حيث قال :

« لقد كان كفؤاً للعداة ، وركناً لهذا الدين أيما ركن » .

و بعد وفاته رثاه أبو بكر محمد بن دريد صاحب المقصورة المشهورة بقصيدة عصماء قال فيها :

« تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً وخصّ بلب الكهل مذ هو يافع »

« فمن يك علم الشافعى أمامه فرتعه فى ساحة العلم واسع »

« سلام على قبر تضمن جسمه وجادَت عليه المدجنات الهوامع »

« لئن فجعتنا الحادثات بشخصه وهن لما حكمن فيه فواجع »

« فأحكامه فينا بدور زواهر وآثاره فينا نجوم طوالع »

وعاد المشيعون وقد رأوا هلال شعبان وقد بدا فى السماء .

ولازم أهل مصر زيارة قبره رضى الله عنه أربعين يوماً بلياليها ، وكان الزائر لا يصل إلى القبر إلَّا بشِق الأنفس من كثرة الزحام .

ولما آل ملك مصر إلى صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧ هـ أمر ببناء مدرسة لتدريس مذهب الشافعى بجوار قبره فبنيت (المدرسة الناصرية ، أو الصلاحية) نسبة إلى صلاح الدين ورتبت لها الأساتذه والمدرسون ، وأوقفت عليها أرض (جزيرة الفيل) وهى منطقة (جزيرة بدران) ، بشبرا الآن .

ولما مات العزيز عثمان بن صلاح الدين وأمه شمسة دفنا بجوار تربة الشافعى فى سنة ٥٩٥ هـ .

نبذ من بليغ كلامه نثراً

له رضى الله عنه كلام منثور كثير جداً لو جمع لكان كتاباً على حدة فلنذكر نبذاً منه لاحتوائه على الحكمة والموعظة الحسنة .

قال رحمه الله : سياسة الناس أشد من سياسة الدواب .

إن للعقل حداً ينتهى إليه ، كما أن للبصر حداً ينتهى إليه .

للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق ، والسخاء ، والتواضع ، والشكر

لا يكمل الرجل فى الدنيا إلاَّ بأربع : الديانة ، والأمانة ، والصيانة ، والرزانة .

الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط .

ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدرى عنده بمقدار ما أكرمته .

ما نظر الناس إلى مَن هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه .

ثلاثة إن أهنتهم أكرموك ، وإن أكرمتهم أهانوك : المرأة ، والعبد ، والفلاح .

من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق ، كان كمن حضر الطاحون بغير قمح .

أصل كل عداوة الصنيعة إلى الأنذال .

من أحسن ظنه بلئيم كان أدنى عقوبته الحرمان .

صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة .

أظلم الظالمين لنفسه ، من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب فى مودة من لا ينفعه ، (وقيل : مدح من لا يعرفه) .

طبع ابن آدم على اللؤم ، فمن شأنه أن يتقرب ممن يتباعد عنه ، ويتباعد ممن يتقرب منه .

من برّك فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أطلقك .

خير الدنيا والآخرة فى خمس خصال : غنى النفس ، وكف الأذى ، وكسب الحلال ، ولباس التقوى ، والثقة بالله فى كل حال .

الشفاعات ، زكاة المروءات ـ أصحاب المروءات فى جهد .

مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى . ليس العلم ما حفظ إنما العلم ما نفع .

رتبة العلماء التقوى ، وحيلتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .

من لا يحب العلم لا خير فيه ، ولا يكن بينك و بينه معرفة ولا صداقة .

من أظهر شكرك بما لم تأت إليه ، فاحذر أن ينكر نعمتك فيما أتيت إليه .

من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً .

ليس سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا غمّ يعدل فراقهم .

لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته .

إنك لا تقدر أن ترضى الناس كلهم ، فأصلح ما بينك و بين الله ، ثم لا تبال بالناس .

من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان .

التلطف فى الحيلة ، أجدى من الوسيلة .

لا تشاور من ليس فى بيته دقيق .

ترك العبادة ذنب مستحدث .

ليس من المروءة أن تخبر الرجل بسنه .

من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه .

من نَمّ لك نمّ بك ، ومن نقل إليك نقل عنك ، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك .

ليس العاقل الذى يدفع بين الخير والشر فيختار الخير ؛ ولكن العاقل من عَقله عقله عن كل مذموم .

ما أوردتُ الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلّا هبته واعتقدت مودته ، ولا كابرنى على الحق أحد ودفع الحجة إلّا سقط من عينى .

أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع فى خلوة ، وكلمة الحق عند من يرضى ويخاف .

من طلب الرياسة فى غير حينها لم يزل فى ذل ما بقى .

وددت أنى إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يده .

تفقه قبل أن ترأس ، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه .

من طلب الرياسة فرّت منه .

من سامى بنفسه فوق ما يساوى ردّه الله إلى قيمته .

أكثر الناس فضلاً من لايرى فضله .

نبذ من عيون شعره مما ثبت بالأسانيد الجيدة

للشافعى رضى الله عنه شعر كثير فمن ذلك قوله فيما أنشده البيهقى بسنده له :

« لا خير فى حشو الكلا م إذا اهتديت إلى عيونه »

« والصمت أجمل بالفتى من منطق فى غير حينه »

« وعلى الفتى لطباعه سمة تلوح على جَبينه »

وأنشد له الرياشى فيما سمعه منه وأسنده البيهقى عن الرياشى :

« المرء يخطى ثم يعلو ذكره حتى يزين بالذى لم يفعل »

« وترى الشقى إذا تكامل عيبه يشقى وينحل كل ما لم يعمل »

وله :

« ومن الشقاوة أن تحبّ ومن تحب يحب غيرك »

« أو أن تريد الخير للـــإنسان وهو يريد ضيرك »

ذكر المزنى أن الشافعى رضى الله عنه أخذ بيده فقال :

« أحبّ من الإخوان كلّ موات وكل غضيض الطرف عن عثراتى »

« يصاحبنى فى كل أمر أحبه ويحفظنى حيًا وبعد وفاتى »
« فمن لى بهذا ليت أنى أصبته فقاسمته مالى مع الحسنات »

وعن المزنى أن الشافعى رضى الله عنه أملى عليه :

« وأكثر من الإخوان ما استطعت انهم
بطون إذا استنجدتهم وظهور »
« وليس كثير ألف خِلٍّ لعاقل
وإن عدوًا واحداً لكثير »

وقال رضى الله عنه :

« ثلاثة هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح إلى السقام »
« دوام مدامة ودوام وطء وإدخال الطعام على الطعام »

وقال رضى الله عنه :

« إذا لم أجد خِلاً تقيًا فوحدتى ألذ وأشهى من غوىٍّ أعاشره »
« وأجلس وحدى للعبادة آمنا أقرُّ لعينى من سفيه أحاذره »

وقال رضى الله عنه :

« الدهر يومان ذا أمن ، وذا خطر والعيش عيشان ، ذا صفو ، وذا كدر »
« أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ويستقر بأقصى قاعه الدرر »
« وفى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلاَّ الشمس والقمر »

وقال رضى الله عنه :

« العلم مغرس كل فخر فافتخر واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس »
« واعلم بأن العلم ليس ينالـه من همّه فى مطعم أو ملبس »
« إلاّ أخو العـلم الذى يعنى به فى حالتيه عارياً أو مكتسى »
« فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً واهجر له طيب الرقاد وعسس »
« فلعل يوماً إن حضرت بمجلس كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس »

وقال :

« كلمـا أدّبنى الدهـــر أرانى نقص عقلى »
« و إذا ما ازددت علماً زادنى علماً بجهلى »

وقال رضى الله عنه فى الدعاء وطلب العفو والمغفرة :

« ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى لعفوك سلّما »
« تعاظمنى ذنبى فلمـا قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما »
« فلله در العارف النـدب انه تسحّ لفرط الوجد أجفانه دما »
« يقيم إذا ما الليـل مدّ ظلاله على نفسه من شدة الخوف مأتما »
« فصيحاً إذا ما كان فى ذكر ربه وفيما سواه فى الورى كان معجما »
« ويذكر أياماً مضت من شبابه وما كان فيها بالجهالة أجرما »
« فصار قرين الهمّ طول نهاره ويخدم مولاه إذا الليل أظلما »
« يقول حبيبى أنت سؤلى و بغيتى كفى بك للراجين سؤلا ومغنما »

« ألست الذى غذيتنى وكفلتنى ولا زلت منّانا علىّ ومنعما »
« عسى مَن له الإحسان يغفر زلتى ويسترُ أوزارى وما قد تقدما »

وقال رضى الله عنه فى العفة وعدم ارتكاب الزنا :

« عفوا تعف نساؤكم فى المحرم وتجنبوا مالا يليق بمسلم »
« إن الزنا دين فان أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم »
« يا هاتكاً حرم الرجال وقاطعاً سبل المودة عشت غير مكرم »
« لو كنت حرًّا من سلالة ماجد ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلم »
« من يزن يزن به ولو بجداره إن كنت يا هذا لبيباً فافهم »

وقال رضى الله عنه فى الصبر والتأسى :

« دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء »
« ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحوادث الدنيا بقاء »
« وكن رجلاً على الأهوال جلداً وشيمتك السماحة والسخاء »
« يغطى بالسماحة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاء »
« ولا حزن يدوم ولا سرور ولا بأس عليك ولا رخاء »
« ولا تُرِىَ الأعادى قط ذلا فان شماتة الأعدا بلاء »
« ولا ترج السماحة من بخيل فما فى النار للظمآن ماء »
« ورزقك ليس ينقصه التأنى وليس يزيد فى الرزق العناء »
« إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء »

« ويرزق من يشاء بلا حساب ويحرم من يريد كما يشاء »
« ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء »
« وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء »
« دع الأيام تغدر كل حين ولا يغنى عن الموت الدواء »

ونكتفى بذكر هذه الأشعار . ومن أراد الكثرة فليطلع على كتاب « الجوهر النفيس فى أشعار الإمام محمد بن إدريس » لجامعه ومصححه المرحوم محمد افندى مصطفى أحد موظفى دار الكتب ووزارة المعارف سابقاً .

مذهب الشافعى رضى الله عنه

جاء فى رسالة المرحوم أحمد باشا تيمور الخاصة بالمذاهب الأربعة ما خلاصته :

يذكر أصحاب الطبقات أن ظهوره (أى مذهب الشافعى) كان أولا بمصر وكثر أصحابه بها ، ثم ظهر بالعراق ، وغلب على بغداد ، وعلى كثير من بلاد خراسان ، والداغستان ، وكان اصطلاح أهل خراسان إذا أطلقوا (أصحاب الحديث لا يعنون إلا الشافعية) ثم ظهر بتوران والشام واليمن ، ودخل ماوراء النهر ، وبلاد فارس والحجاز ، وبعض بلاد الهند ، ودخل شىء منه افريقية والأندلس بعد سنة ٣٠٠ هـ

والغالب على أهل مصر فى عصرنا هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه ، وقد كان الحكم لأصحاب الشافعى فى أزمان كثيرة بمصر ، ولم يفقده صقل الدولة لمذهب أبى حنيفة بالحكم قيمته فى غلبته على المسلمين فى مصر تعبداً وتقليداً فى المعاملات .

وكانت مشيخة الأزهر الشريف محصورة فى علمائه منذ عام ١١٣٨ هـ إلى أن تولاها من الحنفية المرحوم الشيخ محمد المهدى العباسى سنة ١٢٨٧ مضافةً إلى الافتاء.

ولم تنحصر بعد ذلك فى مذهب من المذاهب إذ تولاها حنفية ومالكية ولم يتولها حنبلى لقلة عدد الحنابلة بمصر .

وقد عادت الآن إلى الشافعية مذ تولاها الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الحالى الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى حفظه الله ونفع به المسلمين .

٤ — الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى رضي الله عنه

مولده وأصله وكنيته — ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ فى ربيع الأول ، وجىء به حملاً من (مَرو) وتوفى أبوه وله ثلاثون سنة ، فوليته أمه فلم يربه أبوه ، لأنه تركه طفلاً ، وأصله من (مَرو) من أهل (خراسان) ويكنى : أبا عبد الله سدوسى .

نسبه — هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ابن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ربيعة بن نزار ، ويتصل نسبه بسيدنا إسماعيل ابن ابراهيم الخليل عليه السلام ، ويجتمع نسبه والنبى صلى الله عليه وسلم فى نزار ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مُضرى من ولد مُضر بن نزار ، وكل قريش من مُضر .

نشأته — نشأ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ببغداد يتيماً وطلب العلم والحديث بها من شيوخها ثم رحل بعد ذلك فى طلب العلم إلى البلاد .

وقال المروزى : قال لى أبو سراج بن خزيمة : كنا مع أبى عبد الله فى الكُتَّاب فكان النساء يبعثن إلى المعلم ابعث إلينا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ولا ينظر إليهن .

قال أبو سراج : فقال أبى وذكره ، فجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته .

فقال لنا ذات يوم : أنا أنفق على أولادى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم انظر كيف يخرج ؟ وجعل يعجب .

قال أبو بكر المروزى : وقال لى أبو عبد الله : كنت وأنا غلام أختلف إلى الكُتّاب ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة .

طلبه للعلم ورحلاته إليه

ابتدأ أحمد رضى الله عنه فى طلب العلم من شيوخ بغداد ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة وكتب عن علماء كل بلد .

وأول من كتب عنه الحديث أبو يوسف وكان عمره ست عشرة سنة فى سنة تسع وسبعين ومائة وهى السنة التى مات فيها الإمام مالك بن أنس رحمه الله .

وكان رضى الله عنه لا ينقطع عن طلب العلم ، وروى : أنه رآه رجل ومعه المحبرة فقال له : يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين . فقال : مع المحبرة إلى المقبرة .

وكان يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر ، وهذا يتفق مع القول المأثور : اطلب العلم من المهد إلى اللحد .

وقال محمد بن اسماعيل الصائغ : كنت فى إحدى رحلاتى ببغداد فمرّ بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه فى يده ، فأخذ أبى بمجامع ثوبه فقال : يا أبا عبد الله ألا تستحى إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان ؟ فقال : إلى الموت .

تأدبه عند مشايخه احتراماً للعلم

حدث اسماعيل الديلمى عن عمرو الناقد قال : كنا عند وكيع وجاء أحمد ابن حنبل فقعد وجعل يصف من تواضعه بين يديه . فقال عمرو : فقلت : يا أبا عبد الله إن الشيخ يكرمك فمالك لا تتكلم ؟ قال : وإن كان يكرمنى فينبغى لى أن أجله .

قال خلف : جاءنى أحمد بن حنبل يسمع حديث أبى عوانة فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه .

إقباله على العلم واشتغاله به

كان رضى الله عنه شديد الإقبال على العلم ، سافر فى طلبه السفر البعيد ، وتوفَّر على تحصيله الزمان الطَّويل ، ولم يتشاغل بكسب ولا زواج حتى بلغ منه ما أراد . وقيل : إنه لم يتزوج إلاَّ بعد الأربعين سنة حتى لا يتشاغل عن العلم ، فبلغ منه ما أراد . كان علم الدنيا كأنه بين عينيه ، جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء .

كثرة حفظه للحديث

وقال ابن رجاء : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : سمعت أبا زرعة يقول : كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث فقيل له : وما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب .

وقيل لأبى زرعة : أنت أحفظ أم أحمد بن حنبل ؟ قال : بل أحمد ابن حنبل . قيل : وكيف علمت ذلك ؟ قال : وجدت كتب أحمد بن حنبل ليس فى أوائل الأجزاء أسماء المحدثين الذين سمع منهم فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه وأنا لا أقدر على هذا .

وقيل أيضاً لأبى زرعة : مَن رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ ؟ قال :

أحمد بن حنبل حرر كتبه اليوم الذى مات فيه فبلغت اثنى عشر جملًا وعدلًا؟ ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان ، ولا فى بطنه حدثنا فلان ، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه .

ولذا كان إمام المحدثين فى عصره .

ويقول أحمد بن سعيد الرازى : ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أبى عبد الله أحمد ابن حنبل .

رحلته فى طلب الحديث

بلغ الإمام أحمد بن حنبل أن رجلاً فى بلد بعيد عنه ، يروى أحاديث ثلاثية ، أى يحفظ كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقله إلى من يريد .

وكان الإمام أحمد يرغب فى ذلك كثيراً فرحل إلى هذا الرجل حتى أتى إليه فوجده يطعم كلباً . فسلم عليه الإمام أحمد رضى الله عنه فرد عليه السلام ثم اشتغل باطعام الكلب ولم يقبل على الإمام أحمد ، أى لم يلتفت إليه أو يكلمه ، فوجد الإمام أحمد فى نفسه شيئاً ؛ لأن الرجل أقبل على الكلب ولم يلتفت إليه ، وهذا بالطبع يكدر الإنسان ويغيظه .

فلما فرغ الرجل من طعمة الكلب ، التفت إلى الإمام وقال : لعلك وجدت فى نفسك إذ أقبلت على الكلب .

قال الإمام أحمد : نعم . فقال الرجل : حدثنى أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة ، فلن يلج الجنة » .

ثم قال الرجل : أرضنا هذه ليست بها كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه ، فقال الإمام أحمد : يكفينى هذا الحديث ، ثم رجع .

ثناء مشايخه عليه

لما كانت علامات الذكاء فى المرء تظهر فى صباه ، وتلمح فى بدء أمره ومنتهاه ، فقد كانت آيات العلم والتقى تظهر على الإمام أحمد بن حنبل فى بدايته ، ولذلك أثنى عليه مشايخه وقدموه . فمن أثنى عليه من مشايخه (يزيد ابن هارون) .

قال أحمد بن شيبان : ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيماً منه لأحمد بن حنبل ، ولا رأيته أكرم أحداً إكرامه لأحمد بن حنبل ، وكان يقعده إلى جنبه إذا حدثنا .

وكان يوقر أحمد بن حنبل ولا يمازحه ، ومرض مرةً أحمد بن حنبل فركب إليه يزيد بن هارون وعاده .

قال خلف بن سالم : كنا فى مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد مع مستمليه فتنحنح أحمد بن حنبل فضرب يزيد بيده على خده وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد ههنا حتى لا أمزح ؟

ومنهم (اسماعيل بن علية) قال أبو بكر بن أبى عون ومحمد بن هشام : رأينا اسماعيل بن علية إذا أقيمت الصلاة قال : ههنا أحمد بن حنبل قولوا له يتقدم .

قيل : كان جماعة عند اسماعيل بن علية وتكلم إنسان فضحك بعضنا ؛ وثم أحمد بن حنبل ، قيل : فأتينا اسماعيل فوجدناه غضبان . فقال : أتضحكون وعندى أحمد بن حنبل ؟ (وغيرهما كثيرون وهم مذكورون فى كتاب مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى) .

ثناء نظرائه وأقرانه ومقاربيه فى السن عليه

فمنهم (١) محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه كان يقول :

خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أورع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل .

ومن المروى من شعر الإمام الشافعى :

« قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله »

« إن زارنى فبفضله أو زرته فلفضله فالفضل فى الحالين له »

(٢) أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى كان يقول :

ما دمت بالحجاز ، وأحمد بالعراق ، وإسحٰق بخراسان ، لا يغلبنا أحد .

(٣) ابن أبى أويس كان يقول — حينما قال بعضهم عنده : ذهب أصحاب الحديث — أبقى الله أحمد بن حنبل فلم يذهب أصحاب الحديث .

(٤) علىّ بن المدينى — وذكر عنده أحمد بن حنبل — فقال : حفظ الله أبا عبد الله ؛ أبو عبد الله اليوم حجة الله على خلقه .

وكان يقول أيضاً : إن الله عز وجل أعزّ هـذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وكان يقول : ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قام أحمد بن حنبل ، فقيل له يا أبا الحسن ، ولا أبو بكر الصديق ؟ قال : ولا أبو بكر الصديق ؛ إن أبا بكر الصديق كان له أعوان وأصحاب ، وأحمد ابن حنبل لم يكن له أعوان ولا أصحاب .

وغيرهم كثيرون مذكورون فى الكتاب السالف الذكر .

ثناء كبار أتباعه عليه بما عرفوه منه فى صحبته

فمنهم (١) أبو دواد السجستانى ، كان يقول : لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس ، فإذا ذكر العلم تكلم .

(٢) عبد الوهاب الورّاق كان يقول : أبو عبد الله إمامنا وهو من الراسخين فى العلم ، إذا وقفت غداً بين يدى الله عز وجل فسألنى بمن اقتديت ؟ أقول : بأحمد ، وأى شىء ذهب على أبى عبد الله من أمر الإسلام وقد بلى عشرين سنة فى هذا الأمر ؟

وكان يقول أيضاً : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل . قالوا له : وأى شىء بان لك من فضله وعلمه على سائر مَن رأيت ؟ قال : رجل سُئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال : حدثنا وأخبرنا .

مصنفاته

كان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه لا يرى وضع الكتب ، وينهى أن يكتب عنه كلامه ومسائله ، ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ، ولنقلت عنه كتب عديدة

فكانت تصانيفه المنقولات هى : مصنف (المسند) وهو ثلاثون

ألف حديث ، وكان يقول لابنه عبد الله : احتفظ بهذا المسند فانه سيكون للناس إماماً .

والتفسير ، وهو مائة ألف وعشرون ألفاً ، والناسخ والمنسوخ ، والتاريخ ، وحديث شعبة ، والمقدم والمؤخر فى القرآن ، وجوابات القرآن ، والمناسك الكبير والصغير وأشياء أخر .

مناقبه

زهده — كان رضى الله عنه زاهداً فى الدنيا . قال سليمان بن الأشعث : ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط ، وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ، ثم صبّ عليها الماء فى قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح .

وكانوا فى بعض الأوقات يطبخون له فى فخارة عدساً وشحماً وكان أكثر إدامه الخل .

وقال إسحٰق بن هانىء النيسابورى . قال لى أبو عبد الله : بكّر يوماً حتى تعارضنى بشىء من الزهد ، فبكرت إليه ، وقلت لأم ولده : أعطنى حصيراً ومخدة ، فبسطته فى الدهليز ، فخرج أبو عبد الله ومعه الكتب والمحبرة ، فنظر إلى الحصير والمخدة ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : لتجلس عليه .

فقال : ارفعه ، الزهد لا يحسن إلّا بالزهد ، فرفعته وجلس على التراب .

وقال أبو جعفر القطان ويعرف بابن أبى القدور : كان أيام الغلاء يجيئنى أبو عبد الله بغزل ويستره لأبيعه ، فكنت ربما بعته بدرهم ونصف ، وربما بعته بدرهمين ، فتخلف يوماً فلما جاء قلت له : يا أبا عبد الله لم تجىء أمس ؟ فقال :

أم صالح اعتلت ، ودفع إلى غزلاً فبعته بأربعة دراهم ، فجئت بها فأنكر ذلك وقال : لعلك زدت فيه من عندك ؟ قلت : لا ، ما زدت فيه من عندى ، كان غزلًا دقيقاً .

وقيل : تعرت أمه من الثياب ، فجاءته زكاة فردّها وقال : العرى لهم خير من أوساخ الدنيا ، وانها أيام قلائل ثم نرحل من هذه الدار .

وقال صالح بن أحمد : قال أبى : كانت والدتك فى الغلاء تغزل غزلًا دقيقاً فتبيع الأستار بدرهمين أقل أو أكثر فكان ذلك قوتنا .

وقال صالح أيضاً : وكنا ربما اشترينا الشىء فنستره عنه كيلا يراه فيوبخنا على ذلك .

وقال أبو بكر المروزى : سمعت أبا عبد الله يقول : أسرّ أيامى إلىّ يوم أصبح وليس عندى شىء .

كلامه فى الزهد

قال أبو حفص الطرسوسى : ذهبت إلى أبى عبد الله أحمد بن حنبل

فسألته ، وكان معه أصحابه ، فقلت : رحمك الله يا أبا عبد الله ، بِمَ تلين القلوب ؟

فنظر إلى أصحابه فغمزهم بعينه ، ثم أطرق ساعةً ، ثم رفع رأسه فقال : يا بُنيَّ بأكل الحلال .

فمررت إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقلت له : يا أبا نصر بِمَ تلين القلوب ؟

فقال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

فقلت : إني جئت من عند أبي عبد الله ، فقال : أي شيء قال لك أبو عبد الله ؟

قلت : قال بأكل الحلال . قال : جاء بالأصل ، جاء بالأصل .

فمررت إلى عبد الوهاب الورّاق فقلت : يا أبا الحسن ، بِمَ تلين القلوب ؟ قال :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

قلت : فإني جئت من عند أبي عبد الله ، فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لي : أي شيء ، قال أبو عبد الله ؟ فقلت : قال بأكل الحلال . فقال : جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال .

قال أبو بكر المروزى أنه سمع أبا عبد الله يقول : يا نفس انصبى و إلا فستحزنين .

وكان يقول أيضاً : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : ما أعدل بفضل الفقر شيئاً ، تدرى إذا سألك أهلك حاجةً لا تقدر عليها أى شىء لك من الأجر ؟

وقال أبو سهل بن زياد : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : سُئل أحمد عن الفتوة فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقال على بن المدينى : ودعت أحمد بن حنبل فقلت له : توصينى بشىء ؟ قال : نعم : (اجعل التقوى زادك ، وانصب الآخرة أمامك) .

وقال عيسى الوراق : سمعت يحيى الجلاء يقول : سمعت أحمد ابن حنبل يقول : « عزيز علىّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن » .

وقال عبد الله بن أحمد : قلت لأبى يوماً أوصنى يا أبى . فقال : « يا بُنى انوِ الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير » .

وقال أبو بكر المروزى : سمعت أحمد بن حنبل - وسُئل بِمَ بَلغ القول حتى مُدحوا ؟ قال : بالصدق .

ورعه

كان رضى الله عنه ورعاً لا يقبل أن يأخذ من أحد شيئاً .

قال اسحٰق بن موسى الأنصارى : دفع المأمون مالًا وقال لى : اقسمه على أصحاب الحديث ، فإن فيهم ضعفاء ، فما بقى منهم أحد إلّا أخذ إلّا أحمد ابن حنبل فإنه أبى .

قال أحمد بن القاسم الطوسى : كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصرانى غمض عينيه ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لا أقدر أن أنظر إلى من افترى على الله وكذب عليه .

قال ابراهيم الحربى : لزمت أحمد بن حنبل سنتين فكان إذا خرج يحدثنا معه محبرة مجلدة بجلد أحمر وقلماً فإذا مرّ به سقط أو أخطأ فى كتابه أصلحه بقلمه من محبرته ، يتورع أن يأخذ من محبرة أحدنا شيئاً ، وكنا نقول لأحمد فى الشىء يحفظه فيقول : لا ، إلّا من كتاب .

تمسكه بالسنة والأثر

كان رضى الله عنه شديد التمسك بالسنة واتباع الآثار . قال الحسن ابن أيوب البغدادى :

قيل : لأبى عبد الله أحمد بن حنبل أحياك الله يا أبا عبد الله على

الإسلام . قال : والسنة

وقال عبد الملك الميمونى : ما رأت عينى أفضل من أحمد بن حنبل ، وما رأيت أحداً من المحدثين أشد تعظيماً لحرمات الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إذا صحت عنده ولا أشد اتباعاً منه

تعظيمه لأهل السنة والنقل

قال صالح بن أحمد بن حنبل . سمعت أبى يقول : من عظم أصحاب الحديث تعظم فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حقرهم سقط من عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أصحاب الحديث أحبار رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقال أبو بكر المروزى : قلت لأبى عبد الله : مَن مات على الإسلام والسنة مات على خير

فقال لى : اسكت مَن مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم فى جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة وكلامه ذلك محمول على النصيحة

إعراضه عن المناصب

قال إبراهيم المزنى : قال الشافعى : لما دخلت على هارون الرشيد قلت له بعد المخاطبة : إنى خلفت ضائعة ، نحتاج إلى حاكم فقال : انظر رجلاً ممن يجلس إليك حتى توليه قضاءها ، فلما رجع الشافعى إلى مجلسه ورأى أحمد ابن حنبل من أمثلهم أقبل عليه فقال : إنى كلمت أمير المؤمنين أن يولى قاضياً باليمن ، وأنه أمرنى أن أختار رجلاً ممن يختلف إلىّ ، وإنى قد اخترتك فتهيأ حتى أدخلك على أمير المؤمنين يوليك قضاء اليمن ؟ فأقبل عليه أحمد وقال :

إنما جئت إليك لأقتبس منك العلم ، تأمرنى أن أدخل لهم فى القضاء ؟ ووبخه ، فاستحيا الشافعى

وقال ابن الجوزى رحمه الله : وقد روى لنا أن هذا كان فى زمان الأمين

تواضعه

كان رضى الله عنه متواضعاً جداً ويحمل حاجته بيده

قال صالح : كان أبى ربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل الشىء بيده ، وربما خرج إلى البقال فيشترى الجرزة الحطب والشىء فيحمله بيده

وقيل لأبى عبد الله : جزاك الله عن الإسلام خيراً . فقال : لا ؛ بل جزى الله الإسلام عنى خيراً ، ثم قال : ومَن أنا ؟

ودفع إلى أبى عبد الله كتاب من رجل يسأله أن يدعو الله له . فقال : فإذا دعونا بهذا نحن فمن يدعو لنا ؟

وقال محمد بن أحمد بن واصل . سمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : مَن أنا حتى تجيئون إلىّ ؟ مَن أنا حتى تجيئون إلىّ ؟ اذهبوا اطلبوا الحديث

وقيل لأبى عبد الله : ما أكثر الداعين لك ؟ فتغرغرت عيناه وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجاً ، أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون ، ويغفر لنا مالا يعلمون

قيل لأبى عبد الله : ان بعض المحدثين قال لى : أبو عبد الله لم يزهد فى الدراهم وحدها ؛ بل قد زهد فى الناس . فقال أبو عبد الله : ومَن أنا حتى أزهد فى الناس ؟ الناس يريدون أن يزهدوا فىّ

حبه للفقر والفقراء

قال أبو بكر المروزى : كان أبو عبد الله يحب الفقراء ، لم أر الفقير فى مجلس أحد أعز منه فى مجلسه

وقال أيضاً : قال لى أبو عبد الله ، وذكر رجلا فقيراً مريضاً ، فقال لى : اذهب إليه وقل له : أى شىء تشتهى حتى نعمل لك ؟ ودفع إلىّ طيباً وقال لى : طيِّبه

وقال أبو بكر المروزى : قال أبو عبد الله ، أحمد بن حنبل : ما أعدل بالفقر شيئاً ، ما أعدل بالفقر شيئاً ، أنا أفرح إذا لم يكن عندى شىء

وذكرت له رجلاً صبوراً على الفقر فى أطمار ، وكان يسألنى عنه ويقول : اذهب حتى تأتينى بخبره ، سبحان الله الصبر على الفقر ، الصبر على الفقر ، ما أعدل بالصبر على الفقر شيئاً ، أتدرى الصبر على الفقر أى شىء هو ؟ وقال : كم بين من يُعطى من الدنيا ليفتتن إلى آخر تزوى عنه

إيثاره العزلة والوحدة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبى أصبر الناس على الوحدة ، لم يَرَه أحد إلاَّ فى مسجد ، أونشييع جنازة ، أو عيادة مريض ، وكان يكره المشى فى الأسواق ، وكان إذا مشى فى الطريق لا يُمكن أحداً أن يمشى معه .

وقال أبو بكر المروزى . قال لى أبو عبد الله : ما أبالى ألاَّ يرانى أحد ولا أراه . وقال : رأيت الخلوة أروح لقلبى

تقواه وخوفه من الله

قال صالح بن أحمد بن حنبل : كان أبى اذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها ، وكنت أسمعه كثيراً يقول : اللّهم سلم سلم

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبى يقول : وددت إنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لاعلىّ ولا لىّ

وقال المروزى : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه

وقال المروزى : دخلت على أحمد يوماً فقلت : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح مَن ربه يطالبه بأداء الفرض ، ونبيه يطالبه بأداء السنة ، والملكان يطلبانه بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاء ، وملك الموت يطالبه بقبض روحه ، وعياله يطالبونه بالنفقة ؟

وكان رضى الله عنه يضرب به المثل فى اتباع السنة واجتناب البدعة

تعبده

قال صالح بن أحمد : كان أبى لايدع أحداً يستقى له الماء لوضوئه إلاّ هو ، وكان اذا أخرجت الدلو ملأى قال : الحمد لله . قلت يا أبى ما الفائدة فى هذا ؟

فقال : يابنى أما سمعت قول الله عزوجل ؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ؟

وقال عبد الله بن أحمد بن جنبل : كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة ، وقد كان قرب من الثمانين ، وكان يقرأ كل يوم سُبعاً ، يختم فى كل سبعة أيام ، وكانت له ختمة فى كل سبع ليال سوى صلاة النهار ، وكان ساعة يصلى العشاء الأخيرة ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلى ويدعو

قال هلال بن العلاء : خرج الشافعى ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل الى مكة ، فلما أن صاروا بمكة نزلوا فى موضع ، فأما الشافعى فإنه استلقى ، ويحيى بن معين أيضاً استلقى ، وأحمد بن حنبل قائم يصلى ، فلما أصبحوا قال الشافعى : لقد عملت للمسلمين مائتى مسألة : وقيل ليحيى ابن معين ، أى شىء عملت ؟ قال : نفيت عن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى كذبة ، وقيل لأحمد بن حنبل : فأنت . قال : صليت ركعات ختمت فيها القرآن

وقال صالح بن أحمد : كانت لأبى قلنسوة قد خاطها بيده فيها قطن ، فاذا قام من الليل لبسها وكنت أسمع أبى كثيراً يتلو سورة الكهف

حكى ابراهيم بن هانئ أنه لم يرَ أحداً أقوى على الزهد والعبادة وجهد النفس من أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، كان يصوم النهار ، ويعجل الافطار ، ثم يصلى بعد العشاء الآخرة ركعات ثم ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم فيتطهر ولا يزال يصلى حتى يطلع الفجر ، ثم يوتر بركعة ، وكان هذا دأبه طول مقامه عندى ، ما رأيته فتر ليلة واحدة ، وكنت لاأقوى معه على العبادة ، وما رأيته مفطراً إلا يوما واحداً أفطر واحتجم وكان رضى الله عنه يواصل الصوم فيفطر كل ثلاثة أيام على تمر وسويق (الناعم من الدقيق)

قال عبد الله بن أحمد : رأيت أبى لما كبر وأسن اجتهد فى قراءة القرآن وكثرة الصلاة بين الظهر والعصر ، فاذا دخلت عليه انفتل من الصلاة وربما تكلم وربما سكت فاذا رأيت ذلك خرجت فيعود لصلاته ورأيته وهو مختف أكثر ذلك يقرأ القرآن

عدد حجاته — وقال عبد الله بن أحمد : حج أبى خمس حجات : ثلاث حجج ماشياً ، واثنتين راكباً ، وأنفق فى بعض حجاته عشرين درهماً

وقال صالح بن أحمد ، سمعت أبى يقول : حججت خمس حجج : منها ثلاثة راجلاً ، وأنفقت فى إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما

دعاؤه ومناجاته

قال عبد الله بن أحمد : كنت أسمع أبى كثيراً يقول فى دبر صلاته :

« اللَّهم كما صنت وجهى عن السجود لغيرك فصن وجهى عن المسألة لغيرك »

فقلت : أسمعك تكثر من هذا الدعاء فعندك فيه أثر ؟

فقال لى : نعم ، كنت أسمع وكيع بن الجراح كثيراً يقول هذا فى سجوده ، وكنت أسمع سفيان الثورى يقول هذا كثيراً فى سجوده ، وكنت أسمع منصور ابن المعتمر يقوله

ومن دعائه : اللَّهم من كان على هوى أو على رأى وهو يظن أنه على الحق ، وليس هو على الحق ، فرده الى الحق حتى لايضل من هذه الأمة أحد ؛ اللَّهم لاتشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به ، ولاتجعلنا فى رزقك حولاً لغيرك ، ولا تمنعنا خير ما عندك بشر ما عندنا ، ولا ترنا حيث نهيتنا ، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا ، أعزنا ولا تذلنا ، أعزنا بالطاعة ، ولا تذلنا بالمعاصى

جاء الى الإمام أحمد بن حنبل رجل فقال له شيئاً ، فقال له : اصبر فان النصر مع الصبر ؛ ثم قال سمعت عفان بن مسلم يقول : حدثنا همام بن ثابت عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : النصر

مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً .

ومن دعائه أن قال : اللَّهم إنا نسألك بالقدرة التى قلت للسموات والأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ اللَّهم وفقنا لمرضاتك ، اللَّهم إنا نعوذ بك من الفقر إلَّا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلَّا لك ، اللَّهم لا تكثر علينا فنطغى ، ولا تقلل علينا فننسى ، وهب لنا من رحمتك وسعة من رزقك ، ما يكون بلاغاً لنا ، وغنًى من فضلك

هيبته

قال محمد بن مسلم : كنا نهاب أن نرد أحمد بن حنبل فى الشىء ، أو نحاجه فى شىء من الأشياء ، يعنى لجلالته ولهيبة الإسلام التى رزقها

وقال أبو بكر المروزى : قال الحسن بن أحمد - والى الجسر - وكان فى جوارنا : دخلت على إسحٰق بن ابراهيم وفلان وفلان - ذكر السلاطين - ما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت إليه أكلمه فى شىء فوقعت على الرعدة حين رأيته من هيبته

وقال أبو عبد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدى فما هبت أحداً منهم ما هبت أحمد ابن حنبل ، ولقد دخلت عليه فى السجن لأسلم عليه فسألنى رجل عن مسألة فلم أجبه هيبةً له

نظافتـه وطهارته

قال عبد الملك بن عبد الحميد الميمونى : ما أعلم أنى رأيت أحـداً أنظف ولا أشد تعاهداً لنفسه فى شار به وشعر رأسه وشعر بدنه ، ولا أنقى ثوباً ، وشدة بياض من أحمد بن حنبل

سهولة أخلاقه وحسن معاشرته

حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن على البخارى قال : سمعت محمد بن ابراهيم البوسنجى قال : ما رأيت أحـداً فى عصر أحمد ممن رأيت أجمع منه ديانةً وصيانةً وملـكاً لنفسه ، وطلقاً لهـا وفقهاً وعلماً ، وأدب نفس ، وكرم خلق ، وثبـات قلب ، وكرم مجالسة ، وأبعد من التحادث ؛ قال الحسين بن المنادى : سمعت جـدى يقول : كان أحمد بن حنبل من أحيى الناس ، وأكرمهم نفساً ، وأحسنهم عشرةً وأدباً ، كثير الإطراق والغض ، معرضاً عن القبيح واللغو ، لا يسمع منه إلّا المذاكرة بالحديث ، وذكر الصالحين والزهاد فى وقار وسكون ولفظ حسن ، وإذا لقيه إنسان بشّ به ، وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ تواضعاً شديداً ، وكانوا يكرمونه ويعظمونه

قال عبـد الله بن أحمـد : كان أبى إذا دخل من المسجد إلى البيت

يضرب برجله قبل أن يدخل الدار حتى يسمع ضرب نعله لدخوله الى الدار ، وربما تنحنح ليعلم من فى الدار بدخوله

قال أبو بكر المروزى : كان أبو عبدالله لا يجهل ، وإن جهل عليه احتمل وحلم ويقول « كفى بالله حسيبا » ولم يكن بالحقود ولا العجول . ولقد وقع بين عمه وجيرانه منازعةً فكانوا يجيئون إلى أبى عبد الله فلا يظهر لهم ميله مع عمه ، ولا يغضب لعمه ويتلقاهم بما يعرفون من الكرامة

وكان كثير التواضع ، يحب الفقراء ، لم أرَ الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلسه ، مائلا اليهم ، مقصراً عن أهل الدنيا ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس

وكان لايمد قدمه فى المجلس ، ويكرم جليسه ، وكان حسن الخلق ، دائم البشر ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، وكان يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، وكان إذا أحب رجلاً أحبَّ له ما يحب لنفسه ، وكره له ما يكره لنفسه ، ولم يمنعه حبه إياه ان يأخذ على يديه ، ويكفه عن ظلم أو إثم أو مكروه إن كان منه ، وكان إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو اتباع للأمر سأل عنه وأحبَّ أن يجرى بينه وبينه معرفة ، وأحبَّ أن يعرف أحواله ، وكان رجلاً فطناً اذا كان شىء لا يرضاه اضطرب لذلك ، يغضب لله ، ولا يغضب لنفسه ، ولا

ينتصر لها ، فاذا كان فى أمر من الدين اشتد له غضبه حتى كأنه ليس هو ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان حسن الجوار يؤذى فيصبر ، ويحتمل الأذى من الجار

ولقد أخبرنى بعض جيرانه ممن بينه وبينه حائط قال : كان لى برج فيه حمام ، وكان يشرف على أبى عبد الله ، فكنت أصعد وأنا غلام أشرف عليه ، فمكث على ذلك صابراً لا ينهانى فبينا أنا يوماً إذ صعد عمى فنظر الى البرج مشرفاً على أبى عبد الله فقال :

ويحك ! أما تستحى أن تؤذى أبا عبد الله ؟ قلت له : انه لم يقل لى شيئاً

قال : فلست أبرح حتى تهب لى هذه الطيور ، فما برح حتى وهبتها له فذبحها وهدم البرج

وقال ابراهيم الحربى : كان أحمد رضى الله عنه يأتى العرس ، والأملاك ، والختان ، يجيب ويأكل

حلمه وعفوه

قال ابراهيم الحربى : كان أحمد بن حنبل كأنه رجل قد وفق للأدب ، وسدد بالحلم ، وملئ بالعلم ، أتاه رجل يوماً فقال له : عندك كتاب زندقة ؟ فسكت ساعة ثم قال له : إنما يحرز المؤمن قبره

وقال ابراهيم : كنا يوماً عنـد داود بن عمر فقال له داود : يا أبا عبد الله كيف أكلك ؟ كيف نومك ؟ فقال أحمد : ليس أنا بمحصور ، ولا روحانى ، ولم يزده على هذا

وقال ابن هانئ : كنت عند أحمد بن حنبل فقال له رجل : يا أبا عبدالله قد اغتبتك فاجعلنى فى حلٍّ . قال : أنت فى حل إن لم تعد . فقلت له : تجعله فى حل وقد اغتابك ؟

قال : ألم ترنى اشترطت عليه ؟

ماله ومعاشه

كان أحمد رضى الله عنه قد خلف له أبوه طرزاً (ثوباً) وداراً يسكنها ، وكان يكرى تلك الطرز ويتعفف بكرائها عن الناس

وقال محمد بن عبد الله : قال لى أحمد بن حنبل : أنا أزرع هذه الدار التى أسكنها وأخرج الزكاة عنها فى كل سنة

وقال أحمد بن جعفر : سأل رجل أحمد بن حنبل عن العقار الذى كان يستغله ويسكن داراً منه كيف سبيله عنده ؟ فقال له : هذا شىء قد ورثته عن أبى ، فان جاءنى أحد فصحح أنه له خرجت عنه ودفعته إليه .

تعففه عن أموال الناس

قيل : انه لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً

وقال عبد الرزاق : قدم علينا أحمد بن حنبل هاهنا فأقام سنتين إلّا قليلاً فقلت له : يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء فانتفع به فان أرضنا ليست بأرض ولا مكسب

فقال أحمد : أنا بخير ولم يقبل منه

وقيل : أنه رهن نعله عند خباز على طعام أخذ منه عند خروجه من اليمن وأكرى نفسه من ناس من الجمالين عند خروجه وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها

وقال حمدان بن سنان الواسطي : قدم علينا أحمد بن حنبل ومعه جماعة فنفدت نفقاتهم فبررتهم فأخذوا ، وجاءني أحمد بن حنبل بفروة فقال : قل لمن يبيع هذه ويجيئني بثمنها فأتسع به . قال : فأخذت صرة دراهم فمضيت بها إليه ، فردها . فقالت امرأتي هذا رجل صالح ، لعله لم يرضها فأضعفها ، فأضعفتها فلم يقبل ، وأخذ الفروة مني وخرج

قيل : أن رجلا كان رقيقاً لأبي عبد الله أحمد بن حنبل بواسط على

باب يزيد بن هارون ، فجاءه أبو عبد الله بجبة يبيعها فى شدة البرد قال : فلم أزل به حتى صرفته عن بيعها ، ثم صرت الى يزيد بن هارون فقلت : يا أبا خالد إن أحمد بن حنبل جاءنى بجبة لأبيعها له فى هذا البرد . فقال لجاريته : زنى مائة درهم وهاتيها ، فدفعها الىّ وقال : ادفعها اليه . فجئت بها اليه . فقلت : هذه بعثها أبو خالد فقال : انى لمحتاج إليها ، وانى لابن سبيل ؛ ولكن لا أحب أن أعوّد نفسى هذا ، ردها عليه ، فرددتها اليه ، فدفع إلى جبته فبعتها له

قال على بن الجهم بن بدر : كان لنا جار فأخرج لنا كتاباً فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم : هذا خط أحمد بن حنبل ، كيف كتب لك ؟

قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ففقدنا أحمد بن حنبل أياماً لم نره ثم جئنا اليه لنسأل عنه . فقال لنا أهل الدار التى هو فيها : هو فى ذلك البيت ، فجئنا اليه والباب مردود عليه واذا عليه خلقان ؟ (ثياب ممزقة) فقلنا له : يا أبا عبد الله ما خبرك لم نرك منذ أيام ؟ فقال سرقت ثيابى . فقلت له : معى دنانير فان شئت خذ قرضاً ، وإن شئت صلة فأبى أن يفعل ، فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم فأخرجت ديناراً ، فأبى أن يأخذه ، وقال : اشتر لى ثوباً واقطعه نصفين ، فأومأ إلىّ أنه يأتزر بنصف ، ويرتدى بالنصف الآخر ، وقال : جئنى

ببقيته ، ففعلت ، وجئت بورق فكتب لى ، فهذا خطه

قال موسى بن حماد البربرى ، حمل الى الحسن بن عبد العزيز الجروى ميراثه من مصر مائة ألف دينار ، فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس فى كل كيس ألف دينار ، فقال يا أبا عبد الله هذه من ميراث حلال ، خذها فاستعن بها على عائلتك . قال : لا حاجة لى فيها ، أنا فى كفاية ، فردها ولم يقبل منه شيئاً

كرمه وجوده

كان أبو عبد الله كريماً ، يعجبه السخاء والجود ، فمما يؤثر عنه :

أن أبا سعيد بن أبى حنيفة المؤدب قال لعبد الله بن أحمد بن حنبل : كنت آتى أباك فربما أعطانى الشىء وقال . أعطيتك نصف ما عندنا ، فجئت يوماً فأطلت القعود ، فخرج ومعه أربعة أرغفة فقال : يا أبا سعيد هذا نصف ما عندنا . فقلت يا أبا عبد الله هذا الأربعة الأرغفة أحب إلى من أربعة آلاف من غيرك

وقال يحيى بن هلال الوراق : جئت مرة الى أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فأخرج إلى أربعة دراهم وقال : هذه جميع ماأملك

وقال هارون المستملى . لقيت أحمد بن حنبل فقلت له : ما عندنا شىء ، فأعطانى خمسة دراهم وقال : ما عندنا غيرها

وقال أبو بكر المروزى : كان أبو عبد الله ربما واسى من قوته ، وجاءه أبو سعيد الضرير فشكا اليه . فقال له . ياأبا سعيد ماعندنا إلاَّ هذا الجذع ، فجيء بحمال يحمله . قال : فأخذت الجذع فبعته بتسعة دراهم ودانقين . وكان أبو عبد الله شديد الحياء كريم الأخلاق يعجبه السخاء

قبوله الهدية ومكافأته عليها

قال أبو بكر المروزى : رأيت أبا عبد الله وقد أهدى اليه إنسان ماء زمزم ، فأرسل اليه سويقاً وسكراً (السويق الناعم من دقيق الحنطة والشعير) وأمرنى أن أشترى لإنسان هدية بما يقرب من خمسة دراهم وقال : اذهب إلى صبيانه فانه قد وهب لسعيد شيئاً

قال صالح بن أحمد : ان رجلاً أهدى إلى أبيه فاكهةً ، فبعث اليه ثوباً أهدى جار لأبى عبد الله شيئاً من جوز وزبيب وتين فى قصعة مايساوى ثلاثة دراهم أو أقل فأعطى ابنه ديناراً وقال له : اذهب فاشتر بعشرة دراهم سكراً و بسبعة دراهم تمراً ، واذهب به اليه فى الليل ، ففعل

المحنة التى أصيب بها وسببها

لم يزل الناس بخير فى عهد الخلف الصالح يؤمنون بالله وكتبه و يعتقدون حقاً أن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق حتى ظهرت (المعتزلة)

فقالت : (بخلق القرآن) وكانت تستر ذلك ، وكان القانون محفوظاً فى زمن الرشيد ، وكان يحارب كل من ادعى بخلق القرآن

قال محمد بن نوح : سمعت هارون الرشيد أمير المؤمنين يقول : بلغنى أن بشراً المريسى زعم أن القرآن مخلوق ، عل إن أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ماقتلتها أحداً قط . فكان بشر متوارياً أيام هارون الرشيد نحواً من عشرين سنة حتى مات هارون ، فظهر ودعا إلى الضلالة وكان من المحنة ما كان

فلما توفى الرشيد كان الأمر كذلك فى زمن الأمين ، فلما ولى المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن ، وكان يتردد فى حمل الناس على ذلك ويراقب بقايا الأشياخ ، ثم قوى عزمه على ذلك فحمل الناس عليه . وكان أحمد بن حنبل من أشد الناس معارضة لذلك ، وأصيب بمحنة شديدة لامتحانه فى هذه المسألة وهى : (خلق القرآن)

قصته مع المأمون

قال العلماء بالسير : كتب المأمون وهو بالرقة الى اسحق بن ابراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد بامتحان الناس فامتحنهم

قال صالح بن احمد بن حنبل سمعت أبى يقول : لما أدخلنا على

اسحٰق بن ابراهيم للمحنة قرىء علينا كتاب المأمون ، فكان فيما قرئ علينا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فقلت : وهو السميع البصير

قال صالح : ثم امتحن القوم فوجه بمن امتنع الى الحبس فأجاب القوم جميعاً غير أربعة ، أبى (أحمد بن حنبل) ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن بن حماد سجادة ، ثم أجاب عبيد الله بن عمر ، والحسن بن حماد ، وبقى أبى ومحمد بن نوح فى الحبس فمكث اياماً فى الحبس ثم ورد الكتاب من « طرسوس » بحملهما فحملا مقيدين زميلين

كيف امتحن أحمد بن حنبل ؟

قال ميمون بن الأصبغ : كنت ببغداد فسمعت ضجةً فقلت . ماهذا ؟ فقالوا : أحمد بن حنبل يُمتحن ، فأتيت منزلى فأخذت مالاً له خطر فذهبت به الى من يدخلنى الى المجلس فأدخلونى ، فاذا بالسيوف قد جردت ، وبالرماح قد ركزت ، وبالتراس قد نصبت ، وبالسياط قد طرحت ، فألبسونى قباء أسود ومنطقة وسيفاً ، وأوقفونى حيث أسمع الكلام

فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسى ، وأتى بأحمد بن حنبل فقال له : وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ؟ ثم التفت الى جلاد فقال : خذه اليك ، فأخذه . فلما ضرب سوطاً قال (باسم الله) فلما ضرب الثانى قال : (لاحول ولا قوة إلا بالله) فلما ضرب الثالث قال : « القرآن كلام الله غير مخلوق » فلما ضرب الرابع قال : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فضربه تسعا وعشرين سوطاً ، وكانت تكة أحمد انقطعت فنزل السروال الى عانته فقلت : الساعة ينهتك . فرمى أحمد طرفه نحو السماء وحرك شفتيه فما كان بأسرع من أن ارتقى السروال ولم ينزل . قال ميمون : فدخلت اليه بعد سبعة أيام فقلت : يا أبا عبد الله رأيتك يوم ضربوك قد انحل سروالك فرفعت طرفك نحو السماء ، ورأيتك تحرك شفتيك فأى شىء قلت ؟ قال . قلت : اللهم أسألك باسمك الذى ملأت به العرش إن كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى ستراً

قال ابن أبى أسامة : يحكى لنا أن أحمد بن حنبل قيل له أيام المحنة : يا أبا عبد الله ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل ؟ فقال : كلا ، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى الى الضلالة ، وقلوبنا بعد لازمة للحق

قال صالح بن أحمد : حمل أبى ومحمد بن نوح مقيدين فصرنا معهما الى (الأنبار) فسأل أبو بكر الأحول أبى فقال . يا أبا عبد الله إن عرضت على السيف تجيب ؟ قال : لا . ثم سيرا ، قال : فسمعت أبى يقول : لما صرنا الى الرحبة ورحلنا منها - وذلك فى جوف الليل - عرض لنا رجل فقال : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : هذا ؟ فقال للجمال : على رسلك ، ثم قال : ياهذا ما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة هاهنا ؛ ثم قال : استودعك الله ومضى ، قال أبى فسألت عنه . فقيل لى : هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر فى البادية يقال له : جابر بن عامر يذكر بخير

وقال أحمد بن حنبل : ما سمعت كلمة منذ وقعت فى هذا الأمر الذى وقعت فيه أقوى من كلمة أعرابى كلمنى بها فى رحبة طوق ؛ قال لى : يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً ، وإن عشت عشت حميداً ، قال : فقوى قلبى

فكان كما قال ، لقد رفع الله عزوجل شأن أحمد بن حنبل بعد ما امتحن بهذه المحنة وعظم عند الناس وارتفع أمره جداً

قال ابن الجوزى رحمه الله : قد بلغنا عن الشافعى رضى الله عنه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام يخبره بما سيلقى أحمد من الامتحان فى خلق القرآن ، ويأمره ان يعلم أحمد بذلك

قال أبو جعفر الأنبارى : لما حمل أحمد بن حنبل الى المأمون أخبرت فعبرت الفرات فاذا هو جالس فى الخان فسلمت عليه فقال : يا أبا جعفر تعنيت ؟ فقلت : ليس هذا عناء . وقلت له . يا هذا أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك ، فو الله لئن أجبت الى خلق القرآن ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله ، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير ، ومع هذا فان الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجبهم الى شيء ، فجعل أحمد يبكى ويقول : ما شاء الله ، ما شاء الله ، ثم قال لى أحمد يا أبا جعفر أعد على ما قلت . فأعدت عليه ، فجعل يقول . ما شاء الله ، ما شاء الله

قيل : لما قدم أحمد للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له (ابو الهيثم العيار) فوقف عنده وقال : يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت ، وأنا أعرف أنى على الباطل فاحذر أن تقلق وأنت على الحق من حرارة السوط ، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص ، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ويقول: رحم الله أبا الهيثم

قال أحمد بن غسان : لما حملت مع أحمد الى المأمون تلقانا خادم وهو يبكى ومسح دموعه وهو يقول : عزّ على يا أبا عبد الله ما نزل بك . قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ،

ثم قال : وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقولا : إن القرآن مخلوق فجثا أحمد على ركبتيه ، ولحظ السماء بعينيه ودعا ، فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة ، فأقبل علينا خادمه وهو يقول : صدقت يا أحمد (القرآن كلام الله غير مخلوق) لقد مات والله أمير المؤمنين ، وكان قد لقيه قبل أن يدخل المدينة رجل من العباد فقال : احذر يا أحمد أن يكون قدومك شؤماً على المسلمين ، فان الله تعالى قد رضى بك لهم وافداً والناس إنما ينظرون الى ما تقول فيقولون به . فقال أحمد : حسبنا الله ونعم الوكيل

رفع المحنة عنه

وقال ابن عياض رضى الله عنه . حبس الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثمانية وعشرين شهراً وكان فيها يضرب بالسياط الى أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه

ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم ، وتولى بعده الواثق ، فاشتد الأمر على أحمد وقال :

لا أسكن فى بلد الحد فيه ، فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل ، فرفع المحنة عن أحمد وأمر باحضاره

وإكرامه وإعزازه وكتب الى الآفاق برفع المحنة عنه وإظهار السنة ، وإن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة . وكانوا أشر الطوائف المبتدعة

وقيل : لما دخل أحمد على المتوكل قال المتوكل لأمه : يا أماه قد أنارت الدار بهذا الرجل ، ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال : سلمت منهم عمرى كله حتى إذا دنا أجلى بليت بهم و بدنياهم ثم نزعها لماخرج

مرضه

قال أبو بكر المروزى . مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى واربعين ومائتين ، ومرض تسعة أيام ، فلما اشتدت علته وسمع الناس بها أقبلوا لعيادته فكثروا ولزموا الباب الليل والنهار يبيتون ، وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل السلطان ببابه و بباب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار

وكان أبو عبد الله ربما أذن للناس فيدخلون أفواجاً أفواجاً يسلمون عليه فيرد عليهم بيده

فلما جاءت الرابطة ، منع الناس من ذلك ، وأغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشوارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم و بين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل عليه ربما أدخل من بعض الدور ،

وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الباب كى يتعاهدوه بالغداة والعشى

ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر اليه وقال . هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده

وفاته رضي الله عنه

قد اشتدت به العلة يوم الخميس ، فلما كان يوم الجمعة اجتمع الناس حتى ملأوا السكك والشوارع ، فلما كان صدر النهار (قبض رحمه الله) فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وقعد الناس ، وبعد صلاة الجمعة شيعت جنازته (فكانت وفاته ببغداد فى يوم الجمعة فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وعمره سبع وسبعون سنة)

ودفن فى مقبرة (باب حرب) وحضر جنازته من الخلق مالا يحصى وازحم الناس على قبره بعد دفنه

قال أبو الحسن التميمى عن أبيه عن جده . أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل قال : فمكثت طول الاسبوع رجاء أن أصل الى قبره فلم أصل من شدة ازدحام الناس عليه ، فلما كان بعد أسبوع وصلت الى القبر. وكان لموته تأثير عظيم عند جميع الناس من مسلمين ويهود ونصارى

ومجوس ، وقيل . أسلم يوم وفاته عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس، وفى رواية أخرى عشرة آلاف

تركته

مات رضى الله عنه ولم يخلف إلا ست قطع أو سبع قطع كانت فى خرقته (خرقة كان يمسح بها وجهه قدر دانقين)

تأبينه ورثاؤه

فأبنه ورثاه كثير من الشعراء ، ولنذكر بعض أبيات من قصائد بعضهم

من قصيدة للهيضم بن أحمد:

يا ناعى العلم بيوم أحمدا نعيت بحراً كان يجرى مزبدا
ومكرمات وتقى وسؤددا صلابة فى دينه تجردا
إذا غدا قلت الربيع قد غدا يا أحمد الخير الذى تحمدا
أشبهت سفيان الذى تعبدا ومسعراً دانيته ومعضدا
أشبهتهم قناعة ومهتدى وعفة نبت بها ومقتدى
وكنت فى هذا وذاك أوحدا سميت فى هذا وذاك المفردا

ورثاه أبو مزاحم الخاقانى فقال :

جزى الله ابن حنبل التقيا عن الإسلام إحسانا هنيا

فقد أعطاه إذ صبر احتسابا على الأسواط إيماناً قويا
هو الورع الذى امتحنوه قدما فألفوه عليماً لاغبيا
وجاء بصادق الآثار حتى أقام بذلك الدين الرضيا
حبا المتوكل السنى بدءا وعودا أحمد المال السنيا
فآثر أحمد الاقلال زهداً على الدنيا وكان بها سخيا
فأحمد جامع ورعا وزهداً وعلماً نافعاً حبراً تقيا
وأحمد كان للفتوى إماماً رضى للمسلمين معاً وفيا
وأحمد محنة للناس طرا نميز به المعوج والسويا

ورثاه جعفر بن أحمد السراج فقال .

سقى الله قبراً حل فيه ابن حنبل من الغيث وسميًّا على إثره ولى
على أن دمعى فيه رىٌّ عظامه إذا فاض مالم يبل منها وما بلى
فلله رب الناس مذهب أحمد فان عليه ماحييت معولى
دعوه الى (خلق القران) كادعوا سواه فلم يسمع ولم يتأول
ولا رده ضرب السياط وسجنه عن السنة الغراء والمذهب الجلى
ولما يزدهم والسياط تنوشه فشلت يمين الضارب المتبتل
على قوله القرآن وليشهد الورى كلامك يارب الورى كيف ماتلى
فمن مبلغ أصحابه أننى به أفاخر أهل العلم فى كل محفل
وألقى به الزهاد كل مطلق من الخوف دنياه طلاق التبتل

مناقبه إن لم تكن عالماً بها فكشف طروس القوم عنهن واسأل
لقد عاش فى الناس حميداً موفقاً وصار الى الأخرى الى خير منزل

وإنى لراج أن يكون شفيع من تولاه من شيخ ومن متكهل
ومن حدث قد نور الله قلبه اذا سألوا عن أصله قال حنبلى

زوجاته

تزوج رضى الله عنه بعد سن الأربعين ، وأول زوجاته (عائشة) بنت الفضل أم صالح من العرب ولم يولد له منها غير صالح ثم توفيت

قال المروزى . سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهى فى كلمة

والزوجة الثانية (ريحانة) أم عبد الله

قال زهير : لما ماتت عائشة أم صالح تزوج جدى بعدها امرأة من العرب يقال لها : (ريحانة) فولد له منها عمى عبد الله ولم يولد له منها غيره

سراريه

كان رضى الله عنه قد اشترى جارية اسمها (حُسن)

قال زهير بن صالح . لما توفيت أم عبد الله اشترى (حُسن)

فولدت منه أم على (واسمها زينب) ثم ولدت الحسن والحسين (توأمان) وماتا بالقرب من ولادتهما ، ثم ولدت الحسن ومحمداً فعاشا حتى صارا من السن الى نحو الأربعين سنة ، ثم ولدت بعدهما سعيدا

واشترى جارية ثانية بثمن يسير سماها (ريحانة) استنانا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فعلى هذا يكون قد اشترى جاريتين إحداهما فى حياة زوجته والله أعلم

أولاده

قد ذكرنا أن (صالحا) من أم (وعبد الله) من أم ، وان حُسنا الجارية ولدت له (الحسن والحسين) ثم ولدت ثالثا يسمى (بالحسن) أيضاً ثم ولدت (محمداً) وولدت (سعيداً وزينب) وتكنى أم على

ذكر نبذ من أقواله رضى الله عنه

كان رضى الله عنه يقول : يؤكل الطعام بثلاث : مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالإيثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة

وكان يقول . إن لكل شىء كرما ، وكرم القلب الرضا عن الله عزوجل

وكان يقول : إذا مات أصدقاء الرجل ذل

وكتب الى سعيد بن يعقوب : بسم الله الرحمن الرحيم - من أحمد ابن محمد الى يعقوب ، أما بعد ، فان الدنيا داء ، والسلطان داء ، والعالم طبيب ، فاذا رأيت الطبيب يجر الداء الى نفسه فاحذره ، والسلام عليك

نبذ من شعره

يروى أنه كان ينشد الشعر ، فمما يؤثر عنه أنه قال :

إذا ماخلوت الدهر يوماً فلاتقل ... خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ... ولا أن ماتخفى عليه يغيب
لهونا عن الأعمال حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر مامضى ... ويأذن فى توباتنا فنتوب
إذا مامضى القرن الذى أنت فيهم ... وخلفت فى قرن فأنت غريب

وكان يقول :

تفنى اللذاذه ممّن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لاخير فى لذة من بعدها النار

وقد أنشد فى على بن المدينى الذى باع دينه بدنياه فقال :

ياابن المدينى الذى عرضت له ... دنيا فجاء بدينه ليبالها
ماذا دعاك الى انتحال مقالة ... قد كنت تزعم كافراً من قالها
أمر بدا لك رشده فتبعته ... أم زهرة الدنيا أردت نوالها ؟

ولقد عهدتك مرةً متشددا صعب المقالة للتى تدعى لها
ان المرزأ من يصاب بدينه لامن يرزأ ناقة وفصالها

المذهب الحنبلى

المذهب الحنبلى منسوب الى الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى بها سنة ٢٤١ هـ

ومذهبه رابع مذاهب أهل السنة المعمول بها ، وقد ظهر أولا فى بغداد ، ثم انتشر فى كثير من بلاد الشام ، ولكنه ضعف الآن ، ولا يزال يتبعه فى أنحاء الشام بقسميها الشمالى والجنوبى بعض قرى لا تزاحمه فيها مذاهب أخرى

وقد عرف مذهب الحنابلة بمصر فى القرن السابع للهجرة مع أنه ظهر بالعراق فى القرن الرابع

وأول إمام من الحنابلة حل بمصر الحافظ عبد الغنى المقدسى (صاحب العمدة) كما ذكره فى رسالته المرحوم أحمد باشا تيمور

وليس للمذهب الحنبلى غلبة على قطر من الأقطار الاسلامية اللهم إلا على البلاد النجدية الآن

وللناس فيما يعتنقون مذاهب . وقد أنشد بعضهم فى قلة عدد المتبعين للمذهب الحنبلى فقال :

يقولون لى قد قل مذهب أحمد
وكل قليل فى الأنام ضئيل
فقلت لهم : مهلاً غلطتم بزعمكم
ألم تعلموا أن الكرام قليل ؟

الخاتمة

ولنختم المذاهب الأربعة بخلاصة بمبلغ انتشارها الآن عند جمهور المسلمين فنقول :

المذهب المالكى : وهو الغالب على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس لاتجد فيها من مقلدى غيره إلا الحنفية لقلته وهم من بقايا الأسر التركية وأكثرهم فى تونس ، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها . ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفى مشاركاً للقضاء المالكى ، وأما مسألة أعمالها فقضاتها مالكية . وفى الحاضرة كبيرا المفتين وهما : الحنفى ، ويلقب بشيخ الإسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع

والمالكى وله المقام الثانى . وقد تساهلوا الآن فى تلقيبه بشيخ الإسلام أيضاً

ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفى فإن من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسى (جامع الزيتونة) حنفية ، والنصف مالكية ، وإنما امتاز الحنفى بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة ويغلب فى مصر الشافعى والمالكى، الأول فى الريف، والثانى فى الصعيد والسودان . ويكثر الحنفى ، وهو مذهب الدولة والمتبع فى الفتوى ، والقضاء، والحنبلى قليل بل نادر .

ويغلب الحنفى فى بلاد الشام يكاد يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية ، والربع حنابلة .

ويغلب الشافعى على فلسطين ، ويليه الحنبلى فالحنفى فالمالكى .

ويغلب الحنفى على العراق، ويليه الشافعى وبه مالكية وحنابلة، والغالب على الأتراك العثمانيين والألبان وسكان بلاد البلقان الحنفى ، وعلى بلاد الأكراد الشافعى، وهو الغالب على بلاد أرمينية لأن مسلميها من أصل تركمانى أو كردى .

والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية ، وقليل منهم حنفية . والغالب على بلاد الأفغان الحنفى ، ويقل الشافعى والحنبلى . وعلى تركستان الغربية التى منها بخارى وخبوة الحنفى وأما تركستان الشرقية المسماة أيضاً بالصينية فكان

الغالب عليهـا الشافعى ، ثم تغلب الحنفى بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى .

والغالب على بلاد القوقاز وما والاها الحنفى وفيهم شافعية ، والغالب فى الهند الحنفى ويقدر أتباعه بنحو ٤٨ ألف ألف ، وأتباع الشافعى بنحو ألف ألف ويكثر بها أهل الحديث والآثار وفيها مذاهب أخرى مما لم نتعرض لذكره .

ومسلمو جزيرة (سرنديب) (سيلان) وجزائر الفلبيين والجاوه وما جاورها من الجزائر شافعية ، وكذلك مسلمو (سيام) ولكن بها حنفية بقلة ، وهم النازحون إليها من الهنود ، ومسلمو الهند الصينية شافعية وكذلك مسلمو استرالية) .

وفى البرازيل من أمريكا نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية .

وفى البلاد الأمريكية الأخرى مسلمون مختلفو المذاهب وتبلغ عدة الجميع نحو ١٤٠ ألفا .

والغالب على الحجاز الشافعى والحنبلى ، وفيه حنفية ومالكية فى المدن . وأهل نجد حنابلة ، وأهل عير شافعية ، والسنيون فى اليمن وعدن وحضرموت شافعية أيضاً ، وقد يوجد بنواحى عدن حنفية .

والغالب على (عُمان) مذهب الأباضية ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية .

ويغلب على قَطَر والبحرين المالكى وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد .

والغالب على أهل السنة فى الاحساء الحنبلى والمالكى ، والغالب على الكويت المالكى .. والله أعلم .

من رسالة

المرحوم أحمد باشا تيمور

٥ - أبو الحارث الإمام الليث بن سعد

ابن عبد الرحمن رضي الله عنه

الإمام الليث بن سعد هو الإمام الكبير القدر ، المعظم الشأن فى الدين والعلم والكرم .

نسبه وكنيته - الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفقيه يكنى أبا الحارث ، يقال :

إنه مولى بنى فهم ، ثم لآل خالد بن ناشر بن طاعن الفهمى ، ثم من بنى كنانة بن عمرو بن القيس وكان اسمه فى ديوان مصر فى موالى بنى كنانة من فهم ، وأهل بيته يقولون : نحن من الفرس من أهل أصبهان . وقال يعقوب ابن سفيان : كان الليث يقول : أصلنا من أصبهان

وقال أبو أحمد الحاكم : يكنى أبو الحارث الليث بن سعد مولى بنى فهم من قيس بن رفاعة

مولده - قال البخارى فى تاريخه : قال يحيى بن بكير . ولد الليث لأربع عشرة خلت من شعبان سنة أربع وتسعين . وكذا قال ابن حبان وزاد يوم الجمعة . وكان مولده (بقرقشندة) على نحو أربعة فراسخ من الفسطاط .

طلبه للعلم وتقدمه فيه

قال أبو صالح كاتب الليث : خرجت مع الليث فى سنة إحدى وستين فشهدنا الأضحى ببغداد ، فقال لى الليث : سل عن منزل (هشيم الواسطى) فقل له : أخوك الليث المصرى يقرأ عليك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئاً من كتبك ؟ فذهبت إليه ففعل ، فكتبت لليث منها وسمعتها من هشيم مع الليث .

وروى غير واحد عن الليث قال : دخلت على نافع مولى ابن عمر فقال : من أين ؟ قلت من أهل مصر . قال : ممن ؟ قلت : من قيس . قال : ابن كم ؟ قلت : ابن عشرين . قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين .

قال الحسن بن سعيد : خرجنا مع الليث بن سعد إلى الإسكندرية ومعه ثلاث سفائن : سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه ، فقلنا : يا سيدى إنّا نسمع منك أحاديث ليست فى كتبك . فقال : أو كلما فى صدرى فى كتبى ؟ لو وضعت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعته هذه السفينة .

قال عمرو بن خالد لليث : بلغنى أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهرى . قال : نعم للعلم ، فأما لغير ذلك فلا ، والله ما فعلته بأحد قط .

مناقبه

مروءته وكرم أخلاقه وكرمه

قال أبو صالح كاتب الليث : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا : ليس يشبه هـذا صاحبنا . قال : فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه فقال لنا : مَن صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سـعد . قال : تشبهونى برجل كتبت إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثيـاب صبياننا فانفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا و بعنا الفضل بألف دينار .

قال عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سـنة فـكان لا يتغدى وحده ، ولا يتعشى وحده إلاَّ مع الناس .

قال منصور بن عمار : أتيت الليث فأعطانى ألف دينار وقال : صن بهذه الحـكمة التى آتاك الله تعالى

وقال أيضاً : كنت عند الليث جالساً فأتته امرأة ومعها قدح فقالت له : يا أبا الحارث إن زوجى يشتكى وقد نعت (وصف) لنا العسل .

فقال : اذهبى إلى الوكيـل فقولى له : يعطيك (مطراً) فجاء الوكيل

يسارّه بشيء . فقال له الليث : اذهب فاعطها مطراً ، أنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا . قال : (والمطر عشرون ومائة رطل ، أو نحو مائة رطل مصرى تقريباً) .

وقال يونس بن عبد الأعلى : كان دخل الليث فى كل سنة مائة ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قط .

وقال محمد بن عبد الحكم : انه كان يدخل لليث فى كل سنة أكثر من ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قط ؛ لأن الحول كان لا ينقضى عنه حتى ينفقها ويتصدق بها .

وقال ابن يونس : كان له قرية بمصر يقال لها (العرفا) يحمل إليه من خراجها فيجعل ذلك صرراً ويجلس على باب داره ويعطى صرة لهذا وصرة لهذا حتى لا يدع إلاّ اليسير من ذلك .

وقال أبو حاتم بن حبان : كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله فى جملة عياله ما دام يتردد إليه ؛ ثم إن أراد الخروج زوّده بالبُلغة إلى وطنه (أى باليسير من الزاد) .

وحكى ابن النحوى من مناقبه قال : بلغنى عن يونس بن عبد الأعلى الصدفى أنه قال : صودر برجل من أهل مصر فى زمن الليث بن سعد ونودى على داره فبلغت أربعة آلاف درهم ، فاشتراها الإمام الليث بن سعد وبعثنى آخذ المفاتيح فوجدت فيها أيتاماً وعائلة فقالوا : بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر خربة نذهب إليها .

قال : فتركتهم وجئت إليه وأخبرته بالقصة فبكى وقال : عد إليهم وقل لهم : الدار لكم ، ولكم ما يقوم بكم فى كل يوم .

وقال الترمذى : سمعت قتيبة يقول : كان الليث فى كل صلاة يتصدق على ثلثمائة مسكين .

وقال أشهب : كان الليث لا يرد سائلا ، وكان يطعم الناس الهرائس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وفى الصيف بشىء من اللوز والسكر .

قال ابن وهب : كان الليث يصل مالكاً كل سنة بمائة دينار ، وكتب إليه مرة : إن على ديناً فبعث إليه بخمسمائة دينار . وقيل : إن الإمام مالكاً أهدى إليه صنية فيها تمر فأهداها مملوءة ذهباً .

زهده وقناعته

وقال يحيى بن بكير : رأيت الفقراء يزدحمون على باب الليث بن سعد وهو يتصدق عليهم حتى لم يبق أحد منهم حتى مشى وأنا معه على سبعين بيتاً من الأرامل ، ثم انصرف .

فمشيت معه فبعث غلامه بدرهم فاشترى زيتاً وخبزاً ، ثم جئت إلى بابه فرأيت أربعين ضيفاً جاء إليهم باللحم والحلوى ؛ فلما أصبح قلت لغلامه : بالله عليك لمن الخبز والزيت ؟ فقال : يطعم ضيفانه اللحم والحلوى وما رأيته يأكل إلاَّ خبزاً وزيتاً .

صدقه

قال يحيى بن بكير عن ابن وهب : دخلت على مالك فسألنى عن الليث فقال : كيف هو ؟

فقلت : بخير . قال : كيف صدقه ؟ قلت : يا أبا عبد الله إنه لصدوق .

قال : أما أنه إن فعل متعه الله بسمعه و بصره .

ثناء الأئمة عليه

قال أحمد بن حنبل : الليث كثير العلم صحيح الحديث .

وقال يحيى بن بكير : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث ، وما رأيت أكمل منه ، كان فقيه البلد ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر ، والمذاكرة ، إلى أن عد خمس عشرة خصلة ما رأيت مثله . وقال أيضاً : الليث أفقه من مالك ، ولكن كانت الحظوة لمالك :

ولما أتى الشافعى مصر أتى قبر الليث بن سعد وقال : ما فاتنى شىء كان أشد على من ابن أبى ذئب والليث بن سعد .

وقال الشافعى : الليث أنفع للأثر من مالك .

وروى أن الإمام الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال : لله دَرك

يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم .

وقال أيضاً : الليث أفقه من مالك إلاَّ أن أصحابه لم يقوموا به ، وفى رواية عن الشافعى ضيَّعه قومه ، وفى أخرى ضيَّعه أصحابه ، أى لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك وغيره .

وقال ابن حبان : كان الليث من سادات أهل زمانه فقهاً وعلماً وحفظاً وفضلاً وكرماً .

وقال النووى فى تهذيبه : أجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته فى الفقه والحديث .

وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضللنا . وقال أيضاً : والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث .

عظم قدره عند الخلفاء

قالوا : إن الأمراء بمصر لا يقطعون أمراً دون الليث وكانوا يحترمونه ويعظمونه .

وقال أشهب بن عبد العزيز : كان لليث أربع مجالس كل يوم (١) مجلس لحوائج السلطان (٢) ومجلس لأصحاب الحديث (٣) ومجلس

لأصحاب المسائل (٤) ومجلس لحوائج الناس ، لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أو كبرت .

قصته مع هارون الرشيد وعفته

قال (لولو) خادم الرشيد : جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام . فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم ، فجمع الفقهاء فاختلفوا ، ثم كتب إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه . فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا ؛ وبقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد ؛ قال : فسأله ، قال : إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم . فقال : يدنينى أمير المؤمنين ـ فأدناه . فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم ، فأمر بإحضار مصحف ، فأحضر . فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ .

قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله ، قال : فاشتدّ ذلك على هارون ؛ فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك ، فقال : والله حتى فرغ اليمين ، قال : قل إنى أخاف مقام ربى ، فقال ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين : (فهى جنتان وليست بجنة واحدة) .

قال : فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال له الرشيد : أحسنت يا أبا الحارث وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له باقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرماً .

وقيل : ان الرشيد أمر له بخمسة آلاف دينار فردها وقال : ادفعها لمن هو أحوج إليها منى

قال عبد الله بن صالح : سمعت الليث بن سعد يقول : لما قدمت على هارون الرشيد قال لى : ياليث ما صلاح بلدكم ؟ قلت : ياأمير المؤمنين صلاح بلدنا إجراء النيل ، وصلاح أميرها ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت العين . قال : صدقت يا أبا الحارث

وفاته

مات الليث بن سعد سنة خمس وسبعين ومائة فى يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من شعبان

وقال ابن حبان : مات فى النصف من شعبان

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : جالست الليث بن سعد وشهدت جنازته مع أبى فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها ، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن ويعزى بعضهم بعضاً ، فقلت لأبى : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة . فقال لى : يابنى ، الليث بن سعد كان

عالماً كريماً ، حسن العقل ، كثير الأفضال ، يابنى لا ترى مثله أبداً

وقد عاش إحدى وثمانين سنة، ودفن فى مقابر الصدفى بالقرافة الصغرى

ولده

ولده (شعيب) كان من أجل العلماء ومعدود من المحدثين ، وكان كريماً كوالده

قال ابن أبى الدنيا : حج شعيب بن الليث سنة من السنين فتصدق بمال عظيم فمرّ عليه رجل من العلماء فسأل عنه . فقيل له : هـذا العالم ابن العالم ، الكريم ابن الكريم

ولما فقد أباه بعد موته رحل إلى الشام ودخل دمشق فجاءه رجل وقال : أنا عبد أبيك ومعى لأبيك تجارة بألفى دينار ، وأنا الآن فى الرق فخذ مال أبيك واعتقنى إن شئت ، وإلاّ فبعنى فقال : أنت حرٌّ ، والمال الذى بيدك هبة منى إليك

قال الخطابى : فلا أدرى أيهما أفضل ؟ العبد فى إقراره بالمال ، أم السيد حين أعتقه وأعطاه المال ؟

وحكى عنه أيضاً : أنه جاءه إنسان فقال له : ياسيدى كان والدك يعطينى فى كل سنة مائة دينار

فأعطاه مائة دينار إلا ديناراً ، فقال : ياسيدى أعجزت عن دينار ؟ فقال : لا ؛ ولكنى فعلت ذلك تأدباً مع والدى

وكان والده رضى الله عنه قد أوصاه بحفظ العلم ودرس الحديث

وقد مات بعد أبيه ودفن بجواره ، وقبره الآن أمام قبر أبيه فى المكان الذى يلى المصطبة المقابلة لباب المشهد ، وعلى مكانه باب مغلق وليس فى المكان قبر سواه

ومعه فى القبر محمد بن هارون الصدفى وهو أخوه لأمه

٦ - الامام سفيان بن سعيد الثورى

ولد سنة ٩٧ هـ - وتوفى سنة ١٥٥ هـ

نسبه — أبو عبد الله سفيان بن سعيد . بن مسروق . بن حبيب . ابن رافع . بن عبد الله . بن وهب . بن أُبيّ . بن عبد الله . بن منقذ ابن نصر . بن الحكم . بن الحارث . بن ثعلبة . بن ملكان . بن ثور . ابن عبد مناة . بن أد . بن طابخة . بن إلياس . بن مضر . بن نزار . ابن معد . بن عدنان الثورى الكوفى

مولده — ولد فى سنة خمس ، وقيل ست ، وقيل سبع وتسعين للهجرة بالكوفة .

بعض مناقبه — كان رضى الله عنه إماماً فى الحديث وغيره من العلوم ، وكانوا يسمونه : أمير المؤمنين فى الحديث ، وأجمع الناس على دينه ، وورعه ، وزهده ، وثقته

وهو أحد الأئمة المجتهدين . ويقال : إن الشيخ أبا القاسم الجنيد كان على مذهبه

قال سفيان بن عيينة : ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثورى

وقال مالك : كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثورى .

وقال أبو إسحٰق الفزارى : لو خيرت لهـذه الأمة لما اخترت لهـا إلا سفيان الثورى .

وقال الخطيب : كان سفيان الثورى إماماً من أئمة المسلمين ، وعلماً من أعلام الدين ، مجمعاً على إمامته بحيث يستغنى عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد . وكان يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل حتى يضربه الجوع شغلاً عنه بما هو فيه من العبادة . وكان لا يجلس فى صدر مجلس قط ؛ إنما كان يقعد فى جنب حائط يجمع بين كتبه .

سمع سفيان الثورى الحديث من أبى إسحٰق السَّبِيْعى ، والأعمش ومن فى طبقتهما ، وسمع منه الأوزاعى وابن جريج ، ومحمد بن إسحٰق ، ومالك ، وتلك الطبقة .

وحكى عن أبى صالح شعيب بن حرب المدائنى ، وكان أحد السادة الأئمة الأكابر فى الحفظ والدين أنه قال : إننى لأحسب يُجاء بسفيان الثورى يوم القيامة حجةً من الله على الخلق يقال لهم : لم تدركوا نبيكم عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلقد رأيتم سفيان الثورى ألا اقتديتم به ؟

وكان رضى الله عنه جريئاً على الخلفاء والأمراء لا يخشى فى الحق لومة لائم.

سفيان الثورى والمهدى

ذكر المسعودى فى مروج الذهب ما مثاله : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى وأتى سفيان الثورى ، فلما دخل عليه سلّم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه ، يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق وقال له :

يا سفيان تفرّ منا هٰهنا وهٰهنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟

قال سفيان : إن تحكم فىّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل.

فقال الربيع : يا أمير المومنين أهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن فى أن أضرب عنقه.

فقال له المهدى : اسكت ، ويلك ! وهل يريد هذا وأمثاله إلاّ أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه فى حكم.

امتناعه عن قضاء الكوفة

فكتب عهده ، ودفعه إليه ، فأخذه وخرج ، فرمى به فى دجلة وهرب ، فطُلب فى كل بلد، فلم يوجد ، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعى قال الشاعر :

« تحرز سفيان وفرّ بدينه وأمسى شريك مرصداً للدراهم »

وكان يقول للمهدى فى وجهه : احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين إليك من الفقراء ، فإن هلاكك على أيديهم ، يأكلون طعامك ، ويأخذون دراهمك ، ويغشونك ، ويمدحونك بما ليس فيك .

سفيان الثورى وأبو جعفر المنصور

بعث أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين الخشابين أمامه حين خرج إلى مكة وقال : إذا رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه . فوصلوا إلى مكة ونصبوا الخشب وجاءوا إليه ، فوجدوه نائماً رأسه فى حجر الفضيل ابن عياض ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة فقالوا : يا أبا عبد الله اتق الله ، ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدم إلى أستار الكعبة فأخذها وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل مكة .

وفاته

خرج من الكوفة إلى البصرة سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة وتوفى رضى الله عنه بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، متوارياً من السلطان ، ودفن عشاءً رحمه الله تعالى ، ولم يعقب ، وقوّموا ثياب الثورى التى عليه حتى النعل فبلغ درهما وأربعة دوانق ، وهذا دليل كاف على زهده وورعه .

نبذ من أقواله وحكمه

كان رضى الله عنه يقول : لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة . من تصدر للعلم قبل أن يحتاج إليه أورثه ذلك ذلاً . لو علمت من الناس أنهم يريدون بالعلم وجه الله تعالى لأتيت إلى بيوتهم فعلمتهم ؛ ولكن إنما يريدون به مجاراة الناس ، وأن يقولوا حدثنا سفيان ، وكانوا إذا قالوا حدثنا يقول : ما أراكم أهلاً للحديث ، ولا أرى نفسى أهلاً لأن أحدث ، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : افتضحوا فاصطلحوا . أحب لطالب العلم أن يكون فى كفاية فان الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا احتاج وذل . إنما يطلب العلم ليتقى به الله تعالى فمن ثم فضل

على غيره ، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء . أول العلم طلبه ، ثم العمل به ، ثم الصمت ، ثم نظره ، ولو أن أهل العلم أخلصوا فيه ما كان عمل أفضل منه . من رأى نفسه على أخيه بالعلم والعمل حبط أجر عمله وعلمه ، ولعل أخاه يكون أورع منه على حرم الله عز وجل . إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلطان فاعلموا أنه لص ، وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه مُراء . إذا فسد العلماء فمن يصلحهم ؟ وفسادهم بميلهم إلى الدنيا ؛ وإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه فكيف يداوى غيره ؟

وكان يقول رضى الله عنه : قد ظهر من الناس الآن أمور يشتهى الرجل أن يموت قبلها ، وما كنا نظن أننا نعيش لها . ما كنت أظن أن أعيش إلى زمان إذا ذكرت الأحياء ماتت القلوب ، وإذا ذكرت الأموات حَيَت القلوب . المال فى زماننا هذا سلاح للمؤمن . الحلال فى زماننا لا يحتمل السرف . لا بد لمن يحتاج إلى الناس أن يبذل لهم دينه فيما يحتاج ، فيمسك على ما بيده من المال . لا تجب أخاك إلى طعام إلا إذا كنت ترى أن قلبك يصلح على طعامه .

وكان يقول : إذا بلغك عن قرية أن بها رخصاً فارحل إليها فإنه أسلم لقلبك ودينك وأقل لهمك . لا تصحب فى السفر من يتكرم عليك ، فإنك إن ساويته فى النفقة أضرّ بك ، وإن تفضل عليك استعبدك .

الزهد فى الدنيا هو قصر الأمل ، ليس بأكل الخشن ، ولا بلبس الغليظ والعبادة . ازهد فى الدنيا ونم لا لك ولا عليك . إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا ، وإن الرجل ليكون فقيراً وهو راغب فيها . أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام .

وكان يرد ما يعطاه ويقول : لو أنى أعلم فيهم أنهم لا يفتخرون علىّ بعطائهم لأخذته منهم ، ولذلك كان يجوع ولا يقترض ويقول : إنهم لا يكتمون ذلك ؛ بل يروح أحدهم ويقول : جاءنى سفيان الثورى البارحة واقترض منى كذا .

وسُئل عن رجل يكتسب لعياله ولو صلى فى الجماعة لفاته القيام عليهم ماذا يصنع ؟

قال : يكتسب لهم قوتهم ويصلى وحده .

وكان يقول : إذا سمعتم ببدعة فلا تحكموها لأصحابكم ، ولا تلقوها فى قلوبكم . قد قلّ أهل السنة والجماعة فى زماننا هذا .

ونصح يوماً إنساناً رآه فى خدمة المولاة فقال : فما أصنع بعيالى ؟ فقال : ألا تسمعون لهذا ؟ يقول : إنه إذا عصى الله رزق عياله ، وإذا أطاعه ضيعهم ؛ ثم قال : لا تقتدوا قط بصاحب عيالٍ فإنه قلّ صاحب عيال أن يسلم من التخليط وعذره دائماً فى أكل الشبهات والحرام قوله عيالى . لا طاعة للوالدين فى الشبهات .

قيل له : ألّا تدخل على الولاة فتتحفظ ، وتعظهم ، وتنهاهم ؟ فقال : تأمرونى أن أسبح فى بحر ولا تبتل قدماى ، إنى أخاف أن يترحبوا بى فأميل إليهم فيحبط عملى .

شكى إليه رجل مصيبته فقال : قم عنى ، ما وجدت أحداً أهوَن فى عينيك منى تشكو الله تعالى عنده ، اصبر واذكر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلّٰهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

وكان يقول : إذا أرضيت ربك أسخطت الناس ، وإذا أسخطتهم فتهيأ للسهام ، والتهيؤ للسهام أحب من أن يذهب دين الرجل .

* * *

وكتب إلى عابد من العباد : اعلم يا أخى أنك فى زمان كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه ومعهم من العلم ما ليس معنا ، ولهم من القدم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم ، وقلة الصبر ، وقلة الأعوان على الخير ، وفساد فى الزمان ؟

فعليك بالأمر الأول والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فان هذا زمان خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا

التقوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذلك ، فالنجاة الآن فى تركهم فيما نرى .

وإياك يا أخى والأمراء أن تدنو منهم ، أو تخالطهم فى شىء من الأشياء ويقال لك : تشفع أو تدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة ، فان ذلك من خديعة إبليس ؛ وإنما اتخذ ذلك القراء سلماً للقرب منهم ، واصطياداً للدنيا بذلك .

٧ - الإمام أبى عمرو الأوزاعى

خلاصة ما كتبه الأستاذ العلامة شكيب أرسلان بشأنه

فى كتابه « محاسن المساعى » الذى ظهر حديثاً وطبع بمطبعة الحلبى

نسبه ومولده - هو أبو عَمرو عبد الرحمن بن عَمرو بن يحمد الأوزاعى نسبة إلى (أوزاع) وهى قرية بالشام ، ولد فى (بعلبك) سنة ثمان وثمانين وقيل : سنة ثلاث وتسعين .

نشأته - نشأ بالبقاع يتيماً فى حجر أمه ، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد إلى أن بلغته ، حيث رأته ، وتأدب بنفسه ، فلم يكن فى أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أورع ، ولا أعلم ، ولا أنصح ، ولا أوقر ، ولا أحلم ، ولا أكثر صمتاً ، ما تكلم بكلمة إلّا كان المتعين على من يسمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها .

صفاته الخلقية - كان فوق الربعة ، خفيف اللحية ، به سمرة ، وكان يخضب بالحناء .

علمه ومكانته - كان رضى الله عنه عالماً ، ساد أهل زمانه وسائر البلاد فى الفقه والحديث والمغازى وغير ذلك من علوم الإسلام ، وقد أدرك خلقاً من

التابعين وغيرهم ، وحدّث عنه جماعات من سادات المسلمين كمالك بن أنس ، والثورى ، والزهرى ، وهو من شيوخه .

وكان رضى الله عنه من الطبقة الأولى فى مجتهدى الإسلام ، لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة : أبى حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد ابن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم جميعاً .

وكان رحمه الله إمام أهل الشام بإجماع المؤرخين ، وتبعاً لانتشار مذهبه فى الشام انتشر فى الأندلس ، وأول من أدخله فيها صعصعة ابن سلام لما انتقل إليها .

ويقال : إن أهل الشام لبثوا يعملون بمذهب الأوزاعى فى الفقه نحواً من مائتين وعشرين سنة إلى أن غلب عليهم مذهب الشافعى ؛ وإن أهل الأندلس لبثوا يعملون به إلى زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن الأموى إلى أن غلب مذهب مالك على تلك الديار ، وذلك فى أوائل المائتين للهجرة .

ولم يكن الأوزاعى عالماً كباقى العلماء ؛ بل كان عالماً وعاملاً ليطبق العلم على العمل ، ولا يكتفى بالحفظ والنظر .

عبادته وورعه — وكان ممن يهمه أمر الأمة بأجمعها ، وممن لا يقتصر على الصلاة والعبادة مبتغياً بها رضا الله تعالى ، والنجاة بنفسه دون

السعى لتوزيع العدالة فى خلقه ، و إراحة عباد الله أجمعين ؛ بل كان رحمه الله مع شدة ورعه ، وكثرة عبادته يعمل بالحديث الشريف :

« عدل ساعة خير من عبادة ألف شهر »

ولهذا كان مالك رضى الله عنه يقول عن الأوزاعى : انه يصلح للإمامة

وكان أبو إسحاق الفزارى يقول : الأوزاعى رجل عامة ، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعى ، أى إماماً وخليفة

سياسته ونصحه للملوك والخلفاء — لقد كان رحمه الله يتعرض للسياسة العامة ، وينصح للملوك والخلفاء ، ويغلظ لهم القول إذا رأى من أعمالهم ما يضر بالأمة ، وكان على ما يوجبه الإسلام من إيتاء كل إنسان حقه بدون تمييز بين الأديان والمذاهب

وبالجملة كان الأوزاعى من أحسن الأمثلة المجسمة البارزة عن معالى الإسلام ، الدالة على أنه دين العدل والإحسان ، دين المحافظة على حقوق الأنام .

كرمه وسخاؤه — كان رحمه الله من أكرم الناس وأسخاهم ، وكان له فى بيت المال من الخلفاء اقطاع ، صار إليه من بنى أمية وأقاربهم و بنى العباس نحو من سبعين ألف دينار ، وكان ينفقها كلها ولا يدخر منها شيئاً ، وكان أكثر إنفاقه فى سبيل الله ، وعلى الفقراء والمساكين

شجاعته وجراءته — كان رحمه الله من الجراءة على الخلفاء والأمراء ما يقل نظيره فى تاريخ الإسلام ، ولعمرى لو كان العلماء الذين من صنف الأوزاعى عدداً كبيراً فى الإسلام لما أسرع الفساد إلى المجتمع الإسلامى ، ولما انحطت دول الإسلام بعد ذلك العلو فى الأرض

وقلّ فى الإسلام من كان يصادم الخلفاء فى مآربهم ، ويوبخهم فى وجوههم ، ونذكر بعضهم : وذلك مثل عالم المدينة أبى الحارث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب العامرى الزاهد الورع الذى قال للمنصور يوماً : الظلم بيابك فاش

ومثل أحمد بن نصر الخزاعى الشهير الذى كان قوّالاً بالحق ، أمّاراً بالمعروف ، وقتله الواثق بالله لكونه أغلظ له فى الحق وقال له : مَه ياصبى

ومثل أحمد بن حنبل الذى خاصم المأمون فى مسألة خلق القرآن ولم يتزحزح عن قوله رغم كل ما أصابه .

ومثل أبى حنيفة النعمان الذى تعرض للعذاب ولم يقبل القضاء

ومثل القاضى مصعب بن عمران الذى أراده الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموى على قضاء قرطبة والأندلس فأبى أشد الإباء وأصر عليه الأمير إلى حد الغضب وبقى على إصراره

ومثل قاضى مصر المشهور بالعدل والهيبة أبى عبيد بن حربويه الذى

كان أمير مصر يركب إلى داره ، وهو لم يكن يركب إلى دار الأمير

الأوزاعى وأبو جعفر المنصور

اجتمع الأوزاعى بالمنصور حين قدم الشام ووعظه فأحبه المنصور وعظمه ، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه ألاَّ يلبس السواد فأذن له

فلما خرج قال المنصور للربيع (الحاجب) الحقه فاسأله لِمَ كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أنى قلت لك . فسأله الربيع ، فقال : لأنى لم أرَ مُحرماً أحرم فيه ، ولا ميتاً كفن فيه ، ولا عروساً جُليت فيه ، فلهذا أكرهه

وكتب أبو جعفر المنصور إلى الأوزاعى الكتاب الآتى :

أما بعد فقد جعل أمير المؤمنين فى عنقك ما جعل الله لرعيته قبلك فى عنقه ، فاكتب إليه بما رأيت فيه المصلحة

فكتب الأوزاعى إليه :

أما بعد ، فعليك يا أمير المؤمنين بتقوى الله عز وجل ، وتواضع يرفعك الله تعالى يوم يضع المتكبرين فى الأرض بغير الحق

واعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تزيد حق الله تعالى عليك إلاَّ وجوباً

وكتب أيضاً الأوزاعى إلى أبى جعفر المنصور كتاباً طويلا ابتدأه بقوله :

أما بعد فإن الله تعالى استرعاك هـذه الأمة لتكون فيهـا بالقسط قائماً ، وبنبيه صلى الله عليـه وسلم فى خفض الجنـاح والرأفة متشبهاً .

وختمه بقوله : يا أمير المؤمنين إن أشـد الشدة القيـام بحق الله ، وإن أكرم الـكرم عند الله التقوى ، إن من طلب العز بطاعة الله تعالى رفعه الله تعـالى ، ومن طلبه بمعصية أذلّه الله تعالى ووضعه ، هـذه نصيحتى إليك والسلام عليك

وفاته وسببها

توفى لرحمة مولاه فى سنة سبع وخمسين ومائة ، يوم الأحد لليلتين بقيتا من صفر ، وقيل فى شهر ربيع الأول ، بمدينة بيروت ، ودفن فى قرية على باب بيروت يقال لها (ختوس) وأهلها مسلمون

وهو مدفون فى قبـلة المسجد ، وأهل القرية لا يعرفونه ؛ بل يقولون هٰهنا رجل صالح ينزل عليـه النور ، ولا يعرفه إلاّ الخواص من الناس ، وهو مفخرة مسلمى بيروت ولبنان بنوع خاص

أما سبب وفاته فذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق : أن الأوزاعى دخل الحمام ببيروت ، وكان لصاحب الحمام شغل فأغلق الحمام عليـه

وذهب ؛ ثم جاء ففتح الباب فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة

وقيل : ان امرأته فعلت ذلك ولم تكن عامدة لذلك ، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة

تأبينه

لما توفى رحمه الله رثاه بعضهم بقوله :

« جاد الحيا بالشام كل عشية قبراً تضمن لحدُه الأوزاعى »

« قبر تضمن فيه طودَ شريعة سقياً له من عالم نفّاع »

« عرضت له الدنيا فأعرض مقلعاً عنها بزهد أيما إقلاع »

نبذ من أقواله وحكمه

كان رحمه الله يقول : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ؛ وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فإن الأمر ينجلى وأنت منه على طريق مستقيم

وقال : إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً ، وان المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً

إن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره ، أو إلى أن يبعث من قبره

إن فى السماء ملكاً ينادى كل يوم ، ألا ليت الخلائق لم يُخلقوا ، وياليتهم إذ خلقوا عرفوا لِمَ خلقوا ، وجلسوا فذكروا ما عملوا ، يعنى فندموا واستغفروا

وكان يقول : خمس كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان :

لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد فى سبيل الله عز وجل

وقال : من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن علم أن منطقه من عمله قلّ كلامه

وقال : قال لى أبى : لو قبلنا من الناس كل ما يعطوننا لهنّا عليهم

وقال : اصبر بنفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل السلف الصالح ، فإنه يسعك ما وسعه ، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة

قال : كان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، فالعمل من الإيمان ، والإيمان من العمل ، وإنما الإيمان اسم جامع فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق ذلك بعمله ، فتلك العروة الوثقى لا انفصام لها ؛ ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله لم يقبل منه وكان فى الآخرة من الخاسرين .

ثانياً - مناقب الأئمة الصالحين الأخيار

من آل بيت النبي المختار

١ - مناقب سيدنا الحسن السبط

ولد سنة ٣ هـ وتوفى سنة ٥٠ هـ

نسبه الشريف - هو الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأمه السيدة البتول سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا أشرف نسب .

مولده - ولد الحسن رضى الله عنه بالمدينة المنورة فى منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وهو أول أولاد الإمام على رضى الله عنهما ، والسيدة فاطمة سيدة نساء العالمين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس وأم سلمة رضى الله عنهما : أحضرا فاطمة فإذا وقع ولدها واستهل صارخاً فأذّنا فى أذنه اليمنى ، وأقيما فى أذنه اليسرى ، فانه لا يُفعل ذلك بمثله إلّا عُصم من الشيطان ، ولا تحدثا شيئاً حتى آتيكما .

فلما ولدت السيدة فاطمة فعلتا ما أمرهما به الرسول عليه الصلاة والسلام ،

وأتى الرسول فسرَّه ولبـأه بريقه وقال : اللَّهم إنى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم .

ولما كان اليوم السابع من مولده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سميتموه ؟ قالوا : حرباً (لميل العرب إلى الشجاعة) قال : بل سمّوه حسناً . وقال : يا فاطمة احلقى رأسه ، وتصدقى بزنة شعره فضة ، فوزناه فكان وزنه درهماً أو بعض درهم ، ثم طلى رأسه بيده المباركة وختمه صلى الله عليه وسلم .

وقد أرضعته (أم الفضل) امرأة العباس بن عبد المطلب .

كنيته وألقابه

كنيته أبو محمد : وأما ألقابه فكثيرة وهى : التقى ، والزكى ، والسيد ، والسبط (ولد الولد[1]) والولى ، وأكثرها شهرة التقى ، وأعلاها رتبةً ما لقبه به النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فى الحديث الصحيح إن ابنى هذا (سيد) .

شبهه بالنبى ﷺ

روى البخارى فى صحيحه عن عقبة بن الحارث قال : صلى أبو بكر رضى الله عنه العصر ثم خرج يمشى ومعه على رضى الله عنهما ، فرأى الحسن رضى الله عنه يلعب مع الصبيان فحمله أبو بكر رضى الله عنه على عاتقه وقال :

(١) ويغلب على ولد البنت .

بأبى شبيهٌ بالنبى (صلى الله عليه وسلم) ليس شبيهاً بعلى . قال : وعلى رضى الله عنه يبتسم .

الأحاديث التى وردت فى فضله وتعظيمه

وقد ورد فى فضله رضى الله عنه أحاديث كثيرة : فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم مرفوعاً إلى البراء رضى الله عنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم والحسن بن علىّ على عاتقه وهو يقول : اللّهم إنى أحبه فأحبه .

وروى الترمذى مرفوعا إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل الحسن بن على رضى الله عنهما فقال رجل : نعم المركب ركبت يا غلام . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو .

وروى عن الحافظ أبى نعيم فيما أورده فى حديثه عن أبى بكر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بنا فيجىء الحسن رضى الله عنه وهو ساجد إذا ذاك صغير فيجلس على ظهره ، ومرةً على رقبته ، فيرفعه النبى صلى الله عليه وسلم رفعاً رقيقاً ، فلما فرغ من الصلاة قالوا : يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئاً ما رأيناك تصنعه بأحد . فقال : إن هذا ريحانتى وإن ابنى هذا سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

وروى الترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هما ريحانتاى من الدنيا .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بالحسن والحسين وهما يلعبان فطأطأ لهما عنقه وحملهما وقال : نعم المطيـة مطيتهما ، ونعم الراكبان هما . وكان صلى الله عليه وسلم يعوذهما بالـكلمات الآتية :

أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة

مناقبه

أدبه وتواضعه ورده للجميل بالإحسان

يحكى عن الحسن بن الإمام علم، رضى الله عنهما حكاية تدل على رده للجميل وشكره على المعروف وأدبه وتواضعه وذلك :

أنه مرّ بصبيان من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسراً على الأرض ولقماً من العيش .

وكان الحسن على بغلته ، فلما مرّ بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هَلُمَّ الغـداء يابن رسول الله ؟ فقال : نعم (إن الله لا يحب

المتكبرين) ثم ثنى فخذه فنزل عن دابته ، وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل .

وبعد أن فرغوا من الأكل — وكان الخبز الذى معهم قليلاً — قام سيدنا الحسن وأركبهم معه إلى منزله ، ثم أطعمهم أنواعاً من الأكل ، وكساهم بعد ذلك .

فلما سُئل فى سبب إطعامهم وكسوتهم ؟ قال : الفضل لهم ؛ لأنهم لم يجدوا معهم غير قطع الخبز الذى أطعمونى ؛ ولكنى أجد كثيراً مما أعطيتهم ، فيجب أن أقابل الحسنة بمثلها أو بأحسن منها .

كرمه

كان رضى الله عنه كريماً ، فمن كرمه ما نقل عنه : أنه سمع رجلاً يسأل ربه أن يرزقه عشرة آلاف درهم ، فانصرف الحسن إلى منزله وبعث بها إليه .

ومنه أن رجلاً سأله وشكا إليه حاله ، فدعا الحسن وكيله وجعل يحاسبه على نفقاته ومقبوضاته حتى استقصاها فقال له : هات الفاضل ؟ فأحضر خمسين ألف درهم ؛ ثم قال : ما فعلت بالخمسمائة دينار التى معك ؟ قال . عندى . قال : فأحضرها . فلما أحضرها دفع الدراهم والدنانير إلى الرجل واعتذر منه .

قصته مع العجوز التى أكرمها بألف شاة وألف دينار

روى أبو الحسن المدائنى قال : خرج الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم حُجاجاً إلى بيت الله الحرام ، فلما كانوا ببعض الطريق جاعوا وعطشوا وقد فاتتهم أثقالهم ، فنظروا إلى خباء فقصدوه فإذا فيه عجوز ، فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت : نعم . فأناخوا بها وليس عندها إلّا شاة فقالت : احلبوها واشربوا لبنها . ففعلوا ذلك ، وأقاموا عندها حتى أبردوا . فلما ارتحلوا من عندها قالوا لها : يا هذه نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين فألمى بنا فإنا صانعون بك خيراً إن شاء الله تعالى ؛ ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته الخبر فغضب وقال :

وَيحك تذبحين شاتنا لقوم لا نعرفهم ثم تقولين نفر من قريش .

ثم بعد زمن طويل أصابت المرأة وزوجها الفاقة فاضطرتهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها يلتقطان البعر ، فمرّت العجوز فى بعض سكك المدينة ومعها مكتلها تلتقط فيه البعر والحسن رضى الله عنه جالس على باب داره ، فنظر إليها فعرفها فنادها وقال لها :

يا أمة الله هل تعرفينى ؟ فقالت : لا . فقال : أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا فى المنزل الفلاني ، فقالت : بأبى أنت وأمى لست أعرفك

قال : فان لم تعرفيني فأنا أعرفك ، فأمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار ، وبعث بها مع غلامه الى أخيه الحسين رضى الله عنه ، فلما دخل بها الغلام على أخيه الحسين عرفها وقال : بكم وصلها أخي الحسن ؟ فأخبره الغلام ، فأمر لها بمثل ذلك

ثم بعث بها الغلام الى عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، فلما دخلت عليه عرفها وأخبره الغلام بما فعل معها الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال: والله لو بدأت بي لأتعبتهما ، وأمرلها بألفي شاة وألفي دينار ، فرجعت وهي من أغنى الناس

تصدقه ومواساته للفقراء

وكان رضى الله عنه من شدة كرمه يواسي الفقراء ولايرد سائلاً فقيل له : لأى شيء نراك لاترد سائلاً وإن كنت على فاقة ؟ فقال : إني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحي أن أكون سائلاً وأرد سائلاً ، وإن الله تعالى عودني عادةً : عوّدني أن يفيض نعمه عليّ ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت أن يمنعني العادة ، وأنشد يقول :

إذا ما أتاني سائل قلت مرحباً بمن فضله فرض عليّ مُعجل

ومَن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يسأل

وكان رضى الله عنه جالساً ذات يوم ، فأتاه رجل وسأله أن يعطيه شيئاً من الصدقة ، ولم يكن عنده مايسد به رمقه ، فاستحيا أن يرده فقال : ألا أدلك على شيء يحصل لك منه البرُّ والخير الكثير ؟ فقال : ماذا تدلنى عليه ؟ فقال : اذهب الى الخليفة فان ابنته توفيت ، وانقطع عليها ، وماسمع من أحد تعزية ، فعزه بهذه التعزية يحصل لك بها الخير الكثير : فقال : حفظنى إياها . قال : قل له : « الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها ، ولا هتكها بجلوسها على قبرك » وفى رواية أخرى : « الحمد لله الذى أعزها بجلوسك على قبرها ، ولم يذلها بجلوسها على قبرك »

فذهب الى الخليفة وعزاه بهذه التعزية ، فسمعها الخليفة فذهب عنه الحزن ، فأمر له بجائزه سنية وقال : بالله عليك أكلامك هذا ؟ قال لا ؛ بل كلام فلان . فقال : صدقت ، فانه معدن الكلام الفصيح ، وأمر له بجائزة أخرى لصدقه

قصته مع معاوية ومصالحته معه

قال أصحاب السير : لما استشهد على رضى الله عنه عمد أهل العراق الى ابنه الحسن فبايعوه ، ثم أشاروا عليه بالمسير ليأخذ الشام من معاوية ، وسار معاوية بجيش الشام يقصده ، فلما تقارب الجيشان ، وتراءى الجمعان ،

بموضع يقال له (مسكن بناحية الأنبار) من أرض السواد علم الحسن أنه لم تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى ، فرأى أن المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال « وهكذا السياسة الحكيمة من الرجل المصلح الحكيم »

فكتب الى معاوية يراسله ، ويخبره بأنه يصير الأمر إليه وينزل عنه على أن يشترط عليه ألاَّ يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء مما كان فى أيام أبيه ، وأن يكون ولى العهد من بعده ، وأن يمكنه من بيت المال ليأخذ حاجته منه ، ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك ، إلاَّ أنه قال: عشرة أنفس لاأؤمنهم ، فراجعه الحسن فيهم فكتب اليه معاوية : إنى قد آليت إننى متى ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة قطعت لسانه ويده . فراجعه الحسن ، إنى لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً وغيره بتبعة قلت أو كثرت ، فبعث اليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال له : اكتب ماشئت فيه فأنا ألتزمه ، فاصطلحا على ذلك

فكتب الحسن كل ما اشترط عليه من الأمور المذكورة ، واشترط أن يكون له الأمر من بعده ، فالتزم ذلك كله معاوية ، فخلع الحسن نفسه ، وسلَّم الأمر الى معاوية ببيت المقدس تورعاً وقطعاً للشر

فلما اصطلحا دخل معاوية الكوفة ، وارتحل الحسن الى المدينة ، وأقام

بها ، وكان نزوله عنها سنة إحدى وأربعين فى ربيع الأول ، وقيل فى جمادى الأولى ، وقيل غير ذلك

وذلك مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم فى حق الحسن . إن ابنى هـذا (سيد) وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين (رواه البخارى) كما تقدم ذكره

ولكونه نزل عنها ابتغاء وجه الله عوضه الله وأهل بيته بالخلافة الباطنة ، حتى ذهب قوم الى أن قطب الأولياء فى كل زمان لا يكون إلاّ من أهـل البيت

ولما نزل عن الخلافة كان أصحابه يقولون · ياعار المؤمنين ! فيقول العارُ خير من النار

مرضه ووفاته

بعد أن تم الصلح بين الحسن ومعـاوية ، وخرج الحسن الى المدينـة أقام بها عشر سنين وسقته زوجته (جعدة بنت الأشعث بن قيس الـكندى) السُّم فبقى مريضاً أربعين يوماً ، وكان قد سألها يزيد فى ذلك وبذل لها مائة ألف درهم ، وأن يتزوجها بعد الحسن ففعلت

لمـا مات الحسن بعثت الى يزيد بن معاوية فسألته الوفاء بما وعدها ، فقال . إنا لن نرضاك للحسن أفنرضاك لأنفسنا (وكان ذلك خدعةً منه لهـا)

قال الحافظ أبو نعيم فى حليته : لما اشتد الأمر بالحسن قال : أخرجوا فراشى إلى صحن الدار لعلى أتفكر فى ملكوت السموات (يعنى الآيات) فلما خرجوا به قال : اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعزّ علىّ

وعن عمرو بن إسحٰق قال : دخلت على الحسن أنا ورجل نعوده فى مرضه فقال : يافلان سلنى . فقال له : والله لا أسألك حتى يعافيك الله وأسألك . قال : لقد ألقيت طائفةً من كبدى ، وإنى سُقيت السُّم مراراً فلم أسقه مثل هـذه المرة ، ثم دخلت عليه من الغد فوجدت أخاه الحسين رضى الله عنه عند رأسه فقال له الحسين : مَن تتهم يا أخى ؟ قال : لِمَ ؟ لأن تقتله ؟ قال : نعم . قال : إن يكن الذى أظنه ، فالله أشـد بأساً وأشد تنكيلاً ، وإن لم يكن هو ، فما أحب أن يقتل بى برئ

وروى أنه لما حضرته الوفاة قال لأخيـه الحسين : يا أخى قد حضرت وفاتى ، وحان فراقى ، وإنى لأحق برىء ، وأجد كبدى تتقطع ، وإنى لعارف من أين ذهبت ؟ وأنا أخاصمه إلى الله تعالى ، ثم توفى لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين (وقيل تسع وأربعين) وقيل غير ذلك من الهجرة ، وصلى عليه سعيد بن العاص فإنه كان والياً يومئذ بالمدينة من جهـة معاوية ودفن بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد وكان عمره سبعاً وأربعين سنة

وكانت مدة خلافته ستة أشهر وخمسة أيام

أولاده

قال ابن الخشاب : أولاده أحد عشر ابناً و بنت واحدة وهم :

١ عبد الله ٢ والقاسم ٣ والحسن ٤ وزيد ٥ وعمر ٦ وعبد الله ٧ وعبد الرحمن ٨ وأحمد ٩ واسماعيل ١٠ والحسين ١١ وعقيل . والبنت اسمها (فاطمة) وكنيتها أم الحسن، وهى أم محمد الباقر بن على

ذكر نبذ من كلامه وحكمه رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم فى حليته بسنده :

إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سأل الحسن رضى الله عنه فقال :

يابنى ما السداد ؟ فقال : يا أبت ، السداد دفع المنكر بالمعروف

قال : فما الشرف ؟ قال : اصطناع العشيرة والاحتمال

قال : فما السماح ؟ قال : البذل فى العسر واليسر

قال : فما اللؤم ؟ قال : إحراز المرء ماله ، و بذله عرضه

قال : فما الجبن ؟ قال : الجراءة على الصديق ، والنكول عن العدو

قال : فما الغنى ؟ قال : رضا النفس بما قسم الله لها و إن قلّ

قال : فما الحلم ؟ قال : كظم الغيظ ، وملك النفس

قال : فما المتعة ؟ قال : شدة البأس ، ومنازعة أعز الناس

قال : فما الذل ؟ قال : الفزع عند الصدمة

قال : فما الكلفة ؟ قال : كلامك فيما لا يعنيك

قال : فما الجد ؟ قال : أن تعطى فى العزم ، وتعفو فى الجرم

قال : فما السؤدد ؟ قال : إتيان الجميل ، وترك القبيح

قال : فما السفه ؟ قال : إتباع الدناءة ، وصحبة الغواة

قال . فما الغفلة ؟ قال : ترك المسجد ، وطاعة المفسد

ومن كلامه وحكمه رضى الله عنه :

لا أدب لمن لا عقل له ، ولا مودة لمن لا همة له ، ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل ، وبالعقل تدرك الداران (الدار الدنيا والدار الآخرة) جميعاً ، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً

وقال رضى الله عنه : هلاك الناس فى ثلاث : فى الكبر ، والحرص والحسد . فالكبر هلاك الدين و به لعن إبليس ، والحرص عدو النفس و به أخرج آدم من الجنة ، والحسد رائد السوء ومنه قتل (قابيل هابيل)

وقال رضى الله عنه : دخلت على أبى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه

وهو يجود بنفسه لما ضربه (ابن ملجم) فجزعت لذلك ، فقال لى أتجزع ؟ فقلت : وكيف لا أجزع ، وأنا أراك على هذه الحالة ؟ فقال : يا بنى ، احفظ عنى خصالاً أربعاً إن أنت حفظتهن نلت بهن النجاة

يابنى : لا غنى أكثر من العقل ، ولا فقر مثل الجهل ، ولا وحشة أشد من العجب ، ولا عيش ألذ من حسن الخلق

واعلم أن مروءة القناعة والرضا أكبر من مروءة الاعطاء ، وتمام الصنيعة خير من ابتدائها

وقال رضى الله عنه : حسن السؤال نصف العلم ، ومن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه

وسُئل عن الصمت فقال : هو ستر العى ، وزين الحرض ، وفاعله فى راحة وجليسه فى أمن

وكان رضى الله عنه يقول لبنيه و بنى أخيه : تعلموا العلم ، فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم

مواعظه

ومن مواعظه رضى الله عنه أنه كان يقول :

يا ابن آدم ، عف عن محارم الله تكن عابداً ، وارض بما قسم الله لك

تكن غنيًا . وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك بمثله تكن عادلاً . إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ، ويبنون مشيداً ، ويأملون بعيداً . أصبح جمعهم بوراً ، وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً .

يابن آدم ، إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فجد بما فى يدك لما بين يديك ، فان المؤمن يتزود ، والكافر يتمتع .

وكان يتلو هذه الآية بعد : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾.

٢ - سيرة سيدنا الحسين ومناقبه

رضى الله عنه

ولد سنة ٤ هـ - توفى سنة ٦١ هـ

نسبه الشريف - الإمام الحسين أبوه على (كرم الله وجهه) ابن أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه سيدة النساء البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أشرف نسب .

مولده - ولد سيدنا الحسين رضى الله عنه بالمدينة المنورة لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة ، وكانت أمه قد علقت به بعد أن ولدت أخاه الحسن رضى الله عنه بخمسين ليلة ، وهكذا صح النقل فى ذلك . ولما وضعته جاءت به إلى جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبشر به ، وحنكه بريقه ، وأذن فى أذنه ، وتفل فى فمه ، ودعا له ، وسماه (حسيناً) يوم السابع وعقّ عنه كبشاً ، وقال لأمه : احلقى رأسه ، وتصدقى بزنة شعره فضة ، كما فعلت بأخيه الحسن .

ويحتفل المسلمون بمولد الحسين رضى الله عنه كل سنة فى جميع بلادهم أياماً ، ولهم فى القاهرة موسم يسمونه (مولد الحسين) تزين فيه الأسواق

والبيوت ليلاً ونهاراً ، ويقرأ القرآن ، ويجتمع الناس لزيارة المشهد الحسينى من ليلة الاثنين الأول من ربيع الثانى إلى ليلة الأربعاء الأخير منه، وهى الليلة الكبيرة ، ويتلوها بعض ليال يسمونها (اليتيمة) ثم يحتفل بالمشهد الحسينى وغيره ليلة الخامس من شعبان فى كل سنة بمولده .

اسمه

سماه النبى صلى الله عليه وسلم (حسيناً) وهو اسم لم يكن لأحد قبله .

عن على رضى الله عنه قال : لما ولد الحسن سميته حرباً (لميل العرب إلى الشجاعة) فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ، ماسميتموه ؟ قال : قلت : حرباً . قال : بل هو (حسن) .

فلما ولد الحسين سميته (حرباً) فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قال : قلت حرباً . فقال : بل هو (حسين) فلما ولد الثالث سميته حرباً ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت : حرباً . قال : بل هو (محسن) .

كنيته وألقابه

كنيته أبو عبد الله لا غير ، وأما ألقابه فهى : الرشيد ، والطيب ، والزكى ، والوفى ، والسيد ، والمبارك ، والنافع لمرضاة الله ، والسبط ، وأشهرها (الزكى) وأعلاها رتبة ما لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله عنه وعن أخيه الحسن (انهما سيدا شباب أهل الجنة) وكذلك (السبط) فانه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسين سبط من الأسباط ، فكان السيد أشرفها وكذلك السبط .

ختانه

عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم عَقَّ عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام من مولدهما .

رضاعه

زعم قوم أن الحسين لم ترضعه أنثى ، يقصدون بذلك تعظيمه ، وفضله غير محتاج إلى زيادة ، وقد ثبت أن رضاعه كان كسائر الناس ، وأن (أم الفضل) هى التى أرضعته ، بدليل ما جاء فى الحديث الشريف : أن (أم الفضل) قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله لقد رأيت

أن عضواً من أعضائك فى بيتى ، فقال لهـا : تلد فاطمة غلاماً وترضعينه بلبن قُثَم (ابن أم الفضل)

فولدت حسيناً فأخذته وأرضعته ، حتى تحرك ، فجاءت به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجلسه فى حجره فبال ، فضربته بين كتفيه فقال لها النبى : أوجعتِ ابنى رحمك الله

الأحاديث الواردة فى فضله وتعظيمه

قد ورد فى حقه رضى الله عنه أحاديث كثيرة تدل على عظيم قدره وتشير الى ارتفاع ذكره ، منها :

أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : حسين منى وأنا من حسين اللَّهم أحبَّ من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط

وروى ابن حبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سرَّه أن ينظر الى رجل من أهل الجنة (وفى لفظ) الى سيد شباب أهل الجنة فلينظر الى الحسين بن على

وروى عن أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم جلس فى المسجد فقال : أين لـكع ؟ فجاء الحسين يمشى حتى سقط فى حجره ، فجعل أصابعه فى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففتح رسول الله صـلى الله عليه وسلم

فمه ، أى فم الحسين ، فأدخل فاه فى فيه ، ثم قال : اللَّهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه

وروى عن زيد بن أبى زياد قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة فمرّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكى فقال : ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟

وعن البراء بن عازب قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل الحسين بن على رضى الله عنهما على عاتقه وهو يقول : اللهم إنى أحبه فأحبه

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزل قوله تعالى :

﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ قالوا . يارسول الله مَن قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم ؟ قال : على ، وفاطمة ، وابناهما

موجز أخبار حياته

أقام الحسين رضى الله عنه مع جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله سبع سنين ، ومع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام سبعاً وثلاثين سنة ، ومع أخيه الحسن رضى الله عنه سبعاً وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته بعد أخيه إحدى عشرة سنة . فيكون مدة حياته ٥٨ سنة

وكانت إقامة الحسين رضى الله عنه بالمدينة الى أن خرج مع أبيه الى الكوفة فشهد معه واقعة الجمل (ثم صفين) ثم قتل الخوارج و بقى معه الى أن قتل ؛ ثم مع أخيه الى أن سلَّم الأمر الى معاوية فتحول مع أخيه الى المدينة واستمر بها إلى أن مات معاوية ، فخرج إلى مكة ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد موت معاوية ، فأرسل اليهم ابن عمه (مسلم بن عقيل) فأخذ بيعتهم وأرسل اليه فتوجه ، وكان ما كان من قصة قتله

وقال ابن كثير : إن الحسين رضى الله عنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن توفى وهو عنه راض ؛ ثم كان الصديق يكرمه ويعظمه ، وكذلك عمر وعثمان وصحبَ أباه (علياً كرم الله وجهه) وروى عنه ، وكان معه فى مغازيه كلها فى الجمل وصفين ، وكان معظماً موقراً ، ولم يزل فى طاعة أبيه حتى قتل

ولما آلت الخلافة إلى أخيه الحسن وأراد أن يصالح معاوية شقَّ ذلك على الحسين ، فلما استقرت الإمارة لمعاوية كان الحسين يتردد اليه مع أخيه الحسن ، فكان معاوية يكرمهما إكراماً زائداً ويقول لهما : مرحباً وأهلاً ، ويعطيهما عطاءَ جزلاً ، وقد أطلق لهما فى يوم واحد مائتى ألف وقال : خذاها وأنا (ابن هند) والله لايعطيكماها أحد قبلى ولا بعدى .

فقال الحسين : والله لن تعطى أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلين أفضل منا

ولما توفى الحسن كان الحسين يفد اليه ، ويقدم كل عام عليه

نشأته فى حياة جده رسول الله ﷺ

كان الحسين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم طفلاً وأقام معه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام

وقال عبد الله بن شداد : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى صلاة العشاء وهو حامل حسناً أوحسيناً ، فتقدم النبى صلى الله عليه وسلم فوضعه ، ثم كبّر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسى ، فاذا الصبى على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فرجعت الى سجودى فلما قضى الصلاة قيل : يارسول الله : إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أوأنه يوحى اليك

قال : كل ذلك لم يكن ؛ ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته (أخرجه النسائى)

محبة عمر بن الخطاب للحسن والحسين

قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحب الحسن والحسين ، ويقدمهما على ولده ، ولقد قسم يوماً فأعطى الحسن والحسين كل واحد منهما عشرة آلاف درهم ، وأعطى ولده عبد الله ألف درهم ، فعاتبه ولده وقال : قد علمت سبقى فى الإسلام وهجرتى وأنت تفضل علىّ هذين الغلامين ؟ . فقال : وَيحك يا عبد الله ائتنى بجد مثل جدهما ، وأب مثل أبيهما ، وأم مثل أمهما ، وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما ، وخالات مثل خالاتهما ، وعم مثل عمهما ، وعمة مثل عمتهما : جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوهما علىّ كرم الله وجهه ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وخالهما إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وعمتهما أم هانىء بنت أبى طالب .

وقال ابن عساكر فى تاريخه : جعل عمر عطاء الحسن والحسين مثل عطاء أبيهما ، فألحقهما بفريضة أهل بدر ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف .

وقيل : قدم على عمر حلل من اليمن فكسا الناس ، فراحوا فى الحلل

وهو بين القبر والمنبر جالس ، والناس يأتون فيسلمون عليه ، ويدعون ، فخرج الحسن والحسين من بيت أمهما فاطمة يتخطيان وكان بيت فاطمة فى جوف المسجد ليس عليهما من تلك الحلل شىء ، وعمر قاطب ما بين عينيه ؟ ثم قال : والله ما هنأنى ما كسوتكم . قالوا : لِمَ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : من أجل هذين الغلامين يتخطيان الناس ليس عليهما مما كسوت الناس شىء .

ثم كتب لصاحب اليمن : أن ابعث إلىّ بحلتين لحسن وحسين وعجل . فبعث إليه بحلتين فكساهما ، فلما كساهما قال : الآن طابت نفسى .

صفة الحسين رضى الله عنه

روى الإمام البخارى عن أنس بن مالك فى مناقب الحسن والحسين فقال: كان أشبههما برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال على رضى الله عنه : الحسن أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه ما أسفل ذلك .

فمن هذين الحديثين يظهر أن الحسن والحسين كليهما كان يشبه جده صلى الله عليه وسلم ، وكان أحدهما ، وهو الحسن ، أشد شبهاً به من الآخر فى بعض مواضع من جسمه ، أو فى زمن حياته و بعده ، وكان الحسين يتشبه به صلى الله عليه وسلم فيما لم يكن يشبهه فيه .

وبالجملة كان الحسين فى غاية الجمال كما قال عبد القادر البغدادى : مارأيت أحداً قط أحسن ولا أملأ للعين من الحسين .

وروى ابن عساكر فى تاريخه أنه كان فى صوت الحسين غُنَّةٌ حسنة وهى صوت لذيذ يخرج من أقصى الأنف ، وشبِّه به صوت الرياح فى الأشجار الملتفة ولذلك قيل (روضة غناء) .

وعن أبى هريرة قال : كان الحسن والحسين يصطرعان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى أنهما كانا يلعبان فى طفولتهما وصباهما .

وكان للحسين رضى الله عنه خاتم منقوش عليه (إن الله بَالغ أمره) .

وقال ابن الصباغ : نقش خاتم الحسين (لكل أجل كتاب) .

مناقبه إجمالاً كما ذكرها

المرحوم على بك جلال الحسينى المستشار فى كتابه (الحسين)

قد جمع الحسين رضى الله عنه الفضائل ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، من علو الهمة ، ومنتهى الشجاعة ، وأقصى غاية الجود والكرم ، وأسرار العلم ، وفصاحة اللسان ، ونصرة الحق ، والنهى عن المنكر ، وجهاد الظلم ، والتواضع عن عز ، والعدل والصبر ، والحلم والعفاف ، والمروءة والورع ، وغيرها .

واختص بسلامة الفطرة ، وجمال الخلقة ، ورجاحة العقل ، وقوة الجسم .

وأضاف إلى هذه المحامد كثرة العبادة ، وأفعال الخير والتقوى ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد فى سبيل الله والإحسان .

وكان إذا أقام بالمدينة أوغيرها كان مفيداً بعلمه، مرشداً بعمله، مهذباً بكريم أخلاقه ، مؤدباً ببليغ بيانه ، سخياً بماله ، متواضعاً للفقراء ، معظماً عند الخلفاء مواصلاً للصدقة على الأيتام والمساكين ، منصفاً للمظلومين ، مستقلاً بعبادته .

مشى من المدينة على قدميه إلى مكة حاجاً خمساً وعشرين مرة ، وعاش مدة يقاتل مع أبيه أصحاب الجمل ، فجنود معاوية ، فالخوارج، وينتقل مع جيوش المسلمين إلى أقطار الأرض فى فتح إفريقية وغزو جرجان وطبرستان وقسطنطينية .

وهو فى جميع أيام حياته مثابر على الاهتداء بهدى جده صلى الله عليه وسلم .

فكان الحسين فى وقته علم المهتدين ، ونور اليقين ، فأخبار حياته فيها هدًى للمسترشدين بأنوار محاسنه ، المقتفين آثار فضله وإحسانه .

كرمه وجوده

قد اشتهر النقل عنه رضى الله عنه بأنه كان يكرم الضيف ، ويمنح الطالب ، ويصل الرحم ، ويُنيل الفقير ، ويسعف السائل ، ويكسو العارى ، ويشبع الجائع ، ويعطى الغارم ، ويشد على يد الضعيف ، ويشفق على اليتيم ، ويعين ذا الحاجة ، وقلّ أن وصله مال إلّا فرقه (كما قال محمد بن أبى طلحة الشافعى القرشى فى (مطالب السول فى مناقب آل الرسول) فى الفصل السابع، فى كرم الحسين وجوده .

وروى أحمد بن سليمان فى (عقد اللآل فى مناقب الآل) أن الحسين رضى الله عنه كان جالساً فى مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أخيه الحسن رضى الله عنه، وكان عبد الله بن الزبير جالساً فى ناحية المسجد ، (وعتبة بن أبى سفيان) فى ناحية أخرى ، فجاء أعرابى على ناقة فعقلها بباب المسجد ، ودخل فوقف على (عتبة بن أبى سفيان) فسلّم عليه ، فرد عليه السلام ، فقال له الأعرابى: إنى قتلت ابن عم لى وطولبت بالدية ، فهل لك أن تعطينى شيئاً ؟ فرفع رأسه إلى غلامه وقال : ادفع إليه مائة درهم . فقال الأعرابى : ما أريد إلّا الدية تماماً ، ثم تركه وأتى عبد الله بن الزبير وقال له مثل ماقال لعتبة . فقال عبد الله لغلامه : ادفع إليه مائتى درهم . فقال الأعرابى : ما أريد إلاّ الدية تماماً .

ثم تركه وأتى الحسين رضى الله عنه فسلَّم عليه وقال : يا ابن رسول الله إنى قتلت ابن عم لى وقد طولبت بالدية ، فهل لك أن تعطينى شيئاً ؟ فقال له : يا أعرابى : نحن قوم لا نعطى المعروف إلاَّ على قدر المعرفة . فقال : سل ما تريد ؟ فقال له الحسين رضى الله عنه : يا أعرابى ما النجاة من الهلكة ؟ قال : التوكل على الله عز وجل . فقال : وما العمة ؟ قال : الثقة بالله ، ثم سأله الحسين رضى الله عنه غير ذلك وأجاب الأعرابى ، فأمر له الحسين رضى الله عنه بعشرة آلاف درهم ، وقال له : هذه لقضاء ديونك ، وعشرة آلاف درهم أخرى ، وقال : هذه تلم بها شعثك ، وتحسن بها حالك ، وتنفق منها على عيالك ، فأنشأ الأعرابى يقول :

« طربت وما هاج لى مَعْبِق ولالى مقـــام ولا مَعشق »
« ولـكن طربت لآل الرسو ل فلذ لى الشعر والمنطق »
« هم الأكرمون هم الأنجبون نجوم السماء بهم تشرق »
« سبقت الأنام إلى المكرمات وأنت الجواد فلا تلحق »
« أبوك الذى ساد بالمكرمات فقصر عن سبقه السُّبق »
« به فتح الله باب الرشاد وباب الفساد بكُم مُغلق »

وروى ابن عساكر فى التاريخ الكبير : أن سائلاً خرج يتخطى أزقة المدينة حتى أتى باب الحسين فقرع الباب وأنشأ يقول :

« لم يخب اليوم مَن رجاك ومَن حرّك من خاف بابك الحَلَقه »
« أنت ذو الجود أنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفَسَقه »

وكان الحسين رضى الله عنه واقفاً يصلى فخفف من صلاته وخرج إلى الأعرابى فرأى عليه أثر ضرّ وفاقة ، فرجع ونادى (بقنبر) فأجابه : لبيك يا ابن رسول الله . قال : ما تبقى معك من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتنى بتفرقتها فى أهل بيتك . فقال : هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابى وأنشأ يقول :

« خُذها فإنى إليك معتذر واعلم بأنى عليك ذو شفقه »
« لو كان فى سيرنا عصا تُمد إذن كانت سمانا عليك مندفقه »
« لكن ريب المنون ذو نكد والكف منا قليلة النفقه »

فأخذها الأعرابى وولى وهو يقول :

« مطهّرون نقيات جيوبهم تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا »
« وأنتم أنتم الأعلون عندكم علم الكتاب وما جاءت به السور »
« مَن لم يكن علوياً حين تنسبه فما له فى جميع الناس مفتخر »

وقال نور الدين على بن محمد بن الصباغ فى الفصول المهمة : كتب أخوه الحسن يلوم على إعطائه الشعراء . فكتب إليه : أنت أعلم منى أن خير المال ما وقى العرض

وروى السيد محسن بن عبد الكريم الحسيني ؟ أن الحسن رضى الله عنه دخل على أسامة بن زيد وهو مريض وهو يقول : واغماه ! فقال الحسين رضى الله عنه : وما غمك يا أخى ؟ قال : دَيْنِي ، وهو ستون ألف درهم . فقال الحسين رضى الله عنه : هوَ علىّ . قال : إنى أخشى أن أموت

فقال : لَن تموت حتى أقضيها عنك ، فقضاها قبل موته

حسن أدبه وظرفه

روى ياقوت المستعصمى فى رسالته ، ونور الدين على بن محمد بن الصباغ عن أنس قال : كنت عند الحسين رضى الله عنه فدخلت عليه جارية بيدها طاقة ريحان فحيته بها . فقال لها : أنت حرة لوجه الله تعالى . فقلت له : جارية تحييك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ فقال :

كذا أدبنا الله ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وكان أحسن منها عتقها .

ويحكى أن الحسن والحسين سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانا على شط الفرات إذ نظرا إلى شيخ أعرابى خفف الوضوء والصلاة فقالا : لو قلنا له غلطت ربما لا ينقاد إلى الحق . فقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم منا بأمر الوضوء والصلاة فتوضأ ونصلى أمامك فإن كان عندنا قصور فعلّمنا

فتوضآ وصلّيا كما رأيا من جدهما صلى الله عليه وسلم فتاب الشيخ ورجع عن صنيعه

حلمه وعفوه

جنى بعض مواليه جناية توجب التأديب فأمر بتأديبه فقال : يامولاى ، قال الله تعالى : « والكاظمين الغيظ » قال رضى الله عنه : خلوا عنه فقد كظمت غيظى . فقال : «والعافين عن الناس » قال رضى الله عنه : قد عفوت عنك . فقال : «والله يحب المحسنين » قال رضى الله عنه : فأنت حُرٌّ لوجه الله تعالى ، وأجازه بجائزة سنية

عفته وعزة نفسه

إن الحسين رضى الله عنه كان عفيفاً عزيز النفس فما كان يأخذ صلات معاوية كما زعم بعضهم ؛ بل كان يأخذ منه حقه فى بيت المال . بدليل أنه قيل ان معاوية لما قدم مكة وصله بمال كثير ، وثياب وافرة ، وكسوة فاخرة ، فردَّ الجميع عليه ، ولم يقبل منه شيئاً ، فهذه صفة العفة والنزاهة ، وصفة من حوى مكارم الأخلاق

وانه رضى الله عنه لم يكن فقيراً قط ؛ بل كان له فى جميع أيام حياته من المال ما يكفيه وزيادة ، وانه كان شبيه أبيه كرم الله وجهه وجدّه عليه

الصلاة والسلام فى غنى النفس ، فلم يكن حريصاً على كثرة المال ، ولا مولعاً بجمعه ، مغرما بادخاره ؛ بل كان جواداً كريماً ، فكان يحسن بما يزيد عن حاجته ، ويجود على غيره ، ولا يجود غيره عليه

نهيه عن الإسراف والتبذير

كان الحسين رضى الله عنه مع جوده الذى امتاز به ، وكرمه الذى يندر نظيره ، لا يتجاوز حد السخاء إلى الإسراف ، وينهى عن التبذير ، فقد روى عن ياقوت المستعصمى فى أسرار الحكماء قوله : لا تتكلف مالا تطيق ولا تنفق إلاّ بقدر ما تستفيد

وروى المبرد فى الكامل والقزوينى فى عجائب المخلوقات : أن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب قال له الحسن والحسين رضى الله عنهما : إنك قد أسرفت فى بذل المال . فقال : بأبى أنتما وأمى ، إن الله تعالى عوّدنى أن يتفضل علىّ ، وعوّدته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عنى المادة

شجاعته

كان الحسين رضى الله عنه شجاعاً مقداماً منذ كان طفلاً

قال محمد بن أبى طلحة (بعد ذكر الجيش الذى أرسله ابن زياد

لقتاله) ما نصه : فنصب عليه السلام نفسه واخوته وأهله لمحاربتهم ، واختاروا بأجمعهم القتل على متابعتهم ليزيد ومبايعتهم ، فأعلقتهم الفجرة الطغام ، وأرهقتهم المردة اللئام ، ورشقتهم النبال والسهام . هذا والحسين عليه السلام ثابت لا تخف حصاة شجاعته ، ولا تجف عزيمة شهامته ، وقدمه فى المعترك أرسى من الجبال ، وقلبه لا يضطرب لهول القتال ، ولا لقتل الرجال .

وروى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة فقال : مَن مِثل الحسين ابن على عليهما السلام (يوم الطف) ما رأينا مكثورا قد أفرق من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المحرب يحطم الفرسان حطماً ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية ، وأن يُعطى بيده فقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم ، والتوثقة بالأيمان المغلظة ، وهو الذى سن للعرب الاباء واقتدى به أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم .

وقال أيضاً : سيد أهل الآباء الذى علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية ، أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام ، عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لا يقتله فاختار الموت على ذلك .

وجاء فى لسان العرب فى حديث مقتل الحسين رضى الله عنه ما يأتى :
ما رأينا مكثوراً أجرأ مقدماً منه (المكثور المقلوب وهو الذى تكاثر عليه الناس فقهروه) أى ما رأينا مقهوراً أجرأ إقداماً منه

وقال على بن عيسى فى كشف الغمة : شجاعة الحسين رضى الله عنه يضرب بها المثل ، وصبره فى الحرب أعجز الأواخر والأوائل

فراسته

ذكر ابن قيم الجوزية فقال : من أنواع الفراسة فراسة الحسين رضى الله عنه ، وهى :

أن رجلاً ادعى عليه مالاً ، فقال الحسين رضى الله عنه : ليحلف على ما ادعاه ويأخذه

فتهيأ الرجل لليمين وقال : والله الذى لا إله إلاَّ هو . فقال الحسين : قل والله ، والله ، والله ، إن هذا الذى تدعيه ، فبكى . ففعل الرجل ذلك وقام فاختلفت رجلاه وسقط ميتاً

فقيل للحسين : لِمَ فعلت ذلك ؟ أى عدلت عن قوله : (والله الذى لا إله إلاَّ هو) إلى قوله : والله ، والله ، والله . فقال : كَرِهت أن يثنى على الله فيحلم عنه

ومقتضى العقل والتجربة فى ذلك أن من عرضت عليه اليمين فقد

فوض إليه خصمه أن يحكم فى النزاع بينهما بالعدل ولو عليه ثقة منه به ، والذى يحلف كاذباً يكره نفسه على مخالفة الحق ، ويحس أنه ظلم خصمه فتلومه نفسه ، ويكون لكل هذا أثر فى أعصابه .

فخصم الحسين رضى الله عنه فاجر حلف كاذباً ثم أدرك خطأه وتذكر عظيم شأن اليمين وجليل قدر الحسين وشهرته بالصدق فخاف العقاب فى الآخرة ، والعار فى الدنيا ، ولامته نفسه فحدث له رعب شديد ، وصدمة عصبية ، كما يقول الأطباء فمات . (وهذا ما قرره المرحوم على بك جلال فى كتابه) .

عبادته وصلاته

كان الحسين رضى الله عنه فاضلاً كثير الصلاة والصوم والحج والصدقة وأفعال الخير جميعها كما رواه ابن الأثير .

تواضعه

روى ابن عساكر فى تاريخه : أن الحسين مرّ بمساكين يأكلون فى الصُّفة فقالوا : الغداء فنزل وقال : إن الله لا يحب المتكبرين ، فتغدى معهم ثم قال لهم :

قد أجبتكم فأجيبونى . قالوا : نعم . فمضى بهم إلى منزله وقال لخادمته (الرباب) أخرجى ما كنت تدخرين .

روى ابن قتيبة فى عيون الأخبار : أن عبد الله بن الزبير دعا الحسين رضى الله عنه فحضر وأصحابه فأكلوا ولم يأكل فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : إنى صائم ، ولكن تحفة الصائم . قيل : وما هى ؟. قال : الدُّهن والمجمر (العود يوضع فى الجمر يتبخر به) فهو وإن كان امتنع عن الأكل ؛ ولكنه أجاب الداعى وطلب شيئاً من الطيب تطييباً لخاطره وإكراماً للداعى والحاضرين .

علمه

إن الحسين رضى الله عنه كان عالماً فاضلاً ، وكان الناس يقدمون عليه بالمدينة وينتفعون بما يسمع منه ، ويضبطون مايروونه عنه .

وذكر ابن عمر الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال : إنما كانا يغرّان العلم غرًّا .

نبذ من كلامه وحكمه

قال الحسين رضى الله عنه :

١ ـ إذا سمعت أحداً يتناول أعراض الناس فاجتهد ألّا يعرفك ، فإن أشقى الأعراض به معارفه .

٢ ـ لا تتكلف مالا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعد بما

لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلّا بقـدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلّا بقـدر ما صنعت ؛ ولا تفرح إلّا بما نلت من طاعة الله تعالى ، ولا تتناول إلّا ما رأيت نفسك له أهلاً . (عن ياقوت المستعصمى فى أسرار الحـكماء)

٣ ـ شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة على الضعفاء ، والبخل عن الإعطاء .

٤ ـ قال لنافع بن الأزرق لما قال له : صِف لى إلٰهك الذى تعبد يا نافع؟ مَن وضع دينـه على القياس ، لم يزل الدهر فى الالتباس ، مائلا إذا كبا عن المنهاج ، ظاعناً بالاعوجاج ، ضالًّا عن السبيل ، قائلًا غير الجميل ؛ يا ابن الأزرق أصف إلٰهى بما وصف به نفسه فأقول :

لا يدرس بالحواس ، ولا يقاس بالنـاس ، قريب غير ملتصق ، و بعيد غير مستقص ، يوَحَّد ولا يُبَعَّض ، معروف بالآيات ، موصوف بالعلامات ، لا إلٰه إلّا هو الـكبير المتعال . فبـكى الأزرق وقال : ما أحسن كلامك ! فقال : بلغنى أنك تشهد على أبى وعلى أخى بالـكفر وعلىّ . قال ابن الأزرق : أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسـلام ، ونجوم الأحكام (عن ابن عساكر) .

٥ ـ ومن كلامه رضى الله عنه : حوائج الناس من نعم الله عليـكم ، فلا تملوا النعم فتعود نقماً .

وقال : صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك ، فأكرم وجهك عن رده .

وقال : الحلم زينة ، والوفاء مروءة ، والصلة نعمة ، والاستكثار صَلَف ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، والغلو ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شر ، ومجالسة أهل الفسوق ريبة .

بعض كتبه

١ - كتابه إلى معاوية فى أمر خاص

كتب معاوية إلى الحسين رضى الله عنه .

من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على :

أما بعد : فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ممن تستنجبه للولد ، وتمجد به فى الصهر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت .

فكتب إليه الحسين :

أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وتعييرك إيابى بأنى تزوجت مولاتى وتركت أكفائى من قريش ، فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف ، ولا غاية فى نسب ؛ وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدى بأمر

التمست فيه ثواب الله ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ، ووضع عناية النقيصة ، فلا لوم على امرئ مسلم إلاّ فى أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لشدّ ما فخر عليك الحسين . قال : لا ؛ ولكنها ألسنة بنى هاشم الحداد التى تفلق الصخر ، وتغرف من البحر

٢ ـ كتابه إلى أهل الكوفة

لما تتابعت على الحسين مع رسل أهل الكوفة كتبهم يستدعونه ، كتب الحسين إليهم جميعاً كتاباً واحداً ودفعه إلى هانئ بن هانئ وسعيد ابن عبد الله وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم — من الحسين بن على إلى من بلغه كتابى هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة

. سلام عليكم ، أما بعد فقد أتتنى كتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم بقدومى عليكم ، وأنا باعث إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهلى (مسلم بن عقيل) ليعلم لى كنه أمركم ، ويكتب إلىّ بما يتبين له من

اجتماعكم ، فإن كان أمركم على ما أتتنى به كتبكم ، وأخبرتنى به رسلكم أسرعت القدوم عليكم ، إن شاء الله ، والسلام

أما صورة الكتاب الذى أرسل إليه من أهل الكوفة فهاهو :

بسم الله الرحمن الرحيم — للحسين بن على أمير المؤمنين من شيعته وشيعة أبيه رضى الله عنهما

أما بعد ، فإن الناس منتظروك ، لا رأى لهم فى غيرك ، فالعجل العجل يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ويؤيد الإسلام بك ، بعد أجزل السلام وأتمه عليك ، ورحمة الله وبركاته

٣ — كتابه إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوى

بسم الله الرحمن الرحيم — من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين المسلمين

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلاّ هو ، أما بعد فان كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء

لثمان مضين من ذى الحجة (يوم التروية) فإذا قدم عليكم رسولى فاكتموا أمركم وجدوا ، فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله تعالى والسلام .

٤ — كتابه إلى أهل البَصرة

روى ابن جرير الطبرى وابن كثير ، أن الحسين بعث مع مولى له يقال له (سليمان) كتاباً إلى أشراف أهل البَصرة نسخة واحدة فيه :

أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً على خلقه ، وأكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه إليه ، وقد نصح لعباده ، وبلغ ما أرسل به ، وكنا أهله وأولياءه وورثته ، وأحق الناس بمقامه ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العاقبة ، ونحن نعلم انا أحق بذلك الحق ممن تولاه ، وقد أحسنوا ، وأصلحوا ، وتحروا الحق ، فرحمهم الله ، وغفر لنا ولهم .

وقد بعثت إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم (إلى كتاب الله وسنة نبيه) فان السُّنة قد أُميتت ، وإن البدعة قد أُحيِيَت ، فان تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى ، أهدكم إلى سبيل الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

بعض خطبه فى المواعظ والحكم

قال رضى الله عنه فى خطبة خطبها : أيها الناس نافسوا فى المكارم ، وسارعوا فى المغانم ، واكتسبوا الحمد بالمنح ، واعلموا أن المعروف يكسب حمداً ، ويعقب أجراً ، ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين ، ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجاً مشوهاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار .

أيها الناس : من جاد ساد ، ومن بخل ذل . وان أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعف الناس من عفا عن قدرة ، وأفضل الناس من وصل من قطعه ، ومن يعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه ، ومن أحسن أحسن الله إليه ، والله يحب المحسنين .

ومن كلامه فى الحرب التى اختار الله له بها ما عنده فى خطبة ألقاها :

بعد أن حمد وصلى قال : قد نزل من الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ، وأدبر معروفها وانشمرت ، حتى لم يبق منها إلّا كصبابة الإناء ، وإلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل ، ألّا ترون الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه ؟ ليرغب المؤمن فى لقاء الله عز وجل وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا جرماً .

خطبة له فى اليوم الذى استشهد فيه

قال ابن عساكر فى كتاب التاريخ الكبير : خطب الحسين فى اليوم الذى استشهد فيه فقال بعد الحمد والثناء : عباد الله اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر ، فان الدنيا لو بقيت لأحد أو بقى عليها أحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله خلق الدنيا للبلاء ، وخلق أهلها للفناء ، فجديدها بال ، ونعيمها مضمحل ، وسروها مكفهر ، والمنزل بُلغة (اليسير من الزاد) والدار قلعة (أى ليست بمستوطنه) فتزودوا ، فان خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون

دعاؤه

روى محمد بن جرير الطبرى وابن كثير : أنه لما صبّحت الخيل الحسين يوم الطفّ (اليوم الذى استشهد فيه الحسين) رفع يديه فقال :

اللّهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل ثقة وعدة ، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو ، أنزلته بك ، وشكوته اليك

رغبة منى اليك عمن سواك ، ففرجته وكشفته وكفيتنيه ، فأنت ولىُّ كل نعمة ، وصاحب كل حسنه ، ومنتهى كل رغبة

ومن دعائه بالكعبة الشريفة : إلهى نَعَّمتنى فلم تجدنى شاكراً ، وابتليتنى فلم تجدنى صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة لترك الشكر ، ولا أدمت الشدة لترك الصبر ، إلهى مايكون من الكريم إلاَّ الكرم

شعره فى الحكم

إذا ماعضَّك الدهر فلا تجنح الى الخلق
ولا تسأل سوى الله تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وَطوَّفت من الغرب الى الشرق
لما صادفت من يقد ر أن يُسعد أو يُشقى

وقال ابن عساكر : يقال ان هذه الأبيات للحسين رضى الله عنه

اِغْنَ عن المخلوق بالخالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمٰن من فضله فليس غير الله من رازق
من ظنَّ أن الناس يغنونه فليس بالرحمٰن من واثق
أوظن أن المال من كسبه زلت به النعلان من حالق

وقال الأعمش : ومن كلامه أيضاً :

كلما زيد صاحب المال مالاً زيد فى همِّه وفى الاشتغال

« قد عرفناك يا منغصة العيـــش ويادار كل فان وبال »

« ليس يصفو لزاهد طلب الزهـــد إذا كان مثقلاً بالعيال »

وروى ابن كثير قال : بلغنى أن الحسين رضى الله عنه زار مقابر الشهداء بالبقيع فقال :

« ناديت سكان القبور فأسكتوا فأجابنى عن صمتهم ترب الحشا »

« قالت: أتدرى ماصنعت بساكنى؟ مزقت لحمهم وخرّقت الكسا »

« وحشوت أعينهم تراباً بعدما كانت تأذى باليسير من القذى »

« أما العظام فإننى مزقتهـــا حتى تباينت المفاصل والشوى »

« قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا فتركتها مما يطول بهـا البلى »

ومن كلامه رضى الله عنه فى البغى :

« ذهب الذين أحبهم وبقيت فيمن لا أحبه »

« فيمن أراه يسبنى ظهر المغيب ولا أسبه »

« أفلا يرى أن فعـله مما يسير إليـه غيه »

« حسبى بربى كافيـا مما اجتنى والبغى حسبه »

خلاصة ما قيل فى مقتل الحسين رضى الله عنه

وانتقاله إلى النعيم المقيم

إن مقتل الحسين رضى الله عنه من الحوادث العظيمة ، وذكراه نافعة ، وإن كان حديثه يُحزن كل مسلم ، ويسخط كل عاقل ، لأنه لما ظهر من فسق (يزيد بن معاوية) واستهتاره بالفواحش ، وظلمه وتهاونه بالدين ، بايع أهل العراق الحسين وعاهدوه على أن ينصروه عليه واستدعوه ، فرأى الحسين رضى الله عنه أنه تعين عليه جهاده ، والقيام بأمر الأمة بدله ، فسار إليهم فى أهل بيته فخذلوه ، وقاتله منهم خمسة آلاف وهو فى اثنين وسبعين من أهله وأصحابه فصبر وقاتل ولم يستسلم ، فمنعوه الماء مستعينين بالعطش على قتاله ، مع أنه سقاهم وسقى خيلهم وهو يملك الماء وقتلوا ابنه (عبد الله) طفلاً وهو فى حجره ، رماه أحدهم بسهم فذبحه ، فقاتل عنه أصحابه حتى قتلوا عن آخرهم .

ولما بقى الحسين وحده ، تكاثروا عليه فجرحوه أكثر من سبعين جرحاً ، فلما صُرع ذبحوه ، وداسوه بخيولهم ، واجتزوا رأسه الشريفة ورءوس جميع أصحابه حتى ملابسهم ، وتركوا أجسادهم بالعراء مجردةً بغير دفن ،

واحتملوا الرءوس على أطراف الرماح والصبيان والنساء كالسبايا من كربلاء إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى دمشق ، وبين الكوفة ودمشق كانت النساء على أقتاب الإبل ، وكان زين العابدين مغلولًا إلى عنقه .

فأى فاجعة أفظع من مقتل الحسين ! وقد مضى شهيداً ، مظلوماً ، كريماً صابراً ، مكثوراً .

وأى عدو أحط نفساً ، وأعظم جهلاً ، وأغلظ كبداً من خصومه ؟! إذ ارتكبوا هذه الخيانة ، وهم يعرفون جليل قدره ، طلباً للحظوة عند أميرهم ، وطمعاً فى المال ، فباعوا آخرتهم بدنياهم ،غير أنه لم يثبت أن (يزيد) أمر بالقتل ؛ بل قيل : انه لما حملت إليه رأس الحسين غضب لذلك وتألم جداً ، وصرح بأنه ما كان يحب قتله .

واللَّوم كل اللَّوم على أهل العراق ، فهم المسؤولون عما صنعوا ، المؤاخذون بما أساءوا ؛ لأنهم أخلفوا الحسين ما وعدوه ، ثم خذلوه وقاتلوه حتى قُتِل ، وكان ذلك لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين من الهجرة بموضع يقال له (كربلاء) فى أرض العراق بناحية الكوفة ويعرف أيضاً (بالطفِّ) .

ومن غريب أمر شيعة الحسين أنهم خذلوه حيًّا ، ونصروه ميتاً ، فإنهم

بعد قتله ندموا على ما فرطوا فى حقه ، وسموا أنفسهم (التوابين) وقاموا لأخذ ثاره ، فلم يستبينوا الرشد من الغَى إلَّا ضحى الغد .

وجزى الله المختار وأصحابه خيراً ، فإنهم شفوا غليل الصدور بانتقامهم من قاتليه .

ومن عجيب أمره رضى الله عنه أن يقتله شيعته ثم يجددون الحزن عليه فى جميع بلاد المسلمين كل عام من يوم قتله للآن . (عن كتاب الحسين المرحوم على بك جلال) .

السبب فى نزول هذه الكارثة العظمى

كما ذكره المرحوم السيد محمود البيلاوى

فى كتابه التاريخ الحسينى

والسبب فى هـذه النازلة العظمى أن (يزيد) لما مات أبوه (معاوية) سـنة ستين من الهجرة وتولى الخلافة بعده ، أرسل إلى (الوليد بن عقبة) ليأخذ بيعة الحسين (وعبد الله بن الزبير) رضى الله عنهما فأرسل لهما ليلاً فقالا : مثلنا لا يبايع سرًا ؛ ولـكن نبايع على رءوس الناس .

ثم خرجا تحت الليل إلى مكة ، ليلة الأحد الثامن والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، فأقام الحسين رضى الله عنه بها أربعـة شهور جاءه فى خلالها رسائل عديدة من أهل الـكوفة يدعونه بهـا للخلافة ، ويعدونه إذا أجابهم أنهم يعززونه وينصرونه ، وإلا سـألوه بين يدى ربه عما فشا فى الأرض من ظلم الظالمين . فأجاب سؤلهم وسافر يوم (التروية) ميمما الـكوفة فأرسـل يزيد لما بلغه ذلك إلى (عبيد الله بن زياد) ليجهز جيشاً تحت قيادة (الحصين بن تميم) صاحب الشرطة فأرسله ونظم الخيل بين القادسـية وجبل لعلع .

فلما بلغ الحسين رضى الله عنه ذلك أرسـل إلى أهل الـكوفة يخبرهم

بسد الطريق بالحصين ، ويذكرهم بوعدهم له ، وأعطى الكتاب (لقيس ابن مسهر) فظفر به الحصين فقتله ، ثم أقبل الإمام نحو الكوفة ومعه خلائق لا تحصى اتبعته فى الطريق ، وإذا بناع ينعى (مسلم بن عقيل) الذى أرسله إلى أهل الكوفة يخبرهم بقدومه ، فلما بلغه ذلك تغير خاطره الشريف وقال :

« أيها الناس ، قد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحبّ أن ينصرف فلينصرف فليس عليه منا ذمام » فتفرقوا عنه ، وبقى فى أصحابه الذين جاءوا معه فسافر بهم ، وإذا هو بالخيل قد أدركته وعليها ألف فارس تحت قيادة (الحر بن يزيد التميمى) فقال لهم الحسين رضى الله عنه :

« أيها الناس ، إنها معذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن اقدم علينا ، فليس لنا إمام يجمعنا على الهدى ، وقد جئتكم ، فإن تعطونى ما أطمئن به من عهودكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين ، رجعت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه » ، فسكتوا .

فقال الحسين رضى الله عنه : أيها الناس ، إنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله ، ونحن أهل البيت أحق بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، السائرين فيكم بالجور والعدوان ، فإن أتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم انصرفت

عنكم ، فأنكر (الحر) ومن معه تلك الكتب وقالوا : إنا قد أمرنا باحضارك الى ابن زياد

فقال : الموت أدنى من ذلك ، وأمر أصحابه بالمسير فمنعهم (الحر)

فقال الحسين رضى الله عنه : ثكلتك أمك ، ماتريد ؟

قال : إنى لم أومر بقتالك ، بل باحضارك الى ابن زياد ، فخذ طريقاً لاتدخلك الكوفة ، ولا توصل الى المدينة ، حتى أكتب الى ابن زياد ، وتكتب أنت الى يزيد والى ابن زياد ، لعل الله يعصمنى أن أبتلى بشئ من أمرك

فسار كذلك ، واذا (بعمر بن سعد) قادماً من الكوفة بأربعة آلاف وذلك يوم الجمعة خامس المحرم سنة إحدى وستين فأخبر الحسين بأن ابن زياد أمره بمنعه الماء حتى يبايع ليزيد ، فمنع رضى الله عنه من شرب الماء هو ومن معه قبل القتل بثلاثة أيام ، ثم أخذت عمر رقة فاتفق على الصلح على شروط أرسلها الى ابن زياد لاستئذانه فى أمرها ، فغضب وأبى وأرسل (شمر بن ذى الجوشن) بكتاب لعمر يعنفه فيه ، فأحاطوا به وأخبروه بأن ابن زياد يخيره بين مبايعة يزيد أو القتل ، فاستمهلهم للصباح ، فبات مع أصحابه طول الليل فى تضرع وابتهال واستغاثة بالله من هذا الكرب المحدق بأهل البيت الكرام

فلما أصبح الصباح جهز عمر جيشه للحرب ، فخرج الإمام الحسين

رضى الله عنه فى أصحابه ، وكانو أربعين رجلاً واثنين وثلاثين فارساً ، ولكن ماذا يصنعون أمام ذلك الجيش المتدرع بالمظالم ؟ فوضع الإمام مصحفاً بين يديه ، ورمى عمر الى جبهته سهماً وقال : اشهدوا أنى أول من رمى سهماً فى الناس ، فاشتد الكرب ، وحمى وطيس الحرب ، وصرع أصحاب الإمام ، وأحاطوا به من كل حدب ، واقتتلوا قتالاً عنيفاً أبلى فيه الإمام وأصحابه بلاء حسناً ، وبلغ فيه (شمر) فسطاط الحسين رضى الله عنه ، والقوم شهداء من حوله ، وهو رضى الله عنه مضرج بدمائه وبجسده الطاهر ثلاث وثلاثون طعنة بالرماح ، وأربع وأربعون ضربة بالسيوف ، وهو مع ذلك صابر لقضاء الله ، قوى الجأش ، ثابت القلب ، طالب من الله الانتقام من الظالمين

وكلما انتهى اليه رجل منهم رجع وكره أن يتولى قتله ، أقبل عليه رجل من (كندة) يقال له (مالك) فضربه على رأسه بالسيف ، فقطع البرنس وأدماه ورماه (حصين بن تميم) بسهم وقع فى فيه حين أراد أن يشرب فتلقى الدم بيده الشريفة ، وقال : اللّهم إن كنت حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم من هؤلاء الظالمين ، اللّهم إني أشكو اليك مايفعل بابن بنت نبيك ، اللّهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحداً

فقال شمر : ماتنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ، فحملوا عليه من كل جانب

وحزوا رأسه الشريف ، وانتهبوا ثقله ، وانتزعوا متاعه ، وأمرهم (عمر بن سعد) فأوطأوا الخيل صدره وظهره ، بعد أن أسلم الروح لبارئها ، واختار الله لها ما عنده ، فحلّت حرم الرضوان ، وتمتعت فى فراديس الجنان ، وصدق قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولما بلغ أهل المدينة قتل الحسين رضى الله عنه خرجت ابنة (عقيل ابن أبى طالب) فى نساء من بنى هاشم ، وهى حاسرة تلوى ثوبها وتقول :

« ماذا تقولون إن قال النبى لكم ؟
ما ذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟ »
« بعترتى وبأهلى بعد مُفْتَقَدى
منهم أسارى وقتلى ضُرِّجُوا بدم »
« ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى »

وقيـــل إنه كان مكتوباً على راية الحسين بن على رضى الله عنهما يوم قُتل الأبيات الآتية :

« لئن كانت الدنيـا تُعدُّ نفيسةً
فدار ثواب الله أعلى وأنبـلُ »

« وإن كانت الأرزاق قسماً مقدراً
فقلة حرص المرء بالـكسب أجمل »

« وإن كانت الأموال للترك جمعهـا
فمـــا بال متروك به المرء يبخل »

« وإن كانت الأبدان للموت أنشئت
فقتل امرئ بالسيف فى الله أفضل »

بعض مراثيه

رثى الحسين رضى الله عنه منذ توفى شعراء كل جيل ، وكل بلد بكل لغة ، حتى قيل : ان الجن ناحت عليه ، والسماء أمطرت دماً فلنذكر بعضها

رثاء زوجـه الرَّباب

رثت الرَّباب بنت امرئ القيس زوجها الحسين رضى الله عنه حين قُتل فقالت :

إن الذى كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيلٌ غير مدفون
سبطَ النبى جزاكَ الله صالحة ... عنّا وجُنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلاً صعباً ألوذُ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
مَن لليتامى ومَنى للسائلين ومَن ... يغنى ويَأوى إليه كل مسكين ؟
والله لا أبتغى صهراً بصهركُم ... حتى أغيَّب بين الرمل والطين

رثاء ابنته السيدة سكينة رضى الله عنها

إن الحسين غداة الطف يرشقه ... ريبُ المنون فما أن يُخطىء الحدقه
بكفٍّ شرٍّ عباد الله كلهم ... نسل البغايا وجيش المُرّق الفسقه
يا أمة السوء هاتوا ما احتجاجكُم ... غداً وجلّكم بالسيف قد صفقه
الويل حلّ بكم إلاّ بمن لحقه ... صيرتموه لأرماح العدا درقه
ياعين فاحتفلى طول الحياة دماً ... لاتبك ولداً ولا أهلاً ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبى ... قيحاً ودمعاً وفى إثريهما العلقه

رثاء عقبة بن عمرو العبسى

قال سبط ابن الجوزى فى تذكرة خواص الأمة : قال السدى : أول من

رثى الحسين رضى الله عنه عقبة بن عمرو العبسى فقال :

إذا العين قرّت فى الحياة وأنتمُ ... تخافون فى الدنيا فأظلم نورها
مررت على قبر الحسين بكربلا ... ففاضت عليه من دموعى غزيرها
وما زلت أبكيه وأرثى لشجوه ... ويسعد عينى دمعها وزفيرها
وناديت من حول الحسين عصائبا ... أطافت به من جانبيه قبورها
سلام على أهل القبور بكربلا ... وقلّ لها منى سلام يزورها
سلام بآصال العشى وبالضحى ... تؤدية نكباء الرياح ومورها
ولا برح الزُوار زوار قبره ... يفوح عليهم مسكها وعبيرها

رثاء الإمام الشافعى

وقيل : ان الإمام الشافعى رحمه الله أنشد الرثاء الآتى :

ومما نقى نومى وشيّب لمتى ... تصاريف أيام لهنّ خطوب
تأوب همى والفؤاد كئيب ... وأرق عينى والرقاد غريب
تزلزلت الدنيا لآل محمد ... وكادت لهم صمّ الجبال تذوب
فمَن مبلغٌ عنى الحسين رسالة ... وان كرهتها أنفس وقلوب
قتيل بلا جُرم كأن قميصه ... صبيغ بماء الأُرجُوان خضيب
نصلى على المختار من آل هاشم ... ونغزو بنيه إنّ ذا لعجيب
لئن كان ذنبى حُب آل محمد ... فذلك ذنب لست عنه أتوب

رثاء الشريف الرضى

كربلا لازلتِ كرباً وبَلا ... ما لقى عندك أهل المصطفى
كم على تُربك لما صُرعوا ... من دم سال ومن دمعٍ جرى
يارسول الله لو أبصرتهم ... وهم ما بين قتلٍ وسبا
مِن رميض يُمنع الظل ومن ... عاطش يُسقى أنابيب القنا
جزروا جزر الأضاحى نسله ... ثم ساقوا أهله سوق الإما
هاتفات برسول الله فى ... شدة الخوف وعثرات الخُطا
قتلوه بعد علم منهمُ ... أنه خامسُ أصحاب الكِسا
ليس هذا لرسول الله يا ... أمة الطغيان والبَغى جَزا
ياجبال المجد عزًّا وعُلا ... وبدور الأرض نوراً وسنا
جعل الله الذى نالكم ... سبب الوجد طويلاً والبكا
لا أرى حزنكم يُسلى ولا ... رُزءكم يُنسى وإن طال المدى

وقد رثاه الصاحب بن عباد والبوصيرى رحمهما الله وغيرهما ، وجميع الرثاء مذكور فى كتاب المرحوم على بك جلال الحسينى فمن شاء فليطلع عليه

نساؤه

الرَّباب ، ابنة امرئ القيس الكلبية ، وهى أم سكينة بنت الحسين .

وكان الحسين يحبها حبًّا شديداً وله فيها أشعار منها :

لعمرك أننى لأحِبُّ داراً تحل به سكينة والرَّباب

أحبهما وأبذل فوق جهدى وليس لعاذلٍ عندى عتاب

ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً حياتى أو يغيبنى التراب

قيل : خطبها يزيد والأشراف من قريش فقالت : والله لا كان لى حمٌ آخر بعد رسول الله ، وعاشت بعد الحسين سنة ثم ماتت كمداً ، ولم تستظل بعد الحسين بسقف (عن ابن الجوزى)

ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى ، وهى أم علىّ المقتول بالطفّ مع أبيه

أم إسحٰق بنت طلحة بن عبد الله ، وهى أم فاطمة

أم جعفر بن الحسين القضاعية ، ولم يوقف على شىء من أخبارها

شهربانو بنت كسرى يزدجرد واسمها (جهان شاه) وهى أم على زين العابدين

عائشة بنت خليفة ، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ،

وعاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل

أولاده

قال محمد بن أبى طلحة القرشى فى مناقب آل الرسول :

كان للحسين من الأولاد تسعة : ستة ذكور ، وثلاث إناث

فالذكور : ١ ـ على الأكبر ـ الذى قاتل بين يدى أبيه حتى قتل شهيداً

٢ ـ على الأوسط (زين العابدين) وأمه شاه زنان بنت كسرى يزدجرد

٣ ـ على الأصغر الذى قتل مع أبيه بالطف وأمه ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود

٤ ـ محمد ـ ٥ ـ عبد الله الذى قتل مع أبيه صغيراً وجاء سهم وهو فى حجر أبيه فذبحه

٦ ـ جعفر بن القضاعية

والإناث : ١ ـ زينب ٢ ـ سكينة وأمها الرباب

٣ ـ فاطمة وأمها أم اسحٰق بنت طلحة بن عبيد الله تيمية

انتقال الرأس الشريف الى القاهرة المعزية

اختار الله تعالى للإمام الحسين رضى الله عنه ما عنده ، فقربه اليه ، ونقله من دار المحن الى دار المنح ، ومن دار الفناء ، الى دار النعيم

السرمدى المقيم ، وذلك يوم عاشوراء سنة إحدى وستين من الهجرة

فسافر عمر بن سعد بالرأس الشريف الى الكوفة وسلمها الى ابن زياد (الشهير بابن مرجانة) فطاف بها فى الأسواق ، ثم وجهها الى دمشق ليزيد ، فأمر برفعها بها ثلاثة أيام ، ثم أمر بأن يطاف بها فى البلاد ، (عاملهم الله بما يستحقون) فطيف بها حتى وصلت (عسقلان) وأميرها إذ ذاك من خيرة الناس إيماناً وخوفاً من الله ؛ فدفنها فى مكان فخيم استمرت به الى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وفى شعبان منها خرج الأفضل ابن أمير الجيوش بعساكر كثيرة الى بيت المقدس (كما نقله المقريزى عن ابن ميسر) وحارب من به وملكه ثم دخل (عسقلان)

ولما علم بالرأس الشريف عمل مشهداً جليلا بالمدينة المذكورة إذ رأى المكان الأول صار لايليق بجلالها ، ولما تكامل أخرجها فعطرها وحملها على صدره وسعى بها ماشياً الى أن أحلها فى المشهد المذكور فاستمرت به الى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة من الهجرة وحواليها ، قضى الله على عسقلان أن تمتد اليها أيدى الطمع من الإفرنج وكان بها أمير يقال له (عياش) فأرسل الى الخليفة (الفائز بأمر الله) بمصر يقول له : أما بعد فان الفرنج قد أشرفوا على أخذ عسقلان وإن بها رأس الإمام الحسين بن على فأرسلوا من تختارونه وإلا أخذوها ، وكان الخليفة (الفائز) أحد الخلفاء الفاطميين إذ ذاك طفلاً صغيراً لم يبلغ الحادية

عشرة من عمره ، ولذلك كان الحل والعقد والأمر والنهى لأكبر وزرائه (طلائع بن رُزِّيك) فأرسل فرقة من الجيش تحت أمر (مكنون) الخادم ، وزوَّده بثلاثين ألف دينار ، فأتوا بهـا ووصلوا إلى (قَطْيَة) فخرج الوزير إلى لقائها من عدة مراحل ومعه جيوش كثيرة وكلهم حفاة خاشعون فحملها الوزير على صدره حتى دخلوا مصر و بنى (طلائع) مسجداً لهـا خارج باب زويلة من جهة الدرب الأحمر ، وهو المعروف (بجامع الصالح) الآن ، فـكشف الحجب عن تلك الذخيرة النبوية فوجـد دمها لم يجف ، ووجد لها رائحة أطيب من المسك (كما قال المقريزى) فغسلها فى المسجد المذكور على ألواح من الخشب (بأعلى الحائط ألواح الآن يقال انهـا هى التى كان عليها الغسل) ثم أراد أن يشرف ذلك المسجد بدفنها فيه فأبى أهل القصر وهم معية الملك الفائز وقالوا : ان أثراً نبوياً جليلا كهذا لا يليق أن يكون مستقره خارج حدود القاهرة بل لابد من دفنه فى قصر الملك .

وكانت بوابة الباب الأخضر الموجودة الآن تحت المنارة الصغرى للمسجد الحسينى باباً من أبواب القصر المنتهى إلى الجمالية واسمه (باب الديلم) ودهليز الخدمة فعمدوا إلى الجهة المذكورة و بنوا بها بناء فخما حلوه بأنواع الزخارف الجميلة وكسوا جدرانه بالرخام الملون فى البقعة المباركة الحاليـة (عن كتاب التاريخ الحسينى للمرحوم السيد محمود البيلاوى) .

الخلاف فى وجود رأس الحسين رضى الله عنه

هل هو مدفون بكربلاء أم بالقاهرة ؟

قد حصل تضارب فى الأقوال ، واختلاف كثير فى وجود رأس الحسين رضى الله عنه . فبعضهم يقول : إنه دفن بدمشق ونقل إلى عسقلان ومنها إلى القاهرة .

و بعضهم يقول : إنه مدفون بالمدينة عند قبر أمه فاطمة رضى الله عنها وقيل بمسجد الرقة على الفرات ، و بعضهم ينكر أن ابن زياد أرسله إلى يزيد ، و بعض أهل السنة اتفقوا على أنه مدفون مع الجسد بكربلاء .

ولقد حقق المرحوم على بك جلال الحسينى فى كتابه (تاريخ الحسين) من الشواهد ما يثبت وجود الرأس بالقاهرة ، كما أن الأستاذ حسن افندى قاسم الكاتب التاريخى لمجلة الإسلام الغراء ، أثبت فى كتابه (مصرع الحسين الذى ظهر حديثاً) بالأدلة التاريخية ، والشواهد الدينية المنقولة عن كبار العلماء ، أن الرأس الشريف مدفون بالقاهرة بالمشهد الحسينى بلا خلاف ، وقد أورد كثيراً من التحقيقات المؤيدة لذلك بأدلة ثابتة ، والله تعالى أعلم .

زيارة المسجد الحسينى

لقد أشرقت الديار المصرية ببزوغ هذه الشمس المنيرة بأنوار النبوة رأس الإمام الحسين رضى الله عنه وحلولها بالقبة الشريفة بالقاهرة سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة بعد الهجرة بالمسجد الحسينى ، وصار من دفنها إلى الآن مطمح أنظار العباد من المسلمين فى أقطار القطر المصرى ويُزار فى معظم الأوقات خصوصاً فى المولد الحسينى المشهور

المواسم السنية بالمسجد الحسينى

ويحتفل بالمسجد الحسينى فى كل عام بعشرة مواسم جليلة هى أعياد للأمة المصرية الإسلامية ، ومطالع للأنوار السنية الحسينية ، بهـا تستمد البركات ، وتعم النفحات ، كيف لا وهى مشارق الأنوار ، ومعاهد الأسرار ، فى مشهد سبط النبى المختار ؟

والمواسم المذكورة هى : ١ ـ ليلة عاشوراء ويومها ٢ ـ المولد النبوى الشريف ٣ ـ المولد الحسينى ٤ ـ حفلة الغسلة ٥ ـ ليـلة المعراج ويومها ٦ ـ وليلة الخامس من شهر شعبان تذكاراً لليلة التى ولد فيهـا الإمام الحسين رضى الله عنـه ٧ ـ وليـلة النصف من شعبان ويومها ٨ ـ وليـلة القدر ٩ ـ وشهر رمضـان ١٠ ـ والاحتفال بنقل الـكسوة الشريفة النبوية إلى المسجد الحسينى فى شوال من كل سنة (والآن فى ذى القعدة)

موسم عاشوراء وأعمال العجم فيه

يحتفل بالمسجد الحسينى باحياء ليلة العاشر من المحرم فى كل عام بالأذكار والأوراد ، وترتيل آى الذكر الحكيم ، وقراءة الدروس الشرعية ، والقصة الشريفة النبوية ، كل هذا والمسجد مشرق بالأنوار الشمسية والقمرية والقبة كاملة الأنوار معنوية وحسية ، وهى تحيا من قديم الزمان ، على نفقة أهل البر والإحسان ، وإن الشريعة الغراء قد اتخذت يوم عاشوراء موسماً دينياً ، أمرت فيه ببذل الأموال ، والتوسعة على الفقراء والأطفال لقوله صلى الله عليه وسلم : « من وسع على عياله فى يوم عاشوراء وسع الله عليه فى سنته كلها » وقال صلى الله عليه وسلم : « صيام يوم عاشوراء انى أحتسب على الله (عز وجل) أن يكفر السنة التى قبلها »

وأمر المسلمون فيه بزيارة العلماء ، ومواساة الفقراء ، وعيادة المرضى ، وغير ذلك من الأعمال الخيرية التى وردت فى السنة الشريفة التى اتخذت هذا اليوم موسماً من أعظم المواسم الدينية

هذا وإن الشيعة والأعاجم قد اتخذوا هذا اليوم يوم حزن كبير ، ومأتم عظيم ، بل اتخذ الشيعة أيامه السابقة عليه أيضاً أيام حزن وكدر لما حلّ بسبط سيد الأبرار ، فيجتمعون فى منزل يعدونه لذلك ،

ويزينونه بالأقمشة الفاخرة ، ويوقدون الشموع والمصابيح ، ويدعون من أرادوا ، ويقوم بعد العشاء خطيب يرثى الإمام الحسين وأهل بيته الأخيار ، فيبكى ويبكى الحاضرون ، وهكذا كل ليلة الى ليلة عاشوراء فيتوسعون فى الاحتفال بالمأتم ، ويدعون الكبراء والأمراء ، وفى الساعة الرابعة يسيرون فى مشهد كبير صفوفا بثياب بيضاء وبأيديهم سيوف يجرحون بها رؤوسهم ، وبعضهم يضرب صدره براحتيه ، وبعضهم يضرب ظهره بالسلاسل والأغلال ، وبينهم جواد عليه طفل تسيل دماؤه على وجهه وصدره ، وجواد آخر يمثل حمل الرأس الشريف ، وهكذا كل امرئ منهم يبدى مايقدر عليه مما يراه قربة الى الإمام الحسين رضى الله عنه ، فمتى انتظموا ساروا نحو المشهد ثم رجعوا بسلام

وقد ذكر المقريزى أنهم كانوا يحرمون عليهم وعلى الناس شرب الماء فى ذلك اليوم ؛ لأن الإمام الحسين قتل عطشان فكانوا يشقون قرب السقايين ويكسرون أوانى الشرب فى الأسواق ، ويسبون من ينفق على عياله فيه ، وكان يعظم فيه خوف الناس منهم فيغلقون الحوانيت وأبواب الديار ، وتتعطل الأسواق ،

ولم يبق ولله الحمد من هذا كله شىء الآن سوى ما ذكر من إحياء الليلة فى المسجد الحسينى

العظات والعبر من قصة مصرع الحسين رضي الله عنه

كما ذكرها المرحوم على بك جلال الحسيني فى كتابه

كما أن حياة الحسين رضى الله عنه منار المهتدين ، فمصرعه عظة المعتبرين ، وقدوة المستبسلين

١ - ألم تر كيف اضطره نكد الدنيا الى إيثار الموت على الحياة ، وهو أعظم رجل فى وقته لا نظير له فى شرقها ولا فى غربها

٢ - وأبت نفسه الكريمة الضيم ، واختار السلَّة على الذلة ، فكان كما قال فيه أبو نصر بن نباتة :

« والحسين الذى رأى الموت فى العز
حياةً والعيش فى الذل قتلاً »

٣ - ومع التفاوت الذى بلغ أقصى مايتصور بين فئته القليلة وجيش ابن زياد فى العدد والعدد والمدد ، قد كان ثباته ورباطة جأشه وشجاعته تحير الألباب ، ولا عهد للبشر بمثلها ؛ كما كانت دناءة أخصامه لاشبيه لها

٤ - وما سمع منذ خلق ، ولن يسمع حتى يفنى أفظع من ضرب (ابن مرجانة) من ابن سُمية بقضيب ثغر ابن بنت رسول الله ، ورأسه بين يديه بعد أن كان سيد الخلق عليه الصلاة والسلام يلثمه

٥ ـ ومن آثار العدل الإلهى قتل عبيد الله بن زياد (يوم عاشوراء) كما قتل الحسين رضى الله عنه يوم عاشوراء ، وأن يبعث برأسه الى على ابن الحسين كما بعث برأس الحسين الى ابن زياد

٦ ـ وهل أمهل يزيد بن معاوية بعد الحسين إلاّ ثلاث سنين أو أقل ، فقد روى بن جرير الطبرى فى تاريخه عن هشام بن محمد الكلبى أنه ولى سنتين وثمانية أشهر

٧ ـ وأى موعظة أبلغ من أن كل من اشترك فى دم الحسين اقتص الله تعالى منه فقتل أو نكب

٨ ـ وأى عبرة لأولى الأبصار أعظم من كون ضريح الحسين حرماً معظماً ، وقبر يزيد بن معاوية مزبلةً أو (مبولة)

٩ ـ وتأمل عناية الله بالبيت النبوى الكريم بقتل أبناء الحسين ولا يترك منهم إلاّ صبى مريض مشرف على الهلاك ، فيبارك الله فى أولاده فيكثر عددهم ويعظم شأنهم

١٠ ـ والذين قتلوا مع الحسين من أهل بيته رجال ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه ، كما قال الحسن البصرى ، وكانوا عنوان الشهامة والشمم والقدوة فى الصبر والحرب والكرم

« وإنّ الأولى بالطفّ من آل هاشم
تأسوا فسنوا للكرام التآسيا »

١١ - وكل من أصابته الشدائد جعل رئيس هؤلاء الكرام أسوة كمصعب بن الزبير و بنى المهلب وغيرهم كما اقتدى أصحاب نجدة بن عامر ، والمختار بن أبى عبيد ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم فى خذلان أمرائهم بأهل العراق حين خذلوا إمامهم الحسين

١٢ - ومقتل الحسين بَغَّضَ بنى أمية الى الناس وأيد حجة أعدائهم وزعزع أوتاد ملكهم ، وكان أكبر أسباب زوال دولتهم

١٣ - والحسين هو الذى عبَّد للأمم طريق الخروج على ولاة الفسق والجور ، ودعا الى جهاد الظلم من استطاع اليه سبيلا ، فجاد بنفسه ، و بذل مهجته لإقامة الحق والعدل والسنة مقام الباطل ، والاستبداد والإهواء

١٤ - ولو قدرت ولاية الحسين لكان خيراً للأمة فى حكومتها وحياتها ، وأخلاقها وجهادها ، وشتان مابين السبط الزكى ، والظالم السكير (يزيد القرود والطنابير) وهل يستوى الفاسق الجائر ، والعادل الإمام ؟ وأين الذهب من الرغام ؟

ولكن اقتضت الحكمة الإلهية سير الحوادث بخلاف ذلك ، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له

١٥ - واقتضت إرادة الله أيضاً أن يبقى أثر جهاد الحسين على ممر الدهور كلما أرهق الناس الظلم تذكرة لمن ندب نفسه لخدمة الأمة ، فلم يحجم عن بذل حياته متى كانت فيه مصلحة أحوالها

٣- الامام على زين العابدين

ابن الحسين رضى الله عنهما

ولد سنة ٣٨ هـ - وتوفى سنة ٩٤ هـ

مولده - ولد زين العابدين رضى الله عنه بالمدينة الشريفة يوم الخميس خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة فى أيام جَدِّه على بن أبى طالب ، وقبل وفاته بسنتين

كنيته - المشهورة (أبو الحسن) وقيل : أبو محمد : وقيل : أبو بكر وقال الإمام مالك رضى الله عنه سمى زين العابدين لكثرة عبادته

ألقابه - كثيرة أشهرها : زين العابدين ، وسيد العابدين ، والزكى والأمين، وذوالنفقات نقش على خاتمه ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ ﴾

نسبه الشريف - أبوه الحسين بن على رضى الله عنهما . وأمه . (سلافة) ولقبها (شاه زنان) ومعناها بالفارسية (ملكة النساء) وهى بنت (يزد جرد) ولد (أنوشروان العادل) ملك الفرس

نشأته - كان زين العابدين مع أبيه (بكربلاء) مريضاً نائماً على الفراش فلم يقتل ، قاله ابن عمر رضى الله عنهما

مناقبه

علمه وورعه ـ قال محمد بن سعيد . على بن الحسين كان ثقة ، كثير الحديث ، عالماً رفيعاً ، ورعاً . وقال ابن تيمية على بن الحسين من كبار التابعين وساداتهم علماً ودينا

وقال الزهرى : ما رأيت أفقه منه

وقال ابن المسيب: مارأيت أورع منه

حلمه وعفوه واحسانه ـ عن سفيان قال : جاء رجل الى على بن الحسين رضى الله عنهما فقال له : ان فلانا قد وقع فيك بحضورى (أى كان يغتابه) فقال له . انطلق بنا اليه ، فانطلق معه وهو يرى انه سينتصر لنفسه منه ، فلما أتاه قال له ياهذا إن كان ما قلته فىّ حقاً فأنا أسأل الله أن يغفر لى ، وإن كان ما قلته فىّ باطلاً فالله تعالى يغفره لك ، ثم ولى عنه

ويحكى : أنه خرج الى المسجد للصلاة فسبه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه لأنه شتم سيدهم ، فنهاهم سيدنا زيد العابدين وقال لهم : كفوا أيديكم عنه ، ثم التفت الى ذلك الرجل وقال . يا هذا أنا أكثر مما تقول ، ومالا تعرفه عنى أكثر مما عرفته ، فان كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك . (يريد أن يقول عيوبى كثيرة ، وأن الكلام الذى تسبنى

وتشتمنى به أقل من عيوبى) وإن كنت تريد أن أذكر لك بعض هذه العيوب ذكرتها لك

فخجل الرجل واستحى ، لأنه كان ينتظر أن يشتمه سيدنا زين العابدين بدل أن يلاطفه ويرد عليه بهذا القول اللين والرد الجميل . فلما رأى خجله سيدنا زين العابدين خلع عليه قميصه ، وأمر له بألف درهم زيادة عن تركه وملاطفته وعدم إيذائه، فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

تعبده وصلاحه

عن أبى حمزة قال : كان على بن الحسين رضى الله عنه يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، وكان اذا توضأ للصلاة يصفر لونه ، فقيل له : ما هذا الذى نراه يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أما تدرون مَن أريد أن أقف بين يديه ؟

وقال طاووس : دخلت الحجر فى الليل فاذا على بن الحسين قد دخل ، فقام يصلى ماشاء الله ، ثم سجد سجدة فأطالها فقلت : رجل صالح من بيت النبوة لأصغين اليه ؟ فسمعته يقول : عبدك بفنائك ، مسكينك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، سائلك بفنائك

قال طاووس . فو الله ما صليت ودعوت بهن فى كرب إلا فرج الله عنى

تصدقه وكرمه

قال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : مافقدنا صدقة السرّ إلا بعد موت على بن الحسين

وقال محمد بن اسحٰق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لايدرون من أين معاشهم ومآكلهم ، فلما مات على بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلى منازلهم

وكان يحمل جراب الخبز على ظهره فى الليل يتصدق به ، فلما غسلوه جعلوا ينظرون الى سواد فى ظهره فقيل : ما هذا ؟ فقالوا . كان يحمل جراب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة : ولما مات رضى الله عنه فى سنة خمس وتسعين وجدوه كان يقوت أهل مائة بيت

وقال سفيان : أراد على بن الحسين الحج ، فانفذت اليه أخته سكينة ألف درهم فلحقوه بها بظهر الحرة فلما نزل فرقها على المساكين

وقال المناوى : دخل علىّ على زين العابدين رضى الله عنه فى

مرض موته محمد بن أسامة بن زيد يبكى ، فقال له : مايبكيك ؟ فقال له : علىّ دين خمسة عشر ألف دينار ، فقال : هى على ، ووفاها رضى الله عنه

حب الناس له

لما مرض دخل عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودونه فقالوا له كيف أصبحت يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فدتك أنفسنا : قال : فى عافية ، والله محمود على ذلك ، فكيف أصبحتم أنتم جميعاً ؟ قالوا : أصبحنا والله لك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم محبين وادين

فقال لهم : من أحبنا لله أسكنه الله فى ظل ظليل يوم القيامة ، يوم لاظل إلا ظله ، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا الجنة ، ومن أحبنا لغرض ديننا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب

حسن خلقه

يحكى أنه طلب غلامه (خادمه) وناداه مرتين فلم يجبه مع انه سمع فقال له : أما سمعت بدائى ؟ فقال : بلى ، قد سمعت

فقال له : ماالذى حملك على ترك إجابتى ؟

فقال : أمنت منك ، وعرفت حسن خلقك ، وطمعت فى حلمك ، فتكاسلت وأبطأت فى الإجابة ، فسر زين العابدين من حسن إجابته وقال : الحمد لله الذى آمن منى عبدى

فضله وتعظيمه

يحكى أن هشام بن عبد الملك حجّ فى حياة أبيه ، فطاف بالبيت وجهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يصل اليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبراً الى جانب زمزم فى الحطيم وجلس عليه ينظر اليه الناس وحوله جماعة من أهل الشام

فبينما هم كذلك إذ أقبل زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما يريد الطواف ، فلما انتهى الى الحجر الأسود تنحى الناس له حتى استلم الحجر. فقال رجل من أهل الشام :

من هذا الذى قد هابه الناس هذه المهابة فتنحوا عنه يميناً وشمالا ؟

فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان الفرزدق الشاعر المشهور حاضراً فقال للشامى : أنا أعرفه . فقال : مَن هو يا أبا فراس ؟ فقال قصيدة طويلة نكتفى بذكر بعضها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ

هـذا ابن خـير عباد الله كلهم ... هـذا التقى النقى الطاهر العَلمُ

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قدختموا
مَن جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
الله شرفه قدماً وعظمه ... جرى بذلك له فى لوحه القلمُ
سَهل الخليقة لا تُخشى بوادرُه ... يزَينه اثنان حُسن الخَلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا افترضوا ... حُلو الشمائل تحَلوا عنده نعمُ
إذا رأته قريش قال قائلها ... الى مكارم هذا ينتهى الكرم

فلما سمع هشام هذه القصيدة غضب ؛ ثم أخذ الفرزدق وسجنه (بعسفان) فبلغ ذلك على بن الحسين رضى الله عنه فبعث اليه بأربعة آلاف درهم فردها الفرزدق وكتب اليه : إنما مدحتك بما أنت أهله ، فردها عليه على رضى الله عنه وكتب اليه : أن خذها وتعاون بها على دهرك، فانا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لانستعيده ؛ فقبلها منه

وفاته

توفى زين العابدين رضى الله عنه فى ثانى عشر المحرم سنة أربع وتسعين من الهجرة وكان عمره إذ ذاك سبعاً وخمسين سنة

وقال ابن الصباغ المالكى المكى : يقال : مات مسموماً وأن الذى سمه الوليد بن عبد الملك

ودفن (بالبقيع) فى القبر الذى دفن فيه عمه الحسن بن على بن أبى طالب فى القبة التى فيها العباس بن عبد المطلب

أولاده

أولاده رضى الله عنهم أربعة عشر ولداً: عشرة ذكور، وأربع اناث وهم: محمد، المكنى بأبى جعفر الملقب بالباقر، أمه أم عبد الله بنت الحسن بن على عم زين العابدين، وزيد، وعمر، أمهما أم ولد - وعبد الله، والحسن، والحسين، أمهم أم ولد - والحسين الأصغر، وعبد الرحمن، وسليمان، أمهم أم ولد - وعلى وكان أصغر ولد على بن الحسين

وخديجة، وفاطمة، وعلية، وأم كلثوم

نبذ من كلامه وحكمه رضى الله عنه

من كلامه رضى عنه. عجبت لمن يحتمى من الطعام لمضرته، ولا يحتمى من الذنب لموته

وقال رضى الله عنه: أربع عزهن ذل: البنت (ولو مريم) والدَّين (ولو درهم)، والغربة (ولو ليلة)، والسؤال (ولوا أين الطريق ؟)

وقال رضى الله عنه: من قنع بما قسم الله فهو من أغنى الناس

وكان يتصدق سراً ويقول: صدقة السرّ تطفئ غضب الرب

٤ - الإمام محمد الباقر

ولد سنة ٥٧ هـ - وتوفى سنة ١١٧ هـ

نسبه - هو ابن سيدنا على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما ، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، فهو هاشمى من هاشميين وعلوى من علويين .

مولده - ولد بالمدينة فى ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل جده الحسين بثلاث سنين .

كنيته - أبو جعفر لا غير .

ألقابه - وألقابه ثلاثة : الباقر ، والشاكر ، والهادى ، وأشهرها الباقر .

الأحاديث التى وردت بشأنه

روى عن الزبير بن محمد بن مسلم المكى قال : كنا عند جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فأتاه على بن الحسين ومعه ابنه محمد وهو صبى فقال على لابنه وهو صبى : قبل رأس عمك ، فدنا محمد من جابر فقبل رأسه ، فقال جابر : مَن هذا ؟ - وكان قد كف بصره - فقال له على ابن الحسين : هذا ابنى محمد ، فضمه جابر إليه وقال : يا محمد ، محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ، فقالوا : كيف ذلك يا أبا عبد الله ؟

قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسين فى حجره وهو يلاعبه فقال :

« يا جابر ، يولد لابنى الحسين ابن يقال له : على . فإذا كان يوم القيامة ينادى مناد ، ليقم سيد العابدين ، فيقوم على بن الحسين ، ويولد لعلى بن الحسين ابن يقال له : محمد . يا جابر ، إن أدركته فأقرئه منى السلام ، وإن لاقيته فاعلم أن بقاءك بعده قليل » فلم يعش جابر رضى الله عنه بعد ذلك غير ثلاثة أيام .

وروى : أن محمد الباقر بن على سأل جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما لما دخل عليه عند عائشة وما جرى بينها وبين على رضى الله عنهما ، فقال له جابر : دخلت عليها يوماً وقلت لها : ما تقولين فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ؟

فأطرقت رأسها ، ثم رفعته ، وقالت رضى الله عنها :

« إذا ماالتبر حكّ على محك تبين غشه من غير شك »

« وفينا الغش والذهب المصفّى عَلِىٌّ بيننا شبه المحك »

مناقبه

علومه — قيل : لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين من علم الدين والسنن ، وعلم القرآن والسير وفنون الأدب ، ما ظهر عن أبى جعفر الباقر ، روى معالم الدين عن بقايا الصحابة ووجوه التابعين ، وسارت بذكر علومه الأخبار ، وأنشدت فى مدائحه الأشعار ، فمن ذلك ما قاله مالك بن أعين الجهنى من قصيدة يمدحه فيها :

« إذا طلب الناسُ علم القُرَا ن كانت قريش عليه عيالا »

« وإن فاه ابن بنية النبى تلقت يداك فروعاً طوالا »

وفيه يقول الرضى :

« يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لَبّى على الأجْبُلِ »

تقواه

حكى الأفلح فقال : حججت مع أبى جعفر محمد الباقر فلما دخل المسجد ونظر البيت بكى ، فقلت بأبى أنت وأمى إن الناس ينظرون إليك فلو خفضت صوتك قليلا .

فقال : ويحك يا أفلح ، ولِمَ لا أرفع صوتى بالبكاء لعلّ الله ينظر إلىّ برحمة منه فأفوز بها غداً .

ثم طاف بالبيت وجاء حتى ركع خلف المقام ، فلما فرغ ، إذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه .

وكان نقش خاتمه : (رب لا تذرنى فرداً) وقيل : « ظنى بالله حسن ، و بالنبى المؤتمن ، و بالوحى ذى المنن ، و بالحسين والحسن » .

وروى عنه ابنه جعفر قال : كان أبى يقول فى جوف الليل فى تضرعه : أمرتنى فلم آتمر ، ونهيتنى فلم أنزجر ، فهأنا عبدك بين يديك مقر لا أعتذر .

قال خالد بن الهيثم : قال أبو جعفر محمد الباقر : ما اغرورقت عين من خشية الله تعالى إلا حرّم الله وجه صاحبها على النار ، فان سالت على الخدين دموعه لم يرهق وجهه قترٌ ولا ذلة ، وما من شىء إلّا وله جزاء إلّا الدمعة فان الله تعالى يكفر بها بحوراً من الخطايا ، ولو أن باكياً يبكى فى أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .

كرمه وجوده

حكت سلمى مولاة أبى جعفر : أنه كان يدخل عليه بعض إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ويكسوهم فى بعض الأحيان و يعطيهم الدراهم .

قالت : فكنت أكلمه فى ذلك لكثرة عياله ، وتوسط حاله ،

فيقول : يا سلمى ماحسنة الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف ، فكان يصل بالخمسمائة درهم وبالستمائة الى ألف درهم

وفاته

مات أبو جعفر محمد الباقر سنة سبع عشرة ومائة وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل : ثمان وخمسون ، وأوصى أن يكفن فى قميصه الذى كان يصلى فيه ، وقيل : انه مات مسموماً كأبيه ودفن بقبة العباس بالبقيع

أولاده

أولاده رضى الله عنه ستة ، وقيل : سبعة وهم :

أبو عبد الله جعفر الصادق وكان يكنى به ، وعبد الله ، أمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابراهيم ، وعبد الله ، وأمهما أم حكيم بنت أسد بن المغيرة الثقفية ، وعلى ، وزينب ، لأم ولد

نبذ من كلامه

من كلامه رضى الله عنه : مادخل قلب امرئ شئ من الكبر إلا نقص من عقله مثل ذلك قل أو كثر

وقال : سلاح اللئام ، قبح الكلام

وكان يقول : والله لموت عالم أحب الى الشيطان من موت سبعين عابداً

وقال : شيعتنا من أطاع الله

وقال : الغنى والفقر يجولان فى قلب المؤمن ، فاذا وصلا الى مكان التوكل استوطناه

وقال : الصواعق تصيب المؤمن وغيره ، ولا تصيب ذاكر الله عزوجل

وقال : مامن عبادة أفضل من عفة بطن وفرج

وقال : بئس الأخ يرعاك غنياً ، ويقطعك فقيراً

وقال : اعرف المودة فى قلب أخيك بما له فى قلبك

مواعظه

وقال لابنه جعفر الصادق رضى الله عنهما : يابُنى إذا أنعم الله عليك نعمةً فقل : الحمد لله ، وإذا أحزنك أمر فقل : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وإذا أبطأ عليك الرزق فقل : أستغفر الله

وقال لابنه جعفر الصادق رضى الله عنهما : يا بُنى إن الله خبأ ثلاثة أشياء فى ثلاثة أشياء . خبأ رضاه فى طاعته ، فلا تحقرن من الطاعات شيئاً فلعلّ رضاه فيه وخبأ سخطه فى معصيته ، فلا تحقرن من معصيته شيئاً فلعلّ سخطه فيه

وخبأ أولياءه فى خلقه فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولى

وقال لجابر الجعفى : ياجابر إنى لمشتغل القلب . قلت : وما يشغل قلبك ؟ قال : ياجابر إن من يدخل قلبه دين الله الخالص شغله عما سواه

ياجابر ، ما الدنيا وما عسى أن تكون ؟ هل هى إلاّ مركب ركبته ، أو ثوب لبسته ، أو امرأة أصبتها

ياجابر ، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لزوالها ، ولم يأمنوا الآخرة لأهوالها ، وإن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونةً ، وأكثرهم لك معونةً ، إن نسيت ذكّروك ، وإن ذكرت أعانوك ، أليسوا قوّالين لحق الله ؟ قائمين بأمرالله ، فاجعل الدنيا كمنزل نزلت به وارتحلت منه ، وكمال أصبته فى منامك ثم استيقظت وليس معك منه شىء ، واحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته

٥ - الإمام جعفر الصادق

ولد سنة ٨٠ — وتوفى سنة ١٤٨ هـ

نسبه سيدنا جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ابن الحسين ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وأمه أم فروة بنت القاسم ابن محمد ، بن أبى بكر الصديق

مولده — ولد بالمدينه سنة ثمانين من الهجرة وقيل ، سنة ثلاث وثمانين ، قال بعضهم : الأول أصح

كنيته — أبو عبد الله ، وقيل : أبو اسماعيل

ألقابه — أما ألقابه ثلاثة : الصادق والفاضل ، والطاهر ، وأشهرها الصادق ، ونقش خاتمه (ما شاء الله ، لا قوة إلاّ بالله ، أستغفر الله)

مناقبه

علمه — كان عالماً ثقة ، روى عنه جماعة من أعيان الأئمة وأعلامهم ، كيحيى بن سعيد ، وابن جريج ، ومالك بن أنس ، والثورى ، وابن عيينة ، وأبى حنيفة ، وغيرهم

قال ابن أبى حازم : كنت عند جعفر الصادق يوماً وإذا بسفيان

الثورى بالباب ، فقال : ائذن له . فدخل ، فقال له جعفر : ياسفيان إنك رجل يطلبك السلطان فى بعض الأحيان ، وتحضر عنده وأنا أتقى السلطان ، فاخرج عنى ، غير مطرود

قال سفيان : حدثنى حديثاً أسمعه منك وأقوم

فقال : حدثنى أبى عن جدى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله ، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزنه أمر فليقل : لاحول ولاقوة إلاّ بالله

فلما قام سفيان قال جعفر : خذها ياسفيان ثلاثاً وأى ثلاث ؟

وقال ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب : كتاب الجفر كتبه الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر رضى الله عنهما ، فيه كل مايحتاجون الى علمه الى يوم القيامة ، والى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعرى بقوله :

لقد عجبوا لآل البيت لما ... أتاهم علمهم فى جلد جفر

ومرآة المنجم وهى صغرى ... ترية كل عامرة وقفر

(والجفر من أولاد المعز مابلغ أربعة أشهر وانفصل عن أمه)

وفى الفصول المهمة نقل بعض أهل العلم أن كتاب الجفر الذى بلغ بالغرب يتوارثه بنو عبد المؤمن بن على من كلام جعفر الصادق وله فيه المنقبة السنية ، والدرجة التى فى مقام الفضل علية

عبادته وتقواه

قال محمد بن طلحة : كان جعفر الصادق يقسم أوقاته على أنواع الطاعات ويحاسب نفسه عليها

وكان يقول : اللّهم إنك بما أنت له أهل من العفو أولى بما أنا له أهل من العقوبة

نبذ من كلامه وحكمه

قال جعفر الصادق رضى الله عنه : للصداقة خمسة شروط فمن كانت فيه فانسبوه اليها ، ومن لم تكن فيه فلا تنسبوه الى شيء منها وهى : أن يكون زين صديقه زينه ، وسريرته له كعلانيته ، وألا يغره عليه مال ، وأن يراه أهلا لجميع مودته ، ولا يسلمه عند النكبات

ومن كلامه رضى الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاث : تعجيله ، وتصغيره ، وستره

وقال رضى الله عنه : ما كل من رأى شيئاً قدر عليه ، ولا كل من قدر على شيء وفق له ، ولا كل من وفق أصاب له موضعاً ، فاذا اجتمعت النية ، والتوفيق ، والاصابة فهناك السعادة

وقال رضى الله عنه : تأخير التوبة اغترار ، وطول التسويف حيرة

والاعتلال على الله هلكة ، والإصرار على الذنب من مكر الله ﴿ ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾

وقال رضى الله عنه : أربعة أشياء القليل منها كثير : النار ، والعداوة ، والفقر ، والمرض

وسُئل : لِم سُمى البيت العتيق ؟ قال : لأن الله تعالى أعتقه من الطوفان

وقال : صحبة عشرين يوماً قرابة

وقال : كفارة عمل الشيطان ، الإحسان إلى الإخوان

وقال : إذا دخلت منزل أخيك فاقبل الكرامة ما خلا الجلوس فى الصدور .

وقال : البنات حسنات ، والبنون نعم ، والحسنات يثاب عليها ، والنعم مسئول عنها

وقال : مَن لم يستح عند العيب ، ويرعوى عند الشيب ، ويخش الله بظهر الغيب ، فلا خير فيه

وقال : إياكم وملاحاة الشعراء فإنهم يضنون بالمدح ، ويجودون بالهجاء والقدح .

وقال : مَن أكرمك فأكرمه ، ومَن استخف بك فأكرم نفسك عنه

وقال : منع الجود ، سوء الظن بالمعبود

وقال : دعا الله الناس فى الدنيا بآبائهم ليتعارفوا ، ودعاهم فى الآخرة بأعمالهم ليجازوا ، فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

وقال : إن عيال المرء أسراؤه ، فمن أنعم الله عليه نعمة فليوسع على أسرائه فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة

وقال : ثلاثة لا يزيد الله بها الرجل المسلم إلاَّ عزًّا : الصفح عمن ظلمه ، والإعطاء لمن حرمه ، والصلة لمن قطعه

وقال : المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق ، وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل

وصيته الجامعة لمكارم الأخلاق

قال بعض شيعة جعفر الصادق : دخلت عليه ، وموسى ولده بين يديه ، وهو يوصيه بهذه الوصية ، فحفظتها فكان مما أوصى به أن قال :

يا بُنى ، اقبل وصيتى ، واحفظ مقالتى ، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً ، وتمت حميداً

يا بُنى ، إنه من قنع بما قسم الله له استغنى ، ومَن مدَّ عينيه إلى ما فى يد غيره مات فقيراً ، ومَن لم يرض بما قسم الله له اتهم ربه فى قضائه ، ومَن استصغر زلة نفسه استصغر زلة غيره

يابُنى ، مَن كشف حجاب غيره انكشفت عورته ، ومَن سلّ سيف البغى قتل به ، ومَن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها ، ومَن واصل السفهاء حُقِّر ، ومَن خالط العلماء وُقِّر ، ومَن دخل مداخل السوء اتهم

يابُنى ، قل الحق لك أو عليك ، وإياك والنميمة فانها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال

يابُنى ، إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه ، فان للجود معادن ، وللمعادن أصولاً ، وللأصول فروعاً ، وللفروع ثمراً ، ولا يطيب ثمر إلا بفروع وأصل ، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب

يابُنى ، إذا زرت فزر الأخيار ، ولا تزر الأشرار ، فانهم صخرة لا يتفجر ماؤها ، وشجرة لا يخضر ورقها ، وأرض لا يظهر عشبها

وقال أحمد بن عمر بن مقدام الرازى : وقع الذباب على وجه المنصور فذبّه ، فعاد حتى أضجره ، وكان عنده جعفر الصادق بن محمد الباقر فى ذلك الوقت فقال له المنصور : يا أبا عبدالله لِمَ خلق الله الذباب ؟ قال : ليذل به الجبابرة ، فسكت المنصور

قال سفيان الثورى : سمعت جعفر الصادق يقول : عزّت السلامة حتى لقد خفى مطلبها فان تك فى شىء فيوشك أن تكون فى الخمول ، وإن طلبت فى الخمول فلم توجد فيوشك أن تكون فى العزلة والخلوة ، فان لم توجد

فى العزلة والخلوة فيوشك أن تكون فى كلام السلف ، والسعيد من وجد فى نفسه خلوة تشغله عن الناس.

وروى محمد بن حبيب عن جعفر الصادق بن محمد عن أبيه عن جده ورفعه قال : مامن مؤمن أدخل على قومه سروراً إلّا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله بحمده ويمجّده ، فاذا صار المؤمن فى لحده أتاه ذلك السرور الذى أدخله على أولئك ملكاً فيقول : أنا اليوم أونس وحشتك ، وألقنك ، وأثبتك بالقول الثابت ، وأشهدبك مشاهد القيامة ، وأشفع لك الى ربك ، وأريك منزلتك فى الجنة ، كذا فى الفصول المهمة .

وفاته

توفى جعفر الصادق رضى الله عنه ابن محمد سنة ثمان وأربعين ومائة فى شوال وله من العمر ثمان وستون سنة ويقال : انه مات بالسم فى أيام المنصور، ودفن بالبقيع فى القبر الذى دفن فيه أبوه وجده وعم جده ، فياله من قبر شريف ما أكرمه وما أشرفه .

أولاده

أولاده رضى الله عنه كانوا سبعة وقيل أكثر: ستة ذكور وبنت واحدة وهم . اسماعيل ، ومحمد ، وعلى ، وعبد الله ، واسحٰق ، وموسى الكاظم . والبنت اسمها فروة ، كذا فى الفصول المهمة.

٦ - الإمام موسى الكاظم

ولد سنة ١٢٨ - وتوفى سنة ١٨٣ هـ

نسبه - هو ابن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، ابن الحسين ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وأمه أم ولد يقال لها حميدة البربرية .

مولده - ولد (بالأبواء) سنة ثمان وعشرين ومائة من الهجرة .

كنيته - أبو الحسن .

ألقابه - ألقابه كثيرة أشهرها الكاظم ثم الصابر والصالح والأمين ، ولقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسىء إليه ويكظم غيظه . ونقش خاتمه (الملك لله وحده) .

مناقبه

علمه وفضله

قال بعض أهل العلم : الكاظم ، هو الإمام الكبير القدر ، الأوحد الحجة ، الحبر ، جمع من الفقه والدين مالا مزيد عليه .

تعبده

كان أعبد أهل زمانه ، الساهر ليله قائماً ، القاطع نهاره صائماً ، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظماً ، وهو المعروف عند أهل العراق بباب الحوائج إلى الله ، وذلك لنجح قضاء حوائج المتوسلين به .

دعاؤه - كان كثيراً ما يدعو بقوله : اللّهم إنى أسألك الراحة عند الموت ، والعفو عند الحساب .

كرمه وسخاؤه - كان يخرج بالليل وفى كمه صرر من الدراهم ، فيعطى مَن لقيه ، ويضرب به المثل (بصرة موسى) وكان رضى الله عنه أسخاهم كفاً ، وأكرمهم نفساً .

وكان يتفقد فقراء المدينة فتحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم ليلا ، وكذلك النفقات ، ولا يعلمون من أى جهة وصلهم ذلك ، ولم يعلموا بذلك إلّا بعد موته .

حكايته مع الرشيد

سأله الرشيد يوماً فقال : كيف قلتم نحن ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم بنو على ، وإنما ينسب الرجل إلى جده لأبيه دون جده لأمه ؟

فقال الكاظم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ . وليس لعيسى أب وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه ، وكذلك ألحقنا بذرية النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمنا فاطمة .

وزيادة على ذلك يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ .

ولم يدع صلى الله عليه وسلم عند مباهلة النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم وهم الأبناء .

وروى موسى الكاظم عن آبائه مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نظر الولد إلى والديه عبادة .

وعن اسحق بن جعفر قال : سألت أخي موسى الكاظم ابن جعفر قلت : أصلحك الله أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . فقلت : أيكون خائناً ؟ قال : لا ، ولا يكون كذاباً .

ثم قال : حدثني أبي جعفر الصادق عن آبائه رضى الله عنهم قال : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل خلة يطوى المؤمن عليها ليس الكذب والخيانة .

وفاته - توفى ببغداد لخمس بقين من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة وله من العمر خمس وخمسون سنة . وقيل : إنه مات مسموماً من طعام قدمه له (السندى) بأمر الرشيد بعد أن حبس مدة سنة بالبصرة بسبب الفتنة التى وصلت إلى الرشيد فى حقه ، وسعاية الواشين ضده بالغيبة والنميمة ، وهذه الرواية مذكورة فى كتاب نور الأبصار .

ولما مات أدخل (السندى) الفقهاء ووجوه أهل بغداد ينظرون إليه أنه ليس به أثر ، من جرح أو قتل أو خنق ، وأنه مات حتف أنفه ليدارى سوء فعله .

ودفن موسى الكاظم فى مقابر قريش بباب التين ببغداد .

أولاده - أولاده سبعة وثلاثون ولداً ما بين ذكر وأنثى وهم :

على الرضا ، وإبراهيم ، والعباس ، والقاسم ، وإسماعيل ، وجعفر ، وهارون ، والحسن ، وعبد الله ، وإسحق ، وعبد الله ، وزيد ، والحسن ، وأحمد ، ومحمد ، والفضل ، وسليمان ، وفاطمة الكبرى ، وفاطمة الصغرى ، ورقية ، وحليمة ، وأم أسماء ، ورقية الصغرى ، وأم كلثوم ، وميمونة ، وغيرهم .

٧ - الامام على الرضا

ولد سنة ١٤٨ — وتوفى سنة ٢٠٣ هـ

نسبه - هو ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، وأمه أم ولد يقال لها : أم البنين واسمها (أروى)

مولده — ولد بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة من الهجرة

كنيته — أبو الحسن

ألقابه — الرضا ، والصابر ، والزكى ، والولى . وأشهرها الرضا ، ونقش خاتمه (حسبى الله)

مناقبه

علمه وفضله - قال إبراهيم بن العباس : مارأيت الرضا سُئل عن شىء إلا علمه ، ولا رأيت أعلم منه بما كان فى الزمان الى وقت عصره وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شىء فيجيبه الجواب الشافى الكافى

تعبده - وكان قليل النوم ، كثير الصوم ، لايفوته صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، ويقول : ذلك صيام الدهر

معروفه وتصدقه ـ وكان كثير المعروف والصدقة ، وأكثر ما يكون ذلك منه فى الليالى المظلمة

كرمه وجوده — من كرمه أن أبا نواس مدحه بأبيات فأمر غلامه بأن يعطيه ثلاثمائة دينار كانت معه ، ومدحه دعبل الخزاعى بقصيدة طويلة فأنفذ إليه صرة فيها مائة دينار واعتذر إليه

زهده وورعه — كان زاهداً ورعاً وكان جلوسه فى الصيف على حصير وفى الشتاء على مسح

قال إبراهيم بن العباس : سمعت الرضا يقول وقد سأله رجل : يكلف الله العباد مالا يطيقون ؟ فقال هو أعدل من ذلك . قال فيقدرون على كل مايريدون . قال : هم أعجز من ذلك . وعن ياسر الخادم قال : سمعت على الرضا ابن موسى يقول : أوحش ما يكون هذا الخلق فى ثلاثة مواضع : يوم يولد الى الدنيا ويخرج المولود من بطن أمه فيرى الدنيا ويوم يموت فيرى الآخرة وأهلها ، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها فى دار الدنيا ، وقد سلم الله تعالى على يحيى فى هذه الثلاثة المواطن وأمن روعته فقال :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

وقد سلم عيسى بن مريم على نفسه فى هذه الثلاثة المواطن فقال :
﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

ترشيحه للخلافة من قبل المأمون

ذكر جماعة من أصحاب السير ، ورواة الأخبار بأيام الخلفاء أن المأمون لما أراد ولاية العهد للرضا وحدث نفسه بذلك ، وعزم عليه أحضر الفضل بن سهل وأخبره بما عزم عليه وأمره بمشاورة أخيه الحسن فى ذلك ، فاجتمعا وحضرا عند المأمون ، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما فى خروج الأمر عن أهل بيته ، فقال المأمون : إنى عاهدت الله تعالى إنى إن ظفرت بالمخلوع سلمت الخلافة إلى أفضل بنى طالب وهو أفضلهم ولا بد من ذلك .

فلما رأيا تصميمه وعزيمته على ذلك أمسكا عن معارضته فقال :

تذهبان الآن إليه ، وتخبرانه بذلك عنى ، وتلزمانه به ، فذهبا إلى على الرضا وأخبراه بذلك وألزماه ، فامتنع فلم يزالا به حتى أجاب ، على أنه لا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يعزل ، ولا يولى ، ولا يتكلم بين اثنين فى حكومة ، ولا يُغير شيئاً مما هو قائم على أصله ؛ فأجابه المأمون إلى ذلك .

ثم ان المأمون جلس مجلساً خاصاً لخواص أهل دولته من الأمراء والوزراء والحجاب والكتاب وأهل الحل والعقد ؛ وكان ذلك فى يوم

الخميس لخمس خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين وأحضرهم .

فلما حضروا قال للفضل بن سهل : أخبر الجماعة الحاضرين برأى أمير المؤمنين فى الرضا على بن موسى وأنه ولاه عهده ، وأمرهم بلبس الخضرة والعودة لبيعته فى الخميس .

فحضروا وجلسوا على حسب طبقاتهم ومنازلهم كل فى موضعه ، وجلس المأمون ، ثم جىء بالرضا فجلس بين وسادتين عظيمتين وضعتا له ، وهو لابس الخضرة وعلى رأسه عمامة متقلد بسيف .

فأمر المأمون ابنه العباس بالقيام إليه ومبايعته أول الناس ، فرفع الرضا يده وجعلها من فوق . فقال المأمون : ابسط يدك ، فقال له الرضا : هكذا كان يبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويده فوق أيديهم . فقال : افعل ما ترى .

ثم وضعت بدر الدراهم والدنانير ، وبقج الثياب والخلع ، وقام الخطباء والشعراء وذكروا ما كان من أمر المأمون من ولاية عهده للرضا وذكروا فضل الرضا ، وفرقت الصلات والجوائز على الحاضرين على قدر مراتبهم . وأول من بدىء به العلويون ثم العباسيون ثم باقى الناس على قدر منازلهم ومراتبهم ، ثم إن المأمون قال للرضا : قم فاخطب الناس ، فقام فحمد الله وأثنى عليه وثنى بذكر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فصلى عليه وقال : أيها الناس إن لنا عليكم

حقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكم علينا حق به ، فإذا أديتم ذلك ، وجب لكم علينا الحكم والسلام .

ولم يسمع منه فى هذا المجلس غير هذا ، وخطب للرضا بولاية العهد فى كل بلد .

« وصورة كتاب العهد الذى كتبه المأمون بخطه للرضا مذكورة فى كتاب (نور الأبصار ، فى مناقب آل بيت النبى المختار) فمن شاء فليطلع عليها لأنها طويلة جداً ولا محل لذكرها هنا .

وقد زوجه المأمون ابنته (أم حبيب) فى أول اثنتين ومائتين والمأمون متوجه إلى العراق وقد ضربت الدنانير باسمه .

وفاته ـ توفى سنة ثلاث ومائتين فى آخر صفر وله من العمر إذ ذاك خمس وخمسون سنة فى قرية يقال لها (سناباد) من (رستاق) من أعمال طوس من خراسان وقبره فى قبلى قبر هارون الرشيد .

أولاده ـ خمسة بنين ، وابنة واحدة وهم : محمد القانع ، والحسن ، وجعفر ، وإبراهيم ، والحسين ، والبنت اسمها عائشة .

٨ - الامام محمد الجواد

ولد سنة ١٩٥ هـ - وتوفى سنة ٢٣٠ هـ

نسبه - هو ابن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين ، بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وأمه أم ولد يقال لها : سكينة المريسية .

كنيته - أبو جعفر ، وكنية جده محمد الباقر ، ولذا يقال له (أبو جعفر الثانى) .

ألقابه - كثيرة منها الجواد ، والقانع ، والمرتضى ، وأشهرها الجواد ونقش خاتمه (نعم القادر الله) .

مولده - ولد بالمدينة تاسع عشر شهر رمضان المعظم سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة .

مناقبه

ذكاؤه ونباهته - اتفق أن المأمون خرج يوماً يتصيد فاجتاز بطريق البلد فوجد صبياناً يلعبون ومحمد الجواد واقف عندهم ؛ فلما أقبل المأمون فرّ الصبيان ووقف محمد مكانه وعمره إذ ذاك تسع سنين ، فلما قرب منه الخليفة

نظر إليه ، فألقى الله فى قلبه حبه ، فقال له : يا غلام ، ما منعك من الانصراف كأصحابك ؟ فقال له محمد مسرعاً : يا أمير المؤمنين لم يكن بالطريق ضيق فأوسعه لك ، وليس لى جرم فأخشاك ، والظن بك حسن ، إنك لا تضر من لا ذنب له .

فأعجبه كلامه ، وحسن صورته ، فقال له : ما اسمك واسم أبيك ؟ فقال : محمد بن على الرضا . فترحم على أبيه ، وساق جواده إلى مقصده .

علمه وفضله وزواجه من بنت المأمون

لقد أحسن المأمون إليه ، وقرّبه وبالغ فى إكرامه ، ولم يزل مشغوفاً به لما ظهر له من فضله وعلمه ، وكمال عقله ، وظهور برهانه ، مع صغر سنه ، وعزم على تزويجه بابنته (أم الفضل) وصمم على ذلك فمنعه العباسيون من ذلك خوفاً من أن يعهد إليه كما عهد إلى أبيه من قبل .

فلما ذكر لهم أنه إنما اختاره لتميزه عن كافة أهل الفضل علماً ومعرفةً وحلماً مع صغر سنه نازعوه فى انتصاف (محمد الجواد) بذلك ، وطلبوا منه اختباره بمعرفة يحيى بن أكثم . فلما امتحنه أجابه إجابات سديدة فقالوا : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فقال المأمون : قد عرفتم الآن ما تنكرون عليه ، والحمد لله على ما مَنَّ به علىَّ من السداد فى الأمر ، والتوفيق فى الرأى ، وأقبل على أبى جعفر

وقال له : إنى مزوجك ابنتى (أم الفضل) رغم أنوف القوم ، فاخطب لنفسك فقد رضيتك لنفسى وابنتى .

فقال أبو جعفر : الحمد لله ، إقراراً بنعمته ، ولا إله إلَّا الله ، إخلاصاً بواحدانيته ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد بريته ، والأصفياء من عترته ، أما بعد ، فقد كان من فضل الله على الأنام ، أن أغناهم بالحلال عن الحرام ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ :

ثم ان محمد بن على بن موسى خطب إلى أمير المؤمنين عبد الله المأمون ابنته (أم الفضل) وقد بذل لها من الصداق مَهرَ جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو خمسمائة درهم جياد) فهل زوجتنى يا أمير المؤمنين إياها على هذا الصداق ؟

قال المأمون : زوجتك ابنتى (أم الفضل) على هذا الصداق المذكور فقال أبو جعفر : قبلت نكاحها لنفسى على هذا الصداق المذكور .

وبعد أن انصرف الناس تقدم المأمون بالصدقة على الفقراء والمساكين ، ولم يزل عنده محمد الجواد معظماً مكرماً إلى أن توجه بزوجته أم الفضل إلى المدينة الشريفة .

وفاته — توفى أبو جعفر محمد الجواد ببغداد ، وكان سبب وصوله إليها إشخاص المعتصم له من المدينة فقدم بغداد ومعه زوجته (أم الفضل) بنت المأمون لليلتين بقيتا من المحرم سنة عشرين ومائتين

وكانت وفاته فى آخر ذى القعدة من السنة المذكورة ودفن فى مقابر قريش فى قبر جده أبى الحسن موسى الكاظم ودخلت امرأته (أم الفضل) فى قصر المعتصم

وكان له من العمر يومئذ خمس وعشرون سنة وأشهر ، ويقال : إنه مات مسموماً ، وان زوجته (أم الفضل) سقته السمّ بأمر أبيها

أولاده — خلف من الولد ، عليًّا ، وموسى ، وفاطمة ، وأمامة

نبذ من كلامه وحكمه

من كلامه رضى الله عنه : أن لله عباداً يخصهم بدوام النعم ، فلا تزال فيهم ما بذلوها ، فإن منعوها نزعها الله عنهم وحولها إلى غيرهم

وقال رضى الله عنه : ما عظمت نعمة الله على أحد ، إلاّ عظمت إليه حوائج الناس، فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرّض تلك النعمة للزوال

وقال رضى الله عنه : أهل المعروف الى اصطناعه أحوج من أهل

الحاجة إليه ؛ لأن لهم أجره ، وفخره ، وذكره ، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه بنفسه

وقال رضى الله عنه : مَن أجلّ إنساناً هابه ، ومن جهل شيئاً عابه ، والفرصة خلسة ، ومن كثر همه سقم جسمه ، وعنوان صحيفة المسلم حسن خلقه ، وفى رواية أخرى : عنوان صحيفة المسلم السعيد حسن الثناء عليه

وقال : من استغنى بالله افتقر الناس إليه ، ومن اتقى الله أحبه الناس

وقال : الجمال فى اللسان ، والكمال فى العقل

وقال : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة البلاء ، والتواضع زينة الحسب ، والفصاحة زينة الكلام ، والحفظ زينة الرواية ، وخفض الجناح زينة العلم ، وحسن الأدب زينة الورع ، وبسط الوجه زينة القناعة ، وترك ما لا يعنى زينة الورع

وقال : حسب المرء من كمال المروءة ألّا يلقى أحداً بما يكره ، ومن حسن خلق الرجل كفّه أذاه ، ومن سخائه برّه بمن يجب حقه عليه ، ومن كرمه إيثاره على نفسه ، ومن إنصافه قبول الحق إذا بان له ، ومن نصحه نهيه عما لا يرضاه لنفسه ، ومن حفظه لجوارك تركه توبيخك عند ذنب أصابك ، مع علمه بعيوبك ، ومن رفقه تركه عذلك بحضرة من تكره ، ومن حسن صحبته لك إسقاطه عنك مؤنة التحفظ ، ومن علامة صداقته كثرة موافقته ،

وقلة مخالفته ، ومن شكره معرفة إحسان من أحسن إليه ، ومن تواضعه معرفته بقدره ، ومن سلامته قلة حفظه لعيوب غيره ، وعنايته بصلاح عيوبه .

وقال رضى الله عنه : العالم بالظلم ، والمعين عليه ، والراضى به ، شركاء .

وقال رضى الله عنه : من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل ، والطامع فى وثاق الذل ، ومن طلب البقاء ، فليعد للمصائب قلباً صبوراً .

وقال رضى الله عنه : العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم .

وقال رضى الله عنه : الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت .

وقال رضى الله عنه : ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله : كثرة الاستغفار ، ولين الجانب ، وكثرة الصدقة .

وقال رضى الله عنه : ثلاث من كن فيه لم يندم :

ترك العجلة ، والمشورة ، والتوكل على الله عند العزم .

وله حكم وأقوال كثيرة نكتفى بما ذكر منها والله أعلم .

٩ - الإمام على الهادى

ولد سنة ٢١٤ - وتوفى سنة ٢٥٤ هـ

نسبه - هو سيدنا على الهادى ، بن محمد الجواد ، بن على الرضا ، ابن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، ابن الحسين ، بن على ، بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وأمه أم ولد يقال لها (سمانة المغربية) .

كنيته - أبو الحسن لا غير .

ألقابه - أما ألقابه فهى : الهادى ، والمتوكل ، والناصح ، والمتقى ، والمرتضى ، والفقيه ، والأمين ، والطيب ، وأشهرها الهادى . وكان ينهى أصحابه عن تلقيبه بالمتوكل لكونه لقباً للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم . ويقال له العسكرى : لأنه أقام بموضع يقال له : العسكر وهو (سُرَّ مَن رأى) ونقش خاتمه (الله ربى وهو عصمتى من خلقه) .

مولده - ولد أبو الحسن الهادى بالمدينة فى رجب سنة أربع عشرة ومائتين للهجرة .

مناقبه

علمه — كان أبو الحسن العسكرى وارث أبيه علماً ومنحاً ، وكان فقيهاً فصيحاً جميلاً مهيباً ، وكان أطيب الناس بهجةً ، وأصدقهم لهجةً

كرمه وزهده وعفته — نقل غير واحد أن أبا الحسن العسكرى خرج يوماً من (سُرّ من رأى) إلى قرية له لمهم ، فجاء رجل من بعض الأعراب يطلبه فى داره فلم يجده وقيل له : انه ذهب إلى الموضع الفلانى ، فقصد إلى ذلك الموضع ، فلما وصل إليه قال له : ما حاجتك ؟ فقال له : أنا رجل من أعراب الكوفة المستمسكين بولاء جَدِّك على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ارتكبتنى الديون ، وأثقلت ظهرى بحملها ، ولم أرَ من أقصده لقضائها . فقال له أبو الحسن : كم دينك ؟ فقال : نحو عشرة آلاف درهم

فقال : طب نفساً ، وقرّ عيناً ، يُقضى دينك إن شاء الله تعالى ، ثم أنزله فلما أصبح الصباح قال له : يا أخا العرب ، أريد منك حاجةً لا تعصينى فيها ولا تخالفنى ، والله الله فيما لَمرك به ، وحاجتك تُقضى إن شاء الله تعالى . فقال الأعرابى : لا أخالفك فى شىء مما تأمرنى به ، فأخذ أبو الحسن ورقة وكتب فيها بخطه (ديناً عليه للأعرابى المذكور) وقال له : خذ هذا الخط معك فإذا حضرت إلى (سُر من رأى) فترانى أجلس مجلساً عامًّا ، فإذا حضر

النـاس واحتفل المجلس فتعال إليّ بالخط وطالبنى ، وأغلظ عليّ فى القول والطلب ، ولا لوم عليك ، والله الله أن تخالفنى فى شىء مما أوصيتك به

فلمـا وصل أبو الحسن الى (سُرّ من رأى) جَلس مجلساً عامًّا وحضره جماعةٌ من وجوه النـاس وأصحاب الخليفة المتوكل ، فجاء الأعرابى وأخرج الورقة وطالبه بالمبلغ وأغلظ عليـه الـكلام ، فجعـل أبو الحسن يعتذر له ، و يطيب نفسه بالقبول ، و يعده بالخـلاص ، وكذلك الحاضرون وطلب منه المهلة ثلاثة أيام

فلما انفك المجلس نقل ذلك للخليفة المتوكل ، فأمر لأبى الحسن على الفور بثلاثين ألف درهم ، فلمـا حملت إليه تركها إلى أن جاء الأعرابى فقال له : خذها جميعها . فقال الأعرابي : يابن رسول الله ، والله إن العشرة بلوغ مطلبى، ونهاية أربى

فقال أبو الحسن : والله لتأخذن ذلك جميعه ، وهو رزقك ، ساقه الله لك ولو كان أكثر من ذلك ما نقصناه ، فأخـذ الأعرابى الثلاثين ألف درهم وانصرف وهو يقول : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

قصته مع المتوكل

فى تاريخ ابن خلـكان وغيره أنه سعى به الى المتوكل بأن فى منزله

سلاحاً وكتباً من شيعته ، وأنه يطلب الأمر لنفسه ، فبعث إليه جماعة فهجموا عليه فى منزله فوجدوه على الأرض مستقبل القبلة ، يقرأ القرآن ، فحملوه على حاله إلى المتوكل والمتوكل يشرب فأعظمه وأجله ، وقال له : أنشدنى . فقال : إنى قليل الرواية للشعر . فقال : لا بد ، فأنشده :

« باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل »
« واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... وأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا »
« ناداهمو صارخ من بعد ما رحلوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل ؟ »
« أين الوجوه التى كانت محجبة ؟ ... من دونها تضرب الأستار والكلل »
« فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل »
« يا طالما أكلوا يوماً وما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا »

قال : فبكى المتوكل والحاضرون ؛ وقال له المتوكل : يا أبا الحسن هل عليك دين ؟ قال : نعم . أربعة آلاف درهم ، فأمر له بها وصرفه معظماً مكرماً .

وفاته - توفى أبو الحسن على الهادى المعروف بالعسكرى (بسُر مَن رأى) يوم الإثنين لخمس ليال بقيت من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين وله من العمر أربعون سنة .

ودفن فى داره (بسُر من رأى) ويقال : انه مات مسموماً والله أعلم .

أولاده - محمد ، والحسن ، ومحمد أبو جعفر ، وله ابنة اسمها عائشة .

١٠ - الإمام الحسن الخالص

ولد سنة ٢٣٢ - وتوفى سنة ٢٦٠ هـ

نسبه - هو سيدنا الحسن الخالص ، بن على الهادى ، بن محمد الجواد ، ابن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين ، بن على ، بن أبى طالب رضى الله عنهم . وأمه أم ولد يقال لها : (حديث) وقيل (سوسن) .

كنيته - أبو محمد .

ألقابه - الخالص ، والسراج ، والعسكرى ونقش خاتمه (سبحان من له مقاليد السموات والأرض) .

مولده - ولد أبو محمد الخالص بالمدينة لثمان خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة .

مناقبه

علمه وعبادته - وقع للبهلول معه واقعة تدل على علمه وعبادته وهى : أنه رآه وهو صبى يبكى والصبيان يلعبون فظن أنه يتحسر على ما بأيديهم ، فقال له : أشترى لك ما تلعب به ؟ فقال : يا قليل العقل ، ما للعب خُلقنا

فقال له : فلما ذا خُلقنا ؟ قال : للعلم والعبادة . فقال له : من أين لك ذلك ؟ فقال : من قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

ثم سأله أن يعظه ، فوعظه بأبيات ، ثم خرّ الحسن رضى الله عنه مغشيًا عليه ، فلما أفاق قال له : ما نزل بك وأنت صغير ولا ذنب لك ؟ فقال : إليك عنى يابهلول ، إنى رأيت والدتى توقد النار بالحطب الكبار فلا تتقد إلاّ بالصغار و إنى أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم

وعن أبى هاشم قال : سمعت أبا محمد الحسن يقول : إن فى الجنة باباً يقال له (المعروف) لا يدخل منه إلاّ أهل المعروف ، فحمدت الله فى نفسى ، وفرحت بما أتكلف من حوائج الناس ، فنظر إلىّ وقال : يا أبا هاشم دم على ما أنت عليه ، فإن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة

وعنه أيضاً قال : سمعت أبا محمد يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها

وفاته

كانت وفاة أبى محمد الحسن بن على فى يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين . وكان عمره يوم وفاته ٢٨ سنة

ولما ذاع خبر وفاته ارتجت (سُر من راى) وقامت صيحةٌ واحـدةً ، وعطلت الأسواق ، وغلقت الدكاكين ، وركب بنو هاشم ، والقوّاد ، والكتاب ، والقضاة ، وسائر الناس إلى جنازته ، وكانت (سُر من رأى) يومئذ شبيهة بالقيامة

فلمـا فرغوا من تجهيزه بعث الخليفة إلى أبى عيسى بن المتوكل ليصلى عليـه ، فصلى عليـه ودفن فى البيت الذى دفن فيـه أبوه من دارهما (بسر من راى)

أولاده

خلف ولداً اسمه (محمد)

١١ — الامام محمد المهدى

ولد سنة ٢٥٥ هـ

نسبه — هو سيدنا محمد ، بن الحسن الخالص ، بن على الهادى ، ابن محمد الجواد ، بن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين ، بن على ، بن أبى طالب رضى الله عنهم

وأمه أم ولد يقال لها : (نرجس) وقيل (صقيل) وقيل (سوسن)

كنيته — أبو القاسم

ألقابه — لقّبه الإمامية بالحجة ، والمهدى ، والخلف الصالح ، والقاسم ، والمنتظر ، وصاحب الزمان ، وأشهرها (المهدى) وقيل : سمى القائم المنتظر لأنه ستر بالمدينة ، وغاب فلم يعلم أين ذهب ، وهو آخر الأئمة الاثنى عشر على ما ذهب إليه الإمامية ، وهو عندهم الإمام المهدى المنتظر فيهم ويقولون له : اخرج ياصاحب الزمان ، فقد كثر الظلم والفساد ، وهذا أوان خروجك ، ليفرق الله بك بين الحق والباطل (كما جاء فى رحلة ابن بطوطة)

الأحاديث الواردة فى حقه

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لو لم يبق إلاّ يوم لبعث الله تعالى رجلاً من أهل بيتى يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً . أخرجه أبو داود فى سننه

وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المهدى منى ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً ، كما مُلئت جوراً وظلماً زاد أبو داود يملك سبع سنين

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المهدى طاوس أهل الجنة

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وامامكم منكم ، رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة قال : فينزل عيسى ابن مريم عليه نبينا وعليه الصلاة والسلام

فيقول أميرهم : تعال صل بنا . فيقول : ألا ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة : أخرجه مسلم فى صحيحه

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشركم بالمهدى يملأ الأرض قسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً ، يرضى عنه سكان السماء والأرض يقسم المال صحاحاً ، فقال رجل : ما معنى صحاحاً ؟ قال : بالسوية بين الناس ، ويملأ قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم غنًى ، ويسعهم عدله حتى يأمر منادياً ينادى يقول : من له بالمال حاجة فليقم ، فما يقوم من الناس إلاّ رجل واحد فيقول : أنا فيقول له : إئت (السادن) يعنى الخازن فقل له : إن المهدى يأمرك أن تعطينى مالاً فيحثو له فى ثوبه حثواً حتى إذا صار فى ثوبه يندم ويقول : كنت أجشع أمة محمد صلى الله عليه وسلم نفساً ، أعجز عما وسعهم ، فيرده إلى الخازن فلا يقبل منه ، ويقول : إنا لا نأخذ شيئًا مما أعطيناه ، فيكون المهدى كذلك سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً ، ثم لا خير فى العيش بعده ، أو قال : ثم لا خير فى الحياة بعده

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج المهدى وعلى رأسه غمامة فيها ملك ينادى : هذا خليفة الله المهدى فاتبعوه (أخرجه أبو نعيم والطبرانى وغيرهما)

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

تنعم أمتى فى زمن المهدى نعمة لم يتنعموا مثلها قط ، ترسل السماء عليهم مدراراً ، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلا أخرجته - رواه الطبرانى فى معجمه الكبير

وقد تواترت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنه من أهل بيته وأنه يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً

وتواترت الأخبار على أنه يعاون عيسى عليه السلام على قتل المسيح الدجال بباب (لد) بأرض فلسطين بالشام . والله تعالى أعلم .

والصلاة والسلام على رسله الكرام ، فى المبدأ والختام

انتهى بعون الله وتوفيقه الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس

إن شاء الله تعالى

فى سير أمهات المؤمنين وشهيرات النساء الصالحات

فهرس

الصفحة	الموضوع
٢	مقدمة الطبعة الأولى
٤	« « الثانية
٦	الإمام أبى حنيفة النعمان
٦	مولده ونسبه ـ اسمه وكنيته
٨	بشارة النبى صلى الله عليه وسلم به
٩	إقباله على العلم والتدريس
١٥	مناقب الإمام
١٥	ترفعه ورفضه لمناصب الدولة
١٧	زهده وورعه
٢٠	أمانته
٢١	قناعته
٢٢	فراسته ـ ذكاؤه
٢٤	حلمه وعفوه
٢٦	كرم أخلاقه
٢٧	أكله من كسب يده
٢٨	كرمه ومواساته
٣١	تفقده لأصحابه
٣١	حسن جواره
٣٣	نزاهته وعفته
٣٤	وصاياه فى آداب القضاء
٣٦	وصاياه فى سياسة الناس ومعاشرتهم
٣٧	الوصية الذهبية
٤٠	مناجاته ربه
٤٢	دعاؤه عند موت ابنه
٤٢	وفاته وسببها
٤٣	تأبينه
٤٥	المذهب الحنفى
٤٧	الإمام مالك بن أنس
٤٧	مولده ونسبه ـ نشأته
٤٨	مناقبه ـ أخلاقه وآدابه
٤٩	علومه
٥١	تبشير النبى صلى الله عليه وسلم به

الصفحة	الموضوع
٥٢	ثناء العلماء والفضلاء عليه
٥٣	تزاحم طلاب العلم على بابه
٥٤	تعظيمه للمدينة
٥٥	تعظيمه للحديث
٥٧	تعظيمه للعلم
٥٩	تعظيم الخلفاء والأمراء له
٦٠	أبو جعفر المنصور والإمام مالك
٦٢	المهدى ومالك بن أنس
٦٤	امتناعه عن القضاء
٦٦	صلاحه وتقواه
٦٧	زهده وورعه
٦٩	وفاته - تأبينه
٧٠	أولاده
٧١	بعض أقواله وحكمه
٧٣	المذهب المالكى
٧٥	الإمام الشافعى
٧٥	مولده نسبه
٧٦	نشأته
٧٧	بشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم به
٧٩	طلبه للعلم والاجتهاد فيه
٨١	حفظه للقرآن
٨٢	تبحره فى الحديث - إجازته للفتوى
٨٣	رحلته إلى المدينة لطلب العلم
٨٧	شهادة الإمام مالك بسعة علمه
٨٨	رحلته إلى العراق
٩١	رحلته إلى فارس وغيرها وعودته إلى المدينة
٩٢	رحلته إلى اليمن وزواجه
٩٣	حسن معاشرته لزوجته
٩٥	حادثته مع الرشيد
٩٨	حضوره مجلس العلماء ببغداد ومناظرتهم
٩٩	امتناعه عن تولية القضاء ومكانته
١٠٠	عودته إلى مكة
١٠١	عودته إلى بغداد وسفره إلى مصر

الصفحة	الموضوع
١٠٣	إلقاء دروسه فى جامع عمرو
١٠٤	مَن نبغ من المصريين والمصريات على يديه
١٠٥	تآليف الشافعى
١٠٥	مناقبه ـ زهده
١٠٦	ورعه وتقواه
١٠٨	مثال من تقواه وتوحيده لله
١٠٩	مثال من أدعيته
١١١	عفته عن اللغو وفحش الكلام
١١٢	عزة نفسه
١١٣	قناعته
١١٤	كرمه وسخاؤه
١١٥	برّه بأقاربه ـ ومواساته للفقراء
١١٥	حلمه وعفوه
١١٦	ثناء الناس عليه
١١٦	ثناء أحمد بن حنبل عليه
١١٨	مرضه
١١٩	وفاته ـ جنازته ودفنه
١٢٠	تأبينه
١٢١	نبذ من كلامه نثراً
١٢٥	نبذ من شعره
١٢٩	مذهب الشافعى
١٣١	الإمام أحمد بن حنبل
١٣١	مولده وكنيته ونسبه ونشأته
١٣٢	طلبه للعلم ورحلاته إليه
١٣٣	تأدبه احتراماً للعلم
١٣٤	إقباله على العلم وكثرة حفظه
١٣٤	للحديث
١٣٥	رحلته فى طلب الحديث
١٣٦	ثناء مشايخه عليه
١٣٧	ثناء نظرائه وأقرانه عليه
١٣٩	ثناء كبار أتباعه عليه
١٣٩	مصنفاته
١٤٠	مناقبه ـ زهده
١٤١	كلامه فى الزهد
١٤٤	ورعه وتمسكه بالسنة والأثر
١٤٥	تعظيمه لأهل السنة والنقل
١٤٦	إعراضه عن المناصب وتواضعه
١٤٧	حبه للفقر والفقراء

الصفحة	الموضوع
١٤٨	إيثاره العزلة والوحدة
١٤٩	تقواه وتعبده
١٥٢	دعاؤه ومناجاته
١٥٣	هيبته
١٥٤	نظافته، وطهارته، وسهولة أخلاقه وحسن معاشرته
١٥٦	حلمه وعفوه
١٥٧	ماله ومعاشه
١٥٨	تعففه عن أموال الناس
١٦٠	كرمه وجوده
١٦١	قبوله الهدية ومكافأته عليها
١٦١	المحنة التى أصيب بها وسببها
١٦٢	قصته مع المأمون
١٦٣	كيف امتحن أحمد بن حنبل ؟
١٦٧	رفع المحنة عنه
١٦٨	مرضه
١٦٩	وفاته
١٧٠	تأبينه ورثاؤه
١٧٢	زوجاته - سراريه
١٧٣	أولاده ، نبذ من أقواله
١٧٤	نبذ من شعره
١٧٥	المذهب الحنبلى
١٧٦	الخاتمة فى خلاصة المذاهب
١٨٠	الإمام الليث بن سعد
١٨٠	نسبه ، وكنيته ، ومولده
١٨١	طلبه للعلم وتقدمه فيه
١٨٢	مناقبه - مروءته وكرم أخلاقه وكرمه
١٨٤	زهده وقناعته
١٨٥	صدقه - ثناء الأئمة عليه
١٨٦	عظم قدره عند الخلفاء
١٨٧	قصته مع هارون الرشيد وعفته
١٨٨	وفاته
١٨٩	ولده (شعيب)
١٩١	الإمام سفيان الثورى
١٩١	نسبه - مولده - بعض مناقبه

الصفحة	الموضوع
١٩٣	سفيان الثورى والمهدى
١٩٤	امتناعه عن قضاء الكوفة
١٩٤	سفيان وأبو جعفر المنصور
١٩٥	وفاته ـ نبذ من أقواله وحكمه
٢٠٠	الإمام الأوزاعى
٢٠٠	نسبه ومولده ونشأته وصفاته وعلمه ومكانته
٢٠١	عبادته وورعه
٢٠٢	سياسته ونصحه للملوك والخلفاء
٢٠٢	كرمه وسخاؤه
٢٠٣	شجاعته وجراءته
٢٠٤	الأوزاعى والمنصور
٢٠٥	وفاته وسببها
٣٠٦	تأبينه ونبذ من أقواله وحكمه
٢٠٨	الأئمة الصالحون الأخيار
٢٠٨	الإمام الحسن السبط
٢٠٨	نسبه الشريف ومولده
٢٠٩	كنيته ، وألقابه ، شبهه بالنبى
٢١٠	الأحاديث الوارة فى فضله
٢١١	مناقبة . أدبه وتواضعه
٢١٢	كرمه
٢١٣	قصته مع العجوز التى أكرمها
٢١٤	تصدقة ومواساته للفقراء
٢١٥	قصته مع معاوية ومصالحته
٢١٧	مرضه ووفاته
٢١٩	أولاده ـ نبذ من كلامه وحكمه
٢٢١	مواعظه
٢٢٣	الإمام الحسين عليه السلام
٢٢٣	نسبه الشريف ومولده
٢٢٤	اسمه
٢٢٥	كنيته وألقابه وختانه ورضاعه
٢٢٦	الأحاديث الواردة فى فضله
٢٢٧	موجز أخبار حياته
٢٢٩	نشأته فى حياة جده الرسول
٢٣٠	محبة عمر للحسن والحسين

الصفحة	الموضوع
٢٣١	صفة الحسين رضى الله عنه
٢٣٢	مناقبه إجمالاً
٢٣٤	كرمه وجوده
٢٣٧	حسن أدبه وظرفه
٢٣٨	حلمه وعفوه
٢٣٨	عفته وعزة نفسه
٢٣٩	نهيه عن الإسراف ، شجاعته
٢٤١	فراسته
٢٤٢	عبادته ـ تواضعه
٢٤٣	علمه ونبذ من كلامه وحكمه
٢٤٥	كتابه إلى معاوية فى أمر خاص
٢٤٦	كتابه إلى أهل الكوفة
٢٤٨	كتابه إلى أهل البصرة
٢٤٩	بعض خطبه فى المواعظ
٢٥٠	دعاؤه
٢٥١	شعره فى الحكم
٢٥٣	خلاصة ما قيل فى مقتله
٢٥٦	السبب فى نزول هذه الكارثة العظمى
٢٦١	بعض مراثيه
٢٦٥	نساؤه
٢٦٦	أولاده
٢٦٦	انتقال الرأس الشريفة إلى القاهرة
٢٦٩	الخلاف فى محل وجود الرأس
٢٧٠	زيارة المسجد الحسينى
٢٧٠	المواسم السنية بالمسجد الحسينى
٢٧١	موسم عاشوراء وأعمال العجم فيه
٢٧٣	العظات والعبر من قصة الحسين رضى الله عنه
٣٧٦	الإمام على زين العابدين
٢٧٦	مولده وكنيته ونسبه ونشأته
٢٧٧	مناقبه ـ علمه وورعه وحلمه وعفه و إحسانه
٣٧٨	تعبده وصلاحه
٢٧٩	تصدقه وكرمه
٢٨٠	حب الناس له وحسن خلقه

الصفحة	الموضوع
٢٨١	فضله وتعظيمه
٢٨٢	وفاته
٢٨٣	أولاده ـ نبذ من كلامه
٢٨٤	الإمام محمد الباقر
٢٨٤	نسبه ، مولده ، كنيته ، ألقابه
٢٨٤	الأحاديث الواردة بشأنه
٢٨٦	مناقبه ـ علومه ـ تقواه
٢٨٧	كرمه وجوده
٢٨٨	وفاته ـ أولاده ـ نبذ من كلامه
٢٨٩	مواعظه
٢٩١	الإمام جعفر الصادق
٢٩١	نسبه ـ مولده ـ كنيته ـ ألقابه
٢٩١	مناقبه : علمه
٢٩٣	عبادته وتقواه ، نبذ من كلامه
٢٩٥	وصيته الجامعة لمكارم الأخلاق
٢٩٧	وفاته ـ أولاده
٢٩٨	الإمام موسى الكاظم
٢٩٨	نسبه ـ مولده ـ كنيته ـ ألقابه
٢٩٨	مناقبه ـ علمه وفضله
٢٩٩	تعبده ـ حكايته مع الرشيد
٣٠١	وفاته ـ أولاده
٣٠٢	الإمام علي الرضا
٣٠٢	نسبه ـ مولده ـ كنيته ـ ألقابه
٣٠٢	مناقبه ـ علمه وفضله
٣٠٢	تعبده
٣٠٣	معروفه وتصدقه
٣٠٣	كرمه وجوده ، زهده وورعه
٣٠٤	ترشيحه للخلافة من قبل المأمون
٣٠٦	وفاته ـ أولاده
٣٠٧	الإمام محمد الجواد
٣٠٧	نسبه ـ كنيته ألقابه
٣٠٧	مولده
٣٠٧	مناقبه : ذكاؤه نباهته
٣٠٨	علمه وفضله وزواجه
٣١٠	وفاته ـ أولاده
٣١٠	نبذ من كلامه وحكمه

الصفحة	الموضوع
٣١٣	الإمام على الهادى
٣١٣	نسبه - كنيته - ألقابه - مولده
٣١٤	مناقبه - علمه ، كرمه وزهـده وعفته
٣١٥	قصته مع المتوكل
٣١٦	وفاته - أولاده
٣١٧	الإمام الحسن الخالص
٣١٧	نسبه ، كنيته ، ألقابه ، مولده
	مناقبه : علمه وعبادته
٣١٨	وفاته
٣١٩	أولاده
٣٢٠	الإمام محمد المهدى
٣٢٠	نسبه - كنيته ألقابه
٣٢١	الأحاديث الوارده فى حقه

﴿ تمت ﴾

القرآن

ينبوع العلوم والعرفان

فى ثلاثة أجزاء

تأليف الأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب المصرية (سابقاً)

كتاب غزير المادة ، عظيم الفائدة ، جمع من الآيات القرآنية ما يدل على أن القرآن الكريم حوى جميع العلوم الكونية ولم يترك علماً إلا وشرحه شرحاً وافياً ، ولم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها

والكتاب موضوع فى ثلاثة أجزاء : (الأول) يشمل علم الطب والصحة والتاريخ الطبيعى من حيوان ونبات ومعدن وجيولوجيا (علم طبقات الأرض) و (الثانى) يشمل : علم الفلك وعلم الجغرافيا وعلم الملاحة والسياحة والتاريخ الأثرى ، وقد تم طبعهما . و (الثالث) تحت الطبع وهو يشمل : الكتابة والقراءة والخط وعلم الحساب والهندسة ، والعلوم الطبيعية من حرارة وصوت وضوء وكهرباء والمخترعات الحديثة كالتلغراف واللاسلكى وغيرها من العلوم الحديثة

ويطلب من مكتبة عيسى البابى الحلبى بالحسين ـ بريد الغورية رقم ٢٦

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الخامس

يشمل

١ — أمهات المؤمنين

٢ — بعض النساء الشهيرات

[الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الاهداء

إلى روح (السيدة خديجة) رضى الله عنها .

إلى أول إنسان أسلم ، وآمن وصدّق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلى أول امرأة تزوجها النبى عليه الصلاة والسلام .

إلى أسعد زوجة فازت وتمتعت بأشرف زوج .

إلى أفضل نساء أهل الجنة بنص الحديث الشريف :

« أفضل نساء الجنة : خديجة ، وفاطمة ، ومريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون » .

أهدى هذا الكتاب ، راجياً من الله النفع به ، وجزيل الأجر والثواب وحسن المآب .

السيد على فكرى

ابن المرحوم السيد محمد عبد الله

مصر الجديدة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣

٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٤

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي وعليه توكلي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وأزواجه الطاهرات ، أمهات المؤمنين .

وبعد ، فان الاطلاع على سير أمهات المؤمنين ، وشهيرات النساء ، لمن أعظم وسائل التربية والتهذيب ؛ لأنها تدور حول التأسي والاقتداء ، ولا شيء يؤثر في النفس مثل القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وقد كثرت في هذه السنين القصص الوضعية ، والروايات الغرامية ، ومعظمها مفسد لأخلاق البنات ؛ بل والسيدات اللاتي أصبحن أشد شغفاً بقراءتها ، وحضور تمثيلها .

لهذا جعلت في هذا الجزء السير الشريفة لأمهات المؤمنين ، والدة النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته ، وغيرهن من شهيرات النساء الشريفات الطاهرات ، من السلف الصالح ليكون في مطالعتها ودراستها أحسن أسوة

للبنات ، وأعظم قدوة للسيدات ، يتخذنها نبراساً لإرشادهن إلى الطريق الأقوم وتهذيباً لأخلاقهن، وعظةً وعبرةً لهن ؟ لأن فيها قصصاً ، وأمثلةً وعبراً كثيرةً ، تدل على محاسن الأقوال ، وجليل الفعال ، وشريف الخصال ، التى يجب أن تتخلق بها كل بنت وسيدة ؛ لتنال اسماً شريفاً ، وسمعةً طيبةً ، وذكراً خالداً .

والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣

٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٤

السيد على فكرى

ابن المرحوم السيد محمد عبد الله

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتى وعليه توكلى

الحمد لله الذى خصّ الأمهات الطاهرات العفيفات بالخير والبركات وخصّ الأبناء بالإحسان لوالديهم فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ .

وأيده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

أى لا يدخل الجنة إلا من كان بَرًّا بوالدته ، حافظاً لحقوقها، مراعياً لحرمتها وكرامتها ، طائعاً لها .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين والقدوة الصالحة لعامة المسلمات فى جميع أقطار العالم الإسلامى .

وبعد فمن نظر إلى حالة النساء اليوم وقارنها بحالتهن فى العهد الماضى وجد فرقاً عظيماً وبوناً شاسعاً من حيث التربية الدينية الصحيحة ، فقد تطورت حالة النساء فى هذه الأيام وأصبحت مع الأسف الشديد مرذولةً منبوذةً لأنهن خرجن فى سيرهن عن حد الكمال والاعتدال والحشمة والوقار بل خرجن عن حد الدين، وانحرفن عن الطريق القويم المستقيم، وأصبحت المرأة لا همّ لها إلا إرضاء شهواتها، وصارت تخادن وتخالل، وتتزوج بمن ترغب فيه ويرغب فى الزواج منها، بدون مراعاة الأحكام الشرعية، وقواعد الدين الحنيف حتى لو كان من غير دينها، وغير كفء لها، مدفوعةً بحب الشهوات، وارتكاب المحرمات وفى كل يوم نسمع ونقرأ فى الجرائد والمجلات من وقوع حوادث الزواج والطلاق غير الشرعية، ما تقشعر له الأبدان ، ويحزن له كل إنسان ، الأمر الذى يدعونا للفت نظر أولياء الأمور لعلاج هذه الحوادث، ووقف تيارها ، والعمل على إبطالها ومنعها .

لهذا كان لزاماً علينا أن نلفت نظر النساء عموماً إلى ما كانت عليه أمهات المؤمنين، والنساء الصالحات الطاهرات، فى عهد السلف الصالح لاتخاذهن قدوةً صالحةً لهن ويتمسكن بأخلاقهن وآدابهن والسّير على سيرتهن الحميدة محافظةً على حقوقهن وحقوق أسرهن ووطنهن .

وفى الجزء الخامس من كتابنا أحسن القصص من سير أمهات المؤمنين وسير بعض النساء المسلمات الشهيرات أعظم دليل لصدق أقوالنا وكفيل لحمايتهن من الوقوع فى المحرمات وارتكاب الموبقات .

هذا وفى إعادة طبعه للمرة الثانية دليل كاف على حسن قبوله وانتشاره والله الموفق لما فيه صلاح الحال فى الحال والاستقبال ؟

العباسية فى ٢ شعبان سنة ١٣٦٩ ـ ٢٠ مايو سنة ١٩٥٠

على فكرى

أمهات المؤمنين

١ — السيدة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ

نسبها - هى السيدة آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب أم النبي صلى الله عليه وسلم .

مناقبها - أعطاها الله تعالى من الجمال والكمال ما كانت تدعى به حكيمة قومها .

وكانت من الفصاحة والحكمة والبلاغة على جانب عظيم لم يسبقها إليه أحد من نساء العرب .

وفاتها - توفيت بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بست سنوات ودفنت (بالأبواء) .

والسبب فى دفنها هناك أن (عبد الله) والد الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمراً فمات بالمدينة ، فكانت زوجته آمنة تخرج إلى المدينة تزور قبره ، فلما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنوات خرجت زائرة لقبره ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله ، فلما صارت (بالأبواء) منصرفة إلى مكة ماتت بها .

ويقال : إن أبا طالب زار أخواله بنى النجار بالمدينة وحمل معه آمنة فلما رجع منصرفاً إلى مكة ماتت آمنة بالأبواء . وقيل : دفنت (بدار رائعة) وهو موضع بمكة ، وقيل بمكة فى شعب (أبى دب) وكانت من شاعرات العرب المجيدات : ومن شعرها قولها ، وهى فى نزع الموت ، وكانت نظرت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يلعب بجانبها ، فأسفت على تركه صغيراً وأنه سينشأ يتيماً من الأب والأم ؛ ولكن تأست بما يناله من الفخر والمجد فى قومه وفى العالم بأسره مما رأته منه فى حال صغره ومما رأته فى منامها فقالت :

« بارك الله فيك من غلام يابن الذى فى حومة الحمام »
« نجا بعون الملك العلام فودى غداة الضرب بالسهام »
« بمائة من إبل سوام إن صح ما أبصرت فى المنام »
« فأنت مبعوث إلى الأنام تبعث فى الحل وفى الحرام »
« تبعث بالتوحيد والإسلام دين أبيك البرّ ابراهام »
« فالله أنهاك عن الأصنام ألّا تواليها مع الأقوام »

ثم قالت : كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة وذكرى باقٍ وأسلمت روحها . وقيل : ان بعضهم رثاها بهذه الأبيات :

« نبكى الفتاة البرّة الأمينه ذات الجمال العفّة الرزينه »
« زوجة عبد الله والقرينه أم نبى الله ذى السكينه »

« وصاحب المنبر بالمدينه صارت لدى حفرتها رهينه »
« لو فوديت لفوديت ثمينه والمنـــايا شفرة متينه »
« لا تبق ظعّانا ولا ظعينه إلّا أتت وقطعت وتينه »
« أما دللت أيها الحزينه عن الذى ذو العرش يعلى دينه »
« فكلنا والهة حزينه نبكيك للعطلة أو للزينه »
« من كتاب الدر المنثور »
« فى طبقات ربات الخدور »

زوجات النبى ﷺ

قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾

زوجات النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى دخل بهن ولم يفارقهن اثنتا عشرة امرأة ، كما جاء بكتاب نور الأبصار

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما تزوجت شيئاً من نسائى ولا زوّجت شيئاً من بناتى إلا بوحى جاء به جبريل عن ربى عز وجل »

الأولى منهن (خديجة) بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشية الأسدية

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأعصم . وكان صداقها اثنتى عشرة أوقية نصفها من الذهب . ولم يتزوج عليها حتى ماتت وروت حديثاً واحداً وسيأتى ذكر قصتها بالتفصيل

الثانية (سودة) بنت زمعة : تزوّجها عليه الصلاة والسلام فى السنة العاشرة من النبوّة وكانت قبله تحت ابن عمها ، ولما كبرت أراد طلاقها صلى الله عليه وسلم فسألت ألا يفعل ، وجعلت يومها لعائشة ، وعاشت إلى أن ماتت فى خلافة عمر رضى الله عنه

الثالثة (عائشة) : بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه بن أبى قحافة القرشية : تزوّجها صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، وقيل سبع ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وقيل عشر، وكان مولدها سنة أربع من النبوة (كذا فى المواهب)

وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمائة درهم، وكانت أحبّ نسائه إليه . وكنيتها أم عبد الله ابن أختها أسماء بنت أبى بكر . وروت عائشة رضى الله عنها ألف حديث ومائتى حديث وعشرة أحاديث . وتوفيت سنة ست أو سبع أو ثمان وخمسين وصلى أبو هريرة عليها ودفنت بالبقيع ليلاً

الرابعة (حفصة) بنت عمر بن الخطاب بن نفيل القرشية

أمها زينب بنت مظعون بن حبيب . تزوجها صلى الله عليه وسلم فى شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة على المشهور

وكان مولدها قبل النبوة بخمس سنين ، وكان صداقها أربعمائة درهم وروت ستين حديثاً . وتوفيت فى شعبان سنة خمس وأربعين وصلى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة يومئذ

الخامسة (زينب) بنت خزيمة بن الحارث العربية الهلالية

تزوجها صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث من الهجرة وأصدقها أربعمائة درهم

ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة ، ثم ماتت وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنها بالبقيع وكان عمرها إذ ذاك ثلاثين سنة ، ولم يمت فى حياته إلا هى وخديجة وريحانة على القول بأنها زوجته

السادسة (أم سلمة) هند بنت أبى أميمة بن المغيرة

تزوّجها صلى الله عليه وسلم فى آخر شوال سنة أربع وقيل : سنة اثنتين قالت لولدها : زوجنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوّجها واستدل به على أن الابن يلى عقد أمه ، وهو خلاف مذهب الشافعية . روت ثلاثمائة حديث وثمانية وعشرين حديثاً . وتوفيت فى خلافة يزيد بن معاوية سنة ستين على الصحيح ، وعاشت أربعاً وثمانين سنة ، وصلى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع (مقبرة بالمدينة)

السابعة (زينب بنت جحش) بن ريان العربية أمة أميمة بنت عبد المطلب . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجها من زيد بن حارثة ، فلما فارقها زيد تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة خمس من الهجرة وقيل : سنة ثلاث ، وقيل : أربع . وأصدقها أربعمائة درهم وهى إذ ذاك بنت خمس وثلاثين سنة . روت عشرة أحاديث ، وتوفيت سنة عشرين : وقيل إحدى وعشرين . وقد بلغت ثلاثاً وخمسين سنة ، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودفنت بالبقيع

الثامنة (جويرية بنت الحارث) بن أبى ضرار الخزاعية المصطلقية

قال ابن هشام : اشتراها صلى الله عليه وسلم من ثابت بن قيس وأعتقها ثم تزوجها وأصدقها أربعمائة درهم ويقال : أسلم أبوها وزوّجه إياها . روت سبعة أحاديث وتوفيت بالمدينة فى ربيع الأول سنة ست وخمسين وكان عمرها سبعين سنة وصلى عليها مروان بن الحكم

التاسعة (ريحانة بنت يزيد) من بنى النضير وكانت من سبى بنى قريظة فاصطفاها صلى الله عليه وسلم لنفسه . وكانت جميلة وسيمة وخيّرها بين الإسلام ودينها فاختارت الاسلام فأعتقها وتزوجها وأعرس بهـا فى المحرم سنة ست وطلقها صلى الله عليه وسلم لشدة غيرتها عليه، فأكثرت البكاء فراجعها، ولم تزل عنده حتى ماتت فى مَرجعه من حجة الوداع ودفنت بالبقيع

العاشرة (أم حبيبة) رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أميـة ابن عبد شمس القرشية الأموية

أمها صفية بنت أبى العاص عمة عثمان بن مظعون زوّجها إياه خالد بن سعيد بن العاص بالحبشة وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبـد الله ابن جحش فتنصر وثبتت هى على الإسلام فبعث النبى صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية إلى النجاشى فأمهرها النجاشى عنـه أربعمائة دينار وتولى عقد نكاحها خالد لكونه ابن عم أبيها وأرسلها النجاشى للنبى صلى الله عليه وسلم سنة سبع على خلاف فى جميع ذلك . ماتت سنة أربع وأربعين

الحادية عشرة (صفية بنت حيي) بن أخطب غير العربية من بنى النضير من بنى إسرائيل من سبط هرون بن عمران . أمها برّة بنت شمول : كان أبوها سيد بنى النضير قتل مع بنى قريظة اصطفاها صلى الله عليه وسلم لنفسه من سبى خيبر فأعتقها وتزوّجها وجعل عتقها صداقها

وكانت جميلة لم تبلغ سبع عشرة سنة . روت عشرة أحاديث فتوفيت فى رمضان سنة خمسين أو اثنتين وخمسين ودفنت بالبقيع

الثانيـة عشرة (ميمونة بنت الحارث) العربية الهلالية أمها هند بنت عوف بن زهير ، وكان اسمها برّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهى خالة ابن عباس وخالد بن الوليد . روت ستة وسبعين حديثاً وماتت سنة إحدى وخمسين وعاشت ثمانين سنة وهى آخر زوجة تزوّجها صلى الله عليـه وسلم وآخر من توفى من أزواجه

توفى صلى الله عليه وسلم عن تسع منهن جمعت أسماؤهن فى قول بعضهم:

توفى رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تعزى المكرمات وتنسب

فعائشة ميمونة وصفيـة ... وحفصة تتلوهن هنـد وزينب

جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست نظمهن مهذب

هذا وأفضلهنّ خديجة وعائشة ، وسيأتى ذكرهما بالتفصيل

زوجات النبى صلى الله عليه وسلم

١ — السيدة خديجة بنت خويلد

أم المؤمنين رضى الله عنها

نسبها — كانت السيدة خديجة من أشرف نساء قريش نسباً ، وأوفرهن مالاً ، وأرجحهن عقلاً ، وأجلهن خَلقاً وَخُلقاً ، جمعت فى تلك النفس العالية كل مزية مشرفة ، وخصلة باهرة ، أبوها (خويلد) من أشراف قريش ورجالاتها البارزين ؛ أما أمها فهى (فاطمة) ويتصل حبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة وبذلك أصبحت (أم المؤمنين السيدة خديجة) أقرب الزوجات الطاهرات إلى النبى صلى الله عليه وسلم نسباً .

أدركت أواخر عهد الجاهلية وكانت لها مكانة سامية بين قومها لجمال خَلقها وَخُلقها وكانت تدعى فى الجاهلية (بالطاهرة) لطهارة سيرتها ونقاء سريرتها ، وقد اشتهرت من بين نساء قومها بحصافة العقل ، وجودة الرأى وطهارة القلب ، فخطبها لأول مرة (عتيق بن عابد) فتزوجته ثم مات عنها فتزوجت شريفاً آخر هو (أبو هالة) وولدت منه ولداً اسمه (هند) إلا أنه لم يعش طويلاً وترملت مرة ثانية .

ظلت السيدة خديجة فى نضارة الشباب تحف بها أسباب الرفاهة والعز تقطن منزلاً فخماً ، وحولها العبيد والجوارى ، فترفعها الأنظار وترمق

ماهى فيه من عز وفخار ، ويتكاثر حولها طلاب يدها ، أى زواجها من أعيان قريش ووجوهها فترفض كل طلب من غير أن تفضل أحداً على أحد .

زواجها من رسول الله : لقد منّ الله عليها بزواجها من محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رأت أمانته ، ورجحان عقله ، وأصالة رأيه ، وكرم خلقه ، وذلك بحضور عمه أبى طالب وحمزة بمنزل عمرو بن أسد عم السيدة خديجة فى جمع عظيم من كرام قريش ونجباء عشيرتهم حيث نهض عمرو بن أسد فقال :

(اشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد زوجت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد) .

فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين النيرين ، وقد بذل لها من الصداق ست أواق من الذهب وقيل ٤٠٠ دينار ، وبهذا أصبحت (خديجة الطاهرة) زوجة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا صادق القوم على زواجه منها . وكان الرسول جالساً بجانبها أثناء العقد ، فلما انتهت الصيغة طلبت إليه أن ينحر جزوراً من الإبل التى أصدقها عمه أبو طالب مهراً ، فنحر إحداها فى الحال ، وأطعم القوم ، وأمرت خديجة نساءها بالرقص فرقصن وغنين (وهى أول وليمة أولمها صلى الله عليه وسلم) .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أفعم صدره سروراً حتى إن عمه أبا طالب عند ما لاحظ حالته الروحية حمد الله كثيراً .

١ — مثال الزوجة الصالحة

كانت خديجة فى بيتها مع زوجها الجليل فخر النساء والمثل الأعلى فى المودة والوداعة ، وحسن المعاشرة والترفع عن الكلفة ، و بذل المعونة ، تقوم بواجباته وقضاء لوازمه بجلال خاص بها .

وتجتهد فوق ذلك كله بكل ما آتاها الله من ذكاء وفطنة ، و بكل ما جبلت عليه من شفقة ورحمة ورقة ، أن تجعل أيام حياته تمر براحة وهناء وأنس ووفاء .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى نظرها شخصًا فذاً ممتازاً يستحق الحب الصادق ، والتقديس الواجب .

وكانت السيدة خديجة فى نظره الزوجة الطيبة الصالحة ، وكانت أول من أسلم وآمن به .

ولهذا مضت حياتهما المشتركة فى وئام وسلام ، فقضيا خمساً وعشرين ربيعًا لم يعكر صفوهما عتاب صغير أو غضب طفيف .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصها باحترام كبير فلها فى نفسه أسنى منزلة ، وفى قلبه أسمى مكان ، لا يفتأ يعترف بفضلها ، حتى إنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج من غيرها مع أنها كانت أكبر منه

سناً تزوجها وسنه ٢٥ سنة وقيل : ثلاثون سنة، وهى فى سن الأربعين وأقامت معه ٢٤ سنة .

وقد رزقت منه صلى الله عليه وسلم ستة أولاد : ابنان ، وهما القاسم وعبد الله ، وأربع بنات وهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة الزهراء .

وفاتها — توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين فى شهر رمضان (بالحجون) وهى ابنة ستين سنة ، ونزل صلى الله عليه وسلم فى حفرتها وحزن عليها حزناً شديداً وعظمت عليه مصيبتها .

٢ — مثال من حبها للعمل والتجارة واستثمار المال

لما رأت عندها مالاً وافراً لم تتكل عليه ، ولم تنفقه فى زخرف الحياة الباطلة ؛ بل فكرت فى أحسن الطرق لتثميره ، فرأت أن التجارة أشرف سبيل ، ولا تكون رابحة إلا إذا قام بها الرجل الكفء النشيط الأمين ، فكانت تختار من قومها من ترضى سيرته ، فاختارت برأيها الثاقب محمداً صلى الله عليه وسلم النبى الأمين ، فأرسلته فى تجارة لها مع غلامها (ميسرة) إلى الشام ، وكان عمره وقتئذ خمساً وعشرين سنة ، وعرضت عليه أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فسار بتجارتها ولما رجع بالبضائع باعتها ، فربحت ربحاً عظيماً ، وأصابت بذلك خيراً عميماً ، وأوصلها إلى السعادة

الدائمة ، وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة خديجة مع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

من هـذا يفهم أنها رضى الله عنها كانت مفـكرةً عاقلةً بعيدة النظر ، سديدة الرأى ، حسنة الاختيار ، لأنها اختارت الـكفء الأمين للعمل فى مالها فاستفادت أحسن الفوائد .

٣ — مثال من شجاعتها وصدق إيمانها وعزيمتها

كان الرسول الأمين صلى الله عليه وسـلم يتعبد فى غار حراء ، وكانت زوجُه السيدة خديجة تعدُّ له ما يلزم من الزاد حتى إذا ما نفد أعدت له غيره ، ولما نزل عليه الوحى بسفارة جبريل ورجع إليها ممتقع اللون قالت له : أبشر فوالله لا يُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصـدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتؤدى الأمانة ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم ذهبت به إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان قد تنصر وقرأ الـكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأعلمته بشأنه وسألته خديجة بعـد ذلك قائلةً : يا ابن العم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هـذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . فجاءه جبريل فأعلمها ، فقالت له : قم فاجلس على فخذى اليسرى ففعل ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحول على فخذى

اليمنى . ففعل ، فقالت هل تراه ؟ قال : نعم فألقت خديجة خمارها ، ثم قالت : هل تراه ؟ فقال : لا . قالت : يا ابن العم اثبت وأبشر فإنه ملك وما هو بشيطان .

فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه .

ولما علمه جبريل الوضوء والصلاة أتى إلى خديجة وعلمها فتوضأت كوضوئه وصلت كصلاته .

ولما سألت خديجة ابن عمها (ورقة بن نوفل) عن شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وقص عليه الرسول الكريم قصته قال له : إن الذى نزل عليك هو الملك الذى كان ينزل على موسى وإنك لنبى هذه الأمة فاطمأن بذلك فؤاده الشريف .

فمن هذه القصة يفهم أن السيدة خديجة كانت شجاعة قوية القلب صادقة العزيمة إذ لو فوجئت بهذه الحادثة العجيبة امرأة غيرها لضاع فكرها وارتبك أمرها .

٤ — مثال المرأة الصبور المعينة لزوجها على تحمل الأذى

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنوات يدعو قومه سرًّا ، ثم أمر بالجهر بالدين فكان ذلك .

وقد وجد عليه الصلاة والسلام من قومه فى أثناء هذه الدعوة مالا يحتمله

غيره سخراً وعناداً وهزؤاً ، وابتعد عنه الأقرباء ، وحرضوا عليه السفهاء فصبر على أذاهم وداب فى دعوته .

وكانت السيدة خديجة تسعى فى تخفيف آلامه ، وتساعده على دعوته ، وتتحمل الأذى من أجله ، صابرة لا تشكو ألماً ولا ضجراً ، ولا تؤثر الراحة على ما تلاقيه من أنواع الأذى .

فكانت السيدة خديجة بهذا العمل تضرب الأمثال للنساء لتعلمهن أن المرأة الصالحة الصابرة الشكورة أكبر مساعد لزوجها فى الملمّات تفديه بمالها و بنفسها .

بعض الأحاديث الواردة بشأنها

١ — ذكر سلام الله تعالى على خديجة رضى الله عنها

على لسان جبريل عليه السلام وسلامه

عن أبى هريرة قال : أتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى (أخرجه الشيخان) .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يا خديجة إن جبريل يُقرئك السلام .

وفى رواية أخرى : أن جبريل قال : يا محمد أقرئ خديجة من ربها السلام فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا خديجة هذا جبريل يُقرئك من ربك السلام قالت خديجة ، فى أحسن جواب وأكرم خطاب :

الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

٢ — ذكر تبشير النبى ﷺ خديجة عليها السلام

ببيت فى الجنة

عن أبى هريرة ، أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة وما تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلَّا بعد ما ماتت ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشَّرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

٣ — ذكر ثناء النبى ﷺ على خديجة رضى الله عنها

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها : فغِرْتُ يوماً وقلت : ما أكثر ما تذكرها ، حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها فقال : ما أبدلنى الله

خيراً منها ، قد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى أولادها إذ حرمنى أولاد النساء .

وعنها أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر ذكر خديجة ، فقلت : لقد أخلفك الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين . قالت : فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعراً ما كنت أراه منه إلا عند نزول الوحى ، وإذا رأى المخيلة حتى يعلم أرحمة أم عذاب ؟

٤ - ذكر أنها أفضل نساء أهل الجنة رضى الله عنها

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة خطوط وقال : أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل نساء الله فى الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون » .

٢ - سودة بنت زمعة

زوجة النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة بعد وفاة خديجة قبل عائشة . وكانت قبله تحت ابن عمها (الكسران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو من بنى عامر ابن لؤى) .

وكانت مسلمة توفى عنها فتزوجها رسول الله ولم تصب منه ولداً إلى أن مات صلى الله عليه وسلم

٣ - السيدة عائشة رضي الله عنها

أم المؤمنين

نسبها - السيدة عائشة رضى الله عنها هى بنت (أبى بكر الصديق) رضى الله عنه ابن (أبى قحافة) من أعلام قريش عزاً وجاهاً وأحد الأربعة المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمها (أم رومان) بنت (عامر ابن عويمر الكنانية) وكان مولدها سنة أربع من المبعث .

زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم : عقد عليها لرسول الله صل الله عليه وسلم فى العام الثالث من انتقال زوجته السيدة خديجة إلى دار الخلد والبقاء ، إلا أنه لم يدخل بها فى عامه ؛ لأن الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة وقتئذ ، وكان صداقها أربعمائة درهم .

وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين وقيل : سبع ، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع وقيل : عشر وكانت أحب نسائه إليه ، وكنيتها (أم عبد الله) ابن أختها (أسماء بنت أبى بكر) وهى الزوجة الثالثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تزوج قبلها (سودة بنت زمعة) تزوجها فى السنة العاشرة من النبوة ، وكانت متزوجة قبله ابن

عمها ، ولما كبرت أراد طلاقها صلى الله عليه وسلم فسألته ألّا يفعل ، وجعلت يومها لعائشة ، وعاشت إلى أن ماتت فى خلافة عمر رضى الله عنه .

محبة الرسول لها ـ كانت أم المؤمنين (السيدة عائشة) أحب نساء الرسول إليه ، وكان يلقبها الرسول صلى الله عليه وسلم (بالحميراء) ويحبها محبة أكيدة ، وكان من دواعى سروره صلى الله عليه وسلم أنه يرضيها ويعمل ما فيه سرورها وراحتها وهناءتها ، حتى توثقت محبته لها وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر .

فمن أمثلة محبته لها : أنه قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس عندها ما معناه :

« إننى أعلم وقت غضبك منى حيث تقولين إذ تحلفين : ورب ابراهيم ؛ أما إذا كنت راضية عنى فتحلفين برب محمد » .

فأجابت : إننى يا رسول الله إذا غضبت أغفلت اسمك ، فأما حبى لك فلا يتغير .

كان النبى ﷺ يقضى أكثر أوقاته بجانب زوجته المحبوبة عائشة .

وكان الناس أملاً (فى الحصول على رضا الرسول صلى الله عليه وسلم) يتقدمون بهداياهم يوم عائشة .

وكان الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو بجانبها . فلذلك كانت

كانت السيدة عائشة تشاركه فى تأثراته النبوية ، إذ كانت واقفة على دقائق أحواله وحركاته ، وكل شأن من شئونه .

وقد شكا زوجات النبى صلى الله عليه وسلم من تحرى المسلمين ، يوم عائشة لهداياهم ، فاجتمعن إلى (أم سلمة) التى تقدمت بذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورجته أن يحذر الناس من ذلك . فقال لها : « لا تؤذينى فى عائشة ، فإنه والله ما نزل علىّ الوحىُ وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها » .

لم تيأس (أم سلمة) من هذا الإخطار النبوى ؛ بل عادت إلى تحقيق أملها ، وتوسلت هذه المرة (بفاطمة الزهراء) التى جاءت إلى أبيها تخبره بذلك .

إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألها : هل تحبين من أحبه ؟

فلما ردت عليه بالإيجاب قال لها : إذن أحبى عائشة .

لقد كانت لعائشة رضى الله عنها منزلة سامية فى نفسه صلى الله عليه وسلم حتى كان يقول لزوجه الطاهرة : « إن حبه لها كالعروة الوثقى التى لا انفصام لها » .

فكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر اطمئناناً على مكانة هذه المحبة فتقول : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ فيجيبها : أنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل .

غيرة نساء النبي منها ـ ونظراً لشدة حب الرسول عليه الصلاة والسلام لعائشة كانت نساؤه يغرن منها ، فأرسلن السيدة فاطمة رضى الله عنها إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقلن لها : قولى له إن نساءك قد اجتمعن إلىّ وهن يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة :

قالت عائشة رضى الله عنها : فدخلت فاطمة على أبيها وهو معى فى مِرْط (كِساء) ، فقالت له : .

إن نساءك أرسلنى إليك ، وقد اجتمعن وهن ينشدنك العدل فى بنت أبى قحافة .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتحبينى ؟ قالت : نعم . قال فأحبيها .

فرجعت فاطمة إليهن وأخبرتهن بما قال لها . فقلن لها : إنك لم تصنعى شيئاً ، فارجعى إليه ، فقالت : لا والله لا أرجع إليه فيها أبداً . وكانت بنت أبيها حقاً (أخرجه أبو حاتم والنسائى) .

غيرتها ـ عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً .

قالت : فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع فقال : مالك يا عائشة أغرت ؟ فقلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ فقلت : يا رسول الله ومعى شيطان ؟ قال : نعم . قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : نعم .

قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعانى عليه حتى أسلم أخرجه مسلم .

وعن أم سلمة : أنها أتت بطعام فى صحفة لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فجاءت عائشة رضى الله عنها مستترة بكساء ومعها فهر فتلقت به الصحفة فكسرتها . فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين فلقتى الصحفة يقول : غارت أمكم ، غارت أمكم .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم صحفة عائشة رضى الله عنها فبعث بها إلى أم سلمة وأعطى صحفة أم سلمة عائشة رضى الله عنها .

قالت رضى الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وخرج معه نساؤه ، قالت : وكان متاعى فيه خف ، وكان على جمل ناج (أى مسرع) وكان متاع (صفية بنت حيى) فيه ثقل ، وكان على جمل ثقال بطىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حولوا متاع عائشة على جمل صفية ، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضى الركب .

قالت عائشة رضى الله عنها : فلما رأيت ذلك قلت : يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أم عبد الله إن متاعك كان فيه خف وكان متاع صفية فيه ثقل ، فأبطأ بالركب فحولنا متاعها على بعيرك ، وحولنا متاعك على بعيرها ،

قالت : فقلت أليس تزعم أنك رسول الله ؟ قالت فتبسم وقال : أو فى شك أنت يا أم عبد الله ؟ قالت : فقلت أو لست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت ؟ فسمعنى أبو بكر وكان فيه عَرْب (أى حدَّة) فأقبل علىّ ولطم وجهى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا أبا بكر . فقال : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادى من أعلاه ، أى أن الذى دفعها إلى ذلك هو غيرتها ، وأن المرأة إذا غارت لا تدرى ما تقول ، بل تكيل القول جزافاً .

قناعتها وزهدها و إحسانها ـ قد أثرت تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم العالية فى نفسها الكريمة ، ووجدت منبتاً صالحاً ، حتى تشرب قلبها النبيل مبادىء الزهد والقناعة ، فكان (عروة بن الزبير) يقول عنها : رأيتها تتصدق بسبعين ألف درهم فى سبيل الله وهى فى قميص خَلِق ترقع درعها (قميصها) .

وبعث معاوية إلى عائشة بطوق من ذهب فيه جوهر كثير ثمين فقسمته بين أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا كرم شديد ، ونفس سمحة ، وسخاء وافر ، وزهد فى الدنيا ، وشدة إيمان بالآخرة

وجاءها مال فى غرارتين (ثمانون ومائة وألف درهم) وهى يومئذ صائمة فجلست تقسمه بين الناس ، فأمست وما عندها من ذلك درهم ، فلما

ياجارية هلمى أفطرى ، فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة : ما استطعت أن تشترى لنا بدرهم لحماً فنفطر عليه ؟

قالت : لا تعنفينى لو كنت ذكرتنى لفعلت

فأى سيدة شريفة مثلها التى آثرت الناس على نفسها ، وعلى أى شىء أفطرت ؟ وكم مقدار تواضعها فى خطابها لخادمتها ؟

برّها بأهلها — قال القاسم بن محمد بن أبي بكر : لما قتل أبى بمصر جاء عمى وحملنا إلى المدينة فأرسلت عمتى عائشة واحتملتنا من منزله فما رأيت والدة ولا والداً أبرّ منها ، فلم نزل فى حجرها (تحت رعايتها) إلى أن بعثت إلى عمى وتكلمت معه فى أمرنا فما رأيت أبلغ منها

وكان مما قالت : يا أخى إنى لم أزل أراك معرضاً عنى منذ قبضت هؤلاء الصبية منك ، والله ما قبضتهم تطاولاً عليك ، ولا تهمةً لك فيهم ، ولا لشىء تكرهه ، ولكنك كنت رجلا ذا نساء ، وكانا صبيين لا يكفيان من أنفسهما شيئاً فخشيت أن ترى نساؤك منهما ما تتقذرن به (تكرهنه) من قبيح أمر الصبيان ، فكنت ألطف لذلك ، وأحق بالولاية

أما الآن فقد كبرا وصارا يمكنهما أن يدفعا عن أنفسهما تعديات غيرهما فاقبضهما إليك ، فانصرف عليها مثنياً ، وعنها راضياً

يستنبط من هـذه القصة أنها كانت شفيقة ، بَرَّة ، بعيدة النظر ، قوية الحجة ، فصيحة اللسان

برّها بالغير — كانت تبذل ما لديها من مال ونسب فى وجوه البرّ والخير بالغير ، وقضاء حاجات أهل العوز والمساكين ، وفى إعلاء كلمة الدين . وعندما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المال فى زمن خلافته وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان يعطى كلا منهن عشرة آلاف درهم إلّا عائشة فقد جعل لها اثنى عشر ألفاً ، وذلك لأنها كانت محبوبة للرسول صلى الله عليه وسلم

ولذا كان تصرفها فى وجوه البرّ والإحسان بينى الإنسان

صفاتها الشريفة وعلمها الغزير — للسيدة عائشة رضى الله عنها ميزة خاصة وشرف واحترام بين مخدرات العالم الإسلامى لم تتوافر لسواها من السيدات ، فقد كانت أديبة ، لبيبة ، عالمة ، خطيبة ، شاعرة من أفقه الناس ، وأعلم الناس وأحسنهم رأياً فى العامة ، وعنها يقول عروة بن الزبير:

ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ، ولا بفقه ولا بشعر ، ولا بحديث من عائشة رضى الله عنها ، ولها خطب شهيرة ، وكان معاوية يقول : لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة

ياله من فخار تحوزه السيدة عائشة ، تلك التى استطاعت فى فترة كبيرة من حياة الرسول الشريفة أن تدخل عليه السرور والراحة وتعمر قلبه بالغبطة والأنس ، فكانت أمام عينيه الشريفتين المثل الأعلى للسعادة وما كان ينقصها فى حياتها إلاَّ أن تكون أمًّا لكيلا تحرم من التكنى باسم طفلها ، إلاَّ أن سيد الكائنات لم يدع سبيلا إلى غمها من هذا القبيل فكناها بابن اختها (عبد الله بن الزبير) إذ كان قد درج فى البيت النبوى وشبَّ بين أحضان الاسرة النبوية المطهرة

وكانت من أحب خلق الله اليه هى وأبوها الصديق ، كيف لا وقد أضاءت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعلمها وجمال نفسها حتى صارت الدرة اللامعة فى تاج تلك الأيام السعيدة المباركة

وقيل : انها روت ألفى حديث ومائتى حديث وعشرة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجال يقصدونها بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ليسألوها فى العلم فتفتيهم فيه من وراء حجاب لما اتصفت به من كمال الفضل وتمام الأدب

ورعها وخوفها من الله ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء عمى من الرضاعة يستأذن علىّ فأبيت أن آذن له حتى استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء الرسول قلت ان عمى من الرضاعة استأذن علىّ فأبيت أن آذن له . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فليلج عليك عمك . فقلت : إنما أرضعتنى امرأة ولم يرضعنى الرجل : فقال انه عمك فليلج عليك

تعبدها ـ عن عروة أن عائشة رضى الله عنها كانت تسرد الصوم وعن القاسم : أنها كانت تصوم الدهر ، لا تفطر إلاّ يوم الأضحى أو يوم الفطر وعنه قال : كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رضى الله عنها فأسلم عليها فغدوت يوماً فاذا هى قائمة تسبح وتقرأ : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ وتدعو وتبكى وترددها ، فقمت حتى ملت القيام فذهبت الى السوق لحاجتى ، ثم رجعت فاذا هى قائمة كما هى تصلى وتبكى وكانت تزور الكعبة فى كل عام ، ثم تعود الى المدينة فهذه الزيارات التى دامت الى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة أكسبتها عاطفة حب شديد واحترام فائق نحو شخصها المحبوب من أهل المدينة الذين كانوا يقدرون ذكاءها وحسن رأيها

حياؤها ـ عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى رضى الله عنه واضعة ثوبى وأقول . انما هو زوجى وأبى ، فلما دفن عمر رضى الله عنه والله ما دخلته إلا مشدودة على ثيابى حياء من عمر رضى الله عنه

عفتها وبراءتها مما نسب إليها ـ مما يؤسف له أنه حدث حادث مؤلم للسيدة عائشة غير قلب النبى صلى الله عليه وسلم وحول بعض حبه

عنهـا فترة قصيرةً من الزمن ، وهـذا الحادث هو حديث الإفك الوارد فى سورة النور من القرآن الكريم ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم استصحب زوجته السيدة عائشة فى الغزوات ، وبينما هو قافل إذ انفرط عقدها فرجعت لتلتمسه ، فظن سائس راحلتها أنهـا فى هودجها فاحتمل الهودج على الراحلة وسار مع الركب فلما رجعت لم تجد أحداً فمكثت مكانها فمر بها (صفوان ابن المعطل السلمى) فرآها فأركبها ناقته ، وأوصلها إلى الجيش فاتهمها جماعة من المنافقين فى عفتها . فلما تحدث الناس بهذا الأمر وبلغ السيدة عائشة بكت حتى أصبحت لا يهدأ لها بال ولا تكتحل عينها بنوم

فلما سمع أبوها أبو بكر بكاءها ونواحها طيب خاطرها وقال لها : صبراً يابنية عسى الله أن ينزل فى شأنك آية

وبينما أبوها عندها وهى تبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فلبثت تبكى معها ، وبيناهم على تلك الحال إذ دخل رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندها من يوم هذا الحادث

وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنهـا بشىء ، فتشهد الرسول عليه الصلاة والسلام حين جلس ثم قال :

أما بعـد ، ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليـه ، فإن العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ؛ فلمـا قضى رسول الله صلى

الله عليه وسلم مقالته استعصى دمعها لاستعظام ما بغتها به من الكلام وقالت لأبيها وأمها :

إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث الناس به حتى استقر بأنفسكم وصدقتم به ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله ما أجد لى ولكم مثلاً إلاّ أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

وبعد أن أتمت مقالتها تحولت واضطجعت على فراشها وهى تعلم إنها لبريئة وأن الله مبرئها ، وقد حدث ما كانت ترجوه ، إذ نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آيات فى براءة السيدة عائشة رضى الله عنها ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وما بعدها من الآيات

وقد زال بعد نزول هذه الآيات ما كان بين الرسول وزوجه من الجفاء بسبب حادثة العقد ، فعاش معها فى أمان وطمأنينة ، وأنس عظيم ، وراحة تامة

شجاعتها — كانت على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام ، فقد

حضرت واقعة الجمل بنفسها ، وكانت تحض الرجال وتشجعهم الحرب

واقعة الجمل - وهى أن عائشة رضى الله عنها خرجت من المدينة الى مكة وسيدنا عثمان رضى الله عنه محصور ، ثم رجعت من مكة تريد المدينة ، فلقيها فى الطريق (عبيد بن أبى سلمه) أحد أولاد خالها فقالت له : ماوراءك ؟ قال : قتل عثمان . قالت : فما صنع الناس بعده ؟ قال : اجتمعوا وبايعوا عليا . قالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردونى ، فانصرفت إلى مكة وهى تقول : قتل عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه

فلما رجعت إلى مكة ذهبت تواً الى الحجر الأسود ، وجمعت الناس وخطبتهم خطبة بليغة مؤثرة أفهمتهم فيها قتل عثمان ظلماً ، وحثتهم على طلب دمه ، فأثرت هذه الخطبة فى نفوس الكثيرين وتبعها عدد كبير من أهل البصرة حتى بلغ عدد جيشها ثلاثين ألف مقاتل من بينهم (طلحة والزبير ابن العوام)

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه قام وخطب فى الناس وأعلمهم الحال وقال : إنها فتنة ، وسأمسك الأمر ما استمسك بيدى ، وسار اليهم فى عشرة آلاف ، والتقى الجمعان بظاهر البصرة فى مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوب وحروب وانتهت بهزيمة جيش عائشة وقتل طلحة وابن العوام رضى الله عنهما

وكانت السيدة عائشة على جمل فى هودج تراقب حركة القتال ، وقد ترامى جندها على الموت ، وسميت هذه الواقعة (بواقعة الجمل)

وكان خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال ، وبقيت السيدة عائشة فى مخفرها حتى المساء وكان أخوها (محمد بن أبى بكر) من أصحاب على كرم الله وجهه ، وأمره أن يمضى الى أخته وينظرها هل هى سليمة أم لا ؟ ثم أدخلها ليلاً الى البصرة فى دار (عبد الله بن خلف) وظلت هناك حتى أول شهر رجب بأمر الإمام على ، وأحسن على كرم الله وجهه وفادتها غاية الإحسان ، وجهزها بكل ماينبغى ، وأذن لها بالرجوع واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطريق وسيَّرها صحبة أخيها محمد بن أبى بكر مكرمةً ، وقد شيَّعها ولدا الإمام على : الحسن والحسين رضى الله عنهما

فلما كان يوم رحيلها حضر الإمام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها :

يا بنى لايعتب بعض على بعض ، انه والله ما كان بينى و بين على فى القديم الا مايكون بين المرأة وأحمائها وانه على معتبتى لمن الأخيار

وقال على كرم الله وجهه : والله ما كان بينى وبينها إلاَّ ذاك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة

ثم سارت وتبعها الإمام أميالاً ، وتوجهت إلى مكة ، وأقامت بها أيام الحج وانصرفت إلى المدينة

وفاتها ـ انطوت صفحة حياتها الخالدة فى العام الثامن والخمسين من الهجرة حيث نزل بها قضاء الله الذى لامرد له وكانت وصيتها عندما وَافاها القدر المحتوم أن تدفن (بالبقيع)

توفيت عائشة رضي الله عنها إلى رحمة ربها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرم ، ودفنت فى تلك الليلة (بالبقيع) كما أوصت، ومشى جميع أهل المدينة فى جنازتها وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه

أما الذين نزلوا قبرها فهم : عبد الله ، وعروة ، ولدا الزبير ، والقاسم وعبد الله ، ولدا محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن

ماتت السيدة عائشة ، السيدة الفاضلة ، رضى الله عنها عن خدمات جليلة ، وحسنات شهيرة حببتها إلى الأمة الإسلامية فتركت من بعدها ذكرى خالدة ، وسمعة طيبة

فالسلام عليها يوم ماتت ، ويوم تبعث حيَّةً

وأرجو الله أن يوفق نساءنا المسلمات للعمل بسيرتها ، واتباع سنتها

وقد ذكرنا عنها محاضرة طويلة فى كتابنا المحاضرات الفكرية .

٤ - حفصة

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بعد أن انقضت عدتها من زوجها (خنيس بن حذافة) .

قال عمر رضى الله عنه : ولدت حفصة وقريش تبنى البيت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بخمس سنين .

وقد كان عمر رضى الله عنه عرض حفصة ابنته على أبى بكر فلم يجبه بشىء وعرضها على عثمان فلم يجبه بشىء ، فقال عمر : يا رسول الله قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد زوّج عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان ، فتزوج عثمان أم كلثوم، وتزوج رسول الله حفصة وكان عمرها ٢٠ عاماً .

وتزوج رسول الله حفصة سنة ٣٠ هـ بعد عائشة وطلقها تطليقة فبلغ ذلك عمر فحثى التراب على رأسه وقال :

ما يعبأ الله بعمر وابنته ، ثم ارتجعها رسول الله . وتوفيت سنة ٤١ هـ فى زمن معاوية .

٥ - زينب ابنة خزيمة (أم المساكين)

زوج النبي ﷺ

هى زينب بنت جزيمة بن حارثة بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ابن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

يقال لها : أم المساكين ، لكثرة طعامها وصدقتها عليهم ، وكانت تحت (عبد الله بن جحش) فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : كانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ثم خلف عليها أخوه عبيد بن الحارث .

كانت أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأمها ، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حفصة ، ولم تلبث عنده إلا يسيراً شهرين ، أو ثلاثة حتى توفيت ، وكانت وفاتها فى حياته صلى الله عليه وسلم لا خلاف فيه ، وقال ابن منده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أسرعكن لحوقاً بى ، أطولكن يداً » .

فكان نساء النبي يتذارعن أيتهن أطول يداً .

فلما توفيت زينب علمن أنها كانت أطولهن يداً فى الخير، وهـذا وهم، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : أسرعكن لحوقا، وهـذه سبقته إنما أراد أول نسائه تموت بعد وفاته؛ وقد ذكر فى زينب بنت جحش وهو لها أشـبه لأنها كانت كثيرة الصدقة، من عمل يدها.

وهى أول نسائه توفيت بعده والله أعلم.

٦ — هند وهى أم سلمة

زوج النبى ﷺ

بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، المخزومية وأمها عاتلة بنت عامر بن ربيعة .

كانت امرأة لأبى سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد وهاجر بها إلى أرض الحبشة فى البحرين فولدت له هناك زينب ، ثم ولدت سلمة ، ودرّة ، وعمر .

قيل : انها أول ظعينة هاجرت إلى المدينة .

وقيل : انه لما انقضت عدتها بعث أبو بكر إليها يخطبها فلم تتزوجه فبعث إليها النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب يخطبها فقالت : أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى امرأة غيرى ، وإنى امرأة مصبية وليس أحد من أوليائى شاهداً .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : ارجع إليها فقل لها : أما قولك إنى امرأة مصبية فستكفين صبيانك ، أما قولك : ليس أحد من أوليائى شاهداً فليس أحد من أوليائك شاهداً أو غائباً يكره ذلك .

وقولك : انى امرأة غيرى فسندعو الله يصرف عنك الغيرة

فلما بلغها ذلك قالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه.

وحكى عنها أنها قالت : فى بيتى نزلت الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وكانت من أجمل النساء، وشهدت (غزوة خيبر) وتوفيت بعد قتل الحسين أى سنة ٦١ للهجرة وقيل : بل توفيت سنة ٥٩ هـ

وسند الرأى الأول ما يروى من أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين حمله إليه جبريل فقال لها :

إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين فحفظته فى قارورة عندها ، فلما قتل الحسين صار التراب دماً ، فأعلمت الناس بقتله .

وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم ٣٢٨ حديثاً ، وعاشت ٨٤ سنة وصلى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع من أرض الحجاز .

٧ - زينب بنت جحش

زوج النبي ﷺ أم المؤمنين

زينب بنت جحش بن رئاب ، تكنى أم الحكيم ، وأمها (أميمة) بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قديمة الإسلام ، ومن المهاجرات مع الرسول ، وكانت امرأة جميلة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على (زيد بن حارثة) فقالت : يارسول الله لاأرضاه لنفسى وأنا أيم قريش

قال : فانى قد رضيته لك ، فتزوجها ابن حارثة ولم يلبث معها قليلاً حتى طلقها لكبر يائها وعظمتها

عن أنس رضى الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أمسك عليك زوجك واتق الله) فنزلت الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾

زواجها بالنبى - لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة اذهب واذكرنى لها ، قال فلما قال ذلك عظمت فى نفسى ، فذهبت إليها ، وجعلت ظهرى إلى الباب ؛ وقلت .

يازينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . فقالت : ما كنت لأحدث شيئاً حتى أؤامر ربى عزوجل . فقامت الى مسجد لها فأنزل الله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ الآية

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير اذن وكان عمرها حين تزوجها ٣٥ سنة

وروى : أنه لما دخل بها سنة ٥ للهجرة قال لها : ما اسمك ؟ قالت : برّة: فسماها رسول الله (زينب) وقال : لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم والفاجر

وروى : أنه لما تزوجها تكلم فى ذلك المنافقون فقالوا : حرّم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه . فأنزل الله عز وجل

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ الآية سورة الأحزاب

وقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾

فمن ثم دُعى (زيد بن حارثة) وكان يدعى (زيدبن محمد) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا

فخرها على أزواج النبى - عن أنس رضى الله عنه قال لما نزلت الآية . (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) كانت زينب تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكن آباؤكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات ، وأولم عليها بخبز ولحم

وعن أنس قال : ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة من نسائه أكثر وأفضل مما أولم على زينب

فقال له ثابت . ما أولم ؟ قال . أطعمهم خبزاً ولحماً

مناقبها - كانت زينب بنت جحش قصيرة جميلة ، صناعة اليد ، تدبغ وتخرز ، صوامة قوامة تشتغل وتتصدق من شغل يدها فى سبيل الله : قالت عائشة رضى الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً » . قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً : قالت : وكان أطولنا يداً زينب ، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق

وعنها رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه . « أولكن تتبعنى أطولكن يداً » . قالت عائشة رضى الله عنها : فكنا إذا اجتمعنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا فى الحائط نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش رضى الله عنها ، فكانت امرأة قصيرة ؛ ولم تكن أطولنا ، فعرفت أن النبى

صلى الله عليه وسلم أراد بطول اليد الصدقة ، وكانت امرأة صناعاً ، وكانت تعمل بيدها وتتصدق فى سبيل الله

وفاتها ـ توفيت سنة ٢٠ للهجرة فى خلافة عمر ، وفى هذا العام فتحت مصر ، وقيل : توفيت سنة إحدى وعشرين وفيها فتحت الاسكندرية وماتت رضى الله عنها وعمرها ثلاث وخمسون سنة . ولما توفيت قالت عائشة : يرحم الله زينب بنت جحش لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف ، إن الله عز وجل زوجها بنبيه ، ونطق به القرآن ، وان الرسول قال لنا ونحن حوله : « أسرعكن لحوقاً أطولكن يداً » فبشرها بسرعة لحوقها به وهى زوجته فى الجنة ، وذلك لأنها أول من توفيت من نسائه بعده ، وقال لعمر ابن الخطاب : إن زينب أوّاهة خاشعة متصدقة

عمات الرسول صلى الله عليه وسلم

عمات الرسول صلى الله عليه وسلم ستة :

صفية و إسلامها معروف ومحقق ، وهى أم الزبير بن العوام .

أروى وعاتكة ، وفى إسلامهما خلاف .

أم حكيم و برة وأميمة ، ولا خلاف فى عدم إسلامهن .

وكلهن شقيقات عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم إلا صفية .

ولنذكر أروى ، وأم حكيم فيما يلى.

أروى ابنة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف

القرشية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذكرها أبو جعفر فى الصحابة وذكر أيضاً أختها (عاتكة ابنة عبد المطلب) قال محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى : لما أسلم (طليب بن عمير) دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها : قد أسلمتُ وتبعت محمداً أو تتبعينه؟ فقد أسلم أخوك حمزة . قالت : أنظر ما تصنع إخوتى ، ثم أكون مثلهن . قال : فقلت : إنى أسألك بالله إلا أتيته وسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلّا الله قالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم كانت بعد تُعضد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعينه بلسانها ، وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره ، وكانت من الشاعرات الأديبات والمتكلمات فى العرب ومن قولها ترثى والدها عبد المطلب مع باقى أخواتها حين طلب منهن ذلك قبل موته ليعلم قوتهن فى الرثاء :

بكت عينى وحق لها البكاء ... على سمحٍ سجيته الحياء

على سهل الخليقة أبطحى ... كريم الخيم شيمته العلاء

على الفياض شيبة ذى المعالى ... بيك الخير ليس له كفاء

طويل الباع أملس شيظمى ... أغرّ كأن غرّته ضياء

أبى الضيم أبلج هبرزى قديم المجد ليس له خفاء
ومعقل مالك وربيع فهر وفيصلها إذا التبس القضاء
وكان هو الفتى كرماً وجوداً وبأساً حين تنسكب الدماء
إذا هاب الكماة الموت حتى كأن قلوب أكثرهم هواء
مضى قدما بذى رأى مصيب عليه حين تبصره البهاء

وقد أسنت وماتت فى خلافة عمر بن الخطاب ودفنت بما يليق بها من الإكرام .

أم حكيم ابنة عبد المطلب الهاشمية

الملقبة بالبيضاء

كانت من النساء الحكيمات العاقلات فى بنى هاشم جمعت مع الحكمة وفرة الأدب ومع البلاغة فصاحة العرب ، كانت مع أخواتها رثت أباها فى حياته كطلبه بهذه الأبيات :

ألا ياعين جودى واستهلّى ... وبكّى ذا الندى والمكرمات
ألا ياعين ويحك أسعدينى ... بدمعك فى دموع هاطلات
وبكّى خير مَن ركب المطايا ... أباك الخير تيار الفرات
طويل الباع شيبة ذا المعالى ... كريم الخيم محمود الهبات
وصولاً للقرابة هبرزيًا ... وغيثاً فى السنين الممحلات
وليثًا حين تشتجر العوالى ... تروق له عيون الناظرات
عقيل بنى كنانة والمرجى ... إذا ما الدهر أقبل بالهنات
ومفزعها إذا ما هاج هيج ... بداهية خصيم المعضلات
فبكيه ولا تسمى نحزن ... وبكّى ما بكيت الباكيات

بنات النبى ﷺ

١ - السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ

هى أكبر أولاده ، ولدت وعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة وأمها (خديجة بنت خويلد بن أسد) وكان أبوها يحبها وتزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى قبل النبوة . وكانت تحب زوجها ، وأسلمت وهاجرت مع أبيها وأبى أبو العاص أن يسلم ، ففرّق الإسلام بينهما ؛ إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقدر أن يفرق بينهما بمكة لعدم قوة الإسلام بها وقتئذ ولم يفرق بينهما من أول البعثة لأن تحريم زواج المشرك للمسلمة إنما كان بعد الهجرة

ولما أُسر أبو العاص فى وقعة بدر وكان من الكفار أرسلت زينت فى فدائه الربيع بمال دفعته إليه ، من ذلك قلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا » فقالوا : نعم

وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصافياً وكان أبى أن يطلق زينب لما أمره المشركون أن يطلقها ، فشكر له صنيعه

ولما أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسر شرط عليه أن يرسل زينب إلى المدينة ، فعاد إلى مكة وأرسلها إلى المدينة ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى .

ولم تزل زينب بالمدينة ، وأبو العاص بمكة ، على شركه ، فلما كان قبيل الفتح خرج بتجارة إلى الشام ومعه أموال من أموال قريش ومعه جماعة منهم ، فلما عاد لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أميرهم (زيد بن حارثة) فأخذ المسلمون ما فى تلك العير من الأموال ، وأسروا أناساً ، فهرب أبو العاص ابن الربيع ، ثم أتى المدينة ليلاً فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته .

فلما صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح صاحت زينب : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس وقال : هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم . قال : والذى نفسى بيده ما علمت بذلك حتى سمعتم . وقال يجير على المسلمين أدناهم ، ثم دخل على ابنته فقال : أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . قالت : إنه قد جاء فى طلب ماله ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك السرية ، وقال : إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق .

فقالوا : بل نرده عليه ، فردوا عليه ماله أجمع ، فعاد إلى مكة ، وأدى إلى الناس أموالهم ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ثم قدم إلى المدينة .

ولما أسلم أبو العاص رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته زينب بمهر جديد، وولدت (علياً وأمامة) التى تزوجها على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب (أمامة) ، وهى التى كان يحملها فى الصلاة على عاتقه ، فإذا ركع وضعها ، وإذا رفع رأسه من السجود أعادها .

وقد توفيت زينب بالمدينة فى السنة الثامنة للهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها ، وهو مهموم محزون ، فلما خرج سرى عنه ، وقد توفى بعدها زوجها .

وقيل : إنها لما ماتت زينب قال النبى صلى الله عليه وسلم : أغسليها وتراً ثلاثاً أو خمساً ، واجعلى فى الخامس كافوراً أو شيئاً من الكافور .

٢ – السيدة رقية

ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولدت رقية ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وثلاثون سنة ، وكان تزوجها (عتبة بن أبى لهب) ، وتزوج أختها أم كلثوم (عتبة أخوه) .

فلما نزلت آية : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، قال أبو لهب لهما : رأسى من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد ، ففارقاها ، ولم يكونا دخلا بهما .

وتزوج رقية عثمان بن عفان رضى الله عنه بمكة ، وهاجر بها الهجرتين إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة .

وكانت ذات جمال بارع ، وكان فتيان أهل الحبشة يتعرضون لها ، ويتعجبون من جمالها فآذاها ذلك ، فدعت عليهم ؛ فهلكوا جميعاً ، وولدت لعثمان بالحبشة ولداً سماه (عبد الله) ، وكان يكنى به ، وبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فتورم وجهه ومرض ومات .

وتوفيت رقية بالمدينة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة بدر ، وكان عثمان قد تخلف عن بدر لأجلها ، فجاء زيد بن حارثة بشيراً بفتح بدر ، وعثمان قائم على قبرها .

وكانت وفاتها لسنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً من الهجرة .

ولما عزى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الحمد لله دفن البنات من المكرمات » .

٣ — السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيدة النساء

نسبها — السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها من أشرف نساء قريش نسباً، وأطهرهن حسباً، وأنقاهن سيرةً، وأشدهن غيرةً على الإسلام.

مولدها — ولدت فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم من أمنا السيدة خديجة الكبرى رضى الله عنها قبل ما تبنى الكعبة بخمس سنين، والنبي صلوات الله عليه ابن خمس وثلاثين سنة، أى قبل هجرته المباركة بسبعة عشر عاماً، وكانت أصغر بناته وأحبهن إليه.

كانت سيدة النساء فاطمة مباركة ذات خَلق حسن، وخُلق أحسن، تربت تربيةً عالية فى دار النبوة، فنشأت نشأةً صالحةً، وأنبتها الله نباتاً حسناً، (أصلها ثابت وفرعها فى السماء) فكانت خير النساء وسميت فاطمة؛ لأن الله فطمها وحفظها من النار.

زواجها — تزوجت السيدة فاطمة الزهراء من الإمام على (ابن عم النبى) كرم الله وجهه فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة، و بنى بها فى ذى الحجة من السنة المذكورة.

ولقد كانت سيدة النساء وقتئذ فى أزهى أوقات الحياة فى التاسعة عشرة من عمرها ، أما الإمام على فقد كان يبلغ الحادية والعشرين ، كلاهما شخصيتان بارزتان ، يحيط بهما جلال الإيمان ونور الهدى ، متكافئان متعادلان من كل الوجوه ، مناسب أحدهما للآخر كل المناسبة ، كلاهما عالى الفكر ، رقيق الحسّ ، حميد الخُلق ، صبيح الوجه ، فكلاهما زوجان متصفان بالمعالى ، مشهوران بالمحامد ، فهما خيار من خيار .

بدأت حياتهما المشتركة التى امتزجت فيها الفضيلة بالكمال ، والجلال بالجمال ، على هذا الوجه من الصفاء والوفاء والإخلاص .

حضر الإمام على ذات يوم من أيام السنة الثانية للهجرة إلى دار النبوة بنفسه ، وبعد أن دخل الدار سلم على الرسول صلى الله عليه وسلم وسكت ، فسأله الرسول ماذا يطلب ؟ فرد عليه مجيباً بأنه حضر ليطلب كريمته السيدة فاطمة . فقال له الرسول : مرحباً وأهلاً ، ولم يزد على ذلك ، بل ظل ساكتاً بعدها ، مما اضطر علياً إلى العودة حائراً مدهوشاً .

لم يستطع الإمام على أن يميز وجه الحقيقة من رد الرسول ، فسأل بعضاً من الأنصار ، فبشروه وطيبوا خاطره ، وأفهموه بأن فى هذا الرد ما يشعر بالقبول والإيجاب ، ففرح الإمام واغتبط بذلك ، وبعد قيام الإمام علىّ طلب الرسول صلوات الله عليه كريمته السيدة فاطمة وأخبرها بهذا الأمر ، وسألها رأيها

فيه ، فلم تجبه ، بل أطرقت ساكتةً ، فعد الرسول سكوتها علامة الإيجاب والرضى .

فقرر إتمام عقد الزواج ، ثم أرسل يطلب عليًا كرّم الله وجهه وسأله هل عنده من شيء ؟ فأجابه : أنه لا يملك سوى فرسه ودرعه ، فأمره ببيع الدرع لتجهيز السيدة فاطمة بثمنها

هرع علىّ إلى السوق فباع الدرع إلى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً ، وعاد بالثمن معقوداً فى طرف ثوبه ووضعه أمام الرسول وهو يقول : هاهو بدل الدرع يارسول الله

فقبض الرسول بعض الدراهم منها ، وناولها بلالاً ليشترى بعض الطيب والروائح ويسلم الباقى إلى (أم سلمة) لتشترى الجهاز

وبعد أن أحضرت أم سلمة الجهاز دعا الرسول صلى الله عليه وسلم جمعًا غفيراً من الأنصار ثم خطبهم خطبة بليغة وهى :

الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع سلطانه ، المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميّزهم بأحكامه ، وأعزّهم بدينه . وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله عز وجلّ جعل المصاهرة نسبًا لاحقاً ، وأمراً مفترضاً ، وحكماً عادلاً ، وخيراً جامعاً ، وشج به الأرحام ، وألزمها الأنام . فقال عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً » وأمر

الله تعالى يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ، ويثبت وعنده أم الكتاب ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من علىّ وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من علىّ ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة ، والفريضة الواجبة

ثم دعا لهما عقب ذلك بحسن المعاشرة ، وبالذرية الصالحة ، وعند ما تم عقد الزواج على هذا الوجه البسيط أحضر الرسول للحاضرين من الأنصار وعاء فيه بعض التمر وقدمه إليهم بقوله : تخاطفوا

هكذا تم زفاف سيدة النساء ، وابنة فخر الكائنات بلا ضجيج ولا ضوضاء ، ولكنه بالسرور الذى ملأ القلوب بالهناء والصفاء

وبعد أن تفرق المدعوون طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمة وأمرها بأن تذهب بكريمته إلى دار على ، وبأن تخبرها أنه آت إليهما عن قريب فنفذت أمره وسارت بسيدة النساء إلى دار زوجها ، أما الرسول فقد صلى صلاة العشاء ، ويمم عقب الصلاة دار على وفى يده قربة من الجلد تستعمل لسقى الماء ، وعند وصوله دار صهره قرأ عليها سورتى المعوذتين ، وبعضاً من الأدعية ، وأمرهما بأن يشربا ويتوضآ من الإناء ، ثم أخذ قليلاً منه ونثره على رأسيهما ، وعند ما أراد مفارقتهما وقد هَمّ بالإنصراف كانت فاطمة رضى الله عنها تبكى فخاطبها بما معناه :

« أى بنتى قد تركتك وديعة عند رجل إيمانه أقوى من إيمان أى إنسان آخر ، وعلمه أكثر من علم الجميع ، إنه أفضل قومنا أخلاقاً ، وأعلاهم نفساً » .

على هـذا الوجه تم عقد الشركة القلبية بين سيدة النساء فاطمة الزهراء والإمام على كرم الله وجهه .

أحب الإمام علىّ زوجته سيدة النساء ، وعاشا عيشةً راضيةً ، ورزقت منـه خمسة أولاد ، ثلاثة ذكور : وهم الحسن والحسين ومُحسن ، وبنتان : أم كلثوم وزينب ، وقد مات مُحسن صغيراً .

مناقبهـا

كانت السـيدة فاطمة رضى الله عنها ذات عقل ودراية ، عالية النفس ، تجيد الشعر ، وتعرف مسائل الفقه والشريعة ، ولها إلمام بالتاريخ ولم يأخـذها الغرور يوماً لعلو منزلتها فى الإسلام .

وكانت سلسلة القياد ، حلوة اللسان ، تحب معونة الفقراء كزوجها على .

روى عنها أحاديث نبوية كثيرة ، ونظمت قصائد ذات أبيـات عامرة ، وأظهرت دراية ومهارة فى كثير من المعضلات .

كانت السيدة فاطمة تشابه أباها فى كلامها ، وتحاكيه صلى الله عليه وسلم فى مشيها ، محاكاةً تامة تثير دهشة الناس .

أما محبتها لوالدها فخر الكائنات فكانت محبة خارقة للعادة من أعماق القلب والروح

وكانت محبوبة من أهلها يحبها الجميع ، وقد تركت ذكريات حسنة فى قلب كل إنسان عرفها أثناء العشرة السنوات التى مضت من يوم زواجها حتى ساعة وفاتها

وكان الإمام على ينفذ لها كل طلب و يعمل بكل كلمة تقولها

وكان أولادها يطيعونها ويحترمونها فى كل حين

وكانت تحب أولادها وتعتنى بشأنهم ، وكانت فى صلاتها وعبادتها ومبراتها وخيراتها من أكثر السيدات أنساً فى محفل ربات الخدور

وقد قضت حياتها السعيدة حتى السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية المباركة وهى تجبر القلوب الكسيرة ، وتعين المحتاجين ، وتغيث الملهوفين ، وقد ظلت هذه الحياة السعيدة على هذه الوتيرة حتى السنة المذكورة التى انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه ، إلى الرفيق الأعلى ، فتناثرت أوراق تلك السعادة، وأظلم قلبها ، وهكذا الدهر إذا صفا يوماً ففى غد يتقلب

* * *

أقبلت ذات مرة تزور الرسول صلوات الله عليه وكان معه السيدة عائشة فقال : مرحباً بابنتى ، ثم أجلسها عن يمينه وأسرّ لها حديثاً فبكت ،

ثم أسرَّ لها حديثاً آخر فضحكت ، فقالت السيدة عائشه : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن : فسألتها عما قال ؟ فقالت : ما كنت لأفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرَّه ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فأخبرتها أنه قال : إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، وما أراه إلاَّ قد حضر أجلى ، وإنك أول أهل بيتى لحوقاً بى ، ونعم السلف أنا لك . فبكيت : فقال : ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ فضحكت لذلك . ولم تضحك فاطمة عليها السلام بعد وفاة أبيها قط ، ولقد حزنت الزهراء حزناً شديداً لوفاته صلى الله عليه وسلم إلى أن توفاها الله فلم تظهر عليها أمارة من السرور طول تلك المدة . ولما زارت قبر أبيها عليه الصلاة والسلام بعدوفاته بأيام أخذت بيدها قبضةمن تراب القبر فجعلتها على عينها ووجهها وأخذت تبكى وتقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ألاّ يشم مدى الزمان غواليا
صُبت علىَّ مصائب لو أنها صُبت على الأيام عدن لياليا

وقد رثته بهذه المرثية :

اغبر آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبى كئيبة أسفاً عليه كثيرة الأحزان
فليبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكل يمان

يا خاتم الرسل المبارك صنوه صلى عليك منزل القرآن

فلم يسمعها إنسان حتى بكى معها ، و بعد أن أفاضت دموع العين بما فى القلب من نيران الحزن عادت الى منزلها واجمةً مطرقةً حزينةً

روى : أن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطت جارية لها صدقة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت لها : امضى إلى السوق بها ، وقولى من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن قبلها فأتينى به ، فمضت الجارية إلى السوق وقالت : من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رجل مغربى : أنا موضع صدقة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطته الصدقة وقالت له : أجب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : نعم فلما بلغ الباب سألته من أنت ؟ فقال لها أنا رجل مغربى

فقالت له : من أى المغرب ؟ فقال من البربر فبكت فاطمة وقالت : قال لى والدى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى حوارى ، وحوارى ذريتى البربر ، سيقتل الحسن ، والحسين ، ويفر أولادهما إلى المغرب ، فلا يأويهما إلاّ البربر فياشؤم من فعل بهم ذلك ، وطوبى لمن أكرمهم وأعزّهم »

***

وفاتها — توفيت عليها السلام ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر

رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة ، وهى بنت ثمان وعشرين سنة ، ودفنت بالبقيع ليلاً ، وصلى عليها علىّ عليه السلام

وقيل : صلى عليها ونزل فى قبرها هو والفضل بن العباس ، وقيل : لبثت فاطمة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشهر ، وقال عروة ابن الزبير وعائشة : لبثت ستة أشهر ، وهو الصحيح

***

وروى : أن علياً عليه السلام زوجها لما ماتت فاطمة وفرغ من جهازها ومن دفنها رجع إلى البيت فاستوحش فيه وجزع عليها جزعاً شديداً ثم أخذ يقول :

أرى علل الدنيا علىّ كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذى دون الفراق قليل
وإن افتقادى فاطماً بعد أحمد
دليل على أن لا يدوم خليل

٤ — أم كلثوم ابنة النبى

صلى الله عليه وسلم

أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد تزوجها عتيبة بن أبى لهب ثم فارقها قبل الدخول بها .

فلما ماتت أختها رقية تزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه بوحى من الله وأمر منه تعالى .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لقى النبى صلى الله عليه وسلم عثمان عند باب المسجد فقال « يا عثمان هذا جبريل ؟ أخبرنى أن الله تعالى قد أمرنى أن أزوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها » ، (أخرجه ابن ماجه) .

وأم كلثوم عرفت بكنيتها ولم يعرف لها اسم ، ولم تلد رضى الله عنها واختلف فى أيهما أكبر هى أم رقية ؟ وهى أكبر سناً من فاطمة .

ماتت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة وصلى عليها أبوها صلى الله عليه وسلم ، ونزل فى حفرتها : على ، والفضل ، وأسامة بن يزيد ، وأبو طلحة الأنصارى .

ذكر سير أهل البيت المدفونات بالقاهرة

١ - السيدة زينب بنت الامام على كرم الله وجهه

نسبها - السيدة زينب هى بنت الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها سيدة نساء العالمين (فاطمة الزهراء) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

مولدها - ولدت رضى الله عنها فى شعبان فى السنة الخامسة للهجرة الموافقة لسنة ٦٢٦ م وعاشت مع جدها النبى صلى الله عليه وسلم خمس سنوات وهى شقيقة الحسن والحسين عليهما السلام

زواجها - تزوجت من ابن عمها (عبد الله بن جعفر الطيار) ذى الهجرتين ، وذى الجناحين ، وكنيته أبو عبد الله ، وأبو المساكين الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشبهت خَلقى وخُلقى

وكان آية فى الحلم والجود والكرم ، توفى سنة ٨٠ من الهجرة بالمدينة وكان أميرها إذ ذاك (أبان بن عثمان لعبد الملك بن مروان) فحضر غسله وكفنه ، وما فارقه حتى دفنه بالبقيع ، وإن دموعه لتسيل على خديه وهو يقول : كنت والله خيراً لاشرّ فيك ، وكنت والله شريفاً واصلا براً

أولادها - رزقت منه علياً وعوناً ، ويدعى بالأكبر ، وعباساً ومحمداً وأم كلثوم

مناقبها وأخبارها - كانت السيدة زينب رضى الله عنها امرأة عاقلة لبيبة فصيحة ، وكانت مع أخيها الحسين رضى الله عنه حين قتل بكربلا ، وقيل : إنها لما قُتل أخرجت رأسها من الخباء وأنشدت رافعة صوتها :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم ؟
بعترتى و بأهلى بعد فُرقتكم منهم أسارى ومنهم خضبوا بدم
ماكان هذا جزائى إذ نصحتُ لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وقيل : ان هذه الأبيات لزينب ابنة عقيل بن أبى طالب كما جاء فى كتاب (ابن الأثير) وهو الصحيح

ولما دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين ، وجاءت نساءها يومئذ قياماً يندبن و يلطمن متهتكات الجيوب ، وسمعت على بن الحسين يقول : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ فأومأت زينب الى الناس أن اسكتوا ، فسكتت الأنفاس ، وهدأت الأجراس ، وقامت خطيبة فيهم وقالت : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

أما بعد ، يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلاسكنت العبرة ، ولاهدأت الرنة ؛ إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة ، أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، ألاساء ما تزرون ، أى والله فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها بغسل

أبداً ، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ ويلكم يا أهل الكوفة ، ألا ساء ماسولت لكم أنفسكم ، أن سخط الله عليكم ، وفى العذاب أنتم خالدون ، أتدرون أى كبد فريتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، يا أهل الكوفة لعذاب الآخرة أخزى ، وأنتم لاتنصرون ، كلا إن ربى وربكم بالمرصاد

فما أتمت حديثها حتى صرخ الناس بالبكاء ، وذهلوا وسقط فى أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء ثم أمر الطاغية (ابن زياد) قائد حزب الشيطان ، بتجهيز الأسارى وترحيلهم إلى الشام مقر أميره ، فجهزوا ولما بلغوا الشام أخرجت النساء وأدخلن دار (يزيد) وكانت معهن ابنة للإمام الحسين تدعى (فاطمة) ولما دخلت السيدة زينب دمشق خيرها (اليزيد) بين الإقامة بدمشق على الرحب والسعة ، و بين التوجه الى حيث تشاء من البلاد ، فاختارت الرجوع إلى المدينة المنورة ، فجهزها ومن معها إلى المدينة ، ثم ان والى المدينة من قبل يزيد وهو (عمرو بن سعيد الأشدق) اشتكى من إقامة السيدة زينب بالمدينة ، فكتب بذلك إلى (يزيد) وأعلمه بأن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر

والقلوب لما حصل لآل البيت ، وأنها فصيحة عاقلة لبيبة وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين .

فلما وصل الكتاب إلى (يزيد) وعلم بذلك أمر بتفريقهم فى الأقطار والأمصار ، فاختارت السيدة زينب الإقامة بمصر طلباً لراحتها ، واختار بعض أهل البيت بلاد الشام .

قدومها مصر ووفاتها بها

فعند ذلك جهزهم (ابن الأشدق) فخرجت السيدة زينب هى ومن معها من أهل البيت ، وفيهم (سكينة بنت الحسين وأختها فاطمة) فلما اتصل خبر ذلك إلى والى مصر ، إذ ذاك وهو (مسلمة بن مخلد الأنصارى) توجه هو وجماعة من أصحابه ، وفى صحبتهم جملة من أعيان مصر ووجهائها وعلمائها إلى لقائها ، فتلقوها فى قرية بين طريق مصر والشام شرق بلبيس (عرفت أخيراً بقرية العباسة نسبة للعباسة بنت أحمد بن طولون) ، ولم يبق بالمدينة من جماعتهم إلّا زين العابدين .

ووافق دخول السيدة إلى مصر (أول شعبان سنة ٦١ من الهجرة) وكان قد مضى على الموقعة نحو ستة أشهر وأياماً ، فأنزلها (مسلمة بن مخلد) هى ومن معها فى داره (بالحمراء القصوى) ترويحاً للنفس إذ كانت تشكو

المرض ، فأقامت بها ١١ شهراً ونحو ١٥ يوماً من شعبان سنة ٦١ إلى رجب سنة ٦٢ هجرية .

وفاتها — ولما ثقل عليها المرض توفيت رضى الله عنها يوم الأحد ليلة الاثنين لأربعة عشر يوماً مضت من شهر رجب من السنة المذكورة . وبعد تجهيزها وشهود جنازتها دفنت بمحل سكناها على العادة فى ذلك . أسكنها الله فسيح جناته (فجثمانها الشريف بمصر كما أثبته العبيد لى النسابة أمير المدينة فى رسالته[1])

فى المكان الموجودة فيه الآن .

ثم بعد وفاتها رجع من كان معها من أقاربها إلى المدينة ، وفيهم السيدة سكينة وفاطمة ، ثم بعد مرور عام على وفاتها ، وفى نفس اليوم الذى توفيت فيه اجتمع أهل مصر قاطبةً وفيهم الفقهاء والقراء وغير ذلك ، وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة ، ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا الموسم إلى وقتنا هذا من يوم وفاتها للآن . وهذا الموسم هو المعبر عنه (بالمولد الزينبى) الذى يبتدىء من أول رجب من كل سنة ، وينتهى ليلة النصف منه وهى ليلة الختام .

---

(١) انظر كتاب السيدة زينب للأستاذ حسن افندى قاسم المؤرخ العظيم المطبوع سنة ١٣٥١ بدار الطباعة المنيرية بالأزهر .

السيدة زينب المثل الأعلى للحق والعدل

للسيدة زينب رضى الله عنها مواقف مشهورة بين أمراء الظلم ، تدل على ميلها وحبها للحق والعدل ، بينما كانت مواقف الظلمة أمثولة تدل على العسف والجور .

فكانت تجاوب القوم بكل ثبات وشجاعة وإقدام ، الأمر الذى لم يقم به أحد من البشر خصوصاً من النساء .

وذلك أنه لما أحيط بها (بعد مقتل أخيها الحسين رضى الله عنهما) وهى فى هذا الموقف الرهيب ناداها منادى الحق ، فهتفت باسمه ، وأجابت نداءه ، وقالت تخاطب (يزيد) :

صدق الله يا يزيد ، « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله وأن بك عليه كرامة ؟

وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك ، والأمور متسقة عليك .

إن الله إن أمهلك فهو قوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك بناتك و إماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ؟ قد هتكت ستورهن ، وأصحلت أصواتهن مكتبئات تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن ، وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنان والإحن والأضغان ؟ إلى أن قالت :

أيزيد ، والله ما فريت إلَّا فى جلدك ، ولا حززت إلَّا فى لحمك ، سترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله فى حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم من الشعث .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكم ربنا ، والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك (فبئس للظالمين بدلاً) .

هنالك تعلم (أينا شر مكاناً وأضعف جنداً) ، مع أنى والله أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ؛ غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى ، وقد قتل أخى الحسين . ألا إن حزب الشيطان

يقربنا إلى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تنطف (تقطر) من دمائنا ، وهـذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى يعتامها عسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا فى هذه الحياة مغنماً ، لتجدننا عليك مغرماً ، حين لاتجد إلا ما قدمت يداك

تستضرخ يا ابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان . وقد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم . فو الله ما اتقيت غير الله ، وما شكوت إلا الله فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فو الله لا يرحض (لا يغسل) عنك عار ما أتيت الينا أبداً

فما أبلغ هذا الكلام ! وما أحسن تأثيره فى نفوس الكرام ! وما أشد وقعه فى قلوب الكفرة اللئام الذين قتلوا الحسين رضى الله عنه ظلماً وعدواناً جزاهم الله بما يستحقون ، وجزى السيدة زينب خير الجزاء وأسكنها دار الخلد والبقاء

٢ ـ السيدة أم كلثوم رضي الله عنها

نسبها ـ هى ابنة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأمها السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

مولدها ـ ولدت قبل وفاة النبى

زواجها بعمر ـ خطبها عمر بن الخطاب إلى أبيها على ، فقال . إنها صغيرة. فقال عمر . زوجنيها يا أبا الحسن . فانى أرصد من كرامتها مالم يرصده أحد . فقال له على أنا أبعثها اليك : فان رضيتها فقد زوجتكها ، فبعثها اليه ببرد وقال لها : قولى له هذا البرد الذى قلت لك عليه

فقالت ذلك لعمر ، فقال لها : قولى له : قد رضيت ، رضى الله عنك ، ووضع يده عليها ، فقالت له : أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم جاءت أباها فأخبرته ، وقالت له : بعثتنى إلى شيخ سوء ، قال : يابنية إنه زوجك

فجاء عمر ، فجلس إلى المهاجرين فى الروضة (وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون) فقال : رفئونى (هنئونى بالرفاء) فقالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت أم كلثوم بنت على ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى

وصهرى » وكان لى به عليه الصلاة والسلام النسب والسبب فأردت أن أجمع اليه الصهر فرفؤوه ، فتزوجها على مهر أربعين ألفاً ، فولدت له زيداً ورقية

زواجها بعون بن جعفر

قيل إنه لما قتل عنها عمر تزوجها (عون بن جعفر) وذلك أنه دخل عليها الحسن والحسين أخواها فقالا لها : إنك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين ، و بنت سيدتهن ، وانك والله أن أمكنت علياً من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، ولئن أردت أن تصبى بنفسك مالاً عظيما لا تصيبينه ، فوالله ما لبثا حتى طلع على يتكئ على عصا فجلس وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر منزلتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

قد عرفتم منزلتكم عندى يا بنى فاطمة ، وآثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابتكم منه ، قالوا . صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيراً

فقال . أى بنية ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك وأنا أحب أن تجعليه بيدى

فقالت . أى أبت إنى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب

أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى . فقال لها : ، يابنية ما هذا من رأيك ، وما هو إلا رأى هذين ، ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلى؟ فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبانا فو الله ما على هجرتك من صبر ، فقالا لها : اجعلى أمرك بيده . فقالت . قد فعلت ، قال : فانى قد زوجتك من (عون بن جعفر) وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم ، وأدخلها عليه و بقيت معه حتى مات عنها قتيلاً فى وقعة كربلاء ، وهى مع أخيها الحسين ورجعت مع السبايا من العراق إلى الشام ثم إلى المدينة

وفاتها

وتوفيت فى المدينة وابنها زيد فى وقت واحد ، وكان زيدقد أصيب فى حرب كانت بين بنى عدى خرج ليصلح بينهم فضربه رجل منهم فى الظلمة فشجه وصرعه ، فعاش أياماً ثم مات هو وأمه (أم كلثوم) وصلى عليهما عبد الله بن عمر

٣ - السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين

نسبها - هى السيدة فاطمة النبوية رضوان الله عليها ، التى سطعت فى الكون أنوارها ، وذاعت كراماتها ، وعمت بركاتها ، ولاعجب فهى فرع من شجرة بيت النبوة المحمدية ، فهى بنت الحسين رضى الله عنه ابن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأمها (أم اسحق التيمية) بنت طلحة بن عبيد الله

زواجها - ورد فى الأغانى : أن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم جاء خاطباً من عمه الحسين ، فقال له : يا ابن أخى ، قد كنت أنتظر هذا منك انطلق معى ، فذهب معه حتى أدخله منزله فخيره فى إحدى ابنتيه (فاطمة وسكينة) فاختار فاطمة فزوجه إياها ، وكانت رضوان الله عليها تشبه الحور العين لفرط جمالها

وورد فى رواية أخرى : أن الحسين لما خير ابن أخيه الحسن فى إحدى ابنتيه فاطمة وسكينة عند ماجاءه خاطباً خجل الحسن حياء من عمه ، فقال له الحسين : قداخترت لك فاطمة بنتى فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها ، ثم تزوجت من بعد وفاة زوجها الحسن عبد الله بن عمرو

أولادها — ولدت من ابن عمها الحسن (عبد الله) ويقلب بالمحض وسمى بالمحض لمكانه من الحسنين ، وكان يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شيخ بنى هاشم . وقد سُئل مرةً : لِمَ صرتم أفضل الناس ؟ فقال : لأن الناس يتمنون أن يكونوا منا ولا نتمنى أن نكون من أحد ، وكان متصفاً بالشجاعة والورع ، ومن كلامه .

بيض حرائر ماهممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام

وولدت أيضاً « المثنى » سيدنا إبراهيم القمر ، وسيدنا الحسن المثلث وكل منهم له عقب

وولدت أيضاً لعبد الله بن عمرو محمداً والقاسم رضوان الله عليهم أجمعين

ولما توفى زوجها الحسن المثنى حزنت عليه حزناً شديداً وضربت على قبره فسطاطاً ، فلما كان رأس السنة قالت لمواليها : إذا أظلم الليل فقوضوا هذا الفسطاط ، فلما أظلم الليل وقوضوه سمعت قائلاً يقول : هل وجدوا مافقدوا ؟ فأجابه آخر : بل يئسوا فانقلبوا

عبادتها — كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها صوّامة قوّامة ، زاهدة فى الحياة الدنيا ، طارحة وراء ظهرها زخرف الحياة وزينتها

ومن كلامها رضى الله عنها : « والله ما نال أهل السفه بسفههم شيئاً

إلّا وقد ناله أهل المروءات ، فاستتروا بجميل ستر الله » ، وظلت عاكفة على عبادة ربها إلى أن توفيت رضوان الله عليها سنة عشر ومائة كما جاء فى كتب التاريخ .

كرمها ـ كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها ، كريمة الأخلاق ، طاهرة الأعراق ، ومما يروى عن كرمها : أن اليزيد لما جهز آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد قتل أبيها الحسين رضى الله تعالى عنه أرسل معهم رجلاً أميناً من أهل الشام فى خيل سيرها معهم إلى أن وصلوا المدينة . فقالت فاطمة بنت الحسين لأختها السيدة سكينة : قد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لك أن تصليه بشىء ؟ فقالت السيدة سكينة رضى الله عنها : والله ما معنا ما نصله به إلّا ما كان من هذا الحلى . فقالت لها السيدة فاطمة : افعلى . فأتت له بسوارين ، ودملجين ، و بعثتا بهما إليه فردهما ، وأبى أخذهما وقال : لو كان ما صنعته رغبة فى الدنيا لكان فى هذا مقنع (كفاية) ؛ ولكنى والله مافعلته إلّا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أم اليتامى ـ وقد اشتهرت السيدة فاطمة رضى الله عنها عند الخاص والعام (بأم اليتامى) وهذا لحنانها وعطفها . وقد روى فى ذلك أنها تكفلت بتربية سبع بنات يتامى من أنصار الحسين قتل آباؤهن فى واقعة كربلاء فعطفت عليهن وآوتهن ، وعند ما تشرفت أراضى مصر بنزول آل بيت النبى صلى الله

عليه وسلم فيها أتت بهن معها ولم تتركهن ولم تفرط فيهن ، وعندما انتقلوا إلى الدار الآخرة دفنوا بجوار مسجدها .

مسجدها ـ أنشأ مسجد السيدة فاطمة النبوية الكائن بالدرب الأحمر بعطفة النبوية المرحوم (عباس باشا الأول) ، وجعل فيه منبراً وستة أعمدة من الرخام ، ودكة للمقرئ ، وعمل ميضأة (حنفيات) من الرخام ، ومنارة وبابين أحدهما إلى (الحنفيات) والآخر إلى الضريح الشريف ، ولا يزال قائم الشعائر للآن .

وكانت السيدة فاطمة رضى الله عنها ، فصيحة المنطق ، كريمة المعشر ، أديبة تنثر الدرر ، وتنطق بالحكم ، فمن قولها تنعى أباها الحسين رضى الله عنه :

« نَعق الغراب فقلت مَن تَنعاه وَيْحَك يا غراب »
« قال : الإمام ، فقلت مَن قال : الموفق للصواب »
« قلت : الحسين ، فقال لى بمقال محزون أجاب »
« إن الحسين بكَرْبلا بين الأسنة والحراب »
« أبكى الحسين بعبرة ترضى الإله مع الثواب »
« ثم استقلّ به الجنا حُ فلم يُطق رَدَّ الجواب »
« فبكيت مما حلّ بى بعد الرَّضِىّ المستجاب »

٤ — السيدة سكينة رضي الله عنها

نسبها — السيدة سكينة هى بنت سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وأمها (الرباب) بنت امرئ القيس بن عدى بن أوس الكلبى الذى كان نصرانياً ، وجاء إلى عمر بن الخطاب فدعا له برمح وعقد له على من أسلم بالشام من قضاعة ، فتولى قبل أن يصلى صلاة ، وما أمسى حتى خطب له الحسين بنته الرباب فزوجه إياها فأولدها عبد الله وسكينة

وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن ، وخطبت بعد قتل الحسين رضى الله عنه فقالت : ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما قتل الحسين رضى الله عنه رثته بأبيات سبق ذكرها فى سيرة الحسين فى الجزء الرابع من هذا الكتاب

مناقبها — وكانت السيدة سكينة سيدة نساء عصرها ، ومن أجمل النساء وأظرفهن ، وأحسنهن أخلاقاً ، وأعلاهن مقاماً ، وأوفرهن ذكاء ، وعقلاً وأدباً ، فأحرزت قصب السبق فى مضمار الأدب ، والتف حولها الشعراء والأدباء ، وكانت عفيفة تجالس العظماء من قريش ، وتجمع اليها الشعراء ، وكانت من أحسن الناس شعراً ، وكانت تصف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك ، وكانت الجمة تسمى (السكينية)

وهى من الحذق على جانب عظيم ، فمما يؤثر عنها أنها : حضرت مأتما فيه بنت عثمان بن عفان ، فقالت بنت عثمان : أنا بنت الشهيد ، فسكتت سكينة حتى إذا أذن المؤذن وقال . أشهد أن محمداً رسول الله ، فقالت لها سكينة : هذا أبى أم أبوك ؟

فقالت بنت عثمان : لاأفخر عليكم أبداً

وكان لها تأثير شديد فى جميع أهل عصرها الذين كانوا يحذون حذوها فى جميع ماتصنعه ، حتى انها كانت تخترع الأزياء فهى واضعة الطرة السكينية المنسوبة اليها المعروفة باسمها بين النساء

وشهرتها لم تكن قاصرة على الأزياء ؛ بل انها اكتسبت الشهرة بما كانت عليه من الأدب العالى ، والمعارف الواسعة ، وحسن المحاضرة ، حتى أصبح منزلها كعبة لكل قاصد من الفقهاء والشعراء والعلماء ، ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم

وكانت تستقبل الزائرين الذين كانوا يفدون على منزلها من جميع الأنحاء لمحاضرتها أو التماس صلاتها ، أو طلب مساعدتها

وكانت تزين المجلس بحسن أدبها ، ووفرة ذكائها ، والأسئلة العديدة التى كانت تطرحها على الأدباء والشعراء الذين كانوا يحسبون لها حساباً كبيراً ؛ لأنها كانت نقادة لاتخشى فى الحق لومة لائم

أزواجها - تزوجت عبد الله بن الحسن السبط بن على كرم الله وجهه فقتل عنها « بالطف » قبل أن يدخل بها .

ثم تزوجها مصعب بن الزبير رضى الله عنهما وأمهرها بألف ألف درهم ، وحملها إليه على بن الحسين رضى الله عنهما ، فأعطاه أربعين ألف دينار ، وولدت له الرباب وكانت تلبسها اللؤلؤ وتقول : ما ألبستها إياه إلّا لتفضحه .

ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام فولدت له (قريبا) .

ثم تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول بها ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ففعل .

وفاتها - توفيت السيدة سكينة رضى الله عنها بمكة يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائة . وصلى عليها شيبة بن نصّاح المقرى .

وقيل : سنة ١١٧ بالمدينة وهو الأرجح . وقيل : بمصر ، وانها مدفونة (بالمراغة) بقرب السيدة نفيسة رضى الله عنها كما جاء فى طبقات الشعرانى والمناوى والله أعلم .

٥ - السيدة رقية رضي الله عنها

بنت الإمام على

نسبها

هى بنت الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأمها أم حبيب الصهباء التغلبية ، أم ولد ، كانت من سبى الذرية الذين أغار عليهم سيدنا خالد ابن الوليد (بعين التمر) فاشتراها سيدنا على رضى الله عنه من سيدنا خالد واستحظى بها فأولدها عمراً ورقيَّة المومى إليها .

وهى مدفونة بمشهدها الموجود بتكيتها المعروفة (بتكية السيدة رقيَّة) بمصر ، وهى بالجامع المعروف (بجامع شجرة الدر) وهذا الجامع على يسار الطالب للسيدة نفيسة ، والمكان الذى فيه السيدة رقية عن يمينه ومكتوب على الحجر الذى ببابه هذا البيت :

« بقعة شرفت بآل النبى وبينت الرضا على رقيه »

ويعمل لها مقرأة وحضرة كل أسبوع ومولد كل سنة ، وشعائر هذه التكية مقامة من أوقاف السيدة رقية إلى الآن .

٦ - السيدة عائشة النبوية رضي الله عنها

بنت جعفر الصادق

نسبها - هى ابنة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فأخوها موسى الكاظم وأمها حُمَيدة .

مناقبها - كانت رضى الله عنها من العابدات ، المجاهدات ، وكانت تقول : وعزتك وجلالك ، لئن أدخلتنى النار لآخذن توحيدى وأطوف به على أهل النار وأقول لهم : وحّدته فعذبنى .

وفاتها - توفيت رضى الله عنها سنة ١٤٥ خمس وأربعين ومائة ودفنت فى المسجد المعروف باسمها الآن بناحية (قراميدان) بمصر بباب قرافة مصر .

وقبرها يزار ، وأهل مصر يعتقدون فيها ويتبركون بزيارتها ، ومسجدها مقام الشعائر إلى الآن .

٧ ـ السيدة نفيسة رضى الله عنها

بنت سيدى حسن الأنور

نسبها ـ هى ابنة سيدى حسن الأنور ، بن السيد زيد الأبلج ابن الحسن السبط ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وأمها (أم ولد).

مولدها ـ وكان مولدها بمكة المشرفة فى يوم الأربعاء الحادى عشر من ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة ، ونشأت بالمدينة لولاية والدها عاملاً عليها من قبل المنصور .

زواجها ـ لما بلغت رضى الله عنها من العمر خمس عشرة سنة رغب الناس فى خطبتها لدينها وصلاحها ، وكان والدها يأبى تزويجها .

وجاء السيد إسحق المؤتمن بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن السيد أبى عبد الله الحسين السبط ابن الإمام على وابن السيدة الزهراء البتول ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وخطبها من أبيها فلم يرد عليه جواباً ، فقام من عنده ودخل

الحجرة النبوية وقال بعد السلام : يارسول الله إنى خطبت نفيسة بنت الحسن منه فلم يرد على جواباً ، و إنى لم أخطبها إلاَّ لخيرها ودينها وعبادتها ، ثم خرج من الحجرة فرأى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام يقول له : ياحسن زوّج نفيسة لإسحٰق المؤتمن فعقد له عليها يوم الجمعة الخامس من رجب سنة إحدى وستين ومائة هجرية وكان عمرها خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وأربعة وعشرين يوماً

أولادها — ورزقت منه القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا

مناقبها — وكانت السيدة نفيسة من الصلاح والزهد على جانب عظيم ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وكانت لا تفارق حرم النبى صلى الله عليه وسلم ، وحجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية ، وكانت تبكى بكاء كثيراً ، وتتعلق بأستار الكعبة وتقول :

إلٰهى ، وسيدى ، ومولاى ، متعنى ، وفرحنى برضاك عنى ، فلا سبب لى أتسبب به يحجبك عنى

وكانت لا تأكل إلا فى كل ثلاث ليال أكلةً واحدةً

وقالت زينب بنت يحيى المتوج بالأنوار وهو أخو السيدة نفيسة ، خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ، ولا أفطرت بنهار فقلت لها :

ألا ترفقين بنفسك ؟ فقالت : كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبات لا يقطعهن إلاّ الفائزون

وكانت تحفظ القرآن وتفسيره ، وكانت تقرأ القرآن وتبكى وتقول : إلهى وسيدى ، يسر لى زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام ، فحجت هى وزوجها إسحٰق المؤتمن بن جعفر الصادق ، ثم زارت قبر خليل الرحمٰن عليه السلام ببيت المقدس

قدومها لمصر - ثم قدمت إلى مصر مع زوجها ، وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين ومائة فى شهر رمضان ، وكان لقدومها أمر عظيم فتلقاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش ونزلت أولاً عند كبير التجار بمصر - وهو جمال الدين عبيد الله بن الجصاص - وكان من أصحاب البرّ والمعروف ، فأقامت عنده شهوراً يأتى إليها الناس من سائر الآفاق للتبرك ، ثم حوّلت إلى مكانها المدفونة فيه وهبه لها أمير مصر (ابن الحكم)

وقد أقبل على زيارتها فى الحياة و بعد الممات ، خلق كثير من العلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم ، وروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه لما دخل مصر حضر إليها وزارها وسمع عليها الحديث من وراء حجاب ، ولذا كان يقال لها (نفيسة العلم) وكان فى صحبته عبد الله بن الحكم وقال لها : (ادعى لنا) أسألك الدعاء

وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم وهو باق إلى الآن

وقيل : انه لما توفى الإمام الشافعى رضى الله عنه أدخلت جنازته فى دارها وصلت عليه ، وكانت فى موضع مشهدها الحالى ، ولم تزل به إلى أن توفيت .

وقيل : ان الحنفى رضى الله عنه كان يقول عند زيارتها : السلام والتحية والإكرام ، من العلى الرحمن على نفيسة الطاهرة المطهرة ، سلالة البررة ، وابنة علم العشرة ، الإمام حيدرة ، السلام عليك ياابنة الحسن المسموم ، أخى الإمام الحسين سيد الشهداء المظلوم ، السلام عليك ياابنة فاطمة الزهراء ، وسلالة خديجة الكبرى ، رضى الله تبارك وتعالى عنك ، وعن جدك وأبيك ، وحشرنا فى زمرة والديك وزائريك ، الخ .

وفاتها

توفيت رضى الله عنها بعد موت الإمام الشافعى بأربع سنين فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين للهجرة ، ودفنت فى منزلها المعروف بخط درب السباع بمصر

ويقال : إنها حفرت قبرها بيدها وقرأت فيه مائة وسبعين ختمة

وقيل : انها لما احتضرت خرجت من الدنيا وقد انتهت فى حزبها إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

ففاضت روحها مع قوله تعالى : الرحمة

ولما ماتت عزم زوجها على حملها إلى المدينة ليدفنها هناك فسأله المصريون بقاءها عندهم فأبقاها ، ودفنت فى الموضع المعروف بهـا الآن بين القاهرة ومصر القديمة، رحمها الله رحمة واسعةً وألهمنا رشدها وتقواها

وقد رثاها أحد الفضلاء بالقصيدة الآتية التى جمعت تاريخ حياتها :

« يامَن له فى الكون من حاجة ... عليك بالسيدة الطاهره »

« نفيسة والمصطفى جـــدّها ... أسرارها بين الورى ظاهره »

« فى الشرق والغرب لها شهرة ... أنوارها ساطعـة باهره »

« كم من كرامات لهـا قد بدت ... وكم مقامات لهـا فاخره »

« ياحبـذا سـيدة شرفت ... بهـا أراضى مصر والقاهره »

« بنفسها قد حفرت قبرها ... حال حيـــاة يا لها حافره »

« تتلو كتاب الله فى لحدها ... وهى لمن قد زارها ناظره »

« حجّت ثلاثين على رجلها ... صائمـةً عن أكلهـا قاصره »

« كانت تصلى وتقوم الدجى ... دوماً على أقدامهـا ساهره »

« عابدةً زاهـدة جامعةً للخير فى الدنيا وفى الآخره »
« فى كل قطر قد سما ذكرها عالمة فائقـــة ماهره »
« والناس قد عاشوا بها فى صفا عيش بأيام لها زاهره »
« والشافعى قد يأتى لهـا سعياً إلى دار بها عامره »
« يرجو بأن تدعو له دعوة فيا لهـا من دعوة وافره »
« صلت عليه بعد موت وقد أوصى بذا فهى لها شاكره »
« سبحان من أعلى لها قدرها لأنها بين الورى نادره »

٨ ـ السيدة فاطمة بنت السيد على الرضا

جاء فى كتاب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة أنه يوجد إلى جانب قبر البويطى رضى الله عنه قبر السيدة فاطمة بنت السيد على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

يحكى عنها حكاية طريفة ، وهى : أنه أصاب الناس فى زمانها قحط عظيم وكان زوجها قد مات وخلف مخدعاً لا يعرف ما فيه فقالت يوماً للخادمة ، وقد ضاق صدرها : ليت شعرى ما فى هذا المخدع ؟ ففتحته فوجدت فيه شيئاً ملقى فى جانبه فأخذته فإذا هو كيس فيه عقد قد علاه الصدأ .

فقالت للخادمة : امضى به إلى السوق ، لعل أن تأتينا ، ولو بقوت يوم ، فخرجت الخادمة وطافت به على باب الصاغة فوجدت رجلاً قائماً عليه آثار الخير فنظرت إليه .

فقال : يا أمة الله مالك ؟ فقصت عليه القصة ، فأخذه منها وغاب قليلاً وجاء إليها وقال لها : تبيعينه بمائة دينار ؟ فسكتت الجارية وظنت أنه يهزأ بها فتركها وغاب قليلاً ، وجاء إليها وقال لها : تبيعينه بمائة دينار ؟ فسكتت الخادمة

وظنت أنه يهزأ بها ، فتركها وغاب قليلا ، ثم أتى إليها وقال : ما يزيد ثمنه على مائتين وخمسين ديناراً .

فقالت الجارية : يا سيدى أنا خادمة امراة شريفة ، أتهزأ بها ولها دعوة مجابة ؟ فقال : لا ، والله ما أنا بهازئ بها ، ولا أقول إلا حقاً . فقالت الجارية اقبض المال وامض معى إلى مولاتى فقبض المال وأتى معها إلى الدار فدخلت وأعلمت السيدة فاطمة بذلك ، فخرجت السيدة فاطمة ووقفت وراء الباب ، وقالت : أحق ماتقول هذه الجارية ؟ قال : نعم ثم صب المال فى طرف الجارية .

فقالت السيدة فاطمة : اجعل هذا المال نصفين لنا النصف ولك النصف فقال : لا والله لا ينالنى منه شىء ، بل ينالنى منك دعوة تكون فى عقبى إلى يوم القيامة . فقالت : جعل الله فى نسلك الصالحين .

فكان من نسله أبو عبد الله الحسين ، وأبو الفضل بن عبد لله بن الحسين ابن بشير الجوهرى رضى الله عنها وعنهم .

سير بعض النساء الشهيرات

١ — أروى ابنة الحارث بن عبد المطلب بن هاشم

كانت فريدة زمانها ، وبليغة عصرها وأوانها ؛ إذا خطبت أعجزت ، وإن تكلمت أوجزت ، ولا غرو فإنها ابنة البلاغة ، ومعدن الفصاحة والحصافة .

ومما يؤثر عنها قيل : إنها وفدت على معاوية بن أبى سفيان لما ولى الخلافة وكانت عجوزاً كبيرة ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا خالة ، فكيف كنت بعدنا ؟

فقالت : يا ابن أخى ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير دين كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة فى الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتعس الله منكم الجدود ، وأضرع منكم الخدود ، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده ، وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر ، فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون ، وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى ، فغايتنا الجنة ، وغايتكم النار .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك ، إذ لا تجوز شهادتك وحدك .

فقالت له : وأنت يا ابن الباغية تتكلم ؟

فقال مروان كفى أيتها العجوز واقصرى لما جئت له .

فقالت له : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم .

فقال معاوية : عفا الله عما سلف يا خالة ، هات حاجتك .

فقالت : مالى إليك حاجة ، وخرجت عنه .

و بعد خروجها التفت معاوية إلى أصحابه وقال لهم : والله لئن كلمها كل مَن فى مجلسى لأجابت كل واحد منهم بجواب خلاف الآخر بدون توقف ، وهكذا نساء بنى هاشم أصعب فى الكلام من رجال غيرهن ، وأمر لها بجائزة تليق بمقامها ، و بقيت مكرمةً بين قومها إلى أن توفيت بالمدينة بخلافة معاوية .

٢ – أسماء ابنة أبى بكر الصديق

هى أسماء ابنة أبى بكر الصديق ، وأمها قتيلة بنت عبد العزى ، وهى أخت عائشة لأبيها ، وتسمى ذات النطاقين ، لأنها صنعت للنبى صلى الله عليه وسلم طعاماً لما هاجر فلم تجد ما تشده به فشقت نطاقها وشدت به الطعام ، فدعيت ذات النطاقين .

تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عبد الله وعدة أبناء ، وكان عبد الله أول مولود ولد فى الإسلام بعد الهجرة .

ثم طلقها الزبير ، فكانت مع عبد الله ابنها بمكة المشرفة حتى قتل ابنها فبلغت من العمر مائة سنة حتى عميت وماتت بمكة سنة ٧٣ هجرية - ٦٩٢ ميلادية .

ولها شعر قليل فى رثاء زوجها وابنها ، ومن كلامها لابنها عبد الله حين قاتل الحجاج إذ دخل عليها وقال لها : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلّا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

فقالت : أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تعود فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، لمَ خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

قالت : يابنى ، إن الشاة المذبوحة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك ، واستعن بالله .

فقبل رأسها وقال : هذا رأيي ، والذى خرجت به رائياً إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلّا الغضب لله ، وأن تستحل حرماته ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة ، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر إلى الله ، فإن ابنك لم يعهد بإيثار منكر ، ولا عمد بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ؛ بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى ، اللّهم لا أقول هذا تزكيةً لنفسى ، ولكنى أقوله تعزيةً لأمى حتى تسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً ، إن تقدمتنى احتسبتك ، وإن ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى أنظر إلامَ يصير أمرك ؟

فقال : جَزاك الله خيراً ، فلا تدعى الدعاء .

قالت : لا أدعه لك أبداً ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق .

ثم قالت : اللّهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللّهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فتناول يدها ليقبلها ، فقالت : هذا وداع فلا تبعد .

فقال لها : جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا .

قالت : امض على بصيرتك ، وادن منى حتى أودعك .

فدنا منها فعانقته ، وقبلته ، فوقعت يدها على الدرع .

فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ؟

فقال : ما لبسته إلّا لأشد متنك .

قالت : إنه لا يشد متنى ، فنزعها ، ثم درج لمته ، وشد أسفل قميصه وجبته تحت أثناء السراويل وأدخل أسفلها تحت المنطقة وأمه تقول له : البس ثيابك مشمرة ، فخرج وهو يقول مرتجزاً :

« إنى إذا أعرف يومى أصبر وإنما يعرف يومه الحر »

« إذ بعضهم يعرف ثم ينكر »

فسمعته ، فقالت : تصبر إن شاء الله أبوك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية ابنة عبد المطلب ، ثم حمل على القوم ، وقاتل حتى قتل وصلب ، وطلبته أمه من الحجاج فأبى عليها إعطاءه ، فكتب لعبد الملك فسمح لها بذلك فغسلته ودفنته وبقيت بعده قليلاً وماتت بعد ما أضرت وذلك فى سنة ٧٣ هجرية .

٣ - أسماء ابنة يزيد الأنصارية

هى رسول النساء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، روى عنها مسلم ابن عبيد :

أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : بأبى وأمى يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عزّ وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافةً فآمنا بك و بإلهك ، و إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وموضع شهواتكم ، وحاملات أولادكم ، و إنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عزّ وجل ، و إن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً ، أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، ور بينا لكم أولادكم ، أفنا نشاركم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه ؟

فقالوا : يا رسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء ، أن حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ، فانصرفت وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها

من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرحن وآمن جميعهن .

وسميت أسماء : رسول نساء العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ — آسية امرأة فرعون

آسية بنت مزاحم ، كانت من خيار النساء المعدودات ، تزوجت بفرعون موسى ملك مصر ، ولم تلد منه مدة حياتها معه ، وكان يحبها حباً جماً لكمالها ودماثة أخلاقها ، فكم دفعت بلاء ، ودرأت مصائب ، وبدلت العسر يسراً ، حتى كانت رحمة للعباد فى زمن فرعون الفراعنة وداهية الدواهى .

فمن ذلك حادث سيدنا موسى عليه السلام ، فقد جاء فى الأنباء أنه بينما كانت آسية جالسةً فى حديقتها الغناء ، وروضتها الفيحاء ، تجرى من تحتها الأنهار ، إذا بتابوت قد أقبل عائماً على الماء ، يجرى الهُوَيْنَى حتى صار منها قاب قوسين أو أدنى ، فأمرت جواريها بإخراجه لاستطلاع أمره ، والوقوف على خبره .

فلما فتح إذا بداخله مولود كريم ، بهى الطلعة ، مليح المحيا ، فحرك منها عوامل الحنان ، وتملكها من أجله الرفق والإشفاق ، وألقى الله عليه محبة منها فأمرت به أن يحمل إلى داخل القصر ، وأن يتعهد بالعناية ، ويشمل بالرعاية .

ولما وصل خبره إلى فرعون أمر بقتله ؛ لأنه كان رأى مناماً قد هاله ، فأحضر الكهنة والمفسرين من أرباب دولته ، وقصّ عليهم رؤياه فحذروه من مولود يولد فى زمانه يكون سبباً فى خراب ملكه ، فأمر بقتل كل من يولد فى عهده من الصبيان من بنى إسرائيل ، فحالت دون قتله آسية ، وشفعت له عند فرعون ، وقالت له : ليس لى ولا لك ولد ، فلا تقتل هذا الغلام عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، فسمح به إليها أن تربيه

فلما أمنت آسية عليه سمته (موسى) ورُبى فى دار فرعون حتى بلغ أشده ونال منه ما نال . وقصته معروفة وسبق ذكرها ضمن قصص الأنبياء فى الجزء الأول

وكانت آسية ممن آمن بموسى فيما بعد . فلما أدرك فرعون منها ذلك انقلب عليها وتبدل حبه لها عداء ، ولكنها لم تكن تعبأ به لما كانت تعلم من أنها على الحق ، وأن سيدنا موسى عليه السلام نبى مرسل فلم يغرها منه رخاء ، ولم يجتذبها إليه وعد ، ولم يهددها منه وعيد ، حتى ماتت ولسانها لا يفتر عن ذكر الله وهى تقول :

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾

وقد أجاب الله دعاءها ، فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« خير نساء الجنة خديجة ، وفاطمة ، ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون » .

٥ — أم الخير بنت الحريش

كانت من المتكلمات الخطيبات البليغات من نساء العرب

قيل : إن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير ابنة الحريش ورحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً بقولها فيه :

فلما ورد عليه كتابه ركب إليها ، فأقرأها كتابه ، فقالت : وأما أنا فغير زائغة عن طاعته ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه مجازيني بالخير خيراً ، وبالشر شراً فما عندك ؟

قالت : ياهذا لايطمعك برّك بى أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرم ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه

فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير بحق ما دعوتنى بهذا الاسم

قالت : ياأمير المؤمنين لكل أجل كتاب

قال : صدقت ، فكيف حالك ياخالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟

قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين فى خير وعافية حتى سرت إليك ، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق

قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم

قالت : يا أمير المؤمنين يعيذك الله من دحض المقال ، وما تخشى عاقبته

قال : ليس هذا أردنا أخبرينى كيف كان كلامك إذ قتل عمار ابن ياسر ؟

قالت : لم أكن زوّرته قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن أحدثك مقالاً غير ذلك فعلت ؟

فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟

فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين

قال : هات

قال : كأنى بها بين بردين زائرين كشيفى النسيج ، وهى على جمل

أرملك ، و بيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدر فى شقشقته تقول :

« يأيها الناس ، انقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، و بيّن السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبةً عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم قول الله جل شأنه :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللّهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، و بيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع اللّهم بها الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله

هلموا ـ رحمكم الله ـ إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وَثَبَ بهـا واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بنى عبد شمس ، ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا ايمان لهم ، لعلهم ينتهون

صبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم

وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرّت من قسورة ، لا تدرى أيًّا يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص ، إن من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل ، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها ، فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبى سبطيه خلق من طينته ، وتفرّع من نبعته ، وجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين ، وهاهو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزيه ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرّق به جميع أهوائهم ، فيالها من وقائع زرعت فى القلوب نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ، قد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله

فقال معاوية : يا أم الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلاّ قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك

قالت : والله ما يسوؤنى أن يجرى قتلى على يد من يسعدنى الله بشقائه

قال : هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟

قالت : وما عسيت أن أقول فى عثمان ، استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون

قال معاوية : يا أم الخير ، هذا ثناؤك الذى تثنين ؟

قالت : لكن والله يشهد وكفى بالله شهيداً ، ما أردت بعثمان نقصاً ، ولكن كان سابقاً إلى الخير ، وانه لرفيع الدرجة غداً

قال : وما تقولين فى الزبير ؟

قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأنا أسألك بحق الله يامعاوية فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها أن تعافينى من هذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها

قال : نعم ، ونعمة عين ، قد أعفيتك منها

ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة إلى الكوفة ، وبقيت فى عز إلى أن توفاها الله

٦ — بلقيس ملكة سبأ

اشتهرت بلقيس بقصتها المعروفة مع سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وورد ذكرها فى القرآن الكريم وغيره من الكتب المنزلة

واشتهرت فى كتب التواريخ بأنه كان لها ملك عظيم ، واسع الأطراف عاصمته (سبأ) فى بلاد اليمن .

وكان لها من المجد والسلطان والجمال ، والعز والشرف مايضرب به الأمثال حتى قال بعضهم : إنه كان تحت نفوذها ٤٠٠ أربعمائة ملك يستظلون برايتها ، لكل منهم جيش يبلغ أربعين ألف مقاتل .

وأما عرشها الوارد ذكره فى القرآن الحكيم ، فقيل : إنه كان سريراً ضخماً من ذهب وفضة ، مرصعاً بالجواهر الكريمة ، وكان فى جوف سبعة بيوت ، عليها سبعة أغلاق ، كل بيت داخل الآخر وهو فى آخرها .

وقيل : كان مقدمه من الذهب محلى بالياقوت الأحمر ، والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة مكللاً بأنواع الجواهر واللآلى ؛ وأنه وإن كان فى هذا الوصف مبالغة عظيمة إلَّا أنه يدل على أن ذلك العرش لم يسبق له مثيل فى الجمال والأبهة .

وأما قصتها مع سيدنا سليمان فهى مذكورة فى قصته الواردة فى الجزء الأول من كتابنا أحسن القصص وتتلخص فيما يأتى :

أنه عليه السلام لما سمع بصيتها ، وأوصاف عرشها قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ فجاء الهُدهُد ، وكان قد عرف مكان بلقيس فأخبره بخبرها ودله على مكانها (وكان عليه السلام يعرف لغة الطير) فكتب

لها سليمان كتاباً وقال للهُدهد : ﴿ اِذْهَبْ بِكِتَابِى هَـذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ فوافاها وهى فى قصرها ، فرمى الكتاب فى حجرها فقرأته ، فإذا به : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فأخبرت قومها بأمر هذا الكتاب فقالوا : ﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

قالت : إنى مرسلة إليهم بهدية ، فإن قبلها ملكهم فهو من ملوك الدنيا ، فنحن أعز منه وأقوى ، وإن لم يقبلها فهو نبى من عند الله .

فلما قدم الوفد على سليمان عليه السلام ومعهم الهدية ، ووقفوا بين يديه ، نظر إليهم بوجه طلق ثم قال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ .

ثم رد الهدية ، فرجع القوم وأخبروها ، فعلمت أنه نبى كريم ، وشخصت إليه فى موكب مهيب مخوف بالجلال والعظمة وجىء إليه بعرشها .

ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت ، وقيل : إنه تزوجها ، وتوفيت قبله فدفنها بالشام بناحية يقال لها : (تدمر) وأخفى قبرها عن الناس ، والله تعالى أعلم .

٧ - بكارة الهلالية

مثال الشجاعة

كانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والإقدام، والفصاحة والشعر والنثر والخطابة.

حضرت مع سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه حرب (صفين) ولها هناك مقالات حماسية جعلت كل من سمعها يقدم على الهلاك بدون مبالاة بالعواقب.

قيل: دخلت على معاوية يوماً وهو يومئذ بالمدينة، وكانت قد تقدمت فى السن، وضعف بصرها، وضعفت قوتها، ترتعش بين خادمين فسلمت وجلست، فردَّ عليها معاوية السلام وقال لها: كيف أنت يا خالة؟

قالت بخير يا أمير المؤمنين.

قال: غيرك الدهر.

قالت: كذلك، هو ذو غير، من عاش كبر، ومن مات فُقد.

فقال عَمرو بن العاص: هى والله القائلة يا أمير المؤمنين:

« يا زيد دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حساماً فى التراب دفينا »

« قد كنت أدْخَرُهُ ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا »

وقال مروان: وهى القائلة يا أمير المؤمنين:

« أترى ابن هند للخلافة مالكا ؟ هيهات ذاك وإن أراد بعيد »
« مَنّتك نفسك فى الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد »

وقال سعيد بن العاص : وهى والله القائلة :

« قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا »
« فالله أخّر مدتى فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا »
« فى كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا »

ثم سكتوا فقالت : يا معاوية ، كلامك أغشى بصرى ، وقصر حجتى ، أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفى عليك منى أكثر مما سمعت .

فضحك معاوية وقال لها : ليس يمنعنا ذلك من برّك ، اذكرى حاجتك .

قالت : أما الآن فلا حاجة لى .

وانصرفت ، فوجه إليها معاوية بجائزة سنية لصدقها وشجاعتها .

٨ — تُماضر الشهيرة بالخنساء الشاعرة المجيدة

مثال الصبر والثبات

هى ابنة عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح بن يقظة بن عصية ابن خفاف بن امرىء القيس وتكنى (أم عمرو) وإنما الخنساء لقب

غلب عليها ، وهى الظبية ، وسميت فى بادئ الأمر (تُماضر) لبياض لونها ، إذ كانت العرب تسمى المرأة ذات البشرة البيضاء (تماضر) وقد عاشت فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أشعر أهل زمانها ، وهى من المعترف لهن بالتفوق فى هذا الميدان ، وأكثر شعرها فى رثاء أخويها معاوية وصخر

وكان معاوية أخاها لأمها وأبيها ، وكان صخر أخاها لأبيها وأحبهما اليها واستحق صخر ذلك منها لأنه كان موصوفاً بالحلم ، مشهوراً بالجود معروفاً بالإقدام والشجاعة ، محظوظاً فى العشيرة ، وقد كان من أجمل رجال العرب

فلما قُتل جلست الخنساء على قبره زماناً طويلاً تبكيه وترثيه بأبلغ ماقال الشعراء فى الرثاء . وقد أجمع الشعراء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها

فمن شعرها فى رثاء أخيها صخر :

ألا يا صخر إن أبكيت عينى ... فقد أضحكتنى زمناً طويلا

بكيتك فى نساء مُعْوِلات ... وكنت أحقّ من أبدى العويلا

إذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

ومنه قولها :

أعينيّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السّيّدا
طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ اليه يدا
فنال التى فوق أيديهم إلى المجد ثم انتمى مُصعُدِا
ويحمل للقوم ماعالهم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يَهْوى إلى بيته يرى أفضل المجد أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

ومن قولها :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وقد قابلتها السيدة عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم بعد مامات أخوها صخر ، وهى محزونة محلوقة الرأس ، تدب من الكبر والضعف على عصا ، فسألتها عائشة :

ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقالت : موت أخى صخر

فقالت عائشة : مادعاك إلى هذا إلاّ صنائع جميله فصفيها لى ؟

قالت : نعم ، ذلك أن زوجى كان رجلاً متلافاً للأموال ، يقامر

بالقداح ، فأتلف فيها ماله ، حتى بقينا على غير شيء ، فأراد أن يسافر فقلت له : أقم وأنا آتي أخي صخراً فأسأله ، فأتيته فشكوت إليه حالنا ، وقلة ذات أيدينا ، فشاطرني ماله

فانطلق زوجي فقامر به ، فقُمر حتى لم يبق لنا شيء ، فعدت اليه في العام المقبل أشكو اليه حالته ، فشاطرني بمثل ذلك ، فأتلفه زوجي

فلما كان في الثالثة أوفى الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته ثم قالت : إن زوجها مقامر ، وهذا مالا يقوم به شيء ، فان كان ولا بد من صلتها فأعطها خمس مالك ، فانما هو متلف ، والخير فيه والشر سيان ، فلم يرض صخر بذلك ، بل شطر ماله شطرين وأعطاني أفضلهما ، فلما مات صخر أصبحت على ماترينه ، وحق لي البكاء والعزاء

ولما قدمت الخنساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم استسلمها أي دعاها للاسلام فأسلمت ، واستنشدها فأنشدت ، فأعجب بشعرها وهو يقول : هيه ياخنساء ، ثم انصرفت ولم تنقطع عن أوجاعها وأناتها حتى بعد الإسلام ، بل كانت تقص شعرها ، وتلبس ثوباً خلقاً من الجنس الأسود ، وتندب أخويها على عادة العرب في جاهليتها

فلما رآها سيدنا عمر بن الخطاب ذات يوم أثنا طوافها بالكعبة وهي على هذه الحال ، فتقدم اليها ونصحها كثيراً فأجابته : لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به ، فكيف أنحمل مضض فراق فارسين فقدتهما ؟

فأجابها عمر بما هوّن عليها المصيبة ، وذكر لها أن مصائب كثير من الناس أشد هولاً لو اطلعت على بواطن أمرهم ، وقال لها : ان ماهى عليه من الحداد من بدع الجاهلية التى حرّمها الإسلام ، فامتثلت أمره

وكانت رحمها الله صادقة الوطنية ، باسلة مقدامة ، فمما يؤثر عنها أنه لما سارت جيوش العرب لفتح بلاد فارس انضمت اليهم ومعها أبناؤها الأربعة ، وحضرت وقعة (القادسية) المشهورة ، ففى ليلة الوقعة صارت تزودهم بالنصيحة ، وتذكى حميتهم ، ومما قالته لهم :

« يا بنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، فاعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون

فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة »

فلما أضاء لهم الصبح بادروا إلى مراكزهم ، فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية أمهم العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم

فلما بلغها الخبر قالت :

الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمير المؤمنين وقتئذ يعطيها أرزاق

بينها الأربعة ، وكان لكل منهم مائة درهم إلى أن ماتت رحمها الله ، وأصبح يضرب بها المثل فى الصبر والثبات

٩ — جميلة بنت ثابت بن أبى الأفلح الأنصارية

امرأة عمر بن الخطاب

هى أخت عاصم بن ثابت امرأة عمر بن الخطاب تكنى أم عاصم بابنها عاصم بن عمر بن الخطاب سمته باسم أخيها .

وكان اسمها عاصية فلمّا أسلمت سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة . تزوجها عمر سنة ٧ من الهجرة فولدت عاصماً ، ثم طلقها عمر فتزوجها يزيد بن حارثة فولدت له عبد الرحمن بن يزيد فهو أخو عاصم لأمه .

وقيل : إن عمر ركب إلى قبيلتها فوجد ابنه عاصماً يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر فنازعته إياه حتى انتهى إلى أبى بكر الصديق فقال له أبو بكر خلّ بينه وبينها ، فما راجعه وسلّمه إليها لكونها حاضنته . وكانت جميلة إذ ذاك متزوجة بيزيد بن حارثة

١٠ — خولة بنت الأزور الكندى

هى أخت ضرار بن الأزور ، كانت مشهورة بالشجاعة والجمال ، خرجت مع أخيها إلى الشام حين فتحها فى خلافة أبى بكر الصديق ، وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة ، ولها وقائع مشهورة

فمن وقائعها ما ظهر من بسالتها يوم أسر النسوة فى وقعة (صحورا) من أعمال الشام ، فقد جمعت النساء وقامت فيهن خطيبة ، وكانت هى من ضمن المأسورات ، فقالت :

يابنات حمير ، وبقية تبع ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك ؟ فأين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر ؟ وإنى أراكن بمعزل عن ذلك ، وإنى أرى القتل عليكن أهون من هذه الأسباب ، وما نزل عليكنّ فى خدمة الروم

فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية : صدقت والله يابنت الأزور نحن فى الشجاعة كما ذكرت ، وفى البراعة كما وصفت ، لنا المشاهد العظام ، والمواقف الجسام ، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل ، وهجوم الليل ، غير أن

السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح

فقالت خولة : يابنات التبابعة خذن أعمدة الخيام ، وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام ، فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب

فقالت عفراء بنت غفار : والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت

ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام ، وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عموداً ، وسعت من ورائها عفراء أم أبان بنت عتبة ، ومسلمة بنت زارع وغيرهما

فقالت لهن خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن ، فتملكن ، فيقع بكن التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، وأكسرن سيوفهم ، وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلن قتالاً شديداً حتى استخلصت النسوة من أيدى الروم ، وخرجت وهى تقول :

« نحن بنات تبع وحمير وضربنا فى القوم ليس ينكر »

« لأننا فى الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الأكبر »

ووقائعها كثيرة ، وقد أبلت بلاء حسناً فى فتوح الشام ومصر ، وعمرت طويلا وكانت وفاتها فى أواخر خلافة عثمان بن عفان رحمها الله رحمة واسعة

فعلى مثل هذه يأسف الدهر وعلى نهجها يُحمد السير

١١ ـ الخيزران ابنة عطاء (أم الهادى والرشيد)

كانت ذات جمال ، وبهاء وكمال ، اشتراها محمد أبو عبد الله المهدى بمائة ألف درهم ، واستحظى بها وقدمها على جميع نسائه ، لما لها من الأدب واللطف ، وقد أخذت من قلبه مكانة عظمى ، وولدت له موسى الهادى وهارون الرشيد ؛ وقد تقدمت فى خلافة ولدها موسى الهادي ، حتى إنها شاركته فى الأحكام من كثرة تداخلها معه فى أمور المملكة ، وكان كثير الطاعة لها ؛ مجيباً لما تسأله من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ، وفى ذلك يقول أبو المعافى :

ياخيزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم إبناك

وذكر المسعودى : كانت الخيزران أم الهادى والرشيد فى دارها المعروفة (بأساس) وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بنى هاشم ، وهى على بساط أرمنى ، وهنَّ على نمارق أرمنية ، وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبةً ، فبينا هى كذلك إذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال ، فى أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركم ، وتروم الدخول عليكم . وقد كان المهدى تقدم إلى الخيزران بأن تلزم (زينب بنت سليمان بن على) وقال لها :

اقتبسى من آدابها ، وخذى من أخلاقها ، فانها عجوز لنا ، قد أدركت أوائلنا فقالت الخيزران للخادم : ائذن لها ، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال ، فى أطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان لسان فقالوا لها : من أنت ؟ قالت : أنا (مزينة امرأة مروان بن محمد) وقد أصارنى الدهر إلى ماترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التى علىّ إلا عارية ، وأنكم لما غلبتمونا على هذا الأمور وصار لكم دوننا ، لم نأمن مخالطة العامة ، على ما نحن فيه من الضرر ، على بادرة الينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لتكون فى حجابكم على أية حالة كانت ، حتى تأتى دعوة من له الدعوة ، فاغرورقت عين الخيزران ونظرت اليها زينب بنت سليمان بن على ، فقالت . لا خفف الله عنك يا مزينة ، أتذكرين وقد دخلت إليك (بحرّان) وأنت على هذا البساط بعينه ، فكلمتك عن جثة إبراهيم الإمام ، فانتهرتنى وأمرت باخراجى وقلت ما للنساء و الدخول على الرجال فى آرائهم ، فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ، لقد دخلت إليه فحلف أنه ما قتله ، وهو كاذب ، وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع إلى جثته ، وعرض على مالاً فلم أقبله ، فقالت مزينة : والله ما نظن هذه الحالة أدتنى إلى ماترينه إلا بالفعل الذى كان منى ، وكأنك استحسنتيه ، فحرضت الخيزران على فعل مثله ، إنما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير ، وترك المقابلة بالشر لتحرز بذلك نعيمها

وتصون بهـا دينها ، ثم قالت لزينب : يا بنت عم كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق ، فأحببت التأسى بنـا ، ثم ولّت باكية ، فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها إلى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها، والإحسان إليها ، فلما دخل المهدى عليها ، وقد انصرفت زينب ، وكان من شـأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية ، قصت الخيزران عليـه قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالهـا ، فدعا بالجارية التى ردتها ، فقال لها : لمّا رددتيها إلى المقصورة ، ما الذى سمعتيها تقول ؟ قالت : لحقتها فى الممر الفلانى ، وهى تبكى فى خروجها مؤتسية ، وهى تقرأ : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ، ثم قال للخيزران : والله ، والله ، لو لم تفعلى بهـا ما فعلت ، ما كلمتك أبداً ، وبكى بكاء كثيراً ، وقال : اللّهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة ، وأنـكر فعل زينب ، وقال : لولا أنهـا أكبر نسائنا لحلفت أن لا أكلمها ، ثم بعث إليهـا بعض الجوارى إلى مقصورتها ، التى أخليت لهـا ، وقال للجارية : إقرئى عليها السلام ، وقولى لهـا : يا بنت عم ، إن أخواتك قد اجتمعن عنـدى ، ولولا أنى ابن عمك لجئتك ، فلمـا سمعت الرسالة علمت مراد

المهدى ، وقد حضرت زينب بنت سليمان ، فجاءت (مزينة) تسحب أذيالها ، فأمرها بالجلوس ، ورحب بها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على ، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم ، وأيام الناس ، والدولة وتنقلها فما تركت لأحد فى المجلس كلاماً ؛ فقال لها المهدى : يا بنت عم والله لولا أنى لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم فى أمرنا شيئاً لتزوجتك ، ولكن لا شىء أصون لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى ، لك ما لهن ، وعليك ما عليهن ، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر ، فيما حكم به على الخلق ، ثم أقطعها مثل ما لهن من الأقطاع ، وأخدمها وأجازها ، فأقامت فى قصره إلى أن قضى المهدى ، وأيام الهادى ، وصدر من أيام الرشيد وماتت فى خلافته لا يفرق بينها و بين نساء بنى هاشم .

فلما قُبضت جزع الرشيد والخدم جزعاً شديداً ، وأخرجها بمشهد يليق بمثلها .

وكلمت الخيزران ولدها الهادى ذات يوم فى أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً ، فاعتل عليها بعلة فقالت : لا بد من إجابتى قال : لا أفعل . قالت : فإنى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب الهادى وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها لا قضيتها لك .

قالت : إذاً والله لا أسألك حاجةً أبداً .

قال : إذاً والله لا أبالى ، وقامت مغضبة

فقال : مكانك ، فاستوعى كلامى والله وإلاَّ نفيت من قرابتى من رسول الله لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ماهذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم ، أمالك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى ، فانصرفت وماتعقل ماتجيب ، فلم تنطق بحلو ولا مرّ بعدها

ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير أنا أم أنتم ؟ وأمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك خير . قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال : أم فلان فعلت وصنعت ؟ قالوا : لانحب . قال : فما بالكم تأتون منزل أمى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ، وبعد مدة من الزمن تناست هذه الحادثة ، فبعث الهادى بأُرز إلى الخيزران وقال لها : قد استطبتها فكلى منها ، فقيل لها : امسكى حتى تنظرى ، فجاءوا بكلب فأطعموه ، فسقط لحمه لوقته ، فأرسل اليها كيف رأيت الأرز قالت : طيباً . قال ما أكلت منها ، ولو أكلت منها لاسترحت منك متى أفلح خليفة له أم ؟

وكان سبب وفاة الهادى من قبل أمه الخيزران ، كانت أمرت الجوارى بقتله للسبب عينه ، وقيل : كان السبب فى أمرها بذلك أن الهادى لما جد فى خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد فوضعت جواريها عليه لما مرض وأمرتهن بقتله فقتلوه بالغم والجلوس على وجهه فمات ، فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته ، وبعد ذلك بقيت معززة مكرمة عند الرشيد والمأمون ، إلاَّ أنها اقتصرت عن التدخل فى الأحكام ، حتى أدركتها الوفاة فى خلافة المأمون ، وأخرجت باحتفال عظيم لم ينله غيرها من نساء الخلفاء رحمها الله تعالى

١٢ - الدارمية الحجونية

كانت فصيحة اللسان ، بليغة البيان غير هيابة فى المقال ، لا يسألها أحد سؤالاً إلّا جاوبته بأحسن جواب ، وأقنع خطاب

قال أبو سهل التميمى : لما حجّ معاوية سأل عن امرأة من بنى كنانة تنزل (بالحجون) يقال لها (دارمية) وكانت سوداء ، كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث اليها فجىء بها ، فقال : ماجاء بك يا ابنة حام . فقالت : لست بابنة حام ، أنا امرأة من بنى كنانة وأنت طلبتنى قال : صدقت : أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لايعلم الغيب إلّا الله . قال : بعثت إليك أسألك عَلَامَ أحببت علياً وأبغضتنى ، ووالیته وعاديتنى ؟

قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذا أبيت فإني أحببت عليًا على عدله في الرعيـة ، وقسمته بالسّوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبك ما ليس لك به حق ، ووالیت عليًا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء ، وحبه المساكين ، و إعظامه لأهل بيته ، وعاديتك عن سفك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك

قالت : ياهذا بهند والله كان يضرب المثل في ذلك

قال معاوية : ياهـذه اربعي فإنا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها ، و إذا عظم ثدياها تروّى رضيعها ، و إذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها

فلما سمعت ذلك رجعت وسكن غضبها ، ثم قال لها : ياهذه هل رأيت عليًا ؟ قالت : نعم . رأيته . قال : فـكيف رَأْيَتِهِ ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك

قال : فهـل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم . والله فـكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الصدأ من الطست

قال : صدقت ، فهـل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم : قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها حملها وراعيها

قال : ماذا تصنعين بها ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر

قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على بن أبى طالب ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ، فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال ؟ أما والله لوكان علىٌ حياً ما أعطى منها شيئاً

قالت : لا والله ،ولا وبرة واحدةمن مال المسلمين ، ثم أخذتها وانصرفت

١٣ — رابعة العدوية

ابنة اسماعيل البصرية العدوية

كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً ، وكانت تقول : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، وكانت ترد ما أعطاه الناس لها ، وتقول مالى من حاجة بالدنيا ، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها الخلال البالى ، تكاد تسقط إذا مشت ، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعت رضى الله عنها (سفيان الثورى) يقول :

واحزناه ! فقالت : واقلة حزناه ؟ ولو كنت حزيناً ما هناك العيش . ومناقبها كثيرة رضى الله عنها ومشهورة ، وجاء فى ترجمتها لابن خلكان انها كانت من أعيان عصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة ، وذكر أبو القاسم القشيرى فى الرسالة : أنها كانت تقول فى مناجاتها : « إلهى تحرق بالنار قلباً يحبك ؟ » فهتف بها مرة هاتف « ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء »

وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها فى المنام تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور

وكانت تقول : ما ظهر من أعمالى لا أعده شيئاً

ومن وصياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردى فى كتاب عوارف المعارف هذين البيتين:

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها فى سنة ١٣٥ ذكره ابن الجوزى فى شذور العقود ، وقال غيره سنة ١٨٥ رحمها الله تعالى . وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى (الطور)

وذكر ابن الجوزى فى كتاب « صفوة الصفوة » فى ترجمة رابعة المذكورة باسناد له متصل الى عبدة بنت أبى شوال قال : وكانت من

خيار اماء الله تعالى ، وكانت خادمة رابعة تقول . كانت رابعة تصلى الليل كله ، فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعةً خفيفةً حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول ، إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة : يانفس كم تنامين ؟ وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومةً لا تقومين منها إلاّ لصرخة يوم النشور ؟ وكان ذلك دأبها مدة حياتها حتى ماتت . ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت يا عبدة : لا تؤذنى بموتى أحداً وكفنينى فى جبتى هذه ، وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ، قالت فكفنتها فى تلك الجبة ، وفى خمار من صوف كانت تلبسه ، ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى عليها حلة استبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر ، لم أرَ شيئاً قط أحسن منه فقلت يارابعة ما فعلت بالجبة التى كفنتك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إن الله نزعه عنى ، وأبدلت به ما ترينه على ، فطويت أكفانى وختم عليها ، ورفعت فى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة . فقلت لها . لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ، فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ؟ فقلت لها : ما فعلت (عبيدة بنت أبى كلاب) فقالت : هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ، فقلت : وبمَ ؟ وقد كنت عند الناس أكبر منها

قالت : انها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو

أمست . فقلت لها : فما فعل أبو مالك ؟ أعنى ضيغما . قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ أعطى والله فوق ما كان يؤمل ، قلت فمرينى بأمر أتقرب به من الله عز وجل

قالت : عليك بكثرة ذكره يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك رحمها الله تعالى

وكان الحسن البصرى توفيت زوجته فأراد زوجة ، فقيل له عن رابعة العدوية فأرسل اليها يخطبها ، فردته وقالت :

راحتى يا اخوتى فى خلوتى ... وحبيبى دائماً فى حضرتى

لم أجد لى عن هواه عوضا ... وهواه فى البرايا محنتى

حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابى إليه قبلتى

إن أمت وجداً وما ثم رضا ... واعنائى فى الورى واشقوتى

يا طبيب القلب يا كل المنى ... جد بوصل منك يشفى مهجتى

يا سرورى يا حياتى دائماً ... نشأتى منك وأيضاً نشوتى

قدهجرت الخلق جمعاً أرتجى ... منك وصلاً فهو أقصى منيتى

وكانت تقول مرة : إلهى ، ماعبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، بل حباً لك ، وقصد لقاء وجهك ، وتنشد :

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
فأما الذى أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذك

مثال من زهد رابعة العدوية

روى : أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب اليها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فان الله تعالى «قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف، وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبنى»

فكتبت اليه : بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فاذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك ، فصم الدهر ، وليكن فطرك الموت

وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ماسرّنى أن أشتغل عن الله طرفة عين

وفى هـذه الحكاية إشارة إلى أن كل مايشغل عن الله تعالى فهو نقصان وخسران ؟ فانظروا كيف كان زهـد رابعة العدوية فى الدنيا واشتغالها بذكر الله

١٤ — رَحمة زوجة نبى الله أيوب عليه السلام

هى بنت (أفرايم بن يوسف بن يعقوب) عليهما السـلام ، كانت من النساء الصالحات الطائعات لأزواجهن ، وقد اتصفت من دون النسـاء بالصبر الجميل على بلاء زوجها أيوب عليه السلام حين لم يبق له مال ، ولا ولد ، ولا صديق ولا أحد يقر به غيرها ، فانها صبرت معه على مضض ذاك البـلاء الشديد ، وكانت تأتيه بطعام وشراب و يبيتان يحمدان الله سبحانه وتعـالى ، و يرجوان منه عفواً على ماناالهما من البلاء

فلمـا كانت فى بعض الأيام تمثل لها إبليس فى صورة رجل فقال لهـا : أين بعلك يا أمة الله ؟ فقالت : هو ذاك مبتـلًى فى جسده ، فلما سمع منهـا طمع أن تـكون جزعةً فوسوس لهـا ، وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمـال ، وذكرها جمـال أيوب وشبابه وما هو فيـه اليوم من الضر ، وان ذلك لا ينقطع عنه أبداً ، فصرخت ، فلما صرخت عـلم

أنها قد جزعت ، فأتى بسخلة وقال لها . ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ ، فجاءت تصرخ وقالت . يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ، أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين ثوبك الحسن قد تغير وصار مثل الرماد ؟ وأين جسمك الحسن الذى قد بلى اذبح هذه السلخة واسترح

فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه ، ارأيت ماتبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة مَن أنعم علينا به ؟ قالت : الله . قال : فكم متعنا به ؟ قالت كذا سنة . قال : فمنذ كم ابتلانا الله ؟ قالت : منذ سبع سنين . قال : وَيلك والله ماعدلت ولا أنصفت ربك إلا صبرت فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا كما كنا فى الرخاء ، والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتنى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام ، لا أذوق مما تأتينى به بعد إذ قلت هذا ، فاعزبى عنى لا أراك ، فطردها

فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها ، وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرَّ لله ساجداً وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ثم رد الأمر إلى ربه فقال : ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأوحى الله اليه أن اركض برجلك ، فركض فنبعت عين ماء فاغتسل ، فلم يبق من دائه شىء ظاهر إلا سقط بأثره ، وأذهب الله عنه كل ألم وداء ، وكل سقم ، وعاد عليه شبابه وجماله أحسن

ما كان وأفضل مما مضى ، وجعل يلتفت يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً مما كان من أهل وولد ومال إلاَّ وقد ضاعفه الله تعالى

فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم ان رَحمة قالت : أرأيتَ ان كان قد طردني الى من أكله ؟ أأدعه حتى يموت جوعاً وعطشاً ويضيع ، فوالله لأرجعن اليه ، ثم رجعت ، فاذا حال أيوب قد تغيرت فجعلت تطوف وتبكي ، وذلك بمرأى من أيوب ، فأرسل اليها أيوب فدعاها وقال لها : ماتريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذي كان هنا ، لاأدري أضاع أم ماذا فعل به ؟

فقال أيوب عليه السلام : ما كان منك . فبكت وقالت : بلى فهل رأيته ؟ فقال : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟ قالت . وهل يخفى على أحد رآه . ثم انها جعلت تنظر إليه وقالت : أما انه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً . قال : فأنا أيوب أمرتني أن أذبح لابليس ، فاني أطعت الله وعصيت الشيطان ، فردّ عليّ ماترين ، فاعتنقته ، فقيل : انها مافارقته من عناق حتى مربها كل ما كان لهما من المال والولد

فلما برأ أيوب أراد أن يبر يمينه بأن يجلد رَحمة ، فأمره الله أن يأخذ من جماعة الشجر مبلغ مائة قضيب خفافاً لطافاً ويضربها ضربة واحدة كما قال تعالى :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ الآية

وقيل : كانت رَحمة تكسب له ما تعمل للناس فتبيعه وتجيئه بقوته ، فلما طال عليها البلاء ، وسئمها الناس ، فلم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام تطعمه فما وجدت شيئاً ، فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به ، فقال لها :

أين قرنك ؟ فأخبرته الخبر ، فحزن عليها ، وشكر صنيعها

١٥ — زُبيدة أم الأمين

بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور العباسى

فى العصر الثانى للهجرة النبوية ولدت بطلة من بطلات الإسلام زادت نور عصرها إشراقاً « هى السيدة زبيدة »

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية ، فكانت مهبط الحب ، وموطن العناية ، والتجلة والإعزاز ، من قلوب بنى العباس ؛ لاسيما جدها (المنصور) ركن الدولة العباسية ، وعميدها الأجل ، فقد كان يؤثرها بقلبه ، ويختصها بحب فوق كل حب ، وهو الذى لقبها (بزبيدة) لما رأى من بضاضتها ونضارتها ، فغلب عليها هذا اللقب ، وصارت تسمى به دون اسمها الحقيقى ، وكانت تسمى (أم العزيز) وكانت تكنى (أم جعفر)

وقد قام جدها بتربيتها ، فأحسن أدبها ، وعلمها القراءة والكتابة ، وحفظها الأخبار والسير والشعر ، فشبت كلفة بالشعر ، والهة بالأدب ، حتى كانت تزين حوائط غرفتها بالسجف (الستائر) الموشاة بالنظم البديع ، والأبيات الرائعة

وكانت ذات ملامح جذابة ، وجمال خاص بنساء عصرها ، فاشتهر عنها الأدب والكمال والجمال ، مع علو النسب ، حتى صار يضرب بها المثل فى الأندية العالية والمجامع الراقية.

وقد ظهر من اعتزازها والمغالاة بشأنها يوم أن زفت على ابن عمها الرشيد ، فقد عقد له عليها عام ١٦٥ هجرية وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وتمت حفلة قرانها بأبهة خارقة للعادة لايتسع لها مجال الخيال . فكانت من أبدع الحوادث التى يرويها التاريخ بامتهاب و إطناب ، يقصر دونهما كل قول ووصف ، وقد نالت تلك الحادثة استحسان جمهور المسلمين المنتشرين فى أصقاع العالم ، ووقعت من نفوس كبرائهم وأمرائهم موقع الاستحسان ، فتهافتوا على هذه الأميرة الهاشمية بأنواع الهدايا ، وأصناف المجوهرات والطيب ، وأدوات الزينة استجلاباً لرضاها ورغبة فى حظوتها

وما كاد يمضى على زواجها أربعة أعوام حتى ولدت له (محمد الأمين) ثم بعد ذلك بعام واحد أى سنة ١٧٠ هجرية تقلد الرشيد زمام الخلافة بعد

أخيه موسى وهو فى العشرين من عمره

* * *

وكانت الأميرة زبيدة وسيمة الطلعة ، طويلة القد ، بضة (ناعمة) الجسم ، بيضاء اللون ، ذات عينين براقتين ، وفم صغير ، فخورة بأصلها وحسبها ، تعتز كثيراً بانتسابها إلى الدوحة الهاشمية ، وتفخر لأنها حفيدة خليفة ، وزوج خليفة ، وأم خليفة ، فكيف لاتباهى ولا تعتز ؟ ومَن تكون من نساء عصرها أجدر بالفخر والسؤدد منها ؟

أما وفور عقلها ، وفضلها ونبلها ، فما سار مسار الأمثال ، ومن أجل هذه المزايا التى قلّ أن تتوفر فى امرأة أخرى تربعت على عرش بغداد ، وقبضت بيدها على صولجان زمنها الزاهر

وكان لباسها المعتاد جلبابا شاملاً إلى الأرض ، وعلى هذا الجلباب وشاح يزينه نطاق مرصع بالجواهر ، تشده بين عاتقيها وخصرها

وكانت تمتنع عن التحلى بالأحجار الكريمة ، والجواهر النفيسة ، ترفعاً منها وأنفةً ، ورغبةً فى التميز عن عامة الناس ، فما كنت ترى فى أصبعها خاتماً ، ولا فى معصمها سواراً ، ولا فى جيدها قلادةً ، وإنما كانت نسيج وحدها فى لباسها وزينتها ، ولهذه الخصلة المتغلبة على نفسها كانت تزين بتلك اللآلىء النفيسة ، التى تضن بها على أى قسم من أقسام جسمها ، أحذيتها ونعالها

المرصعة المقصبة بخيوط الذهب

وقد سألها ابنها المحبوب (محمد الأمين) عن ذلك ذات مرة فأجابته بوقار وشمم : « أفعل ذلك لأنى لا أريد التشبه بغيرى من النساء »

أجل لقد كانت تنفر من التقليد والمحاكاة نفوراً شديداً ، وهـذا النفور حدابها إلى إدخال تعديل كبير فى عصابة الرأس التى ابتدعتها (العباسة) أخت زوجها الرشيد ، فما كانت تضع شيئاً من اللآلىء والجواهر فى عصابتها كما كانت تضع نسـاء زمنها ، وإنمـا تضع قطعة من النسيج الأسـود الرقيق بلاترصيع ولاتطريز تزيد من هيبتها ، وتـكسبها كثيراً من الروعة والجلال

وتـكاد السيدة زبيدة تكون المرأة الإسلامية الأولى فى استعمال أوانى الفضة والذهب ، والاكثار من اقتنائها ، كما كانت نموذجاً لغيرها فى اقتناء الملابس الحريرية ، والتأنق فى صناعتها ، وكان يعجبها من الألوان الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق

تركت بعد زواجها قصر الخلد ، وانتقلت إلى قصرها الخاص المسمى (دار القرار) على شاطىء الدجلة البديع ، وكان منقطع النظير فى زمانه ، تحيط به حديقة غناء ، تجلب الأنظار بزهورها ، وأشجارها المثمرة الزاهرة . أما داخل القصر فكان لايقل بهاء عن خارجه ، إذ كان مفروشاً بذوق خاص ،

وأثاث منتخب ، وغرفه مزدانة كل منها بزينة تغاير ما فى الأخرى

وكان سكان « دار القرار » لايقلون شهرةً عن شهرة القصر نفسه ، فقد كانت جوارى الأميرة زبيدة من نخبة الجوارى فى عصرها من ذوات الجمال ، والمعرفة بالقراءة والكتابة وانشاء الشعر ، وبينهن مائة جارية اشتهرن بحفظ القرآن الكريم ، وتلاوته ليل نهار ، ولكل واحدة ورد عشر القرآن

وكانت هذه الأميرة العظيمة متمسكة بأهداب الدين ، يعجبها كثيراً سماع القرآن المبين ، من جواريها الحافظات له ، وقد اشتهر أمر هؤلاء ، وطار صيتهن فى الأصقاع . ففى كتب التاريخ : إن المار بجانب قصرها يسمع أصوات ترتيلهن كطنين النحل عندما تكون على مقربة من خلاياها

وكان لها من قلب الرشيد حمًى لايرام ، إذ لبثت ربة القول فى قلبه وقصره . رغم المنافسات من جواريه العديدات ، لوفور عقلها ، ونبل صفاتها ، ومزاياها التى انفردت بها دون سواها من نسائه ، فكان لايسعى لأمر دون مشورتها ، ولايمضى فى عمل دون أخذ رأيها ، وبالاجمال فانه كان مفتوناً بنفاذ لبها ، ونبل خلقها ، وعظمة قلبها

كانت الأميرة زبيدة من ذوات البرِّ والإحسان ، وخيراتها كثيرة

تجعلها من أمهات المحسنين فى الإسلام ، وكانت أموالها وأملاكها وفيرة لا تقع تحت حصر أو قياس ، حتى تحدثوا عن مزارعها وضياعها فى بلاد العجم فضلاً عن البلدان العربية

وقد أنشأت كثيراً من المدارس والمستشفيات ، وأمرت بتأسيس الملاجئ ، وحفر الآبار والعيون ، وكان لها فى كل مرافق البر الأثر الجليل

ففى العام السادس والثمانين بعد المائة من الهجرة حج الرشيد مع امرأته السيدة زبيدة ، وكان فى صحبته خلق كثير من الأعوان والأمراء من بينهم ولداه الأمين والمأمون ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى . وقد أظهرت الأميرة أثناء حجها من المبرات والحسنات مالا يدع قولا لقائل ، ولا سبيلاً لمفتخر ، مما أسسته من مساجد ، ومكاتب ، وملاجئ ، ومنازل ومشارب فكل ذلك ألسنة تنطق بخيرها العميم ، أبد الدهر ومدى العمر ، وهذا كله لا يقاس بمفخرتها الخالدة وهى (عين زبيدة) وبتلك العين التى حفرتها فى صحارى الحجاز الجرداء ، وأجرت منها الماء إلى مكة المكرمة ، قد وفرت العناء ، واحتمال ضروب المشقات عن مئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام الذين كانوا يحتملون من قرب الماء ما يوقر ظهورهم

وقد كلف حفر اثنى عشر كيلوا متراً من هذه العين الجارية ، التى يعد

مشروعها نفحة من نفحات الاله ، ألف ألف وسبعمائة ألف دينار (أجمعت على هذا التقدير كل التواريخ)

ومن غريب آثارها فى مكة قصر من البلور أنشأته فى نفس مكة و يعد آية الآيات فى صنعه

ولما مات الرشيد (بطوس) كان ابنه المأمون فى مدينة (مرو) والياً على (خراسان) وكان الأمين ببغداد ، وزبيدة (بالرقة) فانتشر نعى الخليفة بسرعة البرق ، وسعى (صالح بن هارون) إلى الأمين بخاتم الخليفة وسيف أبيه ، وكسوته الخاصة ، مبايعاً له حسب التقاليد والعادات

وكان الأمين قد انتقل من قصر الخلد إلى دار الخلافة ، وبايعه الوزراء والجند بالخلافة عقب صلاته وخطبته حسب العادة المتبعة

أما الأميرة زبيدة فقد طاب لها المقام فى (الرقة) ولم تشأ أن تحضر إلى بغداد ، ولكن ابنها الخليفة ألح عليها فى الحضور فلم تر بداً من إجابة دعوة ولدها المحبوب ، فتوجهت إلى العاصمة فى شعبان واستقبلها ابنها باحتفال مهيب من مدينة الأنبار : وكان لوصول الأميرة أثر من العظمة الخالدة التى لا يمكن نسيانها ، حيث وصل موكبها بين الهتاف المتواصل ، وأصوات التهليل ومظاهر التقدير والتبجيل ، إلى بغداد ، ووقف أمام قصر الخلافة ، ولم يمض زمن طويل على خلافة الأمين حتى قتل فى الثامنة والعشرين من حياته ، وتولى الخلافة من بعده المأمون

ولهذا اضمحل نفوذ زبيدة ، واضمحل شأنها ، ولم يبق لعظمتها مجال ، واضطرت أن تعيش فى دائرة محدودة فى سكون واستكانة ، لأن (طاهر بن الحسين) قائد المأمون اضطهدها ، وعمل على تعذيبها ، وأذاقها ألوان التحقير والاهانة ، وهكذا الدهر بالناس قلب ، إذا صفا لأحد يوماً ففى غد يتقلب

ولقد صبرت زبيدة على الأذى ، وتحملت كل ذلك بصبر وثبات جأش ، وانها لجديرة بالتقدير لثباتها هذا ، لأن زبيدة العظيمة (امرأة الرشيد) تلك التى عاشت مكرمةً معززةً ، مرفهةً طول حياتها ، دون أن يصيبها مكروه ، أو يعكر صفو حياتها أذى ، أو تسمع أو ترى ما يشعر بهوانها ومذلتها لم تذق طعم الهوان قبل ذلك اليوم

وقد تألمت زبيدة من تلك المعاملة القاسية التى عاملها بها هذا القائد الظلوم ، وعند ما فرغ صبرها ، وضاق ذرعها ، تجلدت فأمسكت القلم بيمينها ، وسطرت كتاباً إلى المأمون تستعطفه وتقول :

« كل ذنب يأمير المؤمنين وإن عظم ، صغير فى جانب عفوك ، وكل إساءة وإن جلت ، يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عودكه الله أطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ودفع عنك الشر والضير

وبعد ، فهذه رقعة الولهى ، التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر ، فان رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة

حيلتي ، وتصل رحمي ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً ، وفيه راغباً فافعل ، وتذكر من لو كان حيًّا لكان شفيعي لديك »

ثم أضافت إلى ذلك أقوالاً شرحت فيها معاملة طاهر واضطهاده لها ، وقالت : فان كان ما يفعله صادراً عن رضاك رضيت بنصيبي من الأقدار ، وإن كان يعتسف بغير رأيك فانك قادر على تغيير الحال

وقد أرسلت الرقعة مع جارية لها تدعى (خالصة) وأوصتها أن تسلمها إلى المأمون يداً بيد ، وما كاد المأمون يقرؤها حتى بكى وقال لمن حوله ، قول عليّ عليه السلام عند ماوصل اليه خبر استشهاد عثمان رضى الله عنه . والله ما كان ذلك برأيي ولا علمي

ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ، ورد اليها أموالها وضياعها ، وعمل على رفع قدرها ، وإصلاح شأنها ليمحو من نفسها أثر الأحزان التي انتابتها ، كما وبخ طاهراً على ما فعله

وكتبت أبياتاً للمأمون ترثي بها سوء حالها بعد فقد ولدها

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل سام فوق أعواد منبر

لوارث علم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمون من أم جعفر

كتبت وعيني مستهل دموعها ... اليك ابن عمي من جفون ومحجر

وقد مسني ضير وذل كآبة ... وارّق عيني يا ابن عمي تفكري

دهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمري عظيم منكر أي منكر

سأشكو الذى لاقيته بعد فقده إليك شكاة المستضير المقهر
وأرجوك لما قد مرّ بى مذ فقدته فأنت لبثى خير من رب معمر
أتى (طاهر) لا طهر الله طاهراً فما (طاهر) فيما أتى بمطهر
فأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالى وأضرب أدؤرى
يعز على هرون ماقد لقيته وما مرّ بى من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أبدى بأمر أمرته صبرت لأمر من قدير مقدر
تذكر أمير المؤمنين قرابتى فديتك من ذى حرمة متذكر

فلما قرأها المأمون بكى وقال : أنا الطالب بثار أخى ، قتل الله من قتله . ثم إن المأمون عطف على زبيدة فجعل لها مكاناً فى قصر الخلافة ، وأقام لها الوظائف والخدم والجوارى

بعد ذلك عاشت زبيدة فى عيشة راضية ، ونعمة تامة ، تستعيد بهجتها السابقة ، وعظمتها السالفة ، وتعمل على نسيان الإساءة التى لحقتها على يد طاهر بن الحسين ، تحت ظلال وارفة من نعم المأمون وإحساناته المتوالية

وبعد أن تزوج المأمون (بوران) محبوبته بست سنوات انتقلت السيدة زبيدة من دار الفناء إلى دار البقاء فى التاسعة والستين من عمرها ، وكانت وفاتها ببغداد فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هجرية رحمها الله رحمة واسعة، وتركت صفحة ممتازة ناصعة

فالأميرة زبيدة هذه من ملكات الشرق ذات الأثر الباهر ، ومن أجل نساء الإسلام ذكراً ، ومن مخدرات الإسلام التى كانت عوناً على رفع كلمة الشرف

فاذا ماذكر اسمها وجب أن يذكر مقروناً برفاهة الشرق وفخامته وما كان له من علو الشأن فى العصر الثانى للهجرة ، وبالجملة لقد كانت امرأةً عظيمة ، وسيدةً أميرة

١٦ — سارة (زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام)

كانت أحسن نساء زمانها جمالاً ؛ وأوفرهن عقلاً وكمالاً ، تزوجت بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان يحبها محبة عظيمة ، وكانت لم تعصه فى شىء ما ؛ و بذلك أكرمها الله تعالى ، وكان قدم بها إبراهيم إلى مصر و بها فرعون من الفراعنة الأولى ، وقد وُصف له حسنها وجمالها ، فأرسل إلى إبراهيم عليه السلام فجاءه فقال له : ما هذه المرأة منك ؟

فقال : هى أختى ، وتخوف إن قال هى امرأتى أن يقتله

فقال له : زينها وأرسلها إلى حتى أنظر اليها ، فرجع إبراهيم إلى (سارة) وقال لها : إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته إنك أختى فلا تكذبينى عنده ، فإنك أختى فى كتاب الله عز وجل

ثم أقبلت (سارة) على هذا الجبار وقام إبراهيم عليه السلام يصلى ، فلما دخلت عليه ورآها أهوى اليها يتناولها بيده ، فيبست يده إلى صدره

فلما رأى ذلك عظم أمرها وقال لها : سلى ربكِ أن يطلق يدى ، فوالله لا آذيتك

فقالت (سارة) اللّهم إن كان صادقاً فاطلق له يده ، فأطلق الله تعالى يده

وقيل : إنه فعل ذلك ثلاث مرات بقصد أن يتناولها فيبس يده

فلما رأى ذلك ردّها إلى إبراهيم ووهب لها (هاجر) وهى جارية قبطية ، فأقبلت إلى إبراهيم ومعها هاجر وهى تحمد الله تعالى على عصمتها من فرعون

وكانت (سارة) قد حرمت الولد حتى شاخت وأسنت ، فوهبت (هاجر) إلى إبراهيم بقولها : إنى أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى يرزقك منها بولد ، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له (إسماعيل) عليه السلام

وكانت (سارة) بنت تسعين سنة ، و إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، و بُشر إبراهيم بأنه سيرزقه الله بولد من سارة ، وقد كان وحملت سارة (باسحٰق) وقيل : كانت حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معاً ، وشب الغلامان فبينما هما يتناضلان ذات يوم ، وكان إبراهيم عليه السلام سابق

بينهما ، فسبق إسماعيل ، فأخذه وجلسه فى حجره ، وأجلس إسحٰق إلى جانبه ، وسارة تنظر اليه ، فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جانبك

وقد كان أخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقتها ، ثم ثاب اليها عقلها ، فبقيت فى ذلك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : اخفضيها وأثقبى أذنها ، ففعلت ، فصار ثقب الأذن سنة فى النساء

ثم إن إسماعيل و إسحٰق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان ، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لا تساكننى فى بلد ،

وأمرت إبراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله اليه أن يأتى بهما إلى مكة فذهب بها ، وقصتهما مشروحة فى قصة إبراهيم الخليل فى الجزء الأول من أحسن القصص

وتوفيت (سارة) ولها من العمر مائة واثنتان وعشرون سنة ، وقيل : مائة وسبع وعشرون سنة بالشام بقرية الجبابرة بأرض كنعان فى (جيرون) فى مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها ، وتسمى تلك المزرعة حقل المكفيلة (فى التوراة) الحالية

١٧ — ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمى

كانت من أجمل نساء زمانها ، وأوفرهن عقلاً ، وأثبتهن جَنَاناً ، وأعلاهن رَأياً ، وأشدهن حَزْماً ، شاركت أخاها الحاكم بأمر الله فى إدارة شئون الملك ، حتى صار يَقْطَعُ الأمور عن رأيها . وقد كان الحاكم بأمر الله متصفاً بالجَوْرِ ، والظلم ، والعَسْف فى أمور الرعية ، وغلا فى النهب والسلب ونَهْك الحُرُمات ، حتى أبغضه أهل مصر ولم يُخفوا كراهتهم له ، وصاروا يلعنونه فى كل مكان ، ويضرعون إلى الله أن يُنقذهم من جَوْره . وقد بلغ به الجنون أنه أمر بإحراق مصر ونهبها انتقاماً من أهلها ، فأطاعه جنوده وقاتلوا أهلها أشدَّ قتال مدة يومين ، وفى اليوم الثالث انضم الأتراك إلى أهل مصر وهددوه ، فلما رأى ذلك أمر بالكف عن القتال بعد أن أحرق جزء كبير من المدينة ، ونُهِبَ الكثير من بيوتها وحوانيتها ، فلما اشتد غيظ الناس وحَنَقُهم عليه ، ظن أن ذلك من أخته (ست الملك) لعلمه أنها تُخَالِطُ الساسة والعلماء ، لِرُقى عقلها ، وعُلُوِّ كعبها فى السياسة وتدبير الأمور بالحكمة ، وصائب أفكارها ، فَعَمَدَ من حُمْقِه وجهله إلى قتلها واغتيال حياتها . فلما علمت بذلك ، عَوَّلت على الكيد له حفظاً لحياتها وتخليصاً للرعية منه ، فأرسلت إلى قائد كبير ، وقالت له : أنت تعلم ما يعتقده

أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لا يُبْقى عليك ، وقد بلغ منتهى الظلم والعسف ، واشتد بالعباد الأمر ، وأخاف أن يقوموا عليه قَوْمَةَ رجل واحد ، فيهلك ونهلك نحن معه ، وتنقرض الدولة . فراق لديه ما قالت ، ثم قالت : إن الحاكم سَيُصَعِّد فى هـذا الجبل غداً ولا يَصْحَبه إلا صبى ، فأقِم رَجُلين تَثِق بهما يقتلانه والصبىَّ ، ثم نقيم ولده من بعده ، وتكون أنت مدير الدولة وأزيدُ فى إقطاعك مائة ألف دينار . ثم أعطته ألف دينار للرجلين ، فاختار اثنين من ثقاتِه وأخبرهما بالقصة ، فمضيا إلى الجبل ، ولما انفرد الحاكم هجما عليه وقتلاه ، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر . فلما أيقن الناس بقتله اجتمعوا إلى أخته (ست الملك) لعلمهم بكفاءتها ، و ثِقَتهم بعدلها ، ونزاهتها ، وبُعد نظرها ، وشاوروها فيمن يخْلُف أخاها . فأجلست على سرير الحكم (على بن الحاكم) وهو لا يزال صبياً ، وبايع له الناس ولقبوه (بالظاهر) وأنشأت (ست الملك) تدير الدولة وصيةً على ابن أخيها ، رافعةً لواء العدل بين الرعية ، منصفة للمظلومين ، ضاربةً على أيدى البُغاة والطاغين ، فأحَسَّ الناس بالفرق العظيم بين حُكْمها وحكم أخيها ، فأحبوها حباً جمًّا ، ولكنها لم تعَمَّر طويلا ، فماتت بعد أربع سنين سنة ٤١٥ هـ .

فَحِزِنَ عليها أهل مصر ، ولم يَنْسَوْا فضلها العميم . أثابها الله جزاء إحسانها ، وأجزل لها الأجر فى دار النعيم .

١٨ — شجرة الدر (عصمة الدين)

هى أول امرأة فى الإسلام تقلدت الملك ، وأدارت دفة الحكم بمهارة وحسن دراية .

وكانت فى أول أمرها جارية ظريفة يحبها (الصالح نجم الدين أيوب) الملك السابع فى حكومة الدولة الأيوبية . فولدت له غلاماً سمى (خليل) وتزوجها بعد ذلك وأشركها فى الحكم ، وقد أظهرت قدرة خارقة للعادة فى إدارة الأمور ، وكانت تمده برأيها وتعاونه بفكرها ، وكانت الزوجة الصالحة ، شريكة العمر ، وصديقة الحياة ، فبدأ يشعر بقيمة هذه المعونة الأدبية . ويقدرها حق قدرها ويسر بها .

ومن جليل أمرها أنه لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب بناحية المنصورة فى قتاله مع الإفرنج ، قامت بالأمر . وكتمت موته واستدعت ابنه (توران شاه) من بلاد (القوقاز) وسلمت إليه مقاليد الأمور ، وتسلطن بقلعة دمشق فى رمضان سنة ٦٤٧ هـ وقدم إلى الصالحية وأعلن يومئذ بموت الصالح نجم الدين ، ولم يكن أحد قبل ذلك يتفوه بموته ، بل كانت الأمور جارية على حالها ، وشجرة الدر تدير أمور الدولة وتوهم الناس أن السلطان مريض ولا سبيل لوصول أحد إليه .

وكان (توران شاه) ملكاً مستبداً ، وحاكماً مغروراً ، فكرهته الرعية بعد أربعين يوماً من تولية الحكم ، وجاهرت المماليك البحرية بعدوانه وأقسمت بالانتقام منه .

وبينما كانت (شجرة الدر) فى قصرها بالمنيل تقضى أوقات الحياة محفوفة بالعز والإجلال ، أرسل إليها (توران شاه) يطلب منها رد أموال أبيه وأملاكه ويهددها باستعمال القوة والعنف ، فردت عليه تقول : إنها صرفت أموال أبيه فى الجهاد المقدس ؛ إلّا أن جوابها لم يرق فى نظره ، فغضب غضباً شديداً ، وقابل إجابتها بلهجة عنيفة ، لا يليق صدورها من رجل لامرأة أبيه .

وما كانت (شجرة الدر) تنتظر مثل هذه المعاملة الخشنة ، وأثارت هذه الحادثة الحنق والغيظ فى نفوس المماليك ضد (توران شاه) .

وتذكرت (شجرة الدر) جميل صنعها مع ابن زوجها ، وكيف أنها جاهدت فى سبيل كتمان خبر الوفاة . وكيف دبرت مجئ ولى العهد ، ومهدت له سبيل الحكم ، وكانت كلما عاودتها الذكرى اشتد غضبها ، وازداد هياجها ، وتمردها نحوه ، لأنه لو لم تكن (شجرة الدر) لانفجرت قنابل الثورات فى البلاد ، عقب وفاة الملك الصالح ، ولولا تدبيرها لساء الحال والمآل ، فلا لوم عليها ولا تثريب إذا هى رفعت لواء التمرد والعصيان ضده ، فقد اتسعت شقة الخلاف بينهما ، وأخذ الذين يحتاطون (بتوران شاه) يعملون على اشتداد الأزمة وينفخون فى صدره ما يزيد النار إضراماً فيقولون له :

إنما الملك والقوة فى يد (شجرة الدر) وما أنت سوى صورة للحكم ، إنك لضعيف عاجز ، لا تستطيع أن تتمتع بالسلطة ، ما دام منافسوك على قيد الحياة

ولما أساء (توران شاه) تدبير نفسه قتله المماليك البحرية شر قتلة بعد سبعين يوماً من ولايته ، وبموته انقرضت دولة بنى أيوب من مصر

ثم اجتمع المماليك البحرية على أن يقيموا بعده فى السلطنة (شجرة الدر) بإجماع الآراء أميرةً لهم تحت عنوان (الملكة عصمة الدين) فأقاموها بحفلة زاهرة ، وحلفوا لها يمين الطاعة فى عاشر صفر ، ورتبوا (عز الدين أيبك التركمانى) مقدم العسكر ، فسار إلى قلعة الجبل ، وأنهى ذلك إلى (شجرة الدر) فقامت بتدبير المملكة ، وكانت تقطن فى سراى النيل على شاطئ النيل فى قصر بديع ، وأجمل موقع من مواقع مصر

وما كادت تتسلم زمام الحكم حتى تركت قصرها البديع وما فيه من نفائس وزخارف ، وانتقلت إلى القلعة المشهورة ، التى بناها صلاح الدين الأيوبى ، واتخذتها مقراً لحكمها . وبدأت (شجرة الدر) تجمع وزراءها فى غرفة من غرف القلعة وتحضر مجلسهم (من وراء ستار رقيق) ثم عينت أحدهم وهو (عز الدين بن أيبك التركمانى) فى رتبة رئيس الوزراء . وكان رجلاً مقداماً ، وقائداً محنكاً ، جرئ القلب ، زكى الفؤاد ، مشهوراً بعلمه

وفضله ، وحسن درايته ، فعرف كيف يستولى على قلوب الشعب وينال ثقتهم كما أنه عرف كيف يفوز بالتفات الملكة وحسن تقديرها لكفاءته

وكان الخطباء يخطبون فى يوم الجمعة باسمها على المنابر ويقولون : « احفظ اللّهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

ولم تكتف (شجرة الدر) بأن يقرأ اسمها فى خطب الجمعة بل ضربت نقوداً باسمها نقشت على وجه منها : (بسم الله الرحمن الرحيم)

وعلى الوجه الآخر ، المستعصمة الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة منصور خليل الخليفة أمير المؤمنين

وكانت توقع بقولها : (والدة خليل)

ولقد أحدثت فى الإسلام بدعة المحمل الشريف ، ففى عهدها سافر أول محمل فى الاسلام من مصر إلى الحرمين الشريفين

وكانت (شجرة الدر) رغم مظاهر حياتها الخصوصية امرأة مسلمة ذات ميزة خاصة فى حياتها العمومية ، وكانت على علم تام بنفسية الشعب ، ولم تكن حكومتها استبدادية ، لا تشرع فى عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ولا تصدر قراراتها إلاّ بعد الرجوع إلى رأى وزرائها ومستشاريها ، وإذا

حدثتها نفسها بأمر تريد إبلاغه إلى الناس مباشرة أرسلت فى طلب وزيرها (ابن أيبك) وبعد المباحثة والمناقشة معه تأمر بإصدار أوامرها الملكية

وبينما كان حكم (شجرة الدر) آخذاً فى طريق الشهرة بما كان يلاقيه من إقبال الشعب ورضائه، بدأت عصابة من الناس من أتباع (توران شاه) الذين فروا إلى الشام تدس الدسائس، وتنصب شباك الفتن، حول عرشها، رغبةً فى إسقاطها

وقامت الفتن على ساق وقدم، وبدأ العصاة من أهل الشام ينفخون فى أبواق النفاق، بما يرمى إلى الشقاق، بدعوى أنه لا يجوز شرعاً لامرأة أن تتولى شؤون المسلمين، مع أن شجرة الدر لم تأت أمراً يغضب عامة المسلمين، سواء أكان فى مصر أم فى سوريا، فضلا عن احترامها لمقام الخليفة (المستعصم بالله)

وانتهت هذه الفتن بدعوة أمير حلب (الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى) وبايعوه أميراً على الديار الشامية، فسار إلى دمشق وملكها فانزعج العسكر بالقاهرة

وقد أدركت (شجرة الدر) بفطنتها وحسن درايتها حقيقة الحال، فعقدت مجلساً من أركان الدولة واستشارتهم فى الأمر، فقر رأيهم بالاجماع على أن تترك زمام الإدارة إلى (عز الدين بن أيبك) وأن يعقد له عليها عقب

تنصيبه الحكم ، ثم تنفذ القرار ، وتعين (عز الدين بن أيبك) سلطاناً على مصر ، ونزلت شجرة الدر عن الملك بعد أن حكمت ثمانين يوماً ، وأرسلوا إلى الخليفة يشعرونه بتبدل الحال

ولم يتغير الحال كما زعموا ، بل كانت (شجرة الدر) هى الحاكمة تنهى وتأمر من وراء الستار ، عقب زواجها بأمير البلاد عز الدين

تربعت (شجرة الدر) فى قلب (عز الدين) كما تربعت فى عرش مصر من قبل ، فكان يخدمها خدمة جليلة ، ولا يتوانى لحظة عن سلوك السبل المؤدية إلى راحتها ومرضاتها

ولم تصل (شجرة الدر) إلى هذه المنزلة اعتباطاً ، ولم يجلها عز الدين من نفسه ذلك المحل الأسمى إسرافاً ، فقد كانت امرأة زاهية زاهرة ، ذات ذكاء وعلم ودراية

وكان (عز الدين) مفتوناً بشجرة الدر منذ زواجه بها عام ستمائة وثمانية وأربعين هجرية

وكان يحبها ويحترمها من أعماق قلبه ، لذكائها ، وجمالها ، ومركزها وماضيها المجيد

ولكن كان له زوجة أخرى هى أم ولده الوحيد (نور الدين) عقد عليها قبل زواجه بشجرة الدر ، فحكمت عليه بالابتعاد عنها بتاتاً ، وأمرته

بإحضارها وتطليقها منه فى الحال ، فتم لها ما أرادت ، وظلت نيران الغيرة تتأجج فى صدر عز الدين وشجرة الدر ، واتسعت شقة الخلاف بينهما ، حتى انقلبت على ممر الأيام إلى خصومة شديدة ، انتهت بقتله ، أولاً ، بتدبير شجرة الدر فى الحمام وإخفاء جثته ، ثم بقتلها

وجاء فى كتب التاريخ أن أم نور الدين أمرت جواريها فانهلن (بالقباقيب) على شجرة الدر إلى أن ماتت شرّ موتة ، ودفنوها فى المقصورة الخاصة بها داخل المسجد المعروف باسمها بجوار السيدة نفيسة بالقاهرة ، ولقد فرّ بعض الأغوات الذين اشتركوا فى مقتل (عز الدين) وألقى القبض على البعض الآخر ، وصلبوا داخل القلعة

و بذلك انتهت حياة تلك الملكة الكريمة ؛ صاحبة الخيرات العديدة ، والحسنات العظيمة ، التى يعدها المؤرخون خارقة من خوارق الدهماء ، ولا يذكرونها إلاّ بالثناء ، و يعرفونها بأنها كانت عاقلة ، قارئة ، كاتبة ، ذات فطنة ودراية فالعصمة والكمال لله وحده ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، يعز من يشاء ، و يذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير

١٩ - زينب ابنة الإمام أحمد الرفاعى

لبست الخشن من الثياب ، وتركت الطيب من الطعام والشراب ، وكانت قد أرخت الحجاب ، وتحلت بعبادة الملك الوهاب وقنعت بدون اليسير مع القدرة ولزمت حنين أبيها وتبعت أثر طريقته بالذل والانكسار ، والسكينة والوقار .

كان السيد أحمد رضى الله عنه يقول : كأنها خلقت رجلاً والناس يظنون أنها خلقت امرأة .

وقال السيد عمر الفاروق: كنت ذات يوم عند السيد أحمد فأظهرنى على كثير من أسراره ثم أخذنى بيده ودخل بيته على رابعة فقال له : سلم عليها واخدمها واسألها أن تدعو لك فجاءت زينب فقبل رأسها ثم قال لى : أى عمر سلم عليها واخدمها واسألها أن تدعو لك ولذريتك ففعلت ذلك .

ثم قلت فى نفسى الأولى أنه كان يأمرنى بالخدمة والتعظيم لرابعة فإنها أكبر سناً ، فالتفت إلى السيد أحمد قدس الله سره العزيز ، وقال لى : أى عمر إن الله وعدنى أن يحيى بها الآثار ، ويعمر بها الديار فقالت زينب : أى سيدى تعيش أنت ويعيش السيد صالح ، ويجعلنى الله فداك ويحيى الله بك الآثار . فقال : بل فيك . فقالت : يا سيدى أنا أقعد وأحدث الناس وأجلس معهم فى المجالس . فقال لها : يا زينب لا ، ولكن ذريتك تتقوى إلى يوم القيامة .

إلا أن صاحب الشفاء أورد هذه الحكاية فى كتابه بغير هذا النسق قالت مريم بنت الشيخ يعقوب : قد قالت لى زينب نتعب قليلا ، ونستريح طويلاً السفر بعيد والطريق طويل ، والجد ضعيف والزاد قليل ، وليس لنا بدّ من هذا السفر لو ندركه قبل أن يدركنا ، ونستقبله قبل أن يستقبلنا لكان خيراً لنا .

قال الزبرجدى : حفظت القرآن وتفقهت ، وسمعت الحديث من خالها الشيخ أبى البدر الأنصارى الواسطى ! وأخذ عنها أولادها الأئمة الأعلام ، وسمع منها الشيخ الكبير عمر أبو الفرج الفاروقى الكازرونى .

وكانت عظيمة القدر رفيعة المنزلة أقبل على زروع أهل واسط وأم عبيدة جيش الجراد فالتجأ الناس إليها فتقنعت وصعدت السطح وقالت : إلٰهى عبيدك ساقهم حسن الظن إلىّ ، وأنت الذى ألقيت ذلك فى قلوبهم وإنى أقل من أن أسألك ذنوبى وسواد وجهى ، وأنت أكرم من أن ترد المنكسرين يا أرحم الراحمين ، فزم الجراد زمة واحدة وكأنه إبل ساقها رعاتها حتى لم يبق منه جرادة واحدة

توفيت سنة ثلاث وستمائة بأم عبيدة ودفنت بالمشهد الأحمدى المبارك رضى الله عنها .

٢٠ — صفية بنت عبد المطلب

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أم الزبير بن العوام وأمها (هالة) بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهى شقيقة حمزة والعوام وحجل بنى عبد المطلب ، لم يختلف فى إسلامها من عمات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى الجاهلية قد تزوجها الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس أخو أبى سفيان بن حرب ، فمات عنها ، فتزوجها العوام بن خويلد فولدت له الزبير وعبد الكعبة ، وعاشت كثيراً ، وتوفيت (بالبقيع)

ولما قتل أخوها حمزة ، وجدت عليه وجداً شديداً ، وصبرت صبراً عظيماً

وقيل : انها أقبلت لتنظر إلى حمزة (بأحد) وكان أخاها لأمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير: القها فأرجعها لاترى ما بأخيها فلقيها الزبير وقال : أى أمى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى ، قالت : ولم فقد بلغنى أنه مثل بأخى وذاك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأصبرن ، ولأحتسبن إن شاء الله

فلما جاء الزبير إليه وأخبره بقول صفية ، فقال: خلِّ سبيلها، فأتته فنظرت إليه ، واسترجعت ، واستغفرت له

ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن

وقيل : كانت صفية بنت عبد المطلب فى (فارع) حصن حسان بن ثابت مع النساء والصبيان حيث خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت صفية . فمرَّ بنا رجل يهودى فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت (بنو قريظة) وقطعت ما بيننا و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا و بينهم أحد يدفع عنا ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم إن أتانا آت ، قالت :

فقلت : يا حسان إن هذا اليهودى يطوف بالحصن كما ترى ، ولا آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود ، فانزل إليه فاقتله، فقال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت صفية : فلما قال ذلك لم أر عنده شيئاً احتجزت وأخذت عموداً ونزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن فقالت : يا حسان ، انزل فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل : فقال : مالى بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب

وهى أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين

وكانت شاعرة فصيحة ، متقدمة عند جميع العرب بالقول والفعل والشرف والحسب والنسب ، ومن قولها ترثى النبى صلى الله عليه وسلم :

ألا يا رسـول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنـا برًّا ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمى وخالتى ... وعمى وخالى ثم نفسى وماليا
فلو أن ربَّ الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولـكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا

٢١ — فاطمة بنت أسد

نسبها — فاطمة ابنة أسد بن هاشم بن عبـد مناف القرشية الهاشمية أم على بن أبى طالب وأم اخوته طالب وعقيل وجعفر

قيـل : إنها توفيت قبل الهجرة ، والصحيح أنها هاجرت إلى المدينـة وتوفيت بها

قال الشعبى : أم على فاطمة بنت أسد أسلمت وهاجرت إلى المدينة وتوفيت بها ، وقال على لأمه فاطمة بنت أسد : كفى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليـه وسلم سقاية المـاء ، والذهاب فى الحاجـة ، وتـكفيك من الداخل الطحن والعجن ، وهذا يدل على هجرتها لأن علياً إنمـا تزوج فاطمة بالمدينة

قال الزهرى : هى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وهى أيضا أول هاشمية ولدت خليفة ، ثم بعـدها فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ولدت

الحسن ، ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين ، لا نعلم غيرهن ، ثم إن هؤلاء الثلاثة لم تصف لهم الخلافة ، فأما علىّ فإنه كان من اضطراب الأمور عليه إلى أن قتل كما هو مشهور ، وأما الحسن والأمين فخلعا

وقيل : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن فاطمة بنت أسد لما ماتت فى قميصه ، واضطجع فى قبرها ، وجزاها خيراً ، فقيل له : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه ؟ قال :

انه لم يكن بعد أبى طالب أبرّ بى منها ، إنما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة واضطجعت فى قبرها ، ليهون عليها عذاب القبر

قال الزبير : انقرض ولد أسد بن هاشم إلاّ من ابنته فاطمه بنت أسد وكان لها فضائل مشهورة ، ومآثر مشكورة مذكورة فى كتب التاريخ

٢٢ — فاطمة ابنة الخطاب

نسبها — هى فاطمة ابنة الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشية العدوية أخت عمر بن الخطاب

إسلامها — وقد أسلمت مع زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى قبل إسلام أخيها عمر ، وهى كانت سبب إسلامه كما مرّ ذكره فى سيرته رضى الله عنه ، وهى إحدى العشرة الذين أسلموا أول الإسلام

و بقيت تعضد الإسلام، وتحرض نساء قريش على اتباعه ، حتى دخل فى دين الإسلام نساء ورجال كثيرون بسببها

مناقبها — وكانت أديبة فاضلة ، عاقلة ، محبة للخير ، كارهة للشر ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر

وفاتها — توفيت فى مدة خلافة أخيها عمر بن الخطاب

٢٣ — فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان

كانت فصيحة زمانها ، وأديبة عصرها وأوانها ، ذات جمال رائق وحسن فائق ، ودين وورع لم يسبق إليه أحد من نساء بنى أمية

تزوجت بعمر بن عبد العزيز الأموى قبل أن يتولى الخلافة ، فغمرها بأمواله ، وأقنعها بنواله ، وهى لم تكن بأقل منه مالاً ، وقد عاشا فى مبدئهما عيشة الرفاهية والتنعم ، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رأى أن عبأها ثقيل لا يحمله عاتقه ، ومن جملة ما صنعه أنه قال لفاطمة : إن أردت صحبتى فردى ما معك من مال وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين فإنه لهم وإنى لا أجتمع أنا وأنت فى بيت واحد ، فردته جميعه ، ولم تبق لها منه خلال ابرة ، و بقيت معه فى عيشة التقشف والضيق مع اتساع الخلافة والملك إلى أن مات

فلما انتقلت الخلافة إلى أخيها (يزيد بن عبد الملك) قال لها : إن عمر قد ظلمك فى مالك ، و إنى رددته إليك فخذيه

قالت : كلا ، والله لا آخذه ، فما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتاً

فأخذه يزيد وفرقه على أهله ، و بقيت فاطمة فى حالة زهد وعبادة وورع حتى لحقت بزوجها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

٢٤ — فاطمة الفقيهة ابنة علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندى

كانت من الفقيهات العالمات بعلم الفقه والحديث ، أخذت العلم عن جملة من الفقهاء ، وأخذ عنها كثيرون ، وكان لها حلقة للتدريس ، وقد أجازها جملة من كبار القوم ، وكانت من الزهد والورع على جانب عظيم ، تزوجت بفخر الأنام العالم العلامة (علاء الدين القاشانى) ومكثت معه زمناً طويلاً ، وقد ألفت المؤلفات العديدة فى الفقه والحديث ، وانتشرت مؤلفاتها بين العلماء والأفاضل

وكانت معاصرة للملك العادل (نور الدين الشهيد) وطالما استشارها فى بعض أموره الداخلية ، وأخذ عنها بعض المسائل الفقهية ، وكان دائماً ينعم عليها و يعضد مسعاها

وقد توفيت بمدينة حلب ودفنت فى مقبرة من قبور الصالحين ، وقبرها هناك مشهور (بقبر المرأة وزوجها) لأنها دفنت بعد وفاته بجانبه

٢٥ - مسكة جارية الناصر محمد بن قلاوون

قد نشأت فى داره وصارت قهرمانة منزله يقتدى برأيها فى عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد والمواسم وترتيب شئون الحريم السلطانى وتربية أولاد السلطان . وطال عمرها وصار لها من الأموال الكثيرة والسعادات العظيمة مايجل وصفه ، وصنعت براً ومعروفاً كثيراً واشتهرت وبعد صيتها وانتشر . وتقدمت عند السلطان وكانت مسموعة الكلمة عنده وعند حرمه وذلك لحسن خدمتها وصنيعها وصيانتها لمنزله

وقد صنعت مصانع كثيرة مثل مساجد وتكايا ومدارس وغير ذلك جميعها تهدم

ومن مآثرها الجامع الذى أنشأته بخط الحنفى بمصر

قال فيه صاحب الخطط التوفيقية :

إن سوق مسكة قريب من جامع الشيخ صالح أبى حديد بخط الحنفى له بابان منقوش بأعلى أحدهما بالرخام :

(بسم الله الرحمن الرحيم . أمرت بإنشاء هذا المسجد المبارك الفقيرة إلى الله تعالى الحاجة إلى بيت الله الزائرة إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الست الرفيعة مسكة سنة ٧٤٦) هـ . ومنقوش بدائرة من الخارج بالحجر

سورة يس .

وبه منبر مكتوب عليه : « إنما يعمر مساجد الله » الآية . وكان الفراغ من الجامع المبارك فى شهور سنة ٧٤٦ إلى غير ذلك من الأوصاف الحميدة .

ولما توفيت الست مسكة دفنت وقبرها ظاهر يعرف ، وإنما الجامع معطل وغير مقام الشعائر لتخربه حالة وجود أحكار له فى وزارة الأوقاف المصرية وفقها الله لإصلاحه وتعميره

٢٦ — هاجر (زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام)

كانت جارية مصرية ، ذات هيئة جميلة ، قد وهبها فرعون ملك مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام حينما كانت عنده ، وقد وهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام وقالت له :

إنى أراها امرأة وضيئة ، فخذها لعلّ الله تعالى يرزقك منها ولداً ، فتزوجها إبراهيم ، وقد رزقه الله منها إسماعيل عليه السلام ، وذهب بهما إلى مكة، بسبب أن إسحٰق بن سارة تشاجر مع إسماعيل ذات يوم كما تفعل الصبيان، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لاتسا كننى فى بلد وأمرت إبراهيم بعزلها عنها ، وقد أوحى الله إليه أن يأتى بهما مكة ففعل وأنزلهما موضع (الحجر)

وأمرها أن تتخذ عريشاً، ثم قال :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

ثم انصرف ، فاتبعته هاجر ، فقالت : إلى من تكلنا ؟ فلم يرد عليها شيئاً، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا

ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وكانت مع هاجر قربة ماء فنفد الماء فعطشت وعطش الصبى ، فنظرت إلى الجبال التى أدنى من الأرض فصعدت إلى (الصفا) وتسمعت ، لعلها تسمع صوتاً ، أو ترى أنيساً ، فلم تسمع شيئاً ، ولم تر أحداً ، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادى نحو إسماعيل ، فأقبلت إليه بسرعة لتؤنسه وتحافظ عليه

ثم انها سمعت صوتاً نحو (المروة) فسعت ، وما تدرى السعى كالانسان المجهد ، فهى أول من سعى بين (الصفا والمروة) فأصبحت سنة السعى من وقتها متبعة للآن

ثم صعدت (المروة) فسمعت صوتاً كالانسان الذى يكذب سمعه منه حتى استيقنت ، وجعلت تدعو : يا الله قد أسمعتنى صوتاً فأغثنى فقد هلكت ومن

معى ، فإذا هى بجبريل عليه السلام ؟ فقال لها : من أنت ؟

فقالت : سرية إبراهيم عليه السلام تركنى وابنى هٰهنا

قال : وإلى من وكلكما ؟ قالت : وكلنا إلى الله تعالى

قال . فقد وكلكما إلى كاف

ثم جاء بهما وقد نفد طعامها وشرابهما ، حتى انتهى بهما إلى موضع (زمزم) فضرب بقدمه فقارت عين ، فلذلك يقال لزمزم (ركضة جبريل عليه السلام)

فلما نبع الماء أخذت هاجر قربة لها ، وجعلت تستقى فيها تدخره فقال لها جبريل : لاتخافى الظمأ على أهل هذه البلدة فانها (عين لشرب ضيفان الله تعالى) وقال لها : أما إن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله تعالى بيتًا هذا موضعه

قالوا : ومرّت رفقة من (جرهم) تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا: إن هذا الطير لحائم على ماء ، فأشرفوا فاذاهم بالماء ، فقالوا لها : إن شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك ، فأذنت لهم فنزلوا بها وهم سكان مكة حتى شبّ إسماعيل

وماتت هاجر قبل سيدتها سارة ودفنت فى (الحجر)

وسبق ذكر هذه القصة فى قصة إسماعيل عليه السلام فى الجزء الأول من كتابنا أحسن القصص ، والله تعالى أعلم

٢٧ - كريمة بنت محمد بن حاتم

جاورت بمكة المكرمة وروت صحيح البخارى عن الكشميهنى وروايتها من أصح روايات البخارى . وروت عن زاهر السرخسى وكانت تصنف كتبها وتقابل نسخها .

وهى فى الفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث يرحل إليها أفاضل العلماء وكان لها مجلس بمكة المكرمة تجتمع فيه الطلبة والأفاضل من رجال كل علم وهى تلقى على كل نوع مما يطلبه بعبارة فصيحة المأخذ مفهومة المعنى

وكان أكثر ميلها إلى الحديث حتى نبغت فيه حداً لم يبلغه غيرها ، ولم تتزوج قط و بلغ عمرها ١٠٠ سنة وتوفيت بمكة المكرمة

٢٨ - عائشة بنت طلحة

كانت من أجمل نساء العالمين، ومن أكملهن أدباً ، وتزوجت الحسين بن على بن الحسين رضى الله عنهم فقال لها يوماً : أمرك بين يديك . ومعنى ذلك أن يخيرها فى البقاء على عصمته أو تطلق نفسها ؟

فقالت له : قد كان أمرى بيدك عشرين سنة فأحسنت حفظه ولم تضيعه فكيف أضيّعه إذا صار بيدى ساعة واحدة من الزمان ؟ وها أنا قد صرفته

إليك ورددته عليك

فأعجب بها و بأدبها وأمسكها على نفسه

(المسامرات الجزء الثانى ٦٢)

٢٩ – أميرة بلخ (مثال المروءة والكرم)

روى ابن بطوطة فى رحلته : أن بعض خلفاء دولة بنى العباس فرض على أهل مدينة (بلخ) ضريبة من المال جسيمة جداً ، وأرسل رسولاً لجلب ذلك المال . فضجت النساء من هذه الضريبة ، وذهبن إلى (الأميرة) يستغثن بها ، فأرسلت إلى الرسول ثوباً مكللاً بالجواهر واليواقيت يساوى أضعاف الضريبة وقالت له : اذهب بثوبى هذا إلى الخليفة فإنى قد افتديت هؤلاء الضعفاء به ، فلما ذهب الرسول إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه أعفاهم من الضريبة ، وقال : إذا كانت هذه المروءة توجد عند سيدة فنحن أولى بمثل هذه المروءة وردّ إليها الثوب . فلم تشأ أن تلبس ثوبها الذى وقع عليه نظر أمير المؤمنين حياء وأدباً ، فباعت نصف ما عليه من الجواهر و بنت به مسجداً ومدرسة بجانبه وأمرت بدفن النصف الثانى تحت سور المسجد حتى إذا تخرب يعثر على هذا الكنز فيعمر به .

٣٠ــ علية بنت المهدى

(عليه) المعروفة (بالعباسة) هى ابنة هارون الرشيد كانت من أحسن نساء زمانها خَلْقاً وأظرفهن خُلُقاً وأوفرهن عقلاً ذات عفاف وأدب بارع

وكان الرشيد يبالغ فى إكرامها واحترامها ، وكانت شاعرة تحسن الغناء وتوقيع الألحان ولها ديوان شعر

وكان الرشيد لا يستطيع مفارقتها ساعةً واحدة

وكانت تحضر مع (زبيدة) زوجة الرشيد فى مجلسه أثناء مقابلاته الرسمية ومحاضرته العلماء والأدباء

٣١ — فخر النساء

هى الكاتبة البغدادية المشهورة ، وكانت من العالمات المحدثات العابدات، الصادقات فى الرواية ، وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير

وقد اشتهر ذكرها و بعد صيتها وألفت جملة رسائل فى الحديث والفقة والتوحيد .

٣٢ - نور جهان

كانت المديرة العامة لمملكة فارس (بلاد العجم) .

فكانت تأمر بالخطبة فى المساجد وتضع الضرائب وتنظر فى أموال المملكة كل يوم ، وتقابل الموظفين وأرباب الدولة وقد كتب اسمها على النقود إلى جانب اسم زوجها الملك (داهنكير) .

وكانت تساعد المحتاجين وتزوج الأيتام وتدفع عنهم المهر ، وتغيث الملهوفين وتمر الطرق العامة وتزين المدن بالمبانى الفاخمه ، وتنشىء المدارس والمستشفيات والمطاعم ،

وأعظم ماقامت به هو إصدارها الأوامر الصارمة للهنود تمنعهم من تقديم الضحايا البشريه ، ودفن نسائهم وهن أحياء مع أزواجهن الموتى .

وهى أول من أنشأت معرضاً خيرياً ومنه (سوق الشفقة) وكانت تجتمع الأميرات وعقائل السراة والأعيان فى قصرها كل عام فى يوم (عيد النيروز) ويعرضن الأشغال اليدوية الثمينة المحكمة الصنع .

وكان يسوغ لكل واحد زيارة المعرض ويبتاع مايشاء ابتياعه وعند نهاية المعرض كانت توزع إيراده على فقراء المملكة

٣٣ — قطر الندى

زوجة الخليفه المعتضد

اشتهرت فى الخلافة العباسية لأنها أنشأت فى قصرها حفلة كانت تجتمع فيها الأديبات الفاضلات ، ونوابغ النساء فكن يتناقشن فى الموضوعات العلمية ويتطارحن الأسئلة العديدة

ولما توفى زوجها وأفضت الخلافة بعده إلى ابنها (المقتدر) وكان حديث السن تدخلت فى الأحكام وأصبح أمر العقد والحل بيدها فكانت تقابل بنفسها الوزراء وأرباب المناصب العالية وسفراء الدول الأجانب

وقد أنشأت مستشفى ، وخصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار ، وكانت تجلس للنظر فى المظالم وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة وتحضر القضاة والأعيان وتبز التوقيعات وعليها خطها واسمها الشريف

٣٤ — فاطمة بنت أسعد الخليل

أحد أمراء سوريا ولدت سنة ١٢٥٦

كانت هذه السيدة ذات عقل وفطنة ونباهة وكياسة حفظت القرآن الشريف ودرست التفاسير الجمة وأخذت الدروس الفقهية والنحو والصرف والبيان على أشهر العلماء

حتى فاقت نساء عصرها .

وقد نالت بحسن أدبها وكمال عقلها حظوة عظيمة عند زوجها (الأمير على بك أسعد) حتى ملكت زمام الأمور وتقلدت إدارة الأشغال المنزلية ، وفاقت كل نسائة

ولشدة حزمها أشركها معه فى الأحكام واعتمد على آرائها السديدة فحكمت بالعدل بين الناس حتى أحبها الكبير والصغير والغنى والفقير لم يصرفها هذا المركز عن حبها لفعل الخير والإحسان إلى الفقراء كما كانت تفعل منذ حداثتها ، بل جعلت فى دارها محلاً مخصوصاً لتربية اليتامى وأبناء السبيل

واشتهرت بفعل الخير وقصدها المضطرون ولجأ إليها الخائفون ومع ذلك لم يرفع لها حجاب بل كانت تتعاطى الأحكام من وراء حجاب وتنظر فى الدعاوى

ولما توفى زوجها وأخوها (محمد بك الأسعد) شرعت فى بناء دار لكل من أولادها وأولاد زوجها من غيرها وأرضت الجميع بحسن تدبيرها وسداد رأيها ، وخصصت من مالها شيئاً لتربية اليتامى وفك كرب المكروب حتى نالت محبة القلوب .

٣٥ — ليلى العفيفة

مثال العفاف

حدّث التاريخ القديم أن (ليلى العفيفة) وصل خبر جمالها إلى ملك الفرس فى زمانها فاغتصبها من أبيها، ولما ملكت يده تحبب إليها ولم ترغب فيه، لأنه لم يكن عربيًّا مثلها، ولأن له ديناً غير دينها، و بقيت أسيرة عنده مدة وهى نافرة منه حتى سامها سوء العذاب والذل بسبب كراهتها إياه وحنينها إلى أهلها ووطنها حتى قالت فى ذلك قصيدة مستغيثة بابن عمها (البرّاق) نذكر منها :

ليت للبرّاق عيناً فترى ... ما ألاقى من بلاء وعنا
يكذب الأعجم مايقربنى ... ومعى بعض حشاشات الحيا
يابنى تغلب سيروا وانظروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا العار على أعقابكم ... وعليكم مابقيتم فى الدُّنى

وقد كان ذلك سبباً فى حصول حرب طاحنة بين العرب والفرس قتل فيها ذلك الطاغية وفك أسر ليلى ورجعت إلى أهلها موفورة الكرامة مرفوعة الرأس لعفتها وطهارتها .

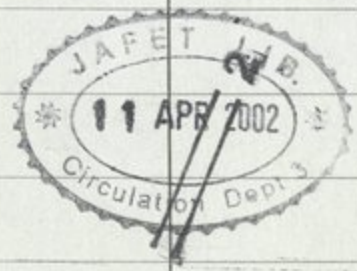
﴿ تم الكتاب بعون الله وتوفيقه ﴾

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	الاهداء
٤	مقدمة الطبعة الأولى
٦	« « الثانية
٩	أمهات المؤمنين :
٩	السيدة آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم
١٢	زوجات النبى صلى الله عليه وسلم
١٧	السيدة خديجة بنت خويلد
٢٦	سودة بنت زمعة
٢٧	السيدة عائشة
٤٢	حفصة
٤٣	زينب ابنة خزيمة
٤٥	هند وهى أم سلمة
٤٧	زينب بنت جحش
٥١	عمات الرسول :
٥٢	أروى ابنة عبد المطلب
٥٤	أم حكيم
٥٥	بنات الرسول :
٥٥	السيدة زينب بنت الرسول
٥٨	السيدة رقية
٦٠	السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول
٦٨	أم كلثوم
٧٠	السيدة زينب بنت الإمام على
٧٨	السيدة أم كلثوم بنت الإمام على
٨١	السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين
٨٥	السيدة سكينة
٨٨	السيدة رقية بنت الإمام على
٨٩	السيدة عائشة النبوية
٩٠	السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور
٩٦	السيدة فاطمة بنت السيد على الرضا
٩٨	سير بعض النساء الشهيرات
٩٨	أروى ابنة الحرث بن عبد المطلب

الصفحة	الموضوع
٩٩	أسماء ابنة أبي بكر الصديق
١٠٣	أسماء ابنة يزيد الأنصارية
١٠٤	آسية امرأة فرعون
١٠٦	أم الخير بنت الحريش
١١٠	بلقيس ملكة سبأ
١١٣	بكارة الهلالية
١١٤	تماضر الشهيرة بالخنساء
١١٩	جميلة بنت ثابت
١٢٠	خولة بنت الأزور الكندى
١٢٢	الخيزران ابنة عطاء
١٢٧	الدرامية الحجونية
١٢٩	رابعة العدوية
١٣٤	رحمة زوجة نبي الله أيوب
١٣٧	زبيدة أم الأمين
١٤٧	سارة زوجة ابراهيم الخليل
١٥٠	ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمى
١٥٢	شجرة الدر
١٥٩	زينب بنت الإمام أحمد الرفاعى
١٦١	صفية بنت عبد المطلب
١٦٣	فاطمة بنت أسد
١٦٤	فاطمة ابنة الخطاب
١٦٥	فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان
١٦٦	فاطمة الفقيهة ابنة علاء الدين
١٦٧	مسكة جارية الناصر محمد بن قلاوون
١٦٨	هاجر زوجة ابراهيم الخليل
١٧١	كريمة بنت محمد بن حاتم
١٧١	عائشة بنت طلحة
١٧٢	أميرة بلخ (مثال المروءة والكرم)
١٧٣	علية بنت المهدى
١٧٣	فخر النساء
١٧٤	نورجهان
١٧٥	قطر الندى زوجة الخليفة المعتضد
١٧٥	فاطمة بنت أسعد الخليل
١٧٧	ليلى العفيفة

DATE DUE



فكرى ،على
احسن القصص
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010598

